الأمة الإنسانية

تأليف

أحمد حسين

١٣٨٦ — ١٩٦٦

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة

اهداء

إلى : أخى الشهيد القديس الدكتور مصطفى الوكيل .

إلى : هيئة الأمم مناط آمال البشر فى حياة أفضل يسودها السلام والوفرة وحكم القانون .

إلى : الحق والخير ، والحب والجمال ، والرحمة والحنان .

بسم الله الرحمن الرحيم

يجابه البشر فى هذه الحقبة من تاريخ الإنسانية ، تحديان خطيران يمكن أن يؤديا إلى فناء البشر ، أو على الأقل القضاء على الحضارة الإنسانية .

الحرب النووية :

أما التحدى الأول ، فهو حاد وعاجل ومباشر ، وهو خطر وقوع حرب نووية ذرية أجمع الثقات على أن ضحاياها فى الساعة الأولى للمعركة تتجاوز ثلثمائة مليون نسمة ، هم سكان المدن الكبرى والمراكز الصناعية والثقافية على ضفتى المحيط الأطلسى وفى أرجاء الاتحاد السوفييتى . أما استمرار الحرب بعد ذلك لبضعة أيام ، فان هذا يعنى فناء البشرية كلها ، أو على الأقل الجزء الأكبر منها ، نتيجة الإشعاعات القاتلة والتى تسبب آلاماً غير متصورة . (الفصل السادس) .

وانهيار الحضارة الإنسانية فى جزء كبير من العالم ، وعودة البشر إلى صور من الحياة البدائية ، ظاهرة مألوفة وقد تكررت فى التاريخ ، بل إن فناء البشرية كلها صورة لا تفتأ تلح على الفكر الإنسانى ، وقد امتلأت بها العقائد الدينية ، وقد صورها القرآن فأبدع تصويرها كما هو شأنه بقوله :

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

فليس هناك إذن ما يمنع من وقوع حرب ذرية بالفعل تكون فيها خاتمة الحياة الإنسانية ، والتحدى الذى يواجه البشر حقيقى وقائم وخطر حال ، يمكن أن يقع فى أى لحظة ، والسؤال الذى يرد الآن على الذهن أهـذا هو ما يريده الإنسان ويتمناه ؟

الانفجار السكانى :

أما التحدى الثانى ، والذى إن بدا حتى الآن غير حال وعاجل ، إلا أنه لا يقل أثراً فى تهديد البشرية بالفناء كالحرب النووية سواء بسواء ، فهو الانفجار السكانى .

إن سكان العالم اليوم يبلغون أكثر من ثلاثة آلاف مليون نسمة ، ومن بين هذا العدد لا يحصل سوى الثلث على القدر اللازم لإبقاء الإنسان فى صحة جيدة بحيث يقوى على الإنتاج ، أما الثلثان الآخران من البشرية ، والذين يزيد عددهم عن ألفى مليون نسمة ، فإنهم يعيشون فى حالة من الفاقة تجعل إنتاجهم نذراً قليلا .

وتبدأ المشكلة الإنسانية فى التعقيد ، عند ما ندرك أن سكان العالم يتزايدون بسرعة خمسين مليون نسمة فى العام الواحد ، ومعنى ذلك أن عدد سكان العالم سيبلغون عام (٢٠٠٠) عدداً يتراوح بين خمسة آلاف وسبعة آلاف مليون نسمة ، ثم لا يلبث هذا العدد أن يتضاعف فى مدة أقصر وأقصر على ما فصلناه فى (الفصل السابع) ، وهذا الخطر هو ما أصبح يطلق عليه اسم الانفجار السكانى ، وما سوف يؤدى إلى انتشار الأوبئة والحروب ، وكل صنوف الجائحات التى تفنى الإنسان . فمن غير المعقول أن يظل البشر يتكاثرون حتى لا يصبح هناك على ظهر الأرض موضع لقدم .

الدعوة إلى السلام والتعاون البشرى :

ومن هنا فقد ارتفعت الصيحات والدعوات من كل قطر ، من الشرق والغرب ، من أوربا وأمريكا وآسيا وأفريقيا ، للتعاون الجاد المثمر لإبعاد شبح الحرب الذرية من ناحية ، وتنظيم أحوال البشر بحيث يكون فى استطاعتهم التغلب على مشكلة الانفجار السكانى ، وتحقيق حياة أفضل .

وقد بدأت هذه الدعوات تأخذ صورة الحركات الايجابية وبصفة خاصة فى قارة أوربا التى كانت مبعث الحروب والثورات والفتن خلال القرون الثلاثة الماضية .

وأصبحنا نرى رجلا انجليزياً فيلسوفاً قد نيف على التسعين ونعنى به برتراند راسل ، بدلا من أن يخلد إلى السكينة والراحة اللذين هما من حقه ، وقد وصل إلى هذه السن ، يكرس شيخوخته للكفاح من أجل السلام ، فيأتم بغاندى قديس الهند فى المقاومة السلبية ، ويروح يفترش الأرض على رأس الجموع الغفيرة من الجماهير فى أكبر ميادين لندن ، ليعلن احتجاجه على العدوان ، وينادى بتحريم استعمال الأسلحة الذرية ، ويقبض على الرجل الشيخ ويزج به فى السجن ، ولكنه لا يكاد يخرج من السجن حتى يستأنف احتجاجه وتنديده بسياسة القوة وتكديس الأسلحة ، ويوجه دعوته للبشرية على اختلاف ألوانها وأجناسها وقومياتها ، إلى التكتل فى وجه العدوان واصطناع وسائل العنف .

وليس ذلك إلا نموذجاً لما أصبح يجرى فى كل مكان ، فأصوات العلماء التى ارتفعت من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى بالتحذير من خطر التجارب الذرية ، هى التى كان لها فضل التوصل إلى إبرام معاهدة حظر التجارب الجزئية الذرية (الفصل السادس) .

وذلك كله فى الوقت الذى تبذل فيه جهود دولية صادقة لحل مشكلة سوء تغذية السواد الأعظم من بنى الإنسان ، وخاصة بعد أن تسلح الإنسان بقوة العلم الجديدة التى سوف تمكنه من زرع الصحارى وزرع البحار والكواكب نفسها ، مما فصلناه فى (الفصل السابع) . وإذا كان ما تم حتى الآن لا يزال قليل الأثر ، فليس ذلك سوى البداية ، وما على الإنسانية إلا أن تختار طريقها ، أهى تريد البقاء أو الفناء ؟

وقد جئت بكتابى هذا عن « الأمة الإنسانية » لأعاون جهدى على هذا الاختيار ، فأنا من المؤمنين ، أنه لم يعد أمام الإنسانية لكى تنجو من مصيرها

المحتوم ، ولكي تحقق مستقبلا أفضل ، إلا أن تؤمن بوحدتها الإنسانية وبضرورة التعاون والتكافل بين بنى الإنسان قاطبة .

هل الوحدة الإنسانية ممكنة :

وأحسب أن ليس هناك من يمارى فى الخير الذى يعود على بنى الإنسان لو أنهم تعاونوا واتحدوا ، ولكن الاعتراض الأول الذى يساق دائماً ضد هذه الفكرة ، هو أنها دعوة خيالية غير عملية من ناحية ، وأنها ضد طبائع الأشياء وناموس الطبيعة الذى يقوم فى الدرجة الأولى على الصراع ، فالحرب بين البشر تتم بحتمية تاريخية طبيعية .

الوحدة الإنسانية لم تعد خيالا :

فأما عن كون الدعوة إلى الوحدة الإنسانية هى دعوة خيالية غير عملية أو واقعية ، فحتى لو كانت كذلك لما غض من شأنها ، ولما كان ذلك مبرراً لإهمال دراستها وتقصى جوانبها بالبحث والدراسة ، ذلك أنه ما من دعوة تحققت بالفعل وأصبحت أمراً واقعاً ، الا وبدأت أول ما بدأت خيالاً فى الرؤوس على شكل أحلام فى اليقظة أو فى المنام ، وما من اختراع أو اكتشاف ننعم اليوم بثمراته إلا وقد بدأ من هذه البداية[1] .

على أن الوحدة الإنسانية لم تعد مجرد أحلام وخيالات ، بل إن كل الدلائل قد أصبحت تقطع بأنها فى الطريق نحو التحقيق بأسرع مما يتصور أشد المتفائلين ، وإذا كانت أى ظاهرة طبيعية تكون مسبوقة بعلامات تؤكد قرب وقوعها ، فكذلك الظواهر الاجتماعية تكون دائماً مسبوقة بإرهاصات تنبىء عن قرب حلولها ، وحسبنا أن نشير إلى هذا العدد المتزايد من الاجتماعات والمؤتمرات والمهرجانات الدولية التى أصبحت تعقد فى كل يوم تقريباً ، ابتداء من الألعاب الرياضية ، وعلى رأسها الدورة الأوليمبية وأعياد الشباب وكؤوس العالم فى كل

(١) اقرأ للمؤلف كتاب « الطاقة الإنسانية » .

مناشط الرياضة ، حتى انعقاد المؤتمرات لشتى نواحى النشاط الإنسانى الفكرى والأدبى والمادى والإنتاجى ، فمن مؤتمرات لكيفية تنقية ماء البحر من الملوحة ، واستخدام الذرة فى الوسائل السلمية ، وأبحاث الفضاء والصعود إلى القمر ، إلى مؤتمرات كنسية وأخرى للتقريب بين الأديان والمعتقدات . . ومؤتمرات للأبحاث الجغرافية والفلكية والسياحية وغيرها ، وفى كل هذه المؤتمرات والمهرجانات يمتزج مئات الألوف ببعضهم ، مكتشفين فى كل وقت وآن وحدة المصلحة الإنسانية .

المنظمات السياسية :

وإذا كان لا يوجد الآن من يمارى ، فى أن روحاً عالمية أصبحت تهب على الإنسانية كلها فى ميادين الفن والرياضة والعلم ، كما تدل عليه بالفعل هذه المؤتمرات والمهرجانات التى أصبحت تعقد من ممثلى شعوب العالم ، يساعد ويقدر عليها وسائل الإعلام الحديثة من راديو وتلفزيون وسينما وصحافة ، وسرعة المواصلات التى أصبحت تنقل الإنسان من قارة إلى قارة فى بضع ساعات ، لكن الاعتراض يظل قائماً فى نظر الكثيرين بالنسبة للوحدة الاقتصادية والسياسية ، غير مدركين أن هذه الظاهرة ، ظاهرة الميل إلى التجمع أصبحت تتجلى فى الميادين السياسية والاقتصادية ، قدر تجليها فى الميادين الفنية والرياضية والعلمية . فحيث لم يكن فى العالم كله فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر من بضع منظمات تمارس نشاطها على النطاق الدولى ، فإن ختام القرن التاسع عشر قد شهد ميلاد مائة مؤسسة عالمية ، وفى خلال العشرين سنة الماضية فقط ، قامت فى العالم ٦٠٠ منظمة دولية غير حكومية و ٨٠ منظمة دولية حكومية ، وقد لا يعرف الكثيرون أنه أصبح يوجد الآن فى العالم (١٩٧٨) منظمة اقتصادية وعلمية واجتماعية وسياسية ، تمارس نشاطها على نطاق العالم كله[1] .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .Enc. Brit

وغنى عن البيان أن هيئة الأمم تقف على رأس هذا الهرم من المنظمات الدولية، وسيرى القارىء فى (الفصل الثامن) استعراضاً لنشاطها وإمكان تطورها إلى أن تصبح حكومة عالمية بالفعل ، أما فى هـذه المقدمة فحسبنا أن نشير إلى ظاهرة تزايد التجمعات والتكتلات الإنسانية لنعرف أين يتجه تيار التاريخ .

المنظمة الأمريكية :

ويعتبر سيمون بوليفار أول من دعا فى العصر الحديث ، إلى تكوين منظمة لدول أمريكا اللاتينية ، وانعقدت بالفعل أول نواة لها عام ١٨٢٦ ، وتوالت مؤتمرات دول أمريكا اللاتينية بعد ذلك ، وخاصة بعد أن انضمت إليها الولايات المتحدة ، فانتهت إلى صورتها الحالية عام ١٩٤٨ عندما اجتمعت ٢١ جمهورية من جمهوريات أمريكا اللاتينية بالاشتراك مع الولايات المتحدة الأمريكية فى مدينة (بوجوتا) بجمهورية كولومبيا حيث تم الاتفاق على إنشاء منظمة الدول الأمريكية .

Organization of American States O.A.S.

ويعتبر دستور هذه المنظمة أقرب ما يكون إلى دستور أى دولة فدرالية عالمية يفكر فيها البشر ، فقد تم الاتفاق على قانون دولى واحد يحكم العلاقات فيما بينها ، وعلى الالتزام بتنفيذ أحكام محكمة العـدل الدولية فى المنازعات التى تعرض عليها ، واعتبار العدوان على أى دولة من هذه الدول بمثابة العدوان على بقية الدول الأخرى ، كما جرى الاتفاق على توحيد النظم الجمركية بين هذه الدول ، وكذلك المعاملات المالية ، وأنشئت منظمات دائمة لتنفيذ ما يتم الاتفاق عليه فى مؤتمرات الدول اللاتينية التى تنعقد بصفة دورية .

وإذا كان لايزال يشوب هـذه المنظمة الأمريكية شكوى دول أمريكا اللاتينية وخاصة الصغيرة منها ، من تدخل الولايات المتحدة الأمريكية فى شئونها ، وهيمنتها على اقتصادياتها لمصلحتها الذاتية ، فإن التطور الحتمى من شأنه أن يحد من هذا الاستغلال والاستعلاء .

جامعة الدول العربية :

وتعتبر منظمة جامعة الدول العربية من أسبق المنظمات الدولية ظهوراً عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد تألفت والحرب لا تزال قائمة بعد أن أحست شعوب العالم العربى التى تسكن المنطقة الممتدة من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ، والذين يؤلفون قلب العالم القديم ، أن لا مناص لهم من التجمع والتكتل فى وحدة واحدة ، إذا رغبوا فى القضاء على التخلف الذى فرض عليهم ، وتحقيق حياة أفضل ، وعلى الرغم من العقبات والمصاعب التى اعترضت ولا تزال تعترض المحاولات الصادقة التى تبذل فى هذا السبيل ، فإن التجمع العربى يزداد صلابة وثباتاً يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى ، ويعيد تنظيم صفوفه من حين لآخر فى صور وأشكال أكثر فاعلية وحيوية ، حتى أصبح هذا التجمع العربى الروحى إحدى حقائق التاريخ المعاصر ، والإجماع منعقد على أن التكتل العربى هو خطوة نحو تحقيق وحدات أكثر شمولاً واتساعاً ، كالوحدة الأفريقية ، والوحدة الأسيوية الأفريقية مما سنعرض له بعد قليل .

منظمات العالم الغربى والشيوعى :

وإلى جوار منظمة الدول الأمريكية التى أشرنا إليها ، تتعدد منظمات ما أصبح يطلق عليه اسم العالم الغربى ، وعلى رأسها حلف الأطلنطى ، ومن أكثرها فاعلية السوق الأوربية المشتركة .

وقد تألف حلف الأطلنطى عام ١٩٤٩ من ١٢ دولة تقع على جانبى المحيط الأطلنطى ، ولم تلبث ثلاث دول أخرى أن انضمت إليه فأصبح عدد الدول المشتركة فيه خمس عشرة دولة ، وإذا كان الغرض الأساسى من الحلف عسكرياً دفاعياً ، فإن واضعى نصوص الحلف قد تعهدوا فيما بينهم على أن يضعوا القواعد والأسس للتعاون الاقتصادى الوثيق فيما بينهم . وأنشىء مجلس دائم وسكرتارية دائمة ، وقيادة عسكرية عليا تعلو على قيادات كل دولة من الدول المشتركة

فى الحلف ، وهى صورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم فى زمن السلام ، وهكذا نرى أنفسنا نقترب من صورة الحكومة العالمية الفدرالية بصورة مصغرة[١] .

وقد تحدثنا بالتفصيل فى الفصل السابع عن المنظمة الأوربية الاقتصادية ، والسوق الأوربية المشتركة ، حيث اتفقت ست دول من أوربا الغربية على استغلال موارد الحديد والفحم بها بطريقة جماعية ، كما اتفقت على تخفيض الحواجز الجمركية بينها وتبادل السلع فى حرية ، وتوثيق التعاون الاقتصادى تمهيداً للتوحيد السياسى بين هذه الدول .

وفى مقابل هذه المنظمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى دول أوربا الغربية ، تقوم كتلة الدول الشرقية المؤلفة من الاتحاد السوفييتى ودول شرق أوربا بتنظيمات مماثلة من الناحية الاقتصادية والعسكرية ، وعلى رأسها حلف وارسو ، وترتفع من الاتحاد السوفييتى الدعوات لعقد تحالف بين حلف وارسو وحلف الأطلنطى لإنهاء النزاع بين الكتلتين .

المنظمة الأفريقية :

ولم تكد دول أفريقيا المستقلة تأخذ مكانها فى الوجود كدول حرة ، حتى جعلت همها الأول التعاون فيما بينها وتوحيد صفوفها ، وليس فى طول أفريقيا وعرضها من لا يهدف إلى الوحدة الأفريقية باعتبار أن ذلك هو السبيل الأوحد للنهوض بشعوبها ، وإنما يقع الخلاف فى الطريقة التى يتم بها هذا الاتحاد والوقت اللازم لذلك ، فالبعض يرى أن الوحدة الأفريقية الشاملة يجب أن تسبق بتكتلات من الدول المتقاربة فى الشمال والشرق والغرب والوسط ، بينما يدعو البعض الآخر للوحدة الأفريقية الفورية .

---

(١) تقوم الآن بعض الصعوبات والخلافات بين فرنسا وحلف الأطلنطى ، ولكن هذه الخلافات تنبثق من رغبة أقوى فى السلام وإعادة تنظيم أوربا على أسس من الوحدة ، فهى تدعيم للاتجاه العام ، وليست خروجاً عليه .

وكان من أثر هذه الرغبة القومية فى توحيد أفريقيا أن تعددت الاتفاقات والمعاهدات بين مختلف الدول الأفريقية للتعاون الوثيق فيما بينها فى شتى المجالات ومن ذلك :

* اتفاق السوق الأفريقية المشتركة .
* اتفاقية التعاون الاقتصادى والفنى .
* اتفاقية الاتحاد الأفريقى للمدفوعات .
* اتفاقية مجلس الوحدة الاقتصادية .
* اتفاقية هوية الطيران الأفريقى .

وأخيراً توج ذلك بإبرام ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية فى أديس أبابا فى شهر مايو سنة ١٩٦٣ والتى أعلنت تصميم شعوب أفريقيا « على توحيد جميع دول أفريقيا من أجل رفاهية ومستقبل هذه الشعوب »[(١)] .

مؤتمر التضامن الأسيوى الأفريقى :

وقبل قيام المنظمة الأفريقية بثمانى سنوات ، كان العالم يشهد تكتلا لم يكن يطوف بخياله إمكان حدوثه ، وذلك عندما اجتمع ممثلو ٢٩ دولة أسيوية وأفريقية تمثل نصف سكان العالم فى مدينة باندونج بأندونسيا فى شهر أبريل عام ١٩٥٥ حيث أمكن التوصل إلى مبادىء عشرة لتكون أساساً للعلاقات الدولية ، وعلى رأسها مبدأ التعايش السلمى بين المذاهب والدول ذات النظم المختلفة .

---

(١) إذا كانت منظمة الدول الإفريقية بدأت تعانى بعض المصاعب والخلافات ، فذلك بسبب استحالة تطور أفريقيا نحو الوحـدة بعيداً عن التيار العالمى ، الذى أصبح يفرض قدراً من التعاون بين جميع شعوب العالم ، حتى مع من كانوا أعداء أفريقيا بالأمس .

مؤتمرات دول عدم الانحياز :

وفى اعقاب مؤتمر باندونج نشأت فكرة الحياد الإيجابى ، للدفاع عن السلم العالمى ، والتى أصبح يطلق عليها اليوم اسم عدم الانحياز ، وراح عدد الدول غير المنحازة بين الشرق والغرب يتزايد ، حتى بلغ ذروته فى اجتماع القاهرة عام ١٩٦٤ ، عندما اجتمع رؤساء ٥٨ دولة ليعلنوا عزم شعوبهم ، وإرادة العالم كله فى العيش فى ظل السلام ، وتصفية الاستعمار ، واستنكار الحروب كوسيلة لحل المشاكل الدولية ، ووجوب التكافل والتعاضد بين بنى الإنسان ، روحياً واجتماعياً واقتصادياً .

التيار العالمى :

وهكذا تتعدد المنظمات والمؤتمرات السياسية التى تدل على اتجاه التيار الإنسانى ، وأنه يندفع نحو الوحدة الإنسانية الشاملة باعتبارها الوسيلة الوحيدة للنجاة من المصير المفزع الذى ينتظر بنى الإنسان ، إذا ظلوا على تفرقهم وتمزقهم ، واستغراق المنازعات والحروب لحيويتهم ، وباعتبارها تعبيراً عن حقيقة قائمة ، وهى أن بنى البشر يؤلفون أمة واحدة بالتعريف العلمى لمعنى الأمة (الفصل الأول) .

فالوحدة الإنسانية لم تعد وهماً وخيالا ، وإنما هى واقع نعيش فيه ، وضرورة تمليها علينا غريزة البقاء ، وسيرى القارىء فى فصول هذا الكتاب ، كل ما يؤكد هذا الواقع ويكشف عنه من الناحية العلمية ، سواء من ناحية وحدة الجنس البشرى (الفصل الثالث) أو وحدة لغته (الفصل الرابع) أو وحدة تاريخه (الفصل الخامس) وأخيراً وحدة مصيره ومصلحته (الفصلان السادس والسابع) .

بقى ما يقال ويتردد من أن الوحدة الإنسانية ضد ناموس الحياة ، الذى يقوم على التناقض والصراع والتفرق والتمزق ، وللرد على هذا الزعم خصصت

الفصل التمهيدى عقب هذه المقدمة، لأقيم الدليل على أن الوحدة لا التفرق والتمزق، والتوافق والتناسق، لا الصراع والتنافر، هو ناموس الطبيعة الأعلى، الذى يحكم قوانين الحياة الإنسانية.

وبعد:

فما أردت بهذا الكتاب إلا وجه الحق والخير، وأن يكون يومنا خيراً من أمسنا، وغدنا خيراً من يومنا، فإذا أخطأنا التوفيق، قلنا لمن يجيئون بعدنا: كونوا أسعد حظاً منا.

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب ».

القاهرة: ٣٦ شارع الروضة فى ١٩٦٦/٩/١ ا. ح.

هل الوحدة ضد الطبيعة ؟

رد على السؤال :

أحسب أنه قبل الخوض فى موضوع الوحدة الإنسانية وإمكانياتها وطريقة تنظيمها ، يجب أن نمهد للبحث بالرد على السؤال الخالد « هل الوحدة الإنسانية ممكنة ؟ » أو لا تخالف ناموس الطبيعة ذاتها الذى يقوم على التعدد ، وبالتالى على الخلاف والصراع ؟ فلو أن ناموس الطبيعة هو الصراع الأبدى ، فإن كل حديث عن السلام الدائم يكون عبثاً لا طائل تحته ولا غناء فيه ، ما دام يخالف النواميس ، ولو أن ناموس الطبيعة يقوم على القوة المركزية الطاردة ، بأكثر مما يقوم على قانون القوة الجاذبة ، لكان السعى لتأليف وحدة إنسانية يخرج عن دائرة الممكن ويدخل فى دائرة المستحيل ، فلا مناص من التصدى بدأءة ذى بدء لهذا البحث وهذه القضية إذ يتوقف على الفصل فيها ، تحديد ما إذا كانت الدعوة لوحدة إنسانية تسير فى طريق مسدود . . . أم أنه طريق مفتوح ومعبد وما علينا إلا أن نبدأ سيرنا فيه .

الظاهر يتحدث عن التعدد :

إن النظرة العابرة لما يجرى حولنا فى هذا الكون ، تقطع بأن العالم مسرح لقوى متعددة ومتعارضة بل ومتصارعة ، يتربص كل منها الدائرة بالآخر ليوقع به أو يكيد له ويفنيه إذا استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن هنا بدأ الإنسان البدائى جولته الفكرية والروحية لاستكناه أسرار الكون ، بأن أضفى صفة الألوهية على شتى العناصر والظواهر الطبيعية ، فالسماء إله ، والأرض إله ، والهواء إله ، والمطر إله ، والريح والبحر والنهر

والرعد والبرق والجبال والأشجار والنور والظلام ، كل هذه آلهة ذات قوى خارقة يجب التقرب والتزلف إليها إتقاء لغضبها واستجلاباً لرضاها .

وسرعان ما تجسدت هذه الآلهة فى أشخاص ورموز ، فأصبح لكل جماعة من الناس وكل قبيلة وأحياناً لكل أسرة إلهها الخاص بها الذى تتقرب إليه بالضحايا والقرابين ، بكل ما تحمل هذه الخلافات فى جهة العبادة من خلافات وفتن بين البشر .

ولكن العقل البشرى من ناحية ، والإلهام والوجدان من ناحية أخرى ، لم يلبثا أن دفعا الانسان إلى رؤية الواحد خاف التعدد ، فبدأت الآلهة المتعددة الأسماء يغلب عليها اسم واحد ، ويعتبر بعضها أباً للآخر أو زوجاً له أو ابناً ، وجمعت الآلهة فى مجاميع ثلاثية ، وأخرى تساعيه[1] ، ورتبت درجات فيما بينها يعلو بعضها بعضاً ... وعندما توحدت المدن والبلدان فى وحدة سياسية واحدة ، توحد الإله بالتبع ، وعندما تألفت الدول وتحولت إلى أمبراطوريات مدت سيادتها خارج الحدود ، انتقلت سيادة الإله الإقليمى إلى السيادة الدولية ، وظل الوجدان والعقل يعملان عملهما فى التأليف والمزج بين الآلهة وردها كلها الى أصل واحد يعلو الجميع . ولكن الثنائية سبقت دائماً التوحيد المطلق فوجدنا بعض المجتمعات تلخص القوى الكونية فى الهين متضادين إله النور وإله الظلام ، أو إله الخير وإله الشر[2] . والحق أن ظاهر الطبيعة يؤيد هذه النظرة ويدعمها ، فما من شىء إلا وله ضد يقف منه على النقيض ، ابتداء من النور والظلام ، والخير والشر ، والحياة والموت ، والبناء والهدم ، حتى أدق التفاصيل من

---

(١) الثالوث الفرعونى : أوزوريس — وايزيس وحوريس .
والتاسوع الفرعونى : (نود — اتم — شو — نفتوت — جب — نوت — أوزوريس — ايزيس — نفتيس) .

(٢) الديانة الزرادشتية ، فى فارس .

الأبيض والأسود والضحك والبكاء ، والنوم واليقظة والطول والقصر ، والبرودة والحرارة . . . وهكذا .

ولكن العقل البشرى والوجدان البشرى لم يقفا عند هذا الحد ، فقد تغلبت فكرة التوحيد ، بل وحدة الوجود كله على بقية الأفكار ، حتى أن الهنود لم يعودوا يفرقون بين الخالق والمخلوق ، بل لا يستعملون هذين التعبيرين فإنما هو وجود واحد مطلق بالرغم من تعدد الصور والأشكال ، وليس كل الذى يحيط بنا ونحن أنفسنا إلا الوجود الواحد المطلق .

ولم يذهب المسلمون إلى هذا المدى ، فالله الواحد الأحد ، هو ذات غير مخلوقاته وإن كانت قدرته حالة فى كل شىء ، وفى جميع المخلوقات على السواء .

والذى يعنينا من هذا العرض السريع الذى سنعود إليه بتفصيل أوفى عند الحديث عن تاريخ الإنسان ، أن الإنسان بوجدانه وفكره معاً قد نحا نحو توحيد الألوهية فكان ينتقل دائماً من التعدد إلى الوحدة ، وذلك يدل على وحدة القوى الطبيعية لا تعددها .

العلم النظرى ينتهى إلى ذات النتيجة :

وإذا كان الوجدان البشرى مستهدياً بالفكر قد وصل إلى توحيد الألوهية ، فان المباحث العلمية النظرية التى لا تستهدى بغير المنطق قد وصلت إلى النتيجة ذاتها ، فقد دأب العقل على أن ينتقل من الجزئيات إلى الكليات ومن الخاص إلى العام ، وقد بدأت هذه العملية منذ وضع الإنسان ، أقدم إنسان، كلمة تدل على مطلق الشجرة أى شجرة ، أو على مطلق الحيوان والنبات والانسان . ويصل هذا اللون من الإدراك العقلى للكلى والمطلق إلى ذروته وتكامله فى نظريات أفلاطون ومنطق أرسطو ، فاذا كانت المملكة النباتية تحوى العديد من صنوف النباتات ، فهى تندرج كلها تحت صورة واحدة هى صورة النبات المطلق ، وكذلك الشأن بالنسبة الحيوان والإنسان ، فلكل نوع من هذه الأنواع صورة عامة ، وهذه الكليات الثلاث تعلوها كلية الحياة ،

يقوم فى مقابلها كمية الجماد : ولكن رحلة التجريد مضت فى طريقها لتوفق بين المختلفين ، الحى والجامد فكلاهما موجود ، وعلى ذلك ففكرة الوجود هى الجامع المشترك لكليهما ، ولا يمكن أن يكون لهذا الوجود من هدف إلا الخير ، فالخير المطلق هو روح الوجود وخالقه ومبدعه والمهيمن على تسيير أحواله ، وهكذا تنتهى نظرية المثل عند أفلاطون ، إلى مثال واحد علوى فاضت منه بقية الموجودات ، هو مثال الوجود أو فكرته ، أو مثال الخير وفكرته . وينتهى أرسطو فى منطقه الصورى إلى هذه النتيجة نفسها ، عندما يرجع الأمور كلها فى هذا الكون إلى السبب الأول الذى يحرك كل شيء دون أن يتحرك ، القديم الأزلى واجب الوجود لذاته .

وهكذا ينتهى بنا العلم النظرى ، إلى ذات النتيجة التى انتهت إليها العقائد الوجدانية من توحيد القوة الكونية .

العلم التجريبى :

وجاء وقت رفض العقل المتمرد معطيات الوجدان ، كما يتمثل فى العقائد والأديان ، ومعطيات العلم النظرى كما تتمثل فى منطق ارسطو ، وأنكر أن تكون حقيقة إلا ما يثبت بالتجربة والبرهان ، وأن تدركها الحواس فتراها العين أو تسمعها الأذن أو تشمها الأنف أو تلمس باليد ، وبدأ ما يسمى بالعلم التجريبى ... الذى يبدأ أبحاثه ودراساته ومفهوماته من المادة ... المادة الثابتة المحققة المنظورة والملموسة ، وكانت عناصر المادة فى فترة من الفترات أربعة : الهواء والماء والنار والتراب ، ومن هذه العناصر الأربعة تتألف الطبيعة . ولم تلبث التجربة أن أثبتت أنه لا الهواء أو الماء أو النار أو التراب بالعناصر المجردة ، وإنما هى تركيبة مؤلفة من عناصر أخرى مجردة كالاوكسجين والايدروجين والآزوت ، وبدأت العناصر المجردة تنمو وتتسع حتى بلغ عددها عام سنة ١٩٦٠ مائة عنصر وثلاثة . وقد تصور العلم التجريبى أن هذه العناصر مستقل كل منها عن الآخر لا يمكن تحويله ، واعتبرت المادة شيئاً ثابتاً فى مقابل الطاقة الفاعلة المؤثرة المتغيرة ،

وانتهى العلم التجريبي إلى رد عناصر الوجود إلى قوتين منفصلتين ومتغايرتين ، هما قوة المادة المنفعلة ، وقوة الطاقة الفاعلة . وهكذا وصل العلم التجريبي إلى مرحلة الثنائية ، كإله النور وإله الظلام أو الحي وغير الحي ، ولكن تحت اسم جديد ، اسم المادة والطاقة .

الثورة العلمية :

حتى إذا كانت الثورة العلمية الأخيرة التي توصل الإنسان فيها إلى شطر نواة الذرة ، حدث الانقلاب في العلم التجريبي ، إذ أصبحت العناصر كلها من طبيعة واحدة ، ومن الممكن والمستطاع تحويلها إلى بعضها فهي كلها ذبذبات كهربية ، الكترونات وبروتونات ونيوترونات ، والخلاف الظاهري بين العناصر والموجودات ، إنما ينشأ نتيجة اختلاف النسب بين هذه الشحنات الكهربية والتي إذا انفك إسارها تحولت إلى طاقة مدمرة ، أو طاقة محركة ... وهكذا انحلت ثنائية الطبيعة ، وعادت من جديد إلى الوحدة بالدليل والبرهان المحسوس الملموس ، فليست هناك طاقة ومادة ، وإنما هناك طاقة مجمدة فتأخذ صورة المادة ، أو مادة مشعة فتأخذ صورة الطاقة . والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مستمر ومتواصل ويخضع لقانون ثابت[1] . ومضى العلم التجريبي في سيره نحو الأصول الأولى للمادة أو الطاقة ، فإذا هي الإشعاع ، والإشعاع أحد عناصر الضوء ، فالضوء هو الأصل وهو نقطة الابتداء .

وهكذا انتهى العلم التجريبي إلى ما انتهى إليه العلم النظري من قبله ، وإلى ما انتهى إليه الوجدان الإنساني قبلهما من وحدة القوة الكونية الخالقة .

وقد أثبت العلم الجديد في ثورته ، أن كل ما كنا نتصوره ضدين متقابلين ليس إلا أموراً نسبية بحتة بالقياس إلى الإنسان ، فالبرودة والحرارة هما شيء واحد ،

---

(١) (ط = ك × ص ٢) أي أن الطاقة تساوي كتلة المادة مضروبة في مربع سرعة الضوء مقدرة بالسنتيمترات .

فهى ظاهرة كهربية تذبذبية فى المادة ، وسرعة الذبذبة أو بطؤها هى التى توجد الخلاف . . . بل إن اختلاف الألوان والأشعة الحمراء والصفراء والخضراء . . ليست سوى خلافات فى طول الموجات وسرعة الذبذبة ، والذين اخترقوا الفضاء الأعلى يجدون السماء المحيطة بالشمس مظلمة وليست كما نراها من سطح الأرض مشرقة منيرة ، فدل ذلك على أن الأمر كله هو إشعاعات تدرك العين الإنسانية بعضها ولا تدرك البعض الآخر ، فترى ظلاماً مالا يعد فى دنيا الطبيعة بظلام .

فالوجود كله مشتق من الضـــوء ، أو كما يقول كتاب العهد القديم « فى البدء كان النور » أو كما يقول القرآن الكريم « الله نور السموات والأرض » .

وهكذا تؤدى بنا الطرق كلها إلى قيام الطبيعة على جوهر واحد وقوة واحدة . . . فإذا تحدثنا عن الوحدة الإنسانيـة ، فنحن لا نخالف النواميس الطبيعية أو نتحداها وإنما نحن نعمل فى دائرتها وحدودها ونهدى منها .

هل الصراع بين البشر أمر حتمى ؟

فإذا كنا قد انتهينا إلى أن الوحدة لا التعدد هى جوهر الطبيعة ، فقد بقى أن نعرض للسؤال الذى ما فتىء يتردد ، ما هو سبيل الطبيعة لتحقيق هذه الوحدة ؟ أهو الصراع الدائم أم التوافق ؟

إن الكثير من الفلاسفة والمفكرين لا يتصورون قيام الحياة الإنسانية على غير الصراع والحروب الدائمة ، قياساً على ما يرونه حولهم فى دنيا الحيوان ، حيث يلتهم الأســد فرائسه من الحيوانات الأضعف ، وحيث يسحق القوى الضعيف دوماً . وحيث يعلو الإنسان الجميع ، فيذبح ما شاء له أن يذبح ، ويقتل ويأكل ما شاء له أن يأكل من الكائنات الأخرى .

ويرتبون على ذلك أن الصراع بين أفراد النوع الإنسانى هو أحد سنن

الحياة ، وأن قتل الإنسان لأخيه الإنسان وخاصة من خلال الحروب العامة ، هو ناموس طبيعى لا محيد عنه .

وليس هناك ما هو أمعن فى السطحية من هذه النظرة العابرة إلى حقائق الأشياء ، فإن شيئاً من التعمق فى التفكير سرعان ما يكشف زيف هذا التصور.

غريزة البقاء :

من الأمور المسلم بها والمجمع عليها ، باعتبارها أولى حقائق الحياة ، ما يوصف بأنه غريزة البقاء المتأصلة فى كيان الإنسان ، بل وكل كائن حى . وجهود الإنسان ومناشطه كلها فى هذه الدنيا ، إنما تنبثق من هذه الغريزة التى تعتبر أماً لسائر الغرائز والدوافع الإنسانية . وغريزة البقاء لا تقف عند المحافظة على الذات ، بل إنها تمتد إلى المحافظة على النوع كله ، وليس أدل على ذلك من أن غريزة الأمومة تقوم على أساس من تضحية الذات ، من أجل الإبقاء على الوليد . والاتصال الجنسى بين الذكر والأنثى ، ليس إلا إرادة الطبيعة والكائن الحى معاً فى الإبقاء على النوع . ومن هنا يتحول الذكر والأنثى إلى أسرة ، والأسرة إلى قبيلة ، والقبيلة إلى دولة وهكذا ، والبشر الذين بدأوا من ذكر وأنثى قد أصبحوا يعدون بألوف الملايين . فالحياة إذن لا الموت ، والبقاء لا الفناء هو هدف كل كائن حى ، وخاصة الإنسان كما يدل على ذلك تاريخه حتى الآن .

فغريزة البقاء إذن ، توجه كل نشاط الإنسان وقدرته ومنتهى إرادته إلى الإبقاء على ذاته وعلى نوعه معاً .

فإذا رأينا بعض البشر يخرجون على هذه القاعدة فى عديد من الصور ، كالانتحار أو قتل الآخرين ، وأخيراً بإعلان الحرب ، فليس ذلك كله إلا شذوذاً واستثناء من القاعدة ، وانحرافاً عن الطريق السوى .

وليس أدل على أن هذا الانحراف والشذوذ أمر يتعلق بالإنسان دون باقى الكائنات الحية ، أننا لا نجد فى دنيا الحيوان كله ، بكل طولها وعرضها ، حيواناً

واحداً يضع حداً لحياته بالانتحار ، كما لا نجد حيواناً يقتل حيواناً من نفس نوعه ، عامداً متعمداً على سبيل الغيلة والتدبير كما يفعل الإنسان بأخيه الإنسان .

والإجماع منعقد على أن الانتحار رذيلة إنسانية، فوق كونه شذوذاً لا يرتكبه إنسان عاقل . والإجماع منعقد قبل ذلك وبعد ذلك على إنكار جريمة القتل ، وليس يفزع البشر من جريمة قدر فزعهم من جريمة القتل . وعلى أية حال ، فإن الذين يرتكبون جرائم القتل العمد ، هم نفر ضئيل لا يكاد يذكر وسط ألوف الملايين من البشر الذين يعيشون سوياً فى سلام ، ولا يفكر أحدهم فى قتل الآخرين .

وما أكثر المجتمعات التى تنقضى عليها السنون فى أعقاب السنين دون أن تقع فيها جريمة قتل واحدة .

وهكذا تتضافر الأدلة المستفادة من ندرة جريمة القتل والانتحار ، والتأكيد بأن القاتل لا يقتل والمنتحر لا ينتحر وهو فى حالته الطبيعية ، وإجماع البشر على استنكار كلتا الظاهرتين ، على أن إزهاق الروح البشرية هى عملية شاذة وغير طبيعية ، ومنافية لنواميس الحياة .

ظاهرة الحرب :

وأحسب أن الرأى السابق لا يثير خلافاً بين المفكرين ، ما بقيت عملية القتل عملية فردية يقوم بها إنسان فرد ضد آخر ، ولكن عندما تتحول عملية القتل ، إلى عملية شاملة ، أى إلى قتل جماعى خلال الحروب ، هنا وترتفع بعض الأصوات زاعمة أن الحرب ناموس طبيعى وسنة من سنن الحياة .

فهل هذا الزعم صحيح ؟

يرد على ذلك عالم مشهور من أكبر علماء الحياة وهو جوليان هوكسلى حيث يقول فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » .

« إن الحرب ظاهرة بيولوجية نادرة جداً ، وليس يوجد إلا نوعان من الحيوانات من عادتهما الاشتباك فى الحروب ، وهما الإنسان والنمل ، بل إن النمل لا يمارس الحرب منـه غالباً إلا جمـاعة واحدة . وكثير من علماء تاريخ السلالات البشرية يعتقدون أن الحرب ، أو على أية حال الحرب المنظمة المألوفة ، لم تنشأ فى مراحل تطور الإنسان ، إلا عند ما وصل إلى طور المدنية المستقرة ، وبدأ يكنز الحبوب وغيرها من صنوف الثروة »[١] .

وهكذا نرى أن الصراع المدعى به بين طبقات البشر والذى يصل إلى ذروته العنيفة فى القتل والحروب ، ليس من قوانين الحياة ، بل هو على الضد من هذه القوانين . ولعلنا إذا استعرضنا تاريخ الانسان مذ كان انساناً ، فسنرى أن الحرب تقوم بين أفراده فى بعض الأحيان ، ثم لا تقوم فى أكثر الأحيان ، وتقوم بين بعض الدول ، ولا تقوم بين دول أخرى ، وهناك جماعات وشعوب أكثر انخراطاً فى الحرب من جماعات أخرى ، بل ان الجماعة الواحدة قد تشتهر بالحروب فى فترة معينة من الزمن ، ثم تتوقف هى بذاتها عن الحروب آماداً طويلة بالرغم من اشتراك الدنيا كلها فى الحرب من حولها[٢] .

ويدل ذلك على أن أسباب الحروب ، ليست كامنة فى طبيعة الإنسان ، قدر ماهى وليدة الظروف والأحوال الاجتماعيـة السائدة فى عصر محدد بين جماعة معينة ، نتيجة دعايات وتعاليم خاصة .

وما دامت الحرب من صنع الإنسان ، فهو قادر على أن يتوقف عن صنعها ، بل هو قادر على أن يتطور بفكرة التنافس التى تنطوى عليها ، ويحول هذا التنافس

(١) « الإنسان فى العالم الحديث » ص ٣٠٩ .

(٢) لعل أبرز مثل فى عصرنا الحديث أو بالأحرى فى القرن العشرين هو مثل السويد ففى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، كانت السويد تعتبر من الدول التى ساهمت فى كل الحروب ، بل وأشعلت هى بعض الحروب ، حتى إذا كان القرن العشرون ، والتهب العالم من حولهـا بالحربين العالميتين الأولى والثانية ، ظلت السويد فى منأى عن هذه الحرب ، لائذة بحيادها ورغبتها فى السلام .

من صراع دموى يقوم على إزهاق الحياة ، إلى تنافس رياضى ، وحوار جدلى ، كما حدث دائماً فى سائر المجتمعات وهى تتحول من قبائل متعادية إلى أمم موحدة ، حيث تسامى النزاع الدموى القديم ، إلى تنافس رياض أو علمى أو أدبى .

التوافق لا الصراع هو أساس العلاقات الانسانية :

والحق أننا إذا شئنا أن نغوص إلى أساس العلاقات الإنسانية ، والناموس الذى يهيمن على اتصال الإنسان بأخيه الإنسان ، لوجدنا عنصر التوافق والتكامل والتعاون هو الذى يسود هذه العلاقات ويسيطر عليها ويقودها .

نرى ذلك فى الإنسان الفرد وهو يبحث عن نصفه الثانى ليكمله ، ونرى ذلك فى الأسرة وهى تحتضن أولادها وتربيهم ، وهى ترتبط بعد ذلك ببقية العائلات لتجد أزواجاً وزوجات لأولادها ، نرى ذلك و كل إنسان يلتمس عند أخيه الإنسان علماً لا يعلمه أو تجربة نافعة ، أو سلعة يحتاج إليها ولا يستطيع أن يصنعها . إن تقسيم العمل بين أفراد أى مجتمع هو الدليل القاطع على أن كل إنسان لا يستطيع أن يستغنى عن تعاون الآخرين ، وهو الدليل على أن سعادة أى كائن حى ، لا تتحقق إلا من خلال تعاونه واستفادته بجهود الآخرين . ومتى كان هذا هو الأساس لحياة الإنسان فإن كل انحراف عن هذا الأساس يكون ضد النواميس لا نزولا على مقتضياتها .

جسم الانسان :

وإذا تصورنا ، أن الجنس الإنسانى فى مجموعه ، لا يخرج فى حقيقته عن أن يكون كائناً إنسانياً عملاقاً ، يؤلف كل إنسان فرد فيه خلية من خلايا جسد هذا العملاق ، لم يبق أمامنا ، إلا أن نعرف كيف تسير الأمور فى جسد الإنسان الواحد ، لنرسم على ضوئها ما يجب أن تكون عليه حياة الناس مجتمعين . فالجسم الإنسانى يتألف من ألوف ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وعلماء الحياة يقررون ،

أن كل واحدة من هذه الخلايا ، لها شخصيتها الذاتية وحياتها المستقلة . وما أكثر التنوع الذى لا حد له بين صور هذه الخلايا وأشكالها ، فلكل جزء من أجزاء الإنسان خلايا خاصة به ، وللعظام مثل ما للعضلات مثل ما للدم والأعصاب خلايا يغاير بعضها بعضاً ، بل ويناقض بعضها بعضاً ، ومع ذلك فإن هذه الخلايا كلها ، يكمل بعضها بعضاً ، ويعاون بعضها بعضاً ، وتعمل كلها فى تناسق وتوافق على الإبقاء على الإنسان الكل حياً ، ليمدها بدوره ، ليمد كل خلية منها على حدة بالحياة عن طريق الغذاء اللازم لها ، وهكذا تدور الدورة بين الكل والجزء ، كل يمد الآخر بأسباب الحياة .

والصراع بين أجزاء الجسم الواحد غير متصور ، لأنها كلها تعمل بهدف واحد هو الإبقاء على ذاتها ، وذات الكل الذى يتألف منها .

الخلايا الإنسانية :

هذا هو نموذج المجتمع الإنسانى فى تكامله ، فليكن عدد البشر آلافاً ثلاثة من الملايين ، بل أضعاف أضعاف ذلك ، فليكونوا سوداً أو حمراً أو بيضاً أو صفراً ، أقوياء أو ضعفاء ، فليكونوا متقدمين أو متخلفين ، من سكان الجبال أو سكان السهول والصحارى والجليد ، فهم لا يخرجون عن أن يكونوا خلايا ... خلايا إنسانية فى هذا الكائن الإنسانى الشامل ، ولا صحة لهذا الكائن الإنسانى إلا بصحة خلاياه ، ولا سلامة إلا بسلامة خلاياه ، ولا ناموس لوجوده وكيانه إلا ناموس التعاون بين هذه الخلايا والتكامل والتوافق ، لا التباغى والصدام والصراع .

حقيقة الصراع بين الإنسان والطبيعة :

وإذا كان ثمة صراع ظاهرى يبدو حتمياً بين الإنسان وما يحيط به من كائنات ، فهو ليس الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وإنما هو الصراع

بين الإنسان وبين الطبيعة من حوله ، وعندى أن استعمال كلمة الصراع حتى هنا هو استعمال خاطىء ، أو هو على سبيل المجاز ، لأنه ما كان للانسان أن يصارع الطبيعة وهو جزء منها . وهذا الذى يبدو للنظرة السطحية أنه صراع بين الإنسان والطبيعة ، إنما يقع نتيجة جهل الإنسان بقوانين الطبيعة ونواميسها ، أما عند ما يعرف الإنسان هذه القوانين والنواميس ، فإنه يبادر بتكييف حياته على أساسها ، والانتفاع بثمراتها . وحضارة الإنسان إنما تقوم على مدى معرفته بقوانين الطبيعة واستخدامها لصالحه .

وهكذا ينتهى بنا البحث الطبيعي العلمى المجرد ، إلى أن الوحدة لا التعدد ، والتوافق لا الصراع ، هو أساس الطبيعة بعامة ، والحياة الإنسانية بخاصة .

وعلى هذا الهدى نبدأ بحثنا فى الأمة الإنسانية ، متسائلين أولا وقبل كل شىء عن معنى الأمة ، وباحثين ثانياً عما إذا كان يوجد على هذا الكوكب الأرضى أمة بالمعنى الاصطلاحى ، غير الأمة الإنسانية .

الفصل الأول

ماهى الأمة وما هى عناصر تكوينها

الأمة فى اللغـة — الولاء للقبيلة — الولاء للمدينة — الولاء للحكام — الولاء للانسانية فى مجموعها — ردة أوربا فى القرن التاسع عشر — الدعوة إلى اتخاذ اللغة أساساً للأمة — النظرية الفرنسية — النظرية الإيطالية — النظرية البلقانية — الرأسمالية والقومية — كارل ماركس والعالمية — ستالين والأمة — هتلر والنازية — الأساس الحقيق للأمة — درأ المخاطر — جلب المنافع — الأمة الإنسانية

الأمة فى اللغة :

إذا استقرأنا القرآن ، باعتباره أعظم مرجع للغة العربية ، واستعمال مفرداتها والمعانى التى تدل عليها ، لوجدناه يستعمل كلمة الأمة للتعبير عن شتى المعانى التى تختلف اختلافاً كلياً عما نفهمه الآن من معنى كلمة الأمة الاصطلاحى .

فالأمة هى الجماعة من الناس مطلق الجماعة[1] .

والأمة الإنسان الفرد صاحب المكانة العالية[2] .

والأمة هى الطريقة والأسلوب[3] .

---

(١) ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون (القصص ٢٣) .

(٢) إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً (النحل ١٢٠) .

(٣) إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (الزخرف ٢٣) .

والأمة كما تطلق على جماعة الإنسان فهى تطلق كذلك على جماعة الحيوان والدواب والهوام[١] .

والأمة هى الإنسانية مجتمعة ، على اختلاف أجناسها وألوانها وتباعد أوطانها « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا »[٢] وهو ما اخترناه عنوانا وموضوعاً لهذا الكتاب . ولكنك لو رجعت لمعاجم اللغة العربية وقواميسها قديمها وحديثها على السواء ، لما وجدت تعريفاً للأمة بالمعنى الاصطلاحى الذى يتردد على أفواه الناس اليوم فى العالم[٣] ، من أنها « الجماعة من الناس تتميز عن سائر البشرية بخصائص من الجنس أو اللغة أو الدين أو التاريخ أو غير ذلك من العناصر » .

وليس سوى المعجم الوسيط الذى أصدره المجمع اللغوى المصرى عام ١٩٦٠ ما نعثر فيه على التعريف الاصطلاحى للأمة بمعناها الذى أصبح متداولا ، فإلى جوار المفاهيم القديمة للأمة من أنها « كل جنس من الحيوان — والجيل — والرجل الجامع لخصال الخير » فهى أيضاً « الجماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ، ومصالح وأمانى واحدة ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان ، يقال الأمة المصرية ، والأمة العراقية » .

وهذا الذى يقول به المعجم الوسيط من تعريف للأمة والتمثيل عليها بالأمة المصرية ، والأمة العراقية » هو شىء حديث جداً ، قد خلت منه المعارف السابقة على القرن التاسع عشر كلها .

ولا يظنن ظان ، أن ذلك أمر تختص به اللغة العربية أو الثقافة العربية دون سائر اللغات ، فمعاجم اللغات الأخرى كالإنجليزية أو الفرنسية . . . الخ

---

(١) وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم (الأنعام ٣٨) .

(٢) سورة يونس (١٩) .

(٣) جاء فى الصحاح للجوهرى — الأمة الجماعة ، وكل جنس من الحيوان أمة ، والأمة الطريق والدين ، والأمة الحين .

قد خلت من تعريف الأمة بهذا المعنى الاصطلاحي ، ولقد بحثت فى دائرة المعارف الانجليزية والأمريكية عن تعريف مستقل لكلمة الأمة nation فلم أجد للكلمة تعريفاً إلا تحت الكلمة الأخرى المنسوبة إليها وهى nationalism والتى نترجمها إلى العربية بكلمة القومية ، حيث توصف القومية بأنها التحمس للأمة التى ترتبط فيما بينها بوحدة من الجنس واللغة والتاريخ والثقافة .. الخ .

ولو رجعت إلى كتب القانون الدولى العام ، لما وجدت بحوثاً مستفيضة فى الأمة ومقوماتها وتعريفاتها ، ذلك أن القانون الدولى لا يعترف بشىء اسمه أمة ، أو بالأحرى لا يعنى بوضع قواعد أو أسس لما يمكن أن تقوم عليه الأمم ، فالإنسانية لم تعرف عبر تاريخها الطويل ، سوى دول وحكومات ، والمعاملات والاتصالات الدولية والحروب والمعاهدات والسفارات ، قد قامت دائماً بين الدول وليس بين الأمم ، فالدولة لا الأمة هى موضوع القانون الدولى[1] .

والحق أن الدارس للتاريخ الإنسانى منذ أقدم العصور حتى القرن التاسع عشر ، لا يصادفه هذا الولاء للأمة بمعناها الضيق الذى انبعث فى القرن التاسع عشر فى أوروبا ، والذى بدأ يذوى فيها الآن فى النصف الثانى من القرن العشرين .

لقد عرفت الإنسانية الولاء للأسرة ، ثم عرفت الولاء للقبيلة ، والولاء للمدينة والولاء للأمير أو الملك ، والولاء للدولة الإسلامية ، أو الدولة المسيحية ، أو الدولة كائنة ما كانت ، أما هذا الولاء « للجماعة تشترك فى الجنس واللغة والثقافة والتاريخ » فشىء من مبتكرات القرن التاسع عشر ومن مبتكرات أوروبا على وجه التحديد ، والتى أصبحت تعتبره اليوم دعوة قديمة بالية لا تتفق مع التطور الإنسانى ، فراحت تهاجمه وتدعو للعدول عنه . ولكن لنستعرض أولاً مختلف صور الجماعات قبل أن نصل إلى هذه النتيجة .

---

(١) القانون الدولى العام ، سامى جنينة ، ص ٨١ .

الولاء للقبيلة :

تعتبر الحياة العربية فى الجاهلية خير نموذج للحياة القبلية فى كل العهود والعصور ، وبالنسبة لسائر أجناس البشر ، فعلى الرغم من أنهم يرجعون كلهم إلى أصل واحد ، سواء كان هذا الأصل هو يعرب بن قحطان بالنسبة للعرب العاربة ، أوعدنان بن إسماعيل بالنسبة للعرب المستعربة ، وعلى الرغم من تكلمهم لغة واحدة هى اللغة العربية ، وعلى الرغم من انتمائهم إلى بيئة جغرافية واحدة ، وهى الصحراء ، فإن ذلك كله لم يكن ذا أثر فى تخفيف حدة الحروب التى لم تكن تنقطع فيما بينهم . وتزداد الحروب حدة كلما توحد الأصل القريب وتلاصق الجوار . . . كالحرب بين بكر وتغلب ، وإذا توقفت الحرب بالرمح والسيف ، فلكى تزداد حرب الكلام والتراشق بالشعر ، حدةً وضراوة .

ولم تكن هناك معرة تصيب الرجل أكثر من أن تنسبه لغير قبيلته ، فالولاء أولا وأخيراً هو للقبيلة .

وليس ذلك بدعاً خاصاً بالعرب ، بل هو الشأن بالنسبة لكل شعوب العالم المختلفة ، عند ما تعيش فى حالة قبلية ، يستوى فى ذلك قبائل المغول والإغريق والرومان فى العصور القديمة ، والفايكنج فى السويد والنرويج ، والجرمان فى وسط أوروبا حتى عصور قريبة .

الولاء للمدينة :

حتى إذا استقر البدو من أى جنس وأنشأوا لهم مدناً ولاذوا بالحضارة ، فالولاء للقبيلة يتحول إلى ولاء للمدينة ، والخصومات والمنافسات والحروب بين القبائل المتجاورة ، تنتقل إلى المدن المتجاورة ، دون أن يكون لهذا الجوار ، أو الأشتراك فى النسب ، أو الكلام بلغة واحدة ، أى أثر فى تخفيف الخصومات ، وحدة الخلافات ، يستوى فى ذلك الحروب بين مدن مصر القديمة ، أو أثينا وأسبرطة الإغريقية ، فى العصور القديمة ، وبين مدن البندقية وبيزا أو جنوا وميلان وفلورنسا فى العصور المتأخرة .

الولاء للحكام :

ومع ازدياد الحضارة ، واتساع العمران ، وترابط الحاجات الإنسانية ، قام رجال يوحدون العديد من المدن والأقاليم تحت ظل حكم واحد يتمتع كل من فى ظله بالأمن والرخاء ، فوالاهم الناس ووالوا أبناءهم من بعدهم ، مابقوا قادرين ، على إقرار الأمن والنظام وتحقيق الرفاهية ، فإذا ضعفوا وعجزوا عن ذلك ، انتزع الصولجان منهم أفراد جدد أسسوا أسرات حاكمة جديدة فينتقل إليها الولاء وهكذا .

الولاء للإنسانية فى مجموعها :

وازدادت الحضارة رسوخاً ، وتيسرت أسباب المواصلات بين مختلف شعوب العالم ، وزاد الاختلاط والانصهار وترابط المصالح ، فقامت الدعوات إلى الإنسانية الواحدة ، من خلال الإيمان بإله واحد هو الأب لجميع البشر على السواء ، فهو خالقهم ، والرابط بينهم برباط الأخوة ، وعلى هذا الأساس قامت البوذية والكونفشيوسية والمسيحية ، وتوج الإسلام هذه الدعوة العالمية الإنسانية ، ووصل بها الذروة ، لا من حيث الدعوة والنظر فحسب ، بل ومن حيث التطبيق بالفعل ، كما سنرى ذلك مشروحاً ومبسوطاً فى الفصل الخامس ، حيث كان المسلم (كما فعل ابن بطوطة أو ابن جبير أو المسعوى) يمتطى راحلته من أى مدينة فى هذه الدولة الإسلامية العالمية ، ثم يسير إذا شاء من سور الصين ، حتى شواطىء إفريقية الغربية على المحيط الأطلسى ، بل وأن يعبر مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس دون أن يعترضه معترض من أى نوع كان ، ودون أن يطلب منه إثبات جنسيته ، أو إبراز جواز سفره ، أو استبدال نقوده ، أو يعامل على أساس أنه غريب أو أجنبى ، فالتكايا والمساجد مفتوحة أمامه لا للصلاة والعبادة فحسب ، بل والتعلم والتعليم حسبما يشاء ، والأسواق مفتوحة أمامه للاتجار والأخذ والعطاء . . . والوظائف العامة مفتوحة أمامه حسب قدرته واستطاعته . . . وفى كلمة فله كل ما للمواطن الإسلامى والمسيحى أو

اليهودى متى كان يقيم فى هذه الدولة فى سلام ، حيث كان يطلق عليه اسم « الذمى » بمعنى أنه فى ذمة المسلمين ورعايتهم[1] .

وفى مواجهة هـذه الدولة الإسلامية العالمية ، التى شملت غرب آسيا وشمال ووسط إفريقيا ، قامت الكنيسة المسيحية فى أوروبا تحاول أن تجعل من أوروبا دولة واحدة تحت سلطان الكنيسة الروحى ، فأعادت بعث ما أسمته بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وتوجت شارلمان أول إمبراطور مسيحى على مسيحيى أوروبا ، وكما نادت باللغة اللاتينية لغة للكنيسة والعلم والثقافة . وخلال هذه الفترة التى امتدت عشرة قرون ، والتى ساد فيها الولاء للعقيدة إسلامية كانت أو مسيحية ، لم يحدث أن تساءل متسائل عن الجنس الذى ينتمى إليه أى فرد ، متخذاً من الجنس أو اللغة أداة للتفريق أو المعاملة بين المسلمين فى دنيا المسلمين ، وبين المسيحيين وبعضهم فى دنيا المسيحيين . وكان ولاء الجماعات ينتقل من حاكم إلى حاكم ومن أسرة إلى أسرة ، دون أن يثير ذلك كبير ضجة ، ما دام أن هذا الانتقال يتم بالطريقة المتعارف بها ، سواء عن طريق الاختيار أو المبايعة ، أو الإرث ، أو المصاهرة ، فى ظل العقيدة التى يؤمن بها الناس ، إسلامية كانت أو مسيحية أو بوذية .

دائرة الانتماء فى اتساع مستمر :

ويبين من هذا العرض السابق ، أن ولاء الإنسان وشعوره بالانتماء إلى جماعة معينة ، كان فى تطور مستمر ، من الأسرة ، فالقبيلة ، فالمدينة ، فالدولة الإقليمية ، فالدولة العالمية . وأن ذلك قد تم تحت ضغط الضرورات الإنسانية والحاجة المتزايدة إلى التعاون بين أفراد الجنس البشرى ، تبعاً لزيادة الحضارة والعمران وسهولة المواصلات ، وتعقد الحاجات وتعددها .

---

(١) من آذى لى ذمياً صرت خصمه يوم القيامة (حديث شريف) .

ردة أوروبا فى القرن التاسع عشر :

ولذلك فقد كان لوناً من ألوان التناقض التى يشهدها التاريخ فى سيره من حين لآخر ، أنه فى الوقت الذى ازدادت فيه المعارف الإنسانية ، واخترعت الآلات التى جعلت الإنسان أكثر قدرة على الانتقال براً وبحراً فى وقت أسرع ، وتضاعف حجم التجارة الدولية عشرات المرات ، ارتفعت من أوروبا صيحات تنادى بالتفرقة بين بنى الإنسان على أساس من الجنس أو اللغة ، أو المصالح الذاتية ، وإذا كانت هذه الصيحات ، قد بدأت أول ما بدأت ، عقب الثورتين الأمريكية والفرنسية ، باعتبارها وسيلة لتدعيم حقوق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة ، ونقل السلطة من الملوك والحكام إلى الشعوب صاحبة الحق فى تقرير مصيرها ، فقد تجردت الدعوة للقومية بعد قليل ، من هذه الروح الإنسانية التقدمية ، وتحولت إلى دعوات بغيضة من العنصرية والمناداة بالتفوق الجنسى ، وحق بعض الأمم فى استعمار واستعباد غيرها من الشعوب ، مما سنعرض له بالتفصيل فى الفصل الثالث ، أما الآن فحسبنا أن نستعرض التطورات التى اجتازتها فكرة الأمة فى أوروبا فى القرن التاسع عشر .

الأمة هى الدولة :

فأما فى دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة التى تعتبر أحد العوامل الفكرية التى مهدت للثورة الفرنسية ، والتى صدرت فى منتصف القرن الثامن عشر ، فلم يكن لتعريف الأمة أى مدلول يختلف عن مدلول الدولة .

« فالأمة nation اسم جمع يستعمل للدلالة على كمية كبيرة من الناس الذين يعيشون على قطعة من الأرض ، داخل حدود معينة ، ويخضعون لحكومة واحدة » .

ومن ناحية أخرى فقد عرفت نفس الدائرة الدولة Etat بأنها « اسم

جنس يدل على جماعة من الناس الذين يعيشون معاً ، تحت حكومة واحدة في حالة سعادة أو شقاء »[1] .

ويبين من هذين التعريفين للأمة والدولة أنهما تنطبقان ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان العالم في ذلك الوقت — كما هو شأنه دائماً — مقسما إلى دول تضم كل منها شتيتاً من الأجناس والشعوب التي تتكلم بمختلف اللغات ، وتدين بمختلف الأديان ، وكانت تعيش على هذه الصورة منذ عدة قرون .

فالدولة العثمانية كانت تضم شعوباً إسلامية ، وأخرى مسيحية وثالثة يهودية ، وهذه الشعوب تمت إلى أجناس العرب والفرس والترك والأرمن والأكراد في المشرق ، واليونان والبلغار والصرب والألبان ... الخ في أوربا ، وكذلك كان شأن الدولة الروسية والنمساوية والانجليزية والفرنسية والأسبانية والهولاندية .

الدعوة إلى اتخاذ اللغة أساساً للأمة :

وكان الألمان هم أول من حاول أن يشيد بناء الدولة على أساس من الأمة الواحدة ، والأمة عندهم هي التي تتكلم لغة واحدة .

وكانت ألمانيا المشهورة اليوم بهذا الاسم ، تؤلف البلاد الواقعة شرق نهر الراين ، وقد عاشت خلال العصور الوسطى إبان الإقطاع مجزأة مقسمة إلى مئات من الوحدات السياسية ما بين ملكية ودوقية وإمارة ، حتى إذا كانت الثورة الفرنسية وحرب نابليون ، كانت هذه الوحدات السياسية قد هبطت إلى ٣٩ وحدة سياسية . وقد مكن هذا التشتت لفرنسا إبان نابليون ، أن تتصرف في أقدار هذه الدويلات وأن تسخرها لأغراضها ، فأدى هذا الخطر المشترك الذي حل بالدويلات الألمانية ، إلى ارتفاع الصيحات لأول مرة بأنه على الألمان

(١) ما هي القومية ، للعلامة « الأستاذ ساطع الحصري » ص ٣٨ .

الذين يتكلمون باللغة الألمانية ، أن يؤلفوا من بينهم دولة واحدة باعتبارهم أمة واحدة ، ليكون باستطاعتهم أن يقفوا فى وجه الخطر الفرنسى .

وكان فيخته أستاذ الفلسفة فى جامعة يينـا موجوداً فى مدينة برلين إبان اجتياح نابليون لبروسيا ، ففر منها ، وراح يوجه نداءه إلى كل متكلم بالألمانية ، واتخذ من كتابات هردر السابقة عليه فى إظهار خطورة اللغـة وتأثيرها على الانسان ، وأن أى لغة إنما هى فى الحقيقة قلب كل شعب وروحه ، مادة لأحاديثه ومحاضراته وخطبه ، دعاية للأمة المتكلمة بالألمانية .

ولولا أن هذه الدعوة قد جاءت فى مطلع القرن التاسع عشر فى أعقاب الثورة الفرنسية ، وبعد اشتعال الوطنية الفرنسية التى باتت تهدد الكيان الألمانى ، لبدت هذه الدعوة التى نادى بها فيخته ، دعوة شاذة بل وكريهة ، فلم يكن أى من سكان الأقاليم والدويلات الألمانية يحس بأى ارتباط إلا مع إقليمه ، وقد يؤثر الكاثوليكى الألمانى أن يموت إلى جوار الكاثوليكى الفرنسى ، قبل أن يرتبط بالألمانى البروتستنتى . وقد روى لنا فيخته فى كتبه ورسائله أن البروسى كان يرفض أن يوصف بأنه ألمانى ، ويرى منتهى فخاره أن يوصف بالبروسية ، ومنتهى التحقير له أن يوصف بالألمانية[1] . وكان أعلام الشعب الألمانى وكواكبه ، من أمثال كانت وهيجل وجوته وشللر وهردر وبيتهوفن ، وعشرات غيرهم ممن تعتز بهم الحضارة الإنسانية ، قد عاشوا فى ألمانيا المقسمة المجزأة ، وكانوا جميعاً يزورون من الحديث عن الوحدة الألمانية ، ويرون فى الوطنيـة الجديدة التى بدأت ريحها تهب على أوربا خطراً على الإنسانية ، حتى ليصل الأمر بجوته أن يكتب فى عام ١٧٧٢ « إنه لما يسبب لى التعب والانزعاج أن أسمع قائلا يقول : إن الشعور بمحبة الوطن منعدم بيننا وأننا لا وطن لنـــا ، إن تلك إلا ألفاظ وحسب ، ولا شىء غير ألفاظ ، وإنى لأتساءل ما جدوى تلك الجهود التى تبذل

---

(١) ساطع الحصرى ، ماهى القومية ، ص ٦٠ .

من أجل إحياء عاطفة لا سبيل لشعورنا بها الآن بتاتاً ، وهى عاطفة لم يكن لها وجود فيما مضى ولا يمكن وجودها ، إلا فى لحظات معينة من لحظات التاريخ ، وتكون نتيجة لتضافر ظروف معينة »[١] . ويكتب فردريك شيللر فى سنة ١٧٨٩ ما معناه « إن الأمم التى لم يكتمل نضجها بعد ، هى وحدها التى يسود بها الاعتقاد بأن للصالح الوطنى قيمة ووزناً ، وذلك اعتقاد يسود كذلك بين شباب العالم ، وتلك فكرة متخاذلة فقيرة ولا شك ، التى تجعل الكتابة من أجل أمة واحدة فقط ، وإن الروح الفلسفية لتعجز عن احتمال هذا التضييق »[٢] .

فاذا كان هـذا شأن أعلام الألمانيين وعظمائهم ، فلا عجب إذا تأخرت الوحدة الألمانية حتى عام ١٨٧٠ وهى لم تتم عندما تمت تحت تأثير اللغـة ، أو نتيجة الإحساس بالأمة الواحدة ، ولـكنها تمت بقوة الحديد والنار ، وعندما استطاعت بروسيا أن تهزم من خلال حربين ، النمسا من ناحية وفرنسا من ناحية أخرى ، تخضع الأمراء الألمان لمشيئتها . وكذلك فإن الدولة الألمانية الموحدة ، فضلا عن أنهـــا لم تستطع أن تقدم للانسانية شاعراً واحداً كجوته أو شللر ، أو فيلسوفاً فى درجة كانت أو هيجل ، فقــد كان كل دورها ، أن جرفت أوربا والعالم من ورائها فى حربين عالميتين ، لا يزال العـالم يكتوى حتى الآن بنارهما ، بل لقد خرجت منهما ألمانيا مجزأة من جديد ، وعادت أجزاء منها لتدخل فى تكوين دول بولندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وغيرها .

النظرية الفرنسية فى أساس الأمة :

سبقت فرنسا ألمانيا فى خلق الدولة الـكبيرة ، واستطاعت أن تجعل سكان هذه الدولة يتكلمون بفرنسية واحدة ، بحيث انطبقت الأمة على تعريف الدولة كما رأينا ، واستطاعت منذ عصر لويس الرابع عشر ، الذى كان يوصف بالملك

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، الصراع بين البورجوازية والإقطاع ، ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠٩ .

الشمس أن تخلق لنفسها أدباً خاصاً وتقاليد خاصة ، ثم جاءت الثورة الفرنسية ومن بعدها نابليون ، فامتلأ الفرنسيون بإحساس خاص بالأفراد والتفوق على من يجاورهم من الشعوب ، ولم يحتاجوا للبحث عن عنصر خاص يبنون عليه قوميتهم من جنس أو لغة أو تاريخ مشترك . . فلم يكن فى ذلك ما يسعفهم ، وكانوا لمنذ معاهدة وستفاليا يضمون إلى بلادهم مقاطعتى الألزاس واللورين اللتين يتكلم سكانهما بالألمانية ، ومن هنا فقد أحس الفرنسيون بخطر الدعوة إلى اللغة باعتبارها أساساً للأمة الجديدة ، فراح مفكروها وكتابها يندِّدون بهذه الفكرة ، وقد لخص فوستل دوكولانج المؤرخ الفرنسى وجهة النظر الفرنسية فى هذه العبارات :

« إن القومية لايمكن أن تتبع اللغة ، فان العلاقات الجغرافية والمنافع السياسية والتجارية ، هى التى تجمع وتربط الناس وتؤسس الدول .

الوطن هو ما يحبه المرء ، قد يكون الألزاسيون ألماناً باللغة ، ولكنهم فرنسيون بالنزعة والمشيئة وهى التى جعلتهم فرنسيين ، فالعدالة تقضى مراعاة مشيئة الألزاسيين وتحقيق رغباتهم فى هذا المضمار [١] » .

ويقول إرنست رينان « إن من مفاخر فرنسا ، أنها لم تحاول أبداً أن تحصل على وحدة اللغة عن طريق القسر والإرغام ؛

ألا يمكن أن يحصل المرء على نفس العواطف ونفس الأفكار ، وأن يحب نفس الأشياء بلغات مختلفة ؟

فإياكم وإقحام اللغة فى السياسة الدولية » .

وعند رينان أن أس الأساس فى تكوين الأمم هو « الرغبة فى الحياة المشتركة والعزم على الاستمرار فيها » .

---

(١) ماهى القومية ، ص ١٢٣ .

وهكذا قامت فى فرنسا نظرية لتعليل قيام الأمم ، سميت بنظرية الإرادة والمشيئة فى مواجهة النظرية الألمانية القائلة باللغة .

وقد لخص دوركهايم العالم الاجتماعى نظرية الإرادة فى العبارات التالية :

« الأمة جماعة إنسانية تريد لأسباب تتعلق بالأصل أو التاريخ فقط ، أن تحيا فى ظل قوانين معينة وأن تشكل دولة سواء كانت صغيرة أم كبيرة ، وهو الآن مبدأ مقرر عند الأمم المتمدينة ، أنه متى أثبتت هذه الإرادة الموحدة نفسها باستمرار ، حق لها أن تعتبر الأساس الوحيد للدول[1] .

النظرية الإيطالية :

كما كان لألمانيا نظرية حاولت أن تتوحد فى ظلها ، فكذلك تنادى الإيطاليون الذين كانوا مقسمين إلى عديد من الدويلات والإمارات والسيادات ، بنظرية خاصة بهم ، استمدوها من ظروفهم الخاصة ، وكان مانشينى الأستاذ بجامعة تورين ، هو أول من حاول أن يضع تعريفاً علمياً للأمة عام ١٨٥١ وذلك فى خلال محاضراته ودروسه التى كان يلقيها فى الجامعة المذكورة ، والأمة عنده :

« مجتمع طبيعى من البشر ، يرتبط بعضها ببعض على أساس من وحدة الأرض ، ووحدة الأصل ووحدة العادات ووحدة اللغة ، وينشأ هذا الارتباط من جراء الاشتراك فى الحياة وفى الشعور الاجتماعى »[2] .

وهكذا لم تعد اللغة وحدها كافية لخلق أمة ، ولا الإرادة وحدها بالأساس الكافى لإنشاء أمة ، بل لا بد من وحدة جغرافية ووحدة الأصل والعادات .

---

(١) الدكتور عبد الرحمن البزاز ، هذه قوميتنا ، ص ٨٥ .

(٢) ساطع الحصرى ، ما هى القومية ، ٤٢ .

النظرية البلقانية :

وبينما كانت الحركة القومية فى إيطاليا وألمانيا تجدان المقاومة من فرنسا وانجلترا وإمبراطورية النمسا ، كانت حركة القومية فى شرق أوربا تجد من هذه الدول بالذات تشجيعاً وتحريضاً ، بل ذهب الأمر إلى حد امتشاق روسيا السيف للدفاع عن حق شعوب أوربا الشرقية باعتبارها أمماً مستقلة ، لها الحق فى تقرير المصير وتأليف دول مستقلة ، وما ذلك إلا لأن شرق أوربا كان يخضع كله للحكم العثمانى ، وكان البلغار والصرب واليونان والبوشناق والأفلاق والأتراك ، يؤلفون الدولة العثمانية التى كانت دول أوربا تريد أن تمزقها وتسحقها ، فانتقلت الأفكار الجديدة حول عناصر الأمة والدعوة إلى القومية ، لتحقيق هذا الغرض . والحق أنه كان من الممكن أن تصفى الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وأن تقوم دول البلقان المستقلة منذ ذلك الوقت المبكر ، ولكن تنافس الدول العظمى فيما بينها أدى إلى تأخر هذه النتيجة حتى مطلع القرن العشرين ، وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى .

ولما كانت الشعوب البلقانية متداخلة متمازجة مشتبكة ، حتى لقد وصفت بالفسيفساء أو (الموزاييك) ، فقد كان استخلاص أمم منفصلة من هذا المزيج يحتاج إلى كثير من الجهد والمشقة ، ولعل ذلك لا يتجلى أكثر من تجليه فى النظرية البلقانية لتكوين الأمة وهى التى تنسب إلى العالم البلغارى (إيفانوف) حيث عرف الأمة بما يلى :

« الأمة جماعة من الناس لها شخصية جسمية ، ونفسية واحدة ، وتقاليد واحدة ، وآمال مشتركة ، والعناصر التى تؤلف الشخصية القومية وتحافظ عليها هى وحدة الجنس والحدود الجغرافية واللغة والدين والأدب والتراث الفكرى ونمط الحياة ، والوحدة السياسية والتاريخ الواحد والتقاليد المشتركة والمظاهر الثقافية المشتركة ، وكلما ظهرت هذه العناصر فى قومية من القوميات واتضحت

كانت منظماتها موحدة ، والشعور القومي الذي يحركها مضطرباً عنيفاً »[1].

أي أن ما كفى فيه عنصر واحد عند الألمان لتكوين أمة ألمانية ، لم يعد يكفي عند البلقانيين بغير أحد عشر عنصراً ، وذلك لكي يكون من المستطاع فصل البلغار عن الصرب ، والصرب عن سكان الجبل الأسود ، وهؤلاء عن الألبانيين وهكذا .

كما لا بد وقد لاحظ القارىء أن عنصراً جديداً قد دخل إلى ميدان قيام الأمم ، وهو عنصر الدين ، مع أن هذا الدين بالذات قد استبعده كل من تصدى لبحث مقومات الأمة من علماء الدول الغربية ، وما ذلك إلا لأن الدين كان هو الأساس الذي اعتمدت عليه الشعوب البلقانية المسيحية للتحرر من الدولة العثمانية الإسلامية .

الرأسمالية والقومية :

والإجماع منعقد بين المفكرين اليوم ، على أن انبعاث الدعوة إلى الدولة الألمانية الواحدة والإيطالية الواحدة ، والقومية المتأججة في أوربا بصفة عامة إنما هو أثر من آثار ازدهار الرأسمالية الحديثة ، الذي جعلها تتلهف على اتساع السوق أمام نشاطها واحتكاراتها ، وإذا كانت الرأسمالية الإنجليزية والفرنسية ، قد راحت تبحث عن توسيع سوقها بضم المستعمرات إليها عبر البحار ، فإن الرأسمالية الألمانية والإيطالية قد سعت إلى توسيع سوقها بتأليف الدولة القومية .

وليس أدل على أن هذه الدعوة الحادة للقومية ، لم تكن إلا وليدة النظام الرأسمالي ، أنها كانت قاصرة على شعوب أوربا ، محرمة على شعوب أفريقيا وآسيا ، فإذا كانت الأمة تقوم عند الفرنسيين على الإرادة ، فإن شعوب شمال أفريقيا ، أضعف من أن يكون لهم إرادة ، وعلى فرنسا أن تحتلهم بل وأن تبيدهم إذا لزم الأمر لإفساح الطريق أمام الشعب الفرنسي .

---

(١) الدكتور عبد الرحمن البزاز ، هذه قوميتنا ، ص ٨٣ .

وهكذا تحولت الدعوة إلى القومية إلى دعوة رأسمالية استغلالية استعمارية ، بعد أن كانت حركة ديمقراطية تحررية .

كارل ماركس والعالمية :

وكان كارل ماركس هو أول المفكرين الأوربيين فى القرن التاسع عشر ، من تصدى لهذه الموجة العاتية من الردة الإنسانية ، وأدرك ما بين الاستغلال الرأسمالى وهذه الدعوة الجديدة للتفاخر بالجنس واللغة وتقسيم الشعوب إلى أمم متفرقة من علاقة ، وأنكر أن يكون لكل هذه العناصر المقول بها من لغة أو دين أو جنس أو تقاليد أو ثقافة أو تاريخ ، أثر فى تقسيم بنى الإنسان ، فإنما الإنسانية فى مجموعها تتطور بمادية تاريخية واحدة تعمل طبقاً لناموس مقرر ، وهو ناموس الصراع بين الطبقات المستغِلة وبين الطبقات الكادحة ، وأن واقع أى مجتمع والعلاقات التى تربط بين أفراده أياً كان جنسهم أو كانت لغتهم أو ثقافتهم ، إنما تتحدد بوسائل الإنتاج ومن الذى يتملكها ، وأن وجه المجتمع قد يتغير فنراه منقسما إلى أسياد وعبيد ، أو إلى إقطاعيين وأتباع وأقنان ، أو إلى رأسماليين وعمال ، ويبقى هذا الجوهر من الصراع بين الطبقة التى تمتلك وسائل الإنتاج ، والطبقة التى تقوم بعملية الإنتاج بالفعل ، وأن حتمية التطور التاريخى ستنتهى بانتصار الطبقات الكادحة ، عند ما تستولى على وسائل الإنتاج ، ولذلك فعلى العمال فى سائر أنحاء العالمين ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباعد أوطانهم ، أن يؤمنوا بوحدتهم الطبقية وأن ينهضوا جبارين فى الأرض ، ليحطموا قيودهم ويستولوا على مصادر الإنتاج ، محققين بذلك المجتمع اللاطبقى حيث يسود العدل والإخاء بين جميع الكادحين ، وتعم الوفرة بين جميع الناس على السواء[1] .

وقد تألفت بالفعل الدولية العالمية الأولى عام ١٨٤٨ عقب صدور البيان الشيوعى ، على أساس من إنكار الفواصل والفوارق بين مختلف الأمم والشعوب .

---

(١) البيان الشيوعى عام ١٨٤٨ .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الأديان قد دعت إلى وحدة الجنس البشرى ، مستندة إلى الأفكار المثالية والغيبيات ، فجاء كارل ماركس مستنداً إلى مادية القرن التاسع عشر ، وهذه الدنيا الجديدة من الآلات والإمكانيات والحقائق والنظريات العلمية ، يدعو إلى هذه الوحدة والمساواة من ناحية أخرى ، رافعاً راية العصر من التطرف والغلو وحتمية الصراع وغلبة القوى .

ستالين ونظرية جديدة للأمة :

وعلى خلاف ما تنبأ به ماركس من قيام الثورة الاشتراكية فى دول غرب أوربا ، حيث وصل التطور الرأسمالى إلى ذروته ، فقد قامت أول ثورة اشتراكية فى روسيا عام ١٩١٨ وهى التى كانت تعتبر أكثر بلاد أوربا تخلفاً ، وسرعان ما أنجبت هذه الثورة حاكماً وصفه خلفاؤه بانه كأسوأ حاكم عرفته روسيا فى كل تاريخها ، ونعنى به ستالين . ويعنينا هنا أن ستالين قد جاء بنظرية جديدة لتعريف الأمة ، فقال عنها :

« الأمة هى الجماعة المستقرة من البشر والتى تكونت تاريخياً من جراء وحدة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية ووحدة التكوين النفسى التى تتجلى فى وحدة الثقافة » .

ويقول ستالين أن لا بد من توفر هذه العناصر الأربعة لإمكان القول بوجود أمة ، وفقدان واحد من هذه العناصر كاف لنفى صفة الأمة عن الجماعة(١) .

ويعنينا من تعريف ستالين للأمة أنه جاء بعنصر جديد لا تكون الأمة أمة إلا به ، وهو « وحدة الحياة الاقتصادية » وهو عنصر لم يقل به أحد ممن تصدوا لتحديد عناصر الأمة ، ولكن ستالين ما كان ليستطيع وهو الماركسى الذى يفسر الوجود الإنسانى من خلال العامل الاقتصادى ، أن لا يجعل الوحدة الاقتصادية أساساً من أسس قيام الأمة .

---

(١) ماهى القومية ، ص ١٦٧ .

هتلر والأمة الألمانية :

وإذا كانت ألمانيا فى مطلع القرن التاسع عشر قد تنادت بالقومية الألمانية على أساس من اللغة ، لأن ذلك كان يحقق مصالحها فى ذلك الوقت ، فقد كانت أول من رفضت هذا الأســاس فى مطلع القرن العشرين ، فلم تعد اللغة تساوى قلامة ظفر فى معرفة من هو الألمــانى الجدير برعوية الأمة الألمانية ، وإنما هو الأصل والجنس والعرق الآرى الذى يحدد من هو الألمانى ، فقد لخص أدولف هتلر زعيم ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، سر هزيمة ألمــانيا فى الحرب العالمية الأولى ، فى خيانة اليهود الألمان ، وذلك بسبب انتمائهم إلى عنصر يخالف العنصر الآرى الذى ينتمى إليه الجرمان ، وهو العنصر السامى ، ولذلك فقد دعا إلى تصفية اليهود الألمان وتجريدهم من الجنسية الألمانية ، أو جعلهم مواطنين من الدرجة الثانية ، وانتهى بالدعوة إلى إبادتهم من على ظهر الأرض ، دون أن يشفع لهم ، أنهم ليسوا فقط حملة اللغة الألمانية فقهاً وأدباً وشعراً ، بل أن يكونوا أهم العلماء الذين أسهموا فى تكوين عظمة ألمانيا الحديثة .

وعند ما أتيح لهتلر أن يغزو شرق أوربا وغربها ، جعل رسالته الأولى تصفية اليهود وانطلقت الدعوات والصيحات مما سنعرض له فى الفصل الثالث تلخص مهمة الدولة فى حماية الجنس الآرى والمحافظة على صفائه ونقائه . وقد قسم هتلر شعوب العالم إلى بضعة عشر جنساً جعل الجنس الآرى على رأسها وأسماها وأعلاها ، وجعله صاحب الحق فى سيادة بقية الأجناس ، وهكذا حل العنصر محل اللغة كأس الأساس للدولة .

النظرية الأمريكية :

ونصل أخيراً للنظرية الأمريكية كما نراها مسجلة فى دوائر معــارفها (أمريكانا وكولومبيا) . فالقومية بمعنى الانتساب إلى أمة معينة والتحمس لها لا يعدو أن يكون :

« حالة عقلية لبعض الناس المتجانسين الذين يعيشون معاً فى ارتباط وثيق على أرض محدودة ، ويتشاطرون الاعتقاد بوجود مميز خاص بهم ومصير مشترك » .

وهكذا لم يعد الجنس أو اللغة أو التاريخ هو مقومات الأمة ، وإنما مجرد الاعتقاد (إن حقاً وإن خطأ) الذى يتشاطره فريق من الناس بوجود مميز خاص بهم يفرقهم عن غيرهم ، والذى يكون الأمم .

ولا عجب أن يأتى هذا التعريف من ناحية الأمريكان ، فقد تألفت الأمة الأمريكية من شتى الأجناس الأوربية التى توافدت عليها فى بادىء الأمر ، ما بين أسبان وهولانديين وانجليز وإيرلنديين وفرنسيين ثم ألمان وطليان ، وأعقب ذلك هجرة إجبارية من أفريقيا حيث كان الزنوج يخطفون ليباعوا عبيداً فى أمريكا ، وتلت ذلك هجرة الشعوب الأسيوية ، كل ذلك بالاختلاط مع سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر ، قد كوّن هذا المجتمع الانسانى الذى أصبح يطلق عليه اسم الولايات المتحدة ، والذى ظل إلى قرن مضى يتخاطب فيما بينه بالإشارات فى كثير من الأحيان ، قبل أن يسوده التعليم الإجبارى وتفرض اللغة الانجليزية لغة للتعليم العام .

وقد ظلت الولايات المتحدة الأمريكية تضم إليها ولايات كان بعضها فرنسياً والآخر أسبانياً ، وتمزجها ببقية السكان ، وآخر ما فعلته الولايات المتحدة من هذا القبيل ، هو ضم ألاسكا التى تقع فى الدائرة القطبية الشمالية باعتبارها الولاية التاسعة والأربعين عام ١٩٥٩ ، وضمت إليها جزر هاواى باعتبارها الولاية الخمسين عام ١٩٦٠ ، وهكذا أصبحت تضم مناطق من وسط المحيط الباسفيكى حتى القطب الشمالى إلى خط الاستواء ، تفصل فيما بينها البحار والمحيطات والدول الأجنبية .

ولو حاولت أن تجد مقوماً لما يسمى اليوم الأمة الأمريكية لما وجدت

سوى هذه العبارة « الاعتقاد الذى يتشاطره كل أمريكى بأنه يتوفر فى جماعتهم بميز خاص يفرقهم عن غيرهم من الأمم » .

وبديهى أن هذا المميز ليس هو اللغة ، ولا هو الجنس ، ولا التاريخ المشترك وإنما هو ما يسميه الأمريكان « أسلوب الحياة الأمريكية » أو النظام السياسى والاقتصادى الخاص بهم .

وحدة الجنس البشرى :

والحق أن فكرة الأمة باعتبارها جماعة ذات خصائص تختلف عن غيرها من الأمم ، هو نوع من الانحراف الذى تردت فيه أوربا فى القرن التاسع عشر ، وجر على بقية الشعوب من الفتن والثورات والحروب والآلام والمحن ما لا يقاس به كل ما مرّ بتـاريخ الإنسان ، والحقيقة المؤكدة كما ستراها مشروحة ومفصلة فى الفصول التالية ، أنه لا توجد جماعة على سطح الأرض مهما كانت درجة انعزالها ، إلا وهى خليط من كل الأجناس التى تفرع اليها الأصل الإنسانى ، وما من لغة إلا وهى حصيلة كل لغة منطوقة لفظ بها الإنسان حيث كان وأنى كان ، وما من ثقـافة لشعب من الشعوب إلا وهى التراث المشترك للانسانية فى مجموعها ، وما من قطر من الأقطار ، إلا وتقلب حظه بين الخفض والرفع والمد والجزر وغشيته أمواج التاريخ الإنسانى منذ أقدم العصور .

وليس للأمة ، أى أمة ، من صورة خاصة بها وإطار روحى أو فكرى أو مادى تتحرك فى داخله ، إلا من صنع السلطة الحاكمة لهذه الأمة سواء كانت نابعة من بين صفوف أغلبيتها ، أو كانت مفروضة عليها بمعرفة الأقلية الداخلية أو سلطة خارجية ، والمهم أن الدولة هى التى صنعت وتصنع الأمة ، وليست الأمة هى التى تصنع الدولة .

الدول الأفريقية :

ولعل قارة أفريقيا بعد أن تحررت هى التى تظهرنا على هذه الحقيقة بجلاء

فقد استقلت ٣٤ دولة من دول أفريقيا وانضمت إلى هيئة الأمم فأصبحت أعضاء بها ، وتعمل كل حكومة فى هذه الدول على أن تجعل من شعبها أمة خاصة ذات لغة خاصة وطابع خاص بها ، حيث لم يكن لذلك وجود من قبل ، فنحن نعرف أن الدول الاستعمارية قد قسمت أفريقيا إلى دول على الخريطة أول ما قسمت بالفرجار والمسطرة ، ثم راحت تطبق هـذه الحدود المصطنعة على الطبيعة ، وكم من قبيلة واحدة نراها مقسمة بين مستعمرتين فأصبحت اليوم مقسمة بين دولتين مستقلتين أو ثلاثة ، وما من دولة أفريقية حصلت على استقلالها إلا وهى تتألف من شتيت من القبائل المختلفة والعادات واللغات واللهجات ، ولم يكن يضمها إلى بعضها إلا السلطة الاستعمارية ، ولو أخذنا بمبدأ وحدة اللغـة ، أو وحدة العادات والتقاليد والتاريخ ... لوجب أن ينفرط عقد هذه الدول إلى عشرات ومئات من الدول ... وغنى عن البيان أن أحداً لا يقول بذلك أو يدعو إليه ، بل إن الدعوة كما نعرف تتجه نحو توحيد أفريقيـا فى مجموعها ، باعتبارها أمة واحدة ، يربطها مصير واحد ، وتجمعها مصلحة مشتركة .

آسيا وأوربا :

وكذلك الشأن بالنسبة لدول آسيا التى استقلت حديثاً بدورها ، ونحن نعلم أن الاستعمار لم يشأ أن يخرج من الهند إلا بعد أن قسمها إلى هند وباكستان ، بمقولة إن سكان الهند أمة ، وسكان الباكستان أمة أخرى ، ولم يشأ أن يخرج من الهند الصينية إلا بعد أن قسمها إلى أربع دول ، وكوريا أصبحت مقسمة إلى شمالية وجنوبية ... وهكذا . وأوربا نفسها ليست بأحسن حالا ، وحسب الإنسان أن يطالع مجموعة من خرائط أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ليرى دولا انفرط عقدها ليحل محلها دول أخرى جديدة بمقولة إنها تضم أمماً خاصة ، لكى تعود لتنفرط من جديد وتتقسم وتتجزأ ، والمحرك لذلك كله هو السلطة المركزية ، سواء كانت ، كما قدمنا ، سلطة مركزية نابعة من داخل الجماعة أو مفروضة عليها من الخارج .

وحسبنا أن نذكر دولتى تشيكوسلوفاكيا أو يوجوسلافيا . لنرى كيف أن الاسم نفسه يحمل فى طياته سمة الدولة التى تتألف من أكثر من عنصر وأكثر من لغة ، وألمانيا التى كانت قد توحدت ، عادت ثانية لتنقسم ، وعلى رأس كل من القسمين حكومة تعمل جاهدة للمحافظة على هذا الانقسام .

وما انجلترا نفسها إلا اتحاد من عديد من الوحدات السياسية التى تتمنى كل منها لو كانت مستقلة : وهى ايرلندا الشمالية وويلز واسكتلندا ، ولذلك فإن إسم انجلترا الرسمى هو « المملكة المتحدة » وليس يبقيها فى صورتها التى هى عليها ، سوى السلطة المركزية المتمثلة فى البرلمان الانجليزى .

أما الاتحاد السوفيتى ، فهو بدوره يتألف من عديد من الأجناس والشعوب والوحدات السياسية .

والحق أن العالم لم يعرف فى تاريخه ولا يمكن أن يعرف إلا دولا ، قامت وسقطت وتجمعت وافترقت على أساس نواميس محددة فى طبيعة الاجتماع البشرى ، وهى التى تتحكم فى تكوين الاجتماعات ، ابتداء من أصغر الأسر التى لا يزيد عدد أفرادها عن ثلاثة ، أب وأم وابن ، حتى أكبر المجتمعات الإنسانية التى تأخذ شكل الإمبراطوريات أو الدولة العالمية .

وليس هذا الناموس الاجتماعى الذى يربط الإنسان بأخيه الإنسان فى شتى الظروف والأحوال ، بالأمر العصى على الإدراك ، بل هو سهل ويسير يدرك بالبداهة ، وباستطاعة أى إنسان أن يحسه فى نفسه وبمن يتصل بهم .

درء المخاطر :

انظر إلى أى طفل يلهو ويلعب فى الطريق ، إنه لن يفكر فى العودة إلى بيته ، إلى أمه وأبيه إلا فى حالة من اثنتين ، أن يعضه الجوع بنابه ، أو أن ينتابه خوف أو فزع ، هنا وسنرى الطفل عائداً إلى أحضان أمه فزعاً مما يخيفه أو طمعاً فيما يأكله .

ذلك أن أقوى غرائز الحياة ، هى غريزة الإبقاء على النفس ، وليس هناك ما يهدد أكثر من الجوع أولا . والحوادث الطارئة ثانياً .

والأسرة لا تتكون إلا تحت تأثير هذه الغريزة ، غريزة إبقاء الذات والتى يتفرع منها النوع ، وهى التى تبقى الزوجات متعلقات بأزواجهن والعكس بالعكس ، وهى التى تبقى الأولاد متعلقين بآبائهم . وتطور المجتمع ، وازدادت حاجات الإنسان ومخاوفه فى نفس الوقت ، فلم تعد الأسرة الصغيرة المحدودة كافية لتحقيق حاجاته وأمنه وطمأنينته ، فكان الانتماء والولاء للعشيرة التى هى الأسرة الكبيرة ، ثم القبيلة أى مجموعة العشائر التى تعود إلى أصل مشترك .

وعندما بدأت الحضارة الزراعية وأنشئت المدن التى استقر بها الإنسان ، نشأت الحكومة التى حلت محل شيخ القبيلة وزعيمها ، وأصبحت هى المسئولة عن إقرار الأمن والنظام داخل المدينة ، والدفاع عنها ضد المخاطر الأجنبية ، ونشأ الولاء للمدينة . ولما لم تعد المدينة الواحدة كافية لتحقيق مطالب الإنسان فى الأمن والرخاء ، فقد تألفت الدول ، وعلى هذه الصورة قام الاجتماع الإنسانى فى صورة هذا الحشد من الدول عبر التاريخ .

وبمقدار ما يزداد الخطر الذى يهدد أى جماعة من الجماعات ، بمقدار ما تزداد حاجاتها للبحث عن حليف يعاونها فى دفع الخطر ، فتزداد درجة التكتل والتجمع وتتضخم الدول .

ولقد مر بنا كيف أن خطر الغزو الفرنسى هو الذى حفز دويلات الراين إلى التنادى بتأليف دولة واحدة تقف فى وجه فرنسا ، فلما أن تألفت هذه الدولة بالفعل عام ١٨٧٠ كما قدمنا ، اتجهت فرنسا صوب عدوتها القديمة إنجلترا تلتمس منها العون فى دفع هذا الخطر الجديد ، وتسير المحالفات بين الدول دائماً على هذا الأساس ، أساس التكتل الذى يصل إلى القدر الكافى لدفع المخاطر .

ولعل آخر نموذج لذلك ، ما شهده العالم عقب الحرب العالمية الثانية ، عندما امتلأت أوربا الغربية ذعراً من الاتحاد السوفييتى حليف الأمس ، فكانت

الدعوة إلى حلف الأطلنطى ، والذى خلق من الدول المشتركة فيه شبه دولة اتحادية ، راحت تتحدث عن حضارة خاصة بها ومميزات فى طريقة حياتها تجعلها أكثر تقارباً فيما بينها ، بينما راح الاتحاد السوفييتى يؤلف بدوره تحالفاً من دول شرق أوربا مطلقاً عليه اسم حلف وارسو ، وهكذا انقسم العالم كما يقال إلى شرق وغرب ، يدعى كل منهما أن النصف الآخر يشكل خطراً عليه .

وعلى هذه الصورة قامت الدول وتشكلت ، تحت وطأة المخاطر والرغبة فى اتقائها . . . فإذا زالت المخاطر ، وخفت التهديدات ، فإنها تستتبع على الفور تراخى عرى الاتحاد والتعاون .

ومن هنا فقد قيل بحق ، إن الإحساس الغامض بالقومية ، إنما يوجد بالأكثر ويشتد إبان الأزمات والخوف من الأخطار وخلال الحروب . . . ويضعف أيام السلام والرخاء وانعدام الأزمات .

جلب المنافع :

على أن غريزة البقاء وحب الذات ، لا تقف عند حد دفع المخاطر ، وإلا لانفرط عقد أى اجتماع بالفعل عند انتفاء الخطر الحاد المباشر ، ولكن الذى يبقى المجتمعات متساندة متماسكة ، بل ويزيد فى نموها هو صورة أخرى من صور غريزة البقاء ، وتلك هى الرغبة فى « جلب المنافع » فالإنسان للابقاء على ذاته يبذل نشاطاً للحصول على حاجاته من غذاء وكساء ومسكن وغير ذلك ، وهو ميال بطبعه للحصول على أكبر قدر من الحاجات التى توفر له أكبر نصيب من الرفاهية ، بأقل قدر من الجهد والمشقة .

وقد كانت هذه الطبيعة ، هى التى حدت بالإنسان منذ عصور مبكرة إلى اكتشاف ما فى تقسيم العمل من إشباع لحاجاته ، بأقل جهد ممكن ، فأصبح يعمل من خلال الجماعة ومعها ، وكلما ازدادت حاجات الإنسان وتعقدت ، كلما لم يعد باستطاعة الإنسان أن يشبعها إلا بتوسيع دائرة الجماعة التى ينتمى إليها . ومن هنا كانت التجارة التى خرجت بالإنسان من بيته إلى البيوت المجاورة ، ومن قريته

إلى القرى المجاورة ، ومن مدينته إلى المدن المجاورة وغير المتجاورة ، ومن أجل ذلك قطع الإنسان المسافات الطويلة فى البر والبحر ، ليتبادل مع غيره من بنى الإنسان سلعه وخبراته وتجاربه ، وهكذا اتسع المجتمع الإنسانى وأخذ هذه الأشكال المتعددة ، من الأسرة حتى الدولة العالمية .

أى أنه يمكن تلخيص الأساس الذى يقوم عليه كل عمران إنسانى فى هذين العنصرين اللذين هما مظهران لغريزة واحدة وهى غريزة البقاء ألا وهما :

— درء المخاطر .

— وجلب المنافع .

فالجماعة أى جماعة ، إنما تقوم وتقوى وتشتد وتتسع أو تضعف وتنكمش بل وتنقرض ، بمقدار ما تدرأ عن أفرادها من مخاطر وتحقق من منافع ، وباستطاعتنا أن نفسر كل حوادث التاريخ على ضوء هذه الحقيقة ، فالهجرات الفردية والجماعية ، من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، بل ومن قارة إلى أخرى ، والثورات والفتن والغزوات والحروب ، وعمليات التوحيد بين الجماعات المختلفة والتى وصلت إلى حد الاندماج ، وكذلك حركات التفرق والتمزق والانفصال ، كلها . . . وبدون استثناء قد نبعت من هذين العنصرين الأساسيين :

— درء المخاطر .

— وجلب المنافع .

فكل حديث عن الجنس أو اللغة أو التاريخ أو الثقافة ، كأساس لقيام الجماعات هو خلط بين السبب والنتيجة ، فالجماعات تلتقى أولا وتتكتل ، ثم يصبح لها بعد ذلك تاريخ مشترك وتصبح لها لغة وثقافة ، كما رأينا فى تكوين الولايات المتحدة .

الأمة الإنسانية :

وإن صح أن هناك على ظهر هذا الكوكب الأرضى ، أمة واحدة بالمعنى الاصطلاحى طبقاً للقواعد المتعددة التى استعرضناها ، فإن هذه الأمة هى الأمة الإنسانية ، فهى وحدها التى يمكن أن يقال إنها تعيش فى بيئة جغرافية واحدة ، هى هذا الكوكب الأرضى ، الذى يختلف فى حرارته وهوائه وصلاحيته للحياة عن بقية الكواكب الأخرى .

وهى وحدها المؤلفة من جنس واحد يعود إلى أصل مشترك ينتسب إليه كل أفراد الجنس البشرى .

وهى وحدها التى يتكلم أبناؤها لغة إنسانية واحدة ، هى لغة الفكر والعقل الإنسانى ، وإن اختلفت طرق التعبير .

وهى وحدها التى يمكن أن توصف بأن لها تاريخاً واحداً مشتركا هو تاريخ الإنسانية فى مجموعها .

وهى وحدها التى أصبح مصيرها واحداً ، ومصلحتها المحققة واحدة . وإذا كان هذا القول لا يزال حتى الآن عاماً ومجملا ، فقد كان حان الوقت لنتناوله بالشرح والتفصيل العلمى .

الفصل الثانى

أمنا الأرض

أو الوحدة الجغرافية

الكوكب الأرضى — المسيحيون وعمر الأرض — الطرق الحديثة لمعرفة عمر الأرض — تكون الصخور الرسوبية — القشرة الأرضية — باطن الأرض — الكرة الأرضية كما نعيش عليها — الانسان وشكل الأرض — أوربا المسيحية وشكل الأرض — انفصال القمر عن الأرض — تطور الأرض ونشوء الحياة — العصور الجيولوجية — الدهر السحيق — الدهر القديم — الدهر الوسيط — الدهر الحديث — الأرض التى نعرفها — مساحة القارات — انعدام المسافات والحواجز — علاقة الحياة بالأرض — الفكر الإنسانى — أمنا الأرض .

الضوء ونشأة الوجود :

انتهينا من قبل ، إلى أن الإلهـــام من ناحية ، والنظر والاستدلال من ناحية أخرى ، بل التجريب العلمى الحديث ، قد انتهى دائماً بالإنسان إلى التقرير بأن الطبيعة تقوم على الوحدة . وعلماء الطبيعة كما رأينا يعتبرون الضوء هو الأصل الذى تطورت منه بقية الموجودات الأخرى ، وأن الإشعاع الضوئى لسبب من الأسباب ، قد تحول إلى موجات كهربية مغناطيسية ، والموجات الكهرومغناطيسية قد تحولت إليكترونات وبروتونات ، ومن هذه البروتونات والإلكترونات تكونت الذرات ، التى تألفت منها مختلف عناصر المادة ابتداء من الأيدروجين . ومن الأيدروجين تكونت شتى أنواع الغازات ، التى تألفت منها السدم . ومن السدم نشأت المجرات والنجوم ، وشمسنا التى نعرفها والتى

تبعث الضوء والحرارة والحياة على الكوكب الأرضى ، هى نجم من هذه النجوم التى لا حصر لها والتى تقوم على احتراق الأيدروجين الدائم . ومن هذه الشمس انفصلت الأرض ، وبحكم هذا الأصل فإن الأرض ظلت تابعة للشمس تدور حولها كبقية الكواكب التى انفصلت بدورها عن الشمس ، والتى تدور كالأرض حولها . وليس من هدف هذا الكتاب ، ولا هو من اختصاصى أن أخوض فى نظريات طبيعية عن أصل الأرض ، وهل انفصلت عن الشمس كما تقول بعض النظريات ، أم هى شظية من نجم آخر انفجر فى سالف العصر والأوان ، ثم راحت تدور حول الشمس بفعل الجاذبية ، ولا أن نتعرض لتفاصيل النظريات التى تقول بسبب انفصال الأرض عن الشمس ، وأن ذلك قد تم بعمل تلقائى نتيجة دوران الشمس ، أو نتيجة مرور نجم آخر بالقرب منها ، فكل هذه نظريات وفروض علمية تقوم على التخمين ، وهى تتغير من حين لآخر حسب اختلاف نظرة الإنسان إلى الكون من حوله ، وازدياد معارفه بما يتضح له كل يوم من حقائق وكشوف علمية .

ولا جدال عندنا ، أن إنسان القرن الحادى والعشرين ستكون لديه نظريات أكثر إحكاماً ودقة عن علاقة الأرض بالشمس وبقية الكواكب الأخرى ، وعن أصل الكون ومادته الأولى ، وذلك بعد أن يكون الإنسان قد خرج نهائياً من سجنه فوق سطح الأرض ، وانطلق إلى الفضاء الكونى وارتاد كواكب المجموعة الشمسية ونفذ منها إلى باقى الأجرام السماوية والمجرات .

وحسبنا فى هذا المقام ، مقام الحديث عن أمنا الأرض أن نلوذ بالحقيقة المادية التى نعيش فوقها وبها وفيها .

الكوكب الأرضى :

بدأت حياة الكوكب الأرضى على شكل كرة هائلة من المواد الملتهبة تنطلق فى الفضاء بسرعة ١٨٫٥ ميلا فى الثانية دائرة حول الشمس على بعد

٩٣ مليون ميل تقريباً فيما يوصف هندسياً بأنه قطاع ناقص (اهليلجى) أى أقرب إلى شكل البيضة منه إلى الكرة .

متى بدأ هذا الحادث وفى أى عصر سحيق ، وكم مر عليه من الزمن ، تلك مسألة لم يستطع أكثر العلماء جموحاً فى الخيال والافتراض أن يحدد له وقتاً ... فكل التقديرات لعمر الأرض تبدأ بعد هذا الحادث الأول بمدة لا يستطاع تقديرها ، عندما بدأ سطح الأرض يبرد وتتكون بالتالى القشرة الأرضية متألفة من الصخور التى نعرفها ، وبعد أن تكونت بحارها وجبالها وأنهارها .

الاوروبيون فى العصور الوسطى وعمر الارض :

على أن الأوربيين فى العصور الوسطى ، لم يجدوا أية صعوبة فى تحديد عمر الأرض ، فقد كان بحسبهم أن يرجعوا إلى التوراة (العهد القديم) لكى يعتقدوا اعتقاداً جازماً أن الأرض قد خلقت عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، وانحصر الخلاف بين الثقات من أهل العلم حول الفصل الذى تمت فيه عملية خلق الأرض ، وهل كان فصل الخريف أو الربيع من عام ٤٠٠٤ ق. م[١] .

ولكن الشعوب التى سبقت أوربيى العصور الوسطى ، كان لهم رأى فى عمر الأرض يختلف كل الاختلاف عن هذا المدى القصير ، وقد بلغ الهنود إلى حد من الدقة فى تعيين عمر للأرض يقرب إلى عمرها الذى أصبح يقدر فى العصر الحديث على ضوء آخر الحقائق العلمية[٢] .

الطرق الحديثة لمعرفة عمر الارض :

على أن الأوروبيين فى القرن التاسع عشر ، عدلوا عن حكاية خلق

(١) هـ . ج . ويلز مختصر تاريخ العالم (بالانجليزية) .

(٢) يقدر الهنود عمر الأرض بـ ٢٫١٥٩٫١٣٦٫٠٠٠ عام وتقدير عمر الأرض علمياً فى العصر الحديث هو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ١٤٢

الأرض عام ٤٠٠٤ ق. م. ولجأوا إلى عدة وسائل وأساليب جديدة لتقدير عمر الأرض ، كانت تنتهى كلها بأن الأرض أقدم عهداً مما كانوا يظنون .

أما أول هذه الأساليب فهو قياس عمر الأرض من خلال تقدير كمية الملح المذاب فى مياه البحار والمحيطات ، ولما كانت هذه الأملاح قد جاءت بواسطة الأنهار ، فيكون عمر الأرض هو حاصل قسمة كمية الملح الموجود فى المحيطات على مقدار ما تحمله الأنهار إلى البحار من ملح فى كل عام .

وحسب عمر الأرض بطريقة أخرى ، فالملاحظة تثبت أن الرياح والمياه ينحتان سطح الصخور ، بدون انقطاع ، ويحملان الفتات إلى أماكن أخرى ، حيث تكون نتيجة ذلك طبقات رسوبية ، ومعرفة ماتحمله الريح أو المياه من هذه الرسوبيات كل عام ، وقسمة سمك الطبقة الرسوبية على هذا القدر السنوى ، يؤدى حاصل القسمة إلى عمر الأرض . ولكن علماء الجيولوجيا الحديثين أخذوا على هذين الأسلوبين استنادهما إلى معـــدل سنوى ثابت من الأملاح أو الرسوبيات ، وهو ما يخالف الواقع ، إذ أن الظروف متغيرة من عام لآخر ولا يمكن أن يكون معدل الزيادة السنوية سواء فى ملح البحار أو المواد الرسوبية ثابتاً . ولذلك فقد لجأوا إلى طريقة أكثر دقة وإحكاماً ، تكاد تبلغ دقتها (فى تقديرهم) مبلغ الساعة . وذلك باستخدام خصائص المواد المشعة كالراديوم والثوريوم ، فاشعاع هذه المواد يعنى أنها تتفتت بالتدريج بمعدل ثابت ، اكتشفوا أنه لا يتأثر قط بالحرارة مهما اختلفت ، ولا بالضغوط مهما ارتفعت ، وعلى ذلك فقد اعتبرت عملية الإشعاع بمثابة ساعة زمنية متناهيةفى الدقة ، ذلك أن اليورانيوم يتحول إلى رصاص بنسبة معينة ، وبحساب كمية الرصاص فى أى صخرة من الصخور ونسبته إلى ما فيها من اليورانيوم يمكن حساب الزمن الذى استغرقه اليورانيوم فى تحوله إلى رصاص .

وعن هذا الطريق أمكن تحديد عمر بعض الصخور بـ ١٣٠٠ مليون سنة[1]،

(١) السير هربرت سبنسر جونس الفلك العام — ص ٣٩ .

كما حدد عمر صخور أخرى بـ ١٦٠٠ مليون سنة[1] . ولما كانت القشرة الأرضية ، قد تكونت فى عصور متأخرة جداً من حياة الأرض ، فالفرض العلمى الذى يتردد الآن حول تقدير عمر الأرض يتراوح بين ٢٠٠٠ ، ٣٠٠٠ مليون سنة[2] .

ويقولون إن منظر الأرض كان فى العهد السحيق أكثر ما يكون شبهاً بالمنظر داخل أفران الحديد العالية ، حيث تشتعل خامات الحديد والفحم الحجرى والحجر الجيرى مكونة كتلة ذائبة من اللهب المخيف ، وكانت هذه الكرة الملتهبة المنطلقة فى الفضاء (الأرض) مغلفة بأدخنة النيران والسحب الحمراء المتوهجة .

تكوين الصخور النارية :

وعلى مر الملايين من السنين بدأ سطح الأرض يبرد ، والسحب النارية التى تغلفها تسقط عليها مطراً ، مطراً لا ينقطع ليلا أو نهاراً ، صيفاً أو شتاءً ، وتنقضى ملايين أخرى من السنين على هذه الوتيرة ، وتتكون الصخور الجامدة التى تؤلف القشرة الأرضية . ولما كانت هذه الصخور عندما تتجمد تصبح أثقل وزناً من المواد الأخرى الذائبة فقد بدأت تغوص ويحل محلها المواد الذائبة الأخف وزناً ، وتبرد المواد الذائبة الجديدة بدورها ، فتغوص من جديد ليطفو غيرها . وعلى هذا النهج تكونت القشرة الأرضية الأساسية للكرة الأرضية ، والتى أصبحت تتألف من نوعين رئيسيين من الصخور : النارية المتجمدة أى البازلت وهو الأثقل وزناً ، تعلوه صخور الجرانيت الأخف وزناً بعض الشىء .

---

(١) مختصر تاريخ العالم — ص ١٨ .

(٢) الفلك العام — ص ٣٩ .

تكوين الصخور الرسوبية :

على أن الأمطار التى كانت لا تنفك تهطل على سطح الأرض بدون انقطاع ، سرعان ما بدأت تؤثر على هذه الصخور إذ تفتتها بالتدريج وتحمل الفتات مع تيارات المياه المتجمعة لكى تترسب من جديد فى مكان آخر ، فنشأت عن هذه العملية ما يعرف بالصخور الرسوبية .

ومن هذه الصخور الرسوبية والنارية ومشتقاتهما ، تكون سطح الكرة الأرضية فى هذه العصور السحيقة .

القشرة الأرضية :

وهذا السطح الذى نتحدث عنه ، أو بالأحرى القشرة الأرضية لاتعدو أن تكون قشرة رقيقة جداً ، بالنسبة إلى حجم الكرة الأرضية ، ولعل أقرب شبه لها قشرة التفاح الرقيقة بالنسبة لباقى حجمها ، فهى لا تتجاوز ٥٠ كيلومتراً من ٤٠٠٠ كيلومتر ، مقدار طول نصف الكرة الأرضية ، أى بنسبة $\frac{١}{٨}$.

ويذهبون بالشبه بين الكرة الأرضية والتفاحة حتى نهايته ، فكما أن قشرة التفاحة تتغضن بعد قليل من قطفها ، فكذلك تغضنت القشرة الأرضية نتيجة ما حدث فى باطن الأرض من تقلصات بعد برودتها ، فكانت الجبال والهضاب والوديان والسهول .

باطن الأرض :

ولا يزال باطن الأرض ، يشير إلى أصلها وماضيها ، عندما كانت كلها تتألف من مواد ملتهبة ذائبة ، ومن غازات ملتهبة وأبخرة ، إذ لا نكاد نوغل فى باطن الأرض حفراً بمقدار مائة متر فقط ، حتى ترتفع الحرارة ثلاث درجات مئوية . وفى المناجم التى يحفرها الإنسان بحثاً عن مختلف المعادن ، وخاصة الذهب ، التى وصل عمق بعضها إلى كيلومتر ، فإن الحرارة ترتفع داخل هذه

المناجم ثلاثين درجة . وفى أحد مناجم أفريقيا الخاصة بتعدين الذهب والتى ناهز عمقها ثلاثة كيلومترات ، فقد وصلت إلى ما يقرب من درجة الغليان ، ولا يستطيع العمال أن يعيشوا فضلا عن أن يعملوا فى هذا المنجم إلا بعد استخدام آخر مبتكرات العلم الحديث فى تكييف الهواء وجعله مناسباً .

وكثيراً ما تنفجر ينابيع المياه الساخنة ، والتى تصل إلى درجة الغليان فى أعقاب الزلازل ، وما أكثر الينابيع الحارة التى يستشفى بها الناس فى أرجاء العالم ، والتى تنبثق كلها من أعماق تتناسب مع درجة حرارتها بالمعدل السابق الإشارة إليه .

وتمضى القاعدة فى اطرادها من ارتفاع الحرارة ٣ درجات كل مائة متر ، فعلى عمق ٥٠ كيلومتراً من سطح الأرض تصبح درجة الحرارة ١٢٠٠° مئوية ، وقد أيدت المشاهدة هذه الحقيقة ، فالحمم البركانية التى تنبثق من عمق قدره ٥٠ كيلو والمؤلفة من صخور ملتهبة ذائبة يبلغ درجة حرارتها ١٢٠٠° (١) .

وقد ظن فى فترة ما ، أنه يجب تعميم هذا القانون ، وعلى ذلك فإن درجة الحرارة فى مركز الأرض يجب أن تكون ٢٠٠ ألف درجة مئوية ، وهو ما لا يتصور معه وجود مادة متماسكة ، ولكن أحدث الآراء العلمية تقول إن باطن الأرض لا يمكن إلا أن يكون كرة صلبة إلى حد ما ، كأثر من آثار الضغوط الرهيبة الواقعة عليه .

وهكذا تتضارب الآراء عما يمكن أن يكون عليه باطن الأرض ، ولم يستطع العلم الحديث أن يقطع برأى فى هذا الموضوع الذى لا يبعد عن الإنسان بأكثر من ٤٠٠٠ ميل ، وذلك فى الوقت الذى يرنو فيه إلى القمر وبقية الكواكب الأخر ويوشك أن يصل إليها ، وهى التى تبعد ملايين الكيلومترات . ولا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فأقرب الأشياء إلى الإنسان هو أعصاها على الفهم والعلم ، ولا نحسب أن هناك ماهو أقرب إلى الإنسان من نفسه

---

(١) الدكتور أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ١٢٨ .
اديث راسكين — العالم من حولنا — ص ١١٨ .

التى بين جنبيه ، أو أغوار عقله الباطن ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يعرف من أمر هذه الأغوار إلا فروضاً وتخيلات ، فى الوقت الذى يتصدى فيه للكلام عن السماء والأرض والنجوم والأفلاك ، ويكتشف قوانين الطبيعة ونواميسها .

الكرة الأرضية كما نعيش عليها :

ويمكن تلخيص طبيعة الكرة الأرضية كما نعيش عليها الآن على الصورة الآتية :

— كرة ملتهبة من المواد الحديدية الذائبة ، لا يعرف بالضبط الكيفية التى توجد عليها نواة هذه الكرة .

— يلف هذه الكتلة الكروية الملتهبة المؤلفة من المواد الذائبة قشرة من الصخور البازلتية والجرانيتية والرسوبية والتربة الأرضية .

— يلف الماء الجزء الأكبر من هذه القشرة الأرضية ٧٠ ٪ .

— يلف الصخر والماء معاً طبقة من الغازات تمتد إلى بضع مئات من الكيلومترات تحيط بالأرض ، على أن ثلاثة أرباع هذه الغازات أو الهواء من حيث الكمية تتركز فى تسعة أميال أو خمسة عشر كيلو متراً حول الأرض .

والكرة الأرضية ليست كاملة الاستدارة ، فإن حركة دورانها تجعلها أقرب إلى شكل البرتقالة ، بمعنى أنها مفلطحة بعض الشىء عند القطبين ، فينقص محورها الواصل بين القطبين ٢٦ ميلا عن قطرها المار بخط الاستواء والذى يبلغ طوله ٧٩٢٦ ميلا . أما محيط هذه الكرة عند خط الاستواء ، أى فى أوسع أبعادها ، فهو ٢٤٫٩٠٢ ميلا[1] .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .
ويتألف الغلاف الجوى من مخلوط من الآزوت والأوكسيجين وغازات أخرى .

وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ، وتدور حول الشمس مرة فى كل ٣٦٥ يوماً وربع يوم تقريباً .

وينشأ الليل والنهار نتيجة دوران الأرض حول نفسها ، كما تنشأ الفصول الأربعة نتيجة دوران الأرض حول الشمس . ولو أن مدار دوران الأرض كان عمودياً على خط الاستواء لوجب أن يتساوى الليل والنهار ، وتتساوى الفصول الأربعة فى درجات الحرارة ، ولكن الواقع الذى نعرفه يخالف بين طول الليل والنهار على مدار أيام السنة كما يخالف بين حرارة الفصول ، وهذا ما حدا بالعلماء أن يفترضوا أن محور دوران الأرض حول نفسها يميل عن الخط العمودى بـ ٢٣½ درجة ، وهذا الفرض يفسر تفسيراً دقيقاً وملائماً اختلاف الليل والنهار من ناحية ، واختلاف الحرارة فى فصول السنة من ناحية أخرى .

الإنسان وشكل الأرض :

ولما كان الإغريق القدماء ، هم أول من تركوا لنا كتباً فى علم الطبيعة والجغرافيا الطبيعية ، فإنه يتبين منها أنهم اعتقدوا الأرض فى بادىء الأمر قرصاً مستديراً مركزه بلاد الإغريق ، وأن هذا القرص عائم على الماء كالسفينة . وقال البعض الآخر إنها جسم مسطح يحمله الهواء ، وهى لا تتحرك نتيجة حجمها الكبير واتساعها ، وهذا ما يعلل عدم سقوطها فى تيهور الفضاء . وكان فيثاغورس هو أول من قال بكروية الأرض وحركتها . وقد تابعه أرسطو على كروية الأرض ، حتى إذا وصلنا إلى أرسطرخس الذى عاش فى القرن الثالث ق . م ، وجدناه يقول لنا ما نعتبره اليوم حقيقة علمية ثابتة ، من أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، وحول الشمس مرة فى كل عام ، وأن الشمس لا الأرض هى مركز الدوران ، وهى ثابتة فى مكانها وليست رؤيتنا لها متحركة إلا كما يرى المسافر الأشجار وأعلام الطريق وهى تندفع فى الاتجاه المضاد لسيره ، مع أن حقيقة الأمر أنها ثابتة وهو الذى يتحرك . وظل هذا الرأي سائداً ، حتى كان بطليموس الفلكى الاسكندرى الذى وافق

الإغريق على كروية الأرض ، ولكنه نفى أن تكون الأرض متحركة وعزا الحركة إلى الشمس وأنها هى التى تدور حول الأرض .

وقد توصل الهنود بدورهم إلى كروية الأرض ودورانها ، فيقول لنا « أريابهاتا » أعظم علمائهم فى الفلك والرياضة « إن عالم النجوم ثابت ، والأرض فى دورانها هى التى تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفائها فى الغروب »[١] .

على أن خليفة هذا العالم المشهور ، نقض هذا القول تأثراً فيما يبدو ببطليموس الفلكى ، فقال بثبوت الأرض ودوران الشمس[٢] .

أما العرب الذين ورثوا الحضارات القديمة كما سوف نرى ، فقد سلموا جميعاً بكروية الأرض ، ولكنهم اختلفوا فى موضوع حركتها كما اختلف كل من سبقهم ، فنرى أبو ريحان البيرونى يناقش الرأيين دون أن يرجح أحدهما على الآخر فيقول :

« إن النظريتين — نظرية الثبوت أو الحركة — نظريتان متكافئتان بكليهما تفسر الأرصاد الفلكية ، وإن من الصعوبة بمكان ترجيح إحداهما على الأخرى »[٣] .

ولم يكن البيرونى إلا أحد حلقات العلم العربى الذى ازدهر منذ الفتح الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى يسجل لنا فيما يسجل أن علماء المسلمين قد قاسوا محيط الكرة الأرضية بناء على أمر الخليفة المأمون ، وقسموا محيط الدائرة إلى ٣٦٥ درجة وقدروا الدرجة بـ ٧٦ ميلا وثلثى الميل وعلى ذلك فقد حسبوا محيط

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الثالث — ص ٢٣٦

(٢) قصة الحضارة — الجزء الثالث — ص ٢٣٦ .

(٣) الدكتور أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ٤٤ .

الكرة الأرضية على أنه ٢٠٤٠٠ ميل وهو ما يقرب من تقديرنا الحالى جداً ، كما قدروا قطر الكرة الأرضية بـ ٦٥٠٠ ميل وهو عند علماء اليوم ٧٩١٣ ميلا تقريباً[١] .

ويقول الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير قوله « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » وقد استدل أقوام بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جداً لأن الكرة إذا عظمت جداً ،كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الاستقرار عليها ، ثم انتهى من تفسيره بعد مناقشة طويلة إلى القول بأنه لا يشك فى كروية الأرض « إلا من لا تدبر له »[٢] .

أما بالنسبة لدوران الأرض ، فقد رأينا ما قرره البيرونى بصدده ، وقد تكررت الإشارة إليه فى كتاب عضد الدين بن أحمد المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى كتابه المواقف ، وتابعه على رأيه شارح المواقف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨٩٦ هـ . وكان ممن تحدثوا عن دوران الأرض ، بهاء الدين العاملى فى رسالته تشريح الأفلاك[٣] .

أوربا المسيحية وشكل الأرض :

على أن الأوربيين فى العصور الوسطى كما تصوروا أن الأرض قد خلقت عام ٤٠٠٤ ق.م ، فقد تصوروا القول بكروية الأرض ودورانها ، أمراً يخالف العقيدة المسيحية ، فالأرض عندهم قرص مستدير مركزه بيت المقدس (حيث ولد المسيح) وهو طاف فوق الماء . حتى كان كوبرنيكس فى القرن السادس عشر ، فانبعث قول الإغريق القديم الذى قال به فيثاغورس وأرسطرخس من كروية الأرض ودورانها حول الشمس ، ولكنه ظل يكتم هذا الرأى طوال

---

(١) الدكتور أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ٤٢ .

(٢) فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين — مادة أرض .

(٣) » » » » » » » »

أربعين سنة ، ولم يسمح بطبع كتابه الذى يحتوى على هذا الرأى إلا قبيل وفاته ، ولو تأخرت هذه الوفاة قليلا لمات فوق المحرقة باعتباره كافراً وملحداً .

حتى إذا تمكن جاليليو عام ١٦٠٩ من صنع المنظار المكبر (التلسكوب) لأول مرة ، استطاع بواسطته أن يجمع بعض الأدلة الحسية على دوران الأرض ، بالإضافة إلى البراهين الرياضية والحسابية البحتة التى قال بها كوبرنيكس . وكاد هذا القول يودى بجاليليو إلى المحرقة ، لولا أنه اعتذر علناً وتاب وأناب ، وتعهد بكل ذلة ومسكنة أنه لن يعود لهذا الكفر ، وسيقف بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه أن يردد هذا السخف والكفر والهذيان ، بل وسيبادر بإبلاغ السلطات عنه[1] .

حقيقة مقررة :

وكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس قد أصبحت اليوم من الحقائق العلمية الثابتة التى تدرس للأطفال ، ولم يعد إثباتها مسألة براهين رياضية أو منطقية بل مسألة واقع محسوس يمكن لكل إنسان أن يتحقق منه بنفسه .

وقد بدأت هذه التجارب المادية برحلة ماجلان فى القرن السادس عشر ، عندما عادت إحدى سفنه الثلاث من تطوافها حول الأرض ، إلى ميناء القيام ، بالرغم من أنها ظلت تسير فى اتجاه الغرب دائماً . وإذا كانت هذه الرحلة حول الأرض قد استغرقت فى القرن السادس عشر ثلاث سنوات فقد أصبحت الطائرات النفاثة تدور حول الأرض فى أقل من ٢٤ ساعة ، بل إن سفن الفضاء الروسية والأمريكية على السواء ، قد أصبحت تدور حول الأرض فى ٩٠ دقيقة . وإذا كانت كروية الأرض قد أصبحت ترى بالعين المجردة من ركاب سفن

---

(١) طالع بالتفصيل ، كلما اشتملت عليه محاكمة جاليليو من طرائف ومهاترات فى كتاب برتراند راسل — النظرة العلمية — ص ٢٤ ومابعدها .

الفضاء ، بل ويسجلونها فى الصور ، فإن حركة الأرض ودورانها ، قد أصبحت تكاد تلمس باليد ، حيث تقوم عمليات إطلاق سفن الفضاء وإعادتها سالمة إلى الأرض ، على أساس سرعة دوران الأرض حول نفسها ، ومدى سرعتها فى دورانها حول الشمس وانتقالها من مكان إلى آخر ، ويؤكد نجاح عمليات سفن الفضاء ووصولها إلى الأرض سالمة ، دقة هذا الحساب .

انفصال القمر عن الأرض :

ولعل أعظم حادث فى تاريخ الكوكب الأرضى بعد انفصالها من الشمس ، إذا أخذنا بالرأى الذى يقول بذلك ، أو بعد دورانها حول الشمس بفعل الجاذبية إن لم تكن قد انفصلت عنها إبتداء ، هو حادث انفصال القمر عن الأرض وتحوله إلى تابع يدور حولها ، كما تدور هى حول الشمس .

وانفصال القمر عن الأرض ، مسألة لا تفترق حولها الآراء كما تفترق حول انفصال الأرض عن الشمس ، فالعلماء المحدثون متفقون على انفصال القمر من الأرض ، حتى ليحددوا الموضع الذى انفصل منه القمر عن الأرض ، وهو هذه الفجوة الضخمة التى تؤلف المحيط الهادى(١) وستشهد السنوات المقبلة عندما يصل الإنسان إلى القمر ، ويكتشف سطحه ونقف على تركيبه الجيولوجى ، إذا كان هذا الرأى المجمع عليه سيتأكد ، أم أنه سينقض .

تطور الأرض ونشوء الحياة :

ومضت ملايين السنين تتلوها ملايين السنين ، وكبر عمر الأرض ، واستطال النهار ، وبدت الشمس أبعد عن الأرض ، وخفت بالتالى حرارتها ، وتباطأت سرعة القمر فى الدوران حول الأرض ، وقل هطول الأمطار وخفت حدة الأعاصير والرياح العاتية ، وزادت كمية المياه التى تملأ البحار والمحيطات ، فى الوقت الذى طفت فيه اليابسة وعلت فوق سطح الماء ، ومع ذلك فإن

---

(١) الفلك العام — ص ١٩٤ .

الـكوكب الأرضى لم يكن قد عرف الحياة بعد ، فالبحار لا تزال خالية من كل مظاهر الحياة ، والصخور عميقة مجدبة من أى أثر للحياة .

وتوالت الحقب على الأرض ، فى ترتيب زمنى أصبح بقدرة علماء العصر الحديث أن يتتبعوه ، مستخدمين ما أشرنا إليه من قبل وهو (الساعة الزمنية) حيث يحدد الإشعاع عمر الصخور المختلفة والمعادن بل والثلوج ، ويضعون لنا قائمة بأسماء الحقب المختلفة ويحددون أزمنتها ، وفى أى منها بدأت مظاهر الحياة فى صورها الأولى ، ثم المتطورة بعد ذلك ، وغنى عن البيان أن ذلك كله ليس إلا على سبيل الفرض والتخمين ، وان كان فرضاً وتخميناً يستند إلى أسس وعناصر تجريبية متفق عليها بصفة عامة .

العصور الجيولوجية والدهور السحيقة :

١ — الدهر السحيق ــ ماقبل الـكامبرى Pre-Cambrian

ويختلف العلماء فى تقدير بدايته ما بين ٤٠٠٠ مليون و ٢٠٠٠ مليون سنة ولـكنهم يكادون يتفقون على مدة نهايته وهى ٥٠٠ مليون سنة .

وواضح أن هذا هو أطول الدهور الأرضية ، والقول على أن الأرض لم تعرف الحياة فى الجزء الأكبر من هذا الزمن ، أو بالأحرى ثلثى هذا الزمن . وقد تـكون الحياة قد وجدت فى البحار فى الثلث الأخير ، ولـكنها على كل حال لم تخلف وراءها أى أثر يمكن أن يدرك ، ولا غرابة فى ذلك ، فما لم يكن الـكائن الحى قد وصل إلى درجة من التصلب بحيث تـكون له قشرة أو هيكل عظمى ، فلا يمكن أن يترك وراءه أثراً فى الأحجار الرسوبية .

٢ — الدهر القديم ــ الباليولوزى Palesozoic Era

ويبدأ من ٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سنة وينتهى حوالى ٢٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سنة . وبدخول تاريخ الأرض فى الدهر القديم ، تتحدد معالم الأرض ، ويبدأ كتابها أيسر فى المطالعة ، فباستطاعتنا أن نطالع فى الصخور الرسوبية من هذا العهد ، كيف

طغى البحر على اليابسة ثم انحسر عنها مرات كثيرة ، تاركا آثاره فى كل مرة على الصخور الرسوبية ، ونرى على صفحات هذه الصخور الحياة فى صورها الأولى البدائية منذ كانت كائنات بسيطة ، حتى الكائنات الأكثر تعقيداً ، وفى هذا الدهر القديم نشأت الأسماك لأول مرة ، وظهرت فى أواخره الحيوانات البرمائية أى التى تعيش فى الماء والأرض على السواء . وبدأت الحياة النباتية تزدهر فى المستنقعات والبحيرات وعلى شواطىء المياه الواطئة .

على أن الهضاب والتلال والسهول كلها ظلت عقيمة بغير حياة . لقد بدأت الحياة تتعلم كيف تتنفس ، ولكن جذورها ظلت فى المياه حيث نبتت ، ولذلك فقد كان عليها دائماً أن تعود إلى الماء ، لتضع بيضها وتكثر نوعها .

٣ — الدهر الوسيط (الميزوزى) Mesozoic Era

ويشمل الفترة من ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة حتى ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة وفى هذا العصر الوسيط الذى استغرق ما يقرب من مائة وثلاثين مليوناً من السنين ، وقعت الحوادث الجيولوجية العتيقة التى أدت إلى ظهور سلاسل الجبال الشاهقة التى نعرفها اليوم ، كسلسلة جبال الروكى والأنديز ، فى أمريكا الشمالية والجنوبية . وفى هذا الدهر ظهرت الزواحف الأرضية بكل أنواعها بعد أن غطت الحشائش الضخمة العملاقة ظهر الأرض ، فكان حيوان الديناصور الجبار ، الذى كان ملك الأرض فى هذه الحقبة ، وقد كان طوله من الرأس حتى نهاية الذنب يبلغ ٨٤ قدماً ، وكانت هناك زواحف أخرى يزيد طولها على مائة قدم ، ومن هذه الزواحف تطور نوع من الطيور الجبارة .

ولأمر ما انقرضت هذه الكائنات الجبارة ، ولا يعرف السبب الذى أدى إلى انقراضها .

٤ — الدهر الحديث ـ السينوزى Cenozoic Era

ويبدأ هذا الدهر من ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة ويستمر حتى الآن . وقد كان المناخ فى أول هذا الدهر حاراً جداً ، ثم أخذ الجو فى البرودة (لسبب مجهول) حتى أصبح جليداً فى آخره .

ويتحدث الجيولوجيون عن أربعة عصور جليدية ، يقع الأول منها منذ ٦٠٠,٠٠٠ سنة ووصل العصر الجليدى الرابع ذروته منذ ٥٠,٠٠٠ سنة .

وفى هذا الدهر الحديث انحسر البحر عن الجزء الأكبر من القارات كما نعرفها الآن ، وتكونت فيه جبال الهملايا والألب ، وبدأت الأرض تعرف نوعاً جديداً من الحيوانات ، لم تعد تقنع فى عملية إكثار النوع ، بوضع بيض ثم تتخلى عنه ، بل أصبحت تحتضن الجنين فى داخلها ، وتغذيه من دمها (داخل الرحم) حتى إذا خرج الجنين إلى الحياة ، أقبلت عليه الأم تغذيه بغذاء تفرزه من أحد غددها وهو الثدى ، ومن هنا أطلق العلماء على هذا الطراز الجديد من الحيوانات اسم الحيوانات الثديية (نسبة إلى غدة الثدى) أو الحيوانات (اللبونة) (نسبة إلى اللبن الذى تغذى به) .

وليست الحيوانات الراقية التى تعيش حولنا والتى نعرفها جيداً ، ابتداء من الأرنب والقطة والشاه والبقرة والحصان والكلب حتى الأسد والنمر والفيل والغزال والقرد ، إلا فروعاً من هذه الحيوانات الثديية ، التى يطلق عليها علماء الحيوان اسم الحيوانات الراقية ، فالمشاهدة تدل على أن هذه الحيوانات تتمتع بقدر كبير من الفهم والإدراك ، وهذا ما يجعل الإنسان قادراً على استئناسها والاستفادة منها ، فان هذا الاستئناس ما كان يمكن أن يتم لولا تحقق قدر من التفاهم بين الإنسان وبينها .

وتبلغ هذه الحيوانات الثديية ذروة رقيها فيما يسمى القردة العليا : الغوريللا والأورانج تانج والشمبانزى ، حيث نرى لدى هذه القردة أول مظاهر الاجتماع ، إذ تعيش فى جماعات متجاورة ، يراقب بعضها بعضاً ، ويقلد بعضها بعضاً ، ويحذر بعضها بعضاً من الأخطار الوافدة . ويقول علماء التطور إن الإنسان ليس سوى نوع من هذه القردة العليا ، وقبل أن نعرض لهذه القضية فلنمض فى متابعة تاريخ هذا الكوكب الأرضى وتطوراته حتى نصل إلى أيامنا هذه .

الأرض التي نعرفها :

نحن الآن عند خمسين ألف سنة مضت ، وقد أصبحت الكرة الأرضية أكثر ما تكون شبهاً بالصورة التي نراها عليها الآن في الخرط والمصورات والكرات الأرضية .

فاليابسة قد ثبتت في أماكنها نهائياً ولم تعد تتحرك ، بعد أن برزت العناصر التي تقوم عليها نهائياً .

وملأت المياه الفجوات والشقوق ، التي فصلت نهائياً بين القارات الست ، فامتلأ حوض البحر الأبيض الذي فصل أوربا عن أفريقيا ، وقد كانتا متصلتين .

وامتلأ الشق الذي نطلق عليه اسم البحر الأحمر ، فاصلا بين آسيا وأفريقيا. وغمرت المياه الجسر الأرضي الذي يربط آسيا بالأمريكتين ، محولا إياه إلى ممر بهرنج .

وجاء الإنسان ، وبدأ يترك آثاره على أديم الأرض ، وبدأ يطلق شتى الأسماء على كل ما يحيط به ، وبدأ يتجول ، ويتعلم ويزيد من معارفه ، ويؤلف الجماعات والقبائل والأمم والدول .

وكان أول ما عرف من سطح الكرة الأرضية بتفصيل دقيق ، هو هذا الجزء الذي يحيط بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد سمي متوسطاً لأنه كان يتوسط العالم كما عرفه إنسان ذلك التاريخ . ولا شك أن معرفة الإنسان لجنوب آسيا قد سبقت ذلك فمن جنوب آسيا سار الإنسان دائماً صوب الشمال ، نحو شمالها الغربي ، ونحو شمال أفريقيا وجنوب أوربا ، أما شمال أوربا فقد كان لا يزال رازحاً تحت عبء عصر الجليد الرابع ، ولم يكن باستطاعة الإنسان أن يحيا في دنيا الجليد .

وقد استطاع الإنسان منذ عصر مبكر ، أن يصل إلى الأمريكتين ، ولكن السبل سرعان ما انقطعت بين سكان هذا القسم من العالم ، والعالم القديم ، فظلا مجهولين لبعضهما ، حتى أعاد خريستوف كولمبس اكتشافهما عام ١٤٩٢ ،

ثم توالت الاكتشافات لباقى أجزاء العالم ، ولم يحل القرن العشرون حتى كانت خريطة العالم المتداولة لا يوجد فيها شبر واحد لم تطأه قدم الإنسان ، فهو لم يسمح لأعتى القمم أن تتحدى قوة إرادته فتسلقها[1] . أو أعمق نقطة فى المحيط لا يصل إليها بآلاته وأدواته[2] . وقد قسم الإنسان الكرة الأرضية إلى خطوط بالطول وأخرى بالعرض ، يبلغ عدد كل منها ٣٦٠ بقدر درجات الدائرة ، وتبدأ خطوط العرض من خط الاستواء (٦٨٫٧ ميلا) وتتدرج صعوداً حتى تصل إلى القطبين فى الشمال والجنوب (٦٩٫٤) . كما تبدأ خطوط الطول من جرينيتش بالقرب من لندن (صفر) وتتدرج بعد ذلك حتى ١٨٠ درجة شرقاً وغرباً ومقدار درجة الطول الواحدة ٦٩٫٢ ميلا وكل درجة من هذه الدرجات تمثل ٤ دقائق من الناحية الزمنية . ولم تعد ثمة بقعة على ظهر الأرض لا يستطيع الإنسان أن يحدد مكانها على الخريطة ، أو أن يصل إليها بشتى أنواع المواصلات التى تسير فوق الماء وتحت الماء ، أو على الأرض أو على متن الهواء . وتبلغ مساحة سطح الكرة الأرضية ١٩٦٫٨٣٦٫٠٠٠ ميل تقريباً أو ٥٠٩٫٦١٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع تقريباً أو ١٢٥٫٩٧٥٫٠٤٠٫٠٠٠ فدان .

ولا تزيد مساحة اليابسة على قدر يتراوح بين الثلث والربع من هذه المساحة أى حوالى ٥٥٫١٦٨٫٠٠٠ ميل .

أما البحار والمحيطات فتؤلف الجزء الباقى موزعة على الوجه التالى[3] :

المحيط الهادى	٦٨٫٦٣٤٫٠٠٠ ميل
« الأطلسى	٤١٫٣٢٢٫٠٠٠ «
« الهندى	٢٨٫٣٥٠٫٠٠٠ «

(١) قمة جبال هملايا ٢٩٫٠٢٨ قدماً فوق سطح البحر .

(٢) أعمق نقطة فى المحيط الهادى ٣٥٠٠٠ قدم تحت سطح الماء .

(٣) هذه الأرقام تختلف حسب اختلاف المراجع ، وما يعد جزءاً من المحيط ، وما يعتبر مستقلا عنه .

وباقى المحيطات والبحار الجزء الباقى . والبحر الأبيض هو أكبر بحار العالم تبلغ مساحته ١٫١٤٥٫٠٠٩ ميل مربع .

أما أصغر بحار العالم فهو بحر البلطيق فى أوربا وتبلغ مساحته ١٦٠٠٠٠ ميل . وتبلغ مساحة الماء العذب فوق اليابسة فى صورة بحيرات وأنهار ١٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، وأطول أنهار العالم هو نهر النيل ويقع فى أفريقيا ويبلغ طوله ٤٠٠٠ ميل ، ويليه نهر المسسبى والمسورى معاً ٣٩٨٨ ميلا .

مساحة القارات [١] :

أما القارات فمساحاتها على الوجه التالى :

آسيا	١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل تقريباً
أفريقيا	١١٫٨٠٠٫٠٠٠ « «
أمريكا الشمالية	٨٫٥٠٠٫٠٠٠ « «
أمريكا الجنوبية	٦٫٩٠٠٫٠٠٠ « «
أوربا	٤٫٠٠٠٫٠٠٠ « «
استراليا	٣٫٠٠٠٫٠٠٠ « «
المنطقة القطبية الجنوبية	٦٫٢٠٥٫٠٠٠ « «

والاتحاد السوفيتى هو أوسع دول الأرض مساحة إذ تبلغ مساحته بمفرده ٨٫٦٤٥٫٠٠٠ ميل تليه كندا ٣٫٨٥١٫٠٠٠ ميل تقريباً ، فالصين ، فالولايات المتحدة الأمريكية ، فالبرازيل ، فأستراليا ، فالهند ، فالأرجنتين ، فالسودان ٩٦٧٫٠٠٠ ميل تقريباً ، فالكونغو ، فالمكسيك .

ويبلغ عدد سكان العالم فى الوقت الحاضر أكثر قليلا من ٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة .

وأكثر بلاد الدنيا سكاناً هى الصين ٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وتليها الهند ٤٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فالاتحاد السوفيتى ٢٦٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فالولايات المتحدة

(١) تختلف هذه الأرقام قليلا باختلاف المراجع ، نظراً للاختلاف على ما يعد من كل قارة وما لا يعد منها ، وقد اعتمدنا فى هذه الأرقام على دائرة المعارف البريطانية .

الأمريكية ١٩٢,٠٠٠,٠٠٠ ، فأندونيسيا ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ ، فاليابان ٩٤,٠٠٠,٠٠٠ ، فألمانيا بقسميها ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ ، فانجلترا ٥٢,٠٠٠,٠٠٠ ، فإيطاليا ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ، ففرنسا ٤٥,٠٠٠,٠٠٠ .... الخ .

انعدام المسافات والحواجز :

ولقد انهارت الحواجز التي كانت تفرق الإنسان عن أخيه الإنسان ، وأصبحت المحيطات تقطع في بضع ساعات . ولم يعد هناك ركن من أركان العالم سواء على سطح الأرض أو تحت الماء أو في طبقات الجو القريب ، لا يصل الإنسان إليه بعلمه وآلاته ، فأصبح يعلم ما يجرى في أرجاء الكوكب الأرضي إن لم يكن ساعة حدوثه ، فبعد ذلك بلحظات ، أي بمقدار إبراق الخبر وإذاعته التي تنتقل بسرعة الضوء .

وهكذا أصبح الكوكب الأرضي كله يؤلف وحدة جغرافية واحدة بالنسبة لكل من يقيم على ظهره من بني الإنسان ، وقد حانت الساعة لنعرف صلة الإنسان بهذا الكوكب الأرضي ، وهو ما يعود بنا للتحدث عن نشأة الحياة .

نشأة الحياة وعلاقتها بالأرض :

رأينا فيما مر بنا كيف يحاول الجيولوجيون ، أن يقدروا للأرض عمراً من خلال قياس عمر الصخور التي تتألف منها القشرة الأرضية ، وقد قسموا عمر الأرض إلى دهور مختلفة ، قدروا لكل دهر منها عمراً خاصاً به ، وقد حاولوا أن يجعلوا لكل دهر من هذه الدهور خصائص غير ما سبقه أو لحقه من دهور ، وقد رأينا أنهم أطلقوا على الفترة القريبة من عمر الأرض اسم « الدهر السنيوزى » وقالوا لنا إن صخور هذا الدهر بدأت تحوى آثار الحيوانات الثديية ، وكلما مر الزمن تطورت الثدييات حتى وصلت إلى القردة العليا . حتى إذا كانت الصخور التي لا يزيد عمرها عن ٥٠ ألف سنة ، بدأنا نجد في آثار الحفريات ما يمكن اعتباره شبيه الإنسان أو الإنسان الأول .

وعندنا أن هذا الذى انتهى إليه العلم الحديث ، بعد الجهد والاستقراء والملاحظة والتجريب ، لاجديد فيه بالنسبة للانسان فى أى عصر من العصور ، فالرابطة بين الحياة فى شتى صورها وأشكالها من ناحية ، وبين الأرض من ناحية أخرى ، هى ظاهرة مؤكدة لم تغب عن أى إنسان ، تحدثت عنها أساطيره ، وأحلامه وخيالاته ، بل وتاريخه ومعارفه ، حتى لقد عبد الحيوانات فى شتى صورها وأشكالها باعتبارها الأصل الذى منه جاء ، وقدس كل ما يحيط به من كائنات حية وغير حية ، قدس الأنهار والجبال والأشجار ، ولم يفته فى أى لحظة العلاقة الوثيقة بين الإنسان وكل ما يحيط به . ولا عجب فى هذا الشعور والإحساس لحياتنا اليومية تؤكده وتقرره ، فما من كائن حى إلا ويولد صغيراً ثم يمتد ويكبر ويزيد فى الحجم ، وليس هذا الحجم إلا متحصلات الأرض ، من هواء وماء وتراب بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة من خلال النبات والحيوانات التى هى بدورها من نتاج الأرض .

ولا يكاد الإنسان يموت حتى يرى بالعين المجردة أنه يتحول إلى تراب الأرض ، ويصبح بدوره غذاء طيباً لهوام الأرض وحشراتها ونباتها .

فالدورة إذن بين الحياة وعلى رأسها الإنسان ، وبين كل ما يحيط بها هى ظاهرة محسوسة ملموسة لكل ذى عينين وعقل يفسر ما ترى العينان .

ولما كان القرآن الكريم يمثل ذروة ما وصل إليه الإنسان من المعارف عن طريق الوحى والإلهام ، فإنه يقرر هذه الحقيقة فى وضوح لا مزيد عليه ، إذ يتحدث عن خلق الحى من الميت ، وخلق الميت من الحى .

« يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون »[1] .

كما يتحدث القرآن عن علاقة الماء بالحياة ، مقرراً أن الماء هو أصل الحياة :

---

(١) الروم — ١٩

« وجعلنا من الماء كل شيء حى » حتى إذا وصل إلى الإنسان ، زاد الأمر تفصيلاً فأضاف إلى الماء تراب الأرض أى ما نسميه الطين « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »

ويعجب الإنسان ، كيف ينتهى العلم بعد أن يشرق ويغرب إلى استعمال نفس العبارات ، التى حاول أن ينكرها فى بادىء الأمر ويتمرد عليها باعتبارها لا تقوم على أساس علمى تجريبى ، فنرى واحداً من أعظم علماء الحياة فى أمريكا (لورنس هندرسون) يقول لنا « لابد أن ظهور الحياة بدأ أول ما بدأ فى أحد مجارى الطين الدافىء ، أو بين طيات زبد هذا الطين ورغاويه »(١) .

أما كيف نشأت الحياة من غير الحياة ، فهى لا تزال سراً مستعصياً على عقول أعتى العلماء .

وقد حدث أن اجتمع مئات من العلماء فى مؤتمر دولى لعلوم البحار فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٩ فى مدينة نيويورك ، وخصصوا قسماً كبيراً من نشاط المؤتمر لبحث نشأة الحياة ، واشترك فى أعمال المؤتمر أعظم علماء الروس المشتغلين بمعرفة أصل الحياة ، والذى نسب إليه أكثر من مرة أنه أوشك أن يكتشف سر الحياة وهو العلامة « أوبارين » فلما جاء دوره فى التحدث إلى المؤتمر قال للمؤتمرين هذا الحكم القاطع :

« إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل باءت بالفشل »(٢) .

وستمضى الأجيال تلو الأجيال باحثة عن السر الرهيب .

الفكر الإنسانى :

وكما يقف علماء الحياة ، عاجزين عن إدراك كيفية نشأة الحياة من المادة الجامدة ، ويواجهون بفجوة كبيرة لا يعرفون كيف يسدونها ، ولا يملكون

---

(١) انظر كتاب الطاقة الانسانية للمؤلف ص ١٨٧ .
(٢) الحياة ونشأتها أنور عبد العليم ص ١١٢ .

إلا أن يسلموا بعجزهم كما فعل الإنسان على مر العصور ، فكذلك الشأن بالنسبة لعقل الإنسان ، إذ يقف علماء التطور حيارى إزاء الفكر الإنسانى ، فما أسهل عليهم أن يتتبعوا مراحل التطور وعملية النشوء والارتقاء ، من الأميب حتى القردة العليا ، فهذه من تلك ولها خصائص واحدة ، وتعمل كلها بغريزة الحياة النامية التى لا تتغير أو تتبدل ، فأرقى حيوان ، كأدنى حيوان ، يقوم بنفس الحركات التى كان أسلافه يقومون بها منذ ملايين وملايين السنين ، يبنى عشه كما كانوا يبنون ، ويضع بيضه أو يربى وليده كما كانوا يفعلون . لا فارق بين الحشرة وبين الفيل ، حتى إذا جئنا للانسان فى أول صوره وأكثرها بدائية ، وجدنا عنده الاختلاف الجذرى مع سائر الكائنات الحية ، وجدنا عنده العقل الذى جعله ينتج اللغة ويتكلم ، ويتعلم كل يوم ما لم يكن يعلم ، ويصبح له فى كل يوم أساليب غير الأساليب وحاجات غير الحاجات ، ونجد عنده شعراً وموسيقى وفلسفة وديناً ، ومذاهب وعقائد ، وملكيات وجمهوريات ، وأنظمة لا تفتأ تتغير يوماً بعد يوم ، واختراعات واكتشافات تجعله فى كل يوم يقدر على ما لم يكن يقدر عليه قبلا . . . وهكذا يقف العلماء المحدثون مرة أخرى ، كما وقف الإنسان فى كل عصر من العصور ، حائرين مبهوتين أمام هذا السر الرهيب ، سر العقل الإنسانى وطبيعته ، فيقول الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية :

« ما هو الفكر ، ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنا دون أن يستهلك أى قدر قابل للقياس من النشاط الكيمائى ؟ هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة ؟ ألا يمكن أن يكون هو منظم الكون ، وأنه بالرغم من تجاهل الأطباء له أهم من الضوء ؟ أهو نتاج الخلايا (المخية) كما ينتج البنكرياس الأنسولين ، والكبد الصفراء ، وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء ؟ أيعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشاء المخى ، أم يجب اعتباره كائناً غير مادى يوجد خارج الفراغ والزمن ، خارج أبعاد العالم الكونى ، ويدخل فى مخنا بطريقة مجهولة لنا » وثمة إمام آخر

من أئمة علماء الطبيعة الماديين وهو شرنجتون لا يتردد بدوره فى إعلان حيرته ، إذ يقول :

« لقد أصبح بقدرة العلم الطبيعى أن يفسر الحياة باعتبارها تنفساً وحركة ونمواً وتولداً وتحليلاً للأغذية فى الأنسجة . . . الخ ذلك أنه لا يوجد شيء من هذه الظواهر لا يقع تحت سلطان العلم ، إنها كيائيات وطبيعة ، ولكن هذا الشيء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر ، فإنه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ويظل بعيداً عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئاً يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب منها ، بحيث يمكن تلخيص الإنسان فى أنه يتألف من طاقة وعقل » ؟[1] ويهرب شرنجتون من أن يقول شيئاً عن ماهية هذا العقل أو مصدره .

وهكذا ينتهى العلم المادى التجريبى ، إلى ما انتهى إليه الإنسان فى كل عصر وزمان ومكان ، من جهله سر الحياة ، وسر العقل الإنسانى .

على أنه أياً ما تكون حقيقة هذا السر ، فالأمر الواقع الملموس الذى لم يمار فيه البشر فى أى يوم من الأيام ، هو ما ذكرناه من قبل من أن الأرض هى مصدر هذه الحياة ، وأن الإنسان ابن هذه الأرض ، هى الأصل الذى جاء منه ، هى مسقط رأسه ، وهى مدرجه ومنشأه وملعبه ، وهى مصدر معاشه وقوام حياته ، وهى فى نهاية الأمر غايته ومثواه ومستقره الأخير ، لا يختلف فى ذلك إنسان عن إنسان ، أياً كان مولده ، فى الشمال أو الجنوب فى الشرق أو الغرب . فى قمم الجبال أو عند منحدر الوديان ، على شواطىء البحار أو فى أعماق الصحراء ، أبيض كان أو أسود أو أحمر أو أصفر .

« منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم »[2] .

---

(١) كتاب « الطاقة الانسانية » .
(٢) طه — ٥٥

وليس وراء ذلك جامع يجمع بين أفراد البشر على السواء ، بل لا يوجد ما يسوى بين البشر ولا يشذ فيه إنسان عن إنسان ، سوى هـذه العلاقة بينه وبين الأرض وعودته إلى أحضانها بالموت . فهى الأم والبشر أبناؤها ، كذلك نظر لها الإنسان دائماً ، فعبدها وقدسها ، حتى إذا أدرك أنها من خلق كائن أعلى ظل محتفظاً لها فى لغته بلفظ الأمومة ، والأنوثة إشارة إلى هذه الرابطة الوثيقة .

وحدة الأرض :

وهكذا نصل إلى ختام بحثنا من أنه إذا كان علماء الاجتماع والسياسة يشترطون لقيام الأمة أن يكون لها أرض واحدة تعيش عليها ، فإن هذا الشرط لا يتحقق إلا بالنسبة لبنى البشر أجمعين ، وغداً عند ما ينطلق الإنسان إلى الـكواكب الأخرى ، فسيكون وطن الإنسان الذى ينفرد بالانتساب إليه هو هذا الـكوكب الأرضى الذى يؤلف وحدة مستقلة قائمة بذاتها ، تختلف عن بقية الـكواكب الأخرى .

الفصل الثالث

وحدة الجنس البشرى

عقيدة دينية — سام ، وحام ، ويافث — تنكر الشعوب لهذه الحقيقة — هداة البشر — نبى الإنسانية محمد — الاستعلاء الجنسى فى العصر الحديث — مباحث علم الأجناس — المجموعة البيضاء — المجموعة الزنجية — المجموعة المغولية — قانون ماندل وفصائل الدم — الاستقراء التاريخى — مؤتمر عالمى فى مطلع القرن — هتلر والنازية — زنوج أمريكا — زنوج أفريقيا — اليابان والصين — كلمة العلم الحاسمة — وحدة الجنس البشرى .

عقيدة دينية :

لم تكن وحدة الجنس البشرى موضع شك لدى البشر فى أى عصر من العصور الموغلة فى القدم ، فالأصل الواحد المشترك لجميع الآدميين كان يعتبر دائماً حقيقة واحدة ، فهم جميعاً قد انحدروا من الشمس أو السماء أو هذا الجبل أو هذا الحيوان ، أو هذا الجد المعين ، أو من سلالة هذا الإله .

وتصور التوراة ، التى تعتبر أقدم كتاب متداول بين البشر تصدى لوصف عملية الخلق وتاريخ الإنسان الأول ، وحدة الجنس البشرى ، فالله بعد أن خلق السموات والأرض ، وبعد أن خلق الماء والأسماك والزواحف والطيور ثم حيوانات الأرض ، قضى أن يخلق الإنسان[1] « فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها ، والبهائم بحسب أصنافها ، وكل دابات الأرض بحسب أصنافها ،

---

(١) هذا الترتيب فى خلق الكائنات ، هو ما يقول به علم الأحياء الحديث ، فالحياة نشأت فى الماء ، ثم كانت الأسماك فالزواحف فالحيوانات .

ورأى الله أن ذلك حسن . وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدابات الدابة على الأرض ، فخلق الله الإنسان على صورته » .

« وأن الرب الإله جعل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار الإنسان نفساً حية »(١) .

وبعد أن خلق الله آدم وأراد أن يخلق له شريكة من جنسه « أوقع الرب الإله سباتاً على آدم ، فنام فاستل أحد أضلاعه وسد مكانها بلحم ، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وألقى بها إلى آدم ، فقال آدم هذه هى المرأة عظم من عظامى ، ولحم من لحمى هذه تسمى امرأة ، لأنها من امرىء أخذت ، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً (٢) .

وعرف آدم حواء امرأته فحملت وولدت قابيل فقالت قد رزقت من عند الرب ، ثم عادت فولدت أخاه هابيل ، ثم ولدت له شيثاً ، ثم جاءته ببنات وتزوج البنون البنات ، فكثروا ونموا حتى جاء نوح ، وفى أيامه وقع الطوفان الذى أغرق كل الأحياء على الأرض إلا الذين أخذهم نوح فى سفينته . وبعد ذهاب الطوفان وعودة نوح ومن معه من الحيوانات والدواب إلى الأرض ، رزق نوح أولاداً ثلاثة : سام وحام ويافث ، ومن هؤلاء الثلاثة تفرع البشر الذين يملأون الدنيا ، وهم جميعاً أبناء عمومة يرجعون إلى جد واحد هو نوح ، ومن قبله آدم أبو البشر وحواء أمهم .

يافث — المغول :

فأما يافث فهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج أو بالأحرى ما يسمون فى التاريخ باسم المغول .

---

(١) سفر التكوين — الفصل الأول والثانى .

(٢) سفر التكوين — فصل ٢

سام — العرب والروم والفرس :

وأما سام فهو الجد لشعوب العرب والروم والفرس ، أو من تسميهم التوراة عيلام وآشور ولود وآرام .

حام — السودان والبربر :

وأما الابن الثالث حام ، فهو والد القبط والأحباش السودان والبربر أو من نسميهم فى العصر الحديث باسم الزنوج ، أو من تسميهم التوراة ، كوش ومصرافيم وفوط وكنعان . وتأبى التوراة بعد أن تعدد هذه التفرعات إلا أن تذكر مرة أخرى بالأصل المشترك فتقول :

« هؤلاء هم عناصر بنى نوح بمواليدهم وأممهم ، ومنهم تفرقت الأمم فى الأرض بعد الطوفان . وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً[1] » .

وسنرى كيف أن هذا التقسيم الثلاثى للأصل الإنسانى المشترك هو الذى سينتهى إليه العلم الحديث فى خاتمة المطاف ... بل وسنرى كيف تنتهى الأبحاث التجريبية المعملية إلى إثبات وحدة الجنس البشرى .

والحق أن هذه الواقعة الثابتة ، مسألة تكاد ترقى إلى مستوى البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، فإذا كان سكان العالم اليوم قد بدأوا يتجاوزون الثلاثة آلاف مليون ، فإن هذا العدد الضخم هو سلالة العدد الأقل الذى كان يسكن الكرة الأرضية ، ومنذ خمس وستين سنة فقط أى عام ١٩٠٠ كان عدد سكان العالم ١٥٠٠ مليون أى نصف القدر الحالى ، وهذا العدد الضخم بدوره قد انحدر من عدد أقل ، فأقل وهكذا ، حتى نرى أنفسنا فى نهاية الأمر أمام بداية واحدة للانسان ، أو أسرة واحدة ذكر وأنثى ،كانا هما أول آدميين حقيقيين تتوفر فيهما صفات الإنسان ، والتى أطلقت عليهما التوراة اسم آدم وحواء .

---

(١) سفر التكوين — الفصلان العاشر والحادى عشر .

وقد صور القرآن الكريم هذه البداية الواحدة وتفرع البشرية وتسلسلها من هذا الأصل بقوله :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً »[١] .

وما أروع القرآن الذى يذكر الإنسان بوحدة الأصل ، داعياً إلى المحبة والترابط بين أفراد الجنس البشرى باعتبارهم جميعاً ذوى رحم ، أى أنهم أبناء أم واحدة فى خاتمة المطاف .

تنكر الشعوب لهذه الحقيقة :

ومع وضوح هذه الحقيقة وثبوتها ، فما أكثر ما تنكر لها بنو البشر فى مختلف العصور وتجاهلوها وأهملوها عامدين ، مدعين أن الأجناس البشرية درجات وطبقات يعلو بعضها بعضاً . . . وكان اليهود أنفسهم فى مقدمة المؤمنين بهذه الفكرة ، فهم وحدهم أى (بنى إسرائيل) هم الناس المفضلون المعتبرون عند الله ، أما بقية البشر فلا قدر لهم ولا قيمة عند الله ، زاعمين أن الرب قد عقد اتفاقية مع جدهم إبراهيم ، أن يختصهم من دون العالمين ببركاته ونعمائه فى مقابل أن يعبدوه ويكونوا شعبه المختار .

ولا شك أن بنى إسرائيل قد أخذوا هذه الفكرة من المصريين الذين عاشوا بين ظهرانيهم بضع قرون ، فقد كان المصريون القدماء ، يتصورون أنفسهم هم وحدهم الناس ، وأنهم أبناء الشمس وشعب السماء وشعب الإله ، وأنهم صورة من ربهم الأكبر ، فقد تشكلوا من لحمه ، وخلقوا من عينيه ، ونزلوا من دموعه[٢] .

(١) سورة النساء ١ .

(٢) الدكتور عبد العزيز صالح — حضارة مصر القديمة وآثارها — ص ١٣ .

ومثل هذا التصور نراه عند الإغريق ، فهم بدورهم ، المتمدينون من دون العالمين ، ومن عداهم فهم برابرة ومتوحشون ، لا تسرى عليهم قوانين الإغريق ، ولا يعاملون بنفس المعاملة سواء فى حالتى السلم أو الحرب . ومن المؤسف أننا نجد أثر هذه الفكرة عند أرسطو ذلك الرجل العظيم ذو العقل الجبار ، والرؤية العميقة ، فهو يقول لنا إن الطبيعة قد خلقت جنسين من البشر ، أحدهما الجنس الحر والثانى الجنس العبد والرقيق ، ولا سبيل لإقرار السلام بين الجنسين ، إلا بأن يستسلم العبيد لمصيرهم ، ويدركوا أن ذلك قدر مقدور قد فرضته الطبيعة عليهم(١) .

وعلى هذا القول الخاطىء من أقوال أرسطو ، استند دائماً دعاة التمييز العنصرى وما زالوا يستندون حتى الآن ، ويتخذون من هذه الفكرة الزائفة الأساس لموقفهم العدوانى .

واستمرت هذه البدعة عند الرومان ، فأبناء روما هم وحدهم من دون العالمين ، من يتمتعون بحقوق الإنسان الحر الكامل ، أما بقية الناس فإما عبيد أو أرقاء أو أجانب ، يخضعون لقانون خاص بهم دون قانون المدينة .

وكان الحال فى الشرق مثل ما فى الغرب ، فالصينيون ، اختصوا أنفسهم بالتمدن والحضارة ومن عداهم خارج حظيرتها ، ولقد كان من الطريف أن أول سفير بريطانى ذهب فى أواخر القرن الثامن عشر ليمثل بلاده فى بلاط أباطرة المانشو ، كان عليه أن يركب فى ذهابه إلى الإمبراطور زورقاً ركب على ساريته لافتة كبيرة كتب عليها « أحد البرابرة الحمر يحمل الجزية للامبراطور » وبغير هذا ما كان له أن يمثل فى حضرة إمبراطور الصين(٢) .

هداة البشر ونبى الإنسانية محمد :

على أن الإنسانية أخرجت دائماً من بين صفوفها ، نجوماً وأعلاماً من

(١) دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية — مادة — جنس .
(٢) حياة ماوتسى تونج .

بنى الإنسان ، رفضوا فكرة اختلاف الأجناس وبشروا بوحدة الجنس الإنسانى .

وسوف نرى فى الفصل الخامس عند استعراض تاريخ البشرية لمحات مشرقة من تاريخ هذا النفر من الهداة المصلحين الذين ظهروا على مر التاريخ .

على أن الذى لا جدال فيه ، أن الرجل الذى رفع لواء هذا المبدأ إلى الذروة وأعطاه كل قوته فى النظر والتطبيق هو سيدنا محمد بن عبد الله (صلعم) مما أهله ليكون نبى الإنسانية بحق ، حيث كان ينادى بنداء القرآن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

ومن كلماته المشهورة وأحاديثه الخالدة : كلكم لآدم وآدم من تراب . أو قوله : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ولم تكن هذه مجرد دعوة نظرية خيالية دعا إليها القرآن ، وحضت عليها تعاليم الإسلام ، بل إن الدولة والحضارة الإسلامية قامتا من أساسهما ، على هذه الفكرة . فكان صحابة الرسول المقربون ، يجمعون العربى إلى جوار صهيب الرومى وسلمان الفارسى ، وبلال الحبشى ، أى بين الحر والعبد بغير تفرقة أو تمييز ، وكثيراً ما أمّر الرسول زيد بن حارثه الذى كان رقيقاً ، على أقطاب قريش وسادتها ، فلم يجدوا فى ذلك غضاً من كرامتهم أو حرجاً فى أنفسهم ، وهم الذين كانوا فى الجاهلية لا يعتزون بشىء قدر اعتزازهم بالأحساب والأنساب .

وعلى الرغم من أن روح المسيحية تقوم على هذه الفكرة فى المساواة بين البشر ، فالرب هو الأب وكل من آمن بالمسيح أصبح من أبنائه وأحبائه ، بل إن جوهر الربوية كله هو الحب فالله محبة ، ومع ذلك فلم تستطع المسيحية بعد أن أصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية أن ترتفع إلى مستوى

المناداة بالأخوة البشرية[١] .

وليس إلا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وتوالى القرون على أوربا المسيحية ، أن اختفى الحديث عن الجنس كعنصر مميز بين البشر ، وإن كان الاستعلاء بالإيمان المسيحى قد حل محل الاستعلاء الجنسى ، فالمسيحيون هم وحدهم البشر والناس ، ومن لم يكن مسيحياً فهو من سقط المتاع ، وهو غير جدير بالحياة نفسها .

الاستعلاء الجنسى فى العصر الحديث :

حتى إذا كان العصر الحديث ، عصر الاستكشافات والبخار والاستعمار ، حيث ضعفت الروح الدينية ، وحل محلها الإيمـان بالعلم والتفوق المادى ، فإن الاستعلاء الجنسى بدأ يأخذ قوة وشكلا جديدين ، بمحاولة تأصـيل القضية وإرسائها على قواعـد وأصول وحقائق علمية ، فنشأ ما يسمى بعلم الأجناس Anthropology وبدأت دراسات هذا العلم ومباحثه تـكون أساس العبارات التى بدأت تتردد «عن سيادة الرجل الأبيض» ، وعن انحطاط الجنس الأسود ، « وعن خبث الجنس الأصفر » ، واستحل المستعمرون البيض لأنفسهم التصرف فى أقدار بقية الأجناس بما فى ذلك إبادتهم إذا لزم الأمر .

وكان الأسبان سباقين فى هذا الطريق ، فقد هون لهم مفـكروهم وعلماؤهم إساءة معاملة الهنود من سكان أمريكا الجنوبيـة الأصليين ، وسوغوا لهم معاملتهم معاملة غير إنسانية على أساس أنهم من أصل غير إنسانى[٢] .

وفعلت العناصر الأوربية الأخرى التى هاجرت إلى أمريكا الشمالية ، مثل

---

(١) تقول دائرة معارف العلوم الاجتماعية : Enc of the Social Sciences إن الإســلام من الناحية العقائدية ومن الناحية الواقعية لم يعرف حاجز اللون ، وهو ما يفسر سرعة انتشاره فى افريقيا ، بينما المسيحية لم تستطع أن تنهض إلى مستوى دعوتها المسيحية .

(٢) دائرة المعارف البريطانية مادة — جنس .

فعل الأسبان ، فحصروا كل همهم فى ضغط الهنود الحمر ، وإجلائهم عن أراضيهم ثم قتلهم بالجملة وإبادتهم ، باعتبارهم جنساً غير قابل للتمدن والحضارة لأنهم أقرب إلى الحيوان .

وكذلك فعل البيض الذين نزحوا إلى استراليا ، حيث عملوا على إبادة السكان الأصليين ، وإذا كان لا يزال من هؤلاء السكان بقايا حتى الآن فى قارة استراليا ، فما ذلك إلا لأن أيدى البيض لم تصل إليهم لصعوبة المواصلات فى المرحلة الأولى ، ولكن البيض نجحوا فى استئصال شأفة سكان جزيرة تسمانيا بحيث لم يبق منهم إنسان واحد ، وأصبح يشار إليهم باسم « الجنس الذى انقرض »[1] .

وقد أعطت الدارونية ، التى تقوم على فكرة التطور من خلال « الانتخاب الطبيعى » وأن الحياة صراع دائم بين الأحياء ينتصر فيه الأقوى والأصلح ، الأساس العلمى لأمثال هذه الحركات فمادام الإنسان قد تطور عن الحيوان ، فإن بعض الأجناس الإنسانية لا تزال أقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان فيجب أن تعامل بهذا المستوى .

وأصبح من الحقائق المقررة والمقبولة ، أن الزنوج أمس رحماً بالغوريلا والشمبانزى منهم بالإنسان .

مباحث علم الأجناس :

وتعددت مباحث علم الأجناس ، والأسس التى تقوم على التفرقة بين البشر . ولقد سقط منذ عصر مبكر ، الادعاء بوجود أى خلاف تشريحى بين أجناس

(١) Mémoires sur le contact des Races, G. Spiller, p. 121.

البشر ، لا أجناس البشر الأحياء اليوم ، بل والبشر الذين عاشوا منذ عشرات الألوف من السنين .

ولذلك فقد اتجهت المباحث نحو بعض الظواهر الثانوية كلون البشرة ، فقسم البشر إلى أنواع ثلاثة ، الأبيض والأسود والأصفر . أو من حيث الشعر ونوعه ، ومن جديد قسم البشر إلى أقسام ثلاثة أصحاب الشعر الصوفى (الجعد) والشعر السبط ، والشعر الناعم (المتموج) .

كما قسموا من حيث شكل الرأس ، وما إذا كان مستديراً أو مستطيلا ، ومن حيث شكل الأنوف ، وما كان منها أفطس أو مرتفعاً ، ومن حيث طول القامة ، حتى إذا لم يوصلهم أى تقسيم من هذه التقسيمات إلى ما يمكن اعتباره فوارق حقيقية بين إنسان وإنسان . . . انتهوا إلى تقسيم الانسان إلى أجناس جغرافية نسبة إلى المناطق التى يسكنها ، فقالوا بجنس البحر الأبيض المتوسط وقالوا بالجنس القوقازى ، والجنس الأسيوى . . .

وخلصوا من هذه المباحث كلها إلى تقسيم البشر إلى ثلاث مجموعات ، أقرب ما يكون كل منها تجانساً مع فروعه وتفصيلاته ، وهذه المجموعات الثلاث هى المجموعة البيضاء . والمجموعة الزنجية والمجموعة المغولية .

أما المجموعة البيضاء :

فموزعة على الأجزاء الغربية والشمالية من العالم القديم ، وفى سلسلة من الهجرات بعضها معروف ، والبعض لايزال مجرد تخمين ، احتل النورديون (الشماليون) وهم الشقر الطوال الرؤوس نسبياً ، المثلث الشمالى من أوربا . واحتلت العناصر الألبية العريضة الرؤوس منطقة وسطى تمتد من روسيا إلى فرنسا .

وانتشر فرع البحر الأبيض المتوسط ، الأسمر الطويل الرؤوس وأقاربهم من العرب والبربر فى جنوب أوربا وشمال أفريقيا والشرق الأدنى ، بينما يعتقد أن فرعاً آخر قد اندفع نحو الهند وأندونسيا وأقصى الجزر الشرقية فى الباسفيكى .

ثانياً — المجموعة الزنجية :

انتشرت فى النصف الجنوبى من العالم ، وامتدت العناصر التى تكونها ، فى نطاق غير منقطع عبر أفريقيا وجنوبى شرق آسيا ، والنجريتو القصار القامة المستديرو الرؤوس بعض الشىء (الأقزام) فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وأندونيسيا ، ونوع آخر عادى الطول طويل الرأس يحتل معظم الجهات نفسها ومنهم زنوج المحيط البابوان والميلانيزيون فى المنطقة الجنوبية الواقعة إلى الجنوب الشرقى من آسيا .

ثالثاً — المجموعة المغولية :

وكان مركزها فى آسيا الشرقية والوسطى ، ومن هناك انتشرت العناصر المختلفة التى تنتمى إليها نحو الشمال الشرقى إلى سيبريا ، وشرقاً إلى الصين واليابان، وجنوباً بشرق إلى الملايو وماليزيا وبولينزيا ، وغرباً فى سلسلة طويلة من الهجرات فى الشرق الأدنى وروسيا[1] .

وقد بقى أن نلاحظ أن هذا التقسيم الثلاثى الذى انتهى إليه علماء الأجناس فى خاتمة المطاف ، ينطبق كل الانطباق على ما قالت به التوراة ، وما ردده فيما بعد علماء المسلمين والمسيحيين ، من أن الأجناس البشرية تعود إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث . . . على ما ذكرنا من قبل .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ، لانجر — جزء (١) ص ٢٥ .

والتاريخ الديني يصل بالأمور إلى منطقها الصحيح ، فهؤلاء الأولاد الثلاثة هم أبناء أب واحد في نهاية الأمر ... أما العلم الحديث ، فقد حاول في بادىء الأمر ، أن يفصل بين الأجناس الثلاثة ولا يردهم إلى أصل واحد ، ولكن علم الأجناس التطبيقي سرعان ما قضى على كل وهم من وجود فوارق طبيعية جبلية بين هذه الأجناس الثلاثة ، فما من خصيصة يتصورون أنها من لزوميات الرجل الأبيض ، إلا ويجدونها محققة في كالها في الجنسين الآخرين ، فقد حاولوا أن يصفوا الرجل الأبيض بطول القامة وأن الجنسين الآخرين ، وهما الزنجي والمغولي أقصر قامة منه ، فإذا هم يعثرون في إفريقيا على زنوج يعتبرون أطول الجنس البشري جسوماً ، في الوقت الذي يسكن بالقرب من هؤلاء الزنوج المفرطين في الطول . . . أقصر إناس في العالم وهم الزنوج الأقزام الذين يعيشون عند خط الاستواء .

وتصوروا حيناً أن حجم رأس الرجل الأبيض يكبر حجم الجنسين الآخرين وأرادوا أن يتخذوا من كبر حجم الرأس دليلا على كبر حجم المخ بالتالي ، ويستدلون من ذلك على تفوق الرجل الأبيض . . فإذا هم يجدون أن أكبر الرؤوس حجماً توجد لدى الاسكيمو . ووجدوا بين الشعوب البيضاء من هو مستدير الرأس ، ومن هو طويلها كما هو الشأن عند الزنوج .

حتى اللون الأبيض الذي تصوروه نوعاً من الامتياز الفسيولوجي أو البيولوجي ، سرعان ما اكتشفوا أن هذا اللون الأبيض ينشأ نتيجة اختفاء نوع معين من الصبغيات (Pigments) يوجد في جلد الإنسان الذي يعيش طويلا في وهج الشمس ، حيث تساعده هـذه الصبغيات على احتمال حرارة الشمس ، فاللون الأبيض جاء نتيجة البعد عن حرارة الشمس فاستغنى الجسم عن هذه المادة ، فهو مظهر نقص في التركيب الجسماني لا مظهر كمال .

قانون ماندل وفصائل الدم :

وجاءت الضربة القاضية لكل الأبحاث التى تهدف إلى التفريق بين الأجناس ابتداء من عام ١٩٠٠ عندما بعث قانون ماندل فى الوراثة ، واعتبر هو الأساس العلمى لانتقال الصفات من الأسلاف إلى الأحفاد .

فحتى قانون ماندل فى الوراثة ، كان الدم يعتبر هو العامل الوحيد لنقل خصائص الإنسان إلى سلالته ، ولما كان الدم ينتقل دائماً من الأم إلى وليدها ، فالخصائص تنتقل مع الدم وبذلك تبقى ثابتة .

ولم يكن ذلك إلا أحد توهمات العلم ، فقد عرف أن عوامل الوراثة إنما تنتقل بواسطة المورثات (الجينات genes) وهى إحدى أجزاء الكروموزومات التى توجد فى الخلايا الحية . وقد قيل إن الخلية التى تؤلف الحيوان المنوى ، وكذلك الخلية التى تؤلف البويضة عند الأنثى ، تفقد كل منهما نصف كروموزوماتها عند الاتحاد الذى يتم عند عملية الإخصاب ، ومعنى أن نصف مورثات الأنثى وكذلك نصف مورثات الذكر تضيع أثناء هذه العملية ، أن الوليد يجىء دائماً مختلفاً فى تكوينه عن أمه وأبيه ، وقد يرث لون الجلد من أحدهما ، ويرث لون الشعر من الآخر ، أو قد يرث لون العينين من أحدهما دون الآخر وهكذا . وقد أصبح ذلك يفسر لماذا يختلف أحد الشقيقين عن شقيقه .. بل أحد التوأمين فى بعض الأحيان عن شقيقه التوأم[1] .

ومؤدى ذلك من الناحية العلمية أن أفضل الصفات الوراثية قد تظهر فى الوالدين وتتلاشى فى ذريتهما ، وأن العبقرية التى تتوفر فى بعض الأسلاف ، قد تنعدم ويحل محلها انعدام المقدرة ، بل والبلاهة أو الجنون عند أحد أفراد

---

(١) كان من نعم الله علىّ أن رزقنى ابنتين توأمتين ، ومع ذلك فهما يختلفان فى الشبه كل الاختلاف . . . بل ويختلفان بالأكثر فى الطباع .

الذرية[١]

فصائل الدم :

ثم كانت الأبحاث العلمية الحديثة فى تحليل الدم وتقسيمه إلى فصائل ، وكان هذا الكشف العلمى بدوره تسفيهاً لكل الأبحاث السابقة التى دارت حول تقسيم الأجناس البشرية على أساس من لون البشرة أو حجم الجمجمة ، فالدم كما هو مقرر اليوم فصائل أربع أ ، ب ، س ، أ ب A.B.C. A B. وهذه الفصائل ثبت أنها لا تورث فقد يكون دم الأب أو الأم من إحدى الفصائل ثم يأتى دم الوليد من نوع آخر . وقد وجدت هذه الفصائل الأربع فى كل المجاميع البشرية أياً كان نوعها ومكانها على ظهر الأرض ، فوجدت كلها عند الاسكيمو ، وعند الزنوج ، وعند البيض والصفر ، بل وجدت عند قبائل نيوغينيا واستراليا المنقرضة[٢] .

الاستقراء التاريخى :

وقد قوت هذه الأبحاث العلمية التجريبية ، من الحقيقة التاريخية التى يسجلها التاريخ ، من أنه لا يوجد شىء اسمه الجنس الانجليزى مثلا أو الجنس اللاتينى أو الجنس اليونانى ، فما من جنس من هذه الأجناس إلا وهو خليط من عديد من الأجناس التى جاء كل منها ثمرة اختلاط عديد من الأجناس .

وحسبنا أن نضرب على ذلك مثلا واحداً من الجزر البريطانية ، والتى قيل

---

(١) كتاب المجتمع — تأليف رام ماكيفر وشارلس ، ترجمة الدكتور أحمد عيسى ص ١٨٠ .

(٢) دائرة المعارف الامريكية Race مادة جنس .

عنها إن كونها جزيرة منفصلة عن أوروبا قد جعلها فى معزل عن الاختلاط الشديد بين الأجناس .

يقول لنا وليم لانجر فى موسوعته عن تاريخ العالم :

« من الواضح أن سكان بريطانيا فى عصر ما قبل التاريخ ، كانوا مزيجاً من عناصر البحر المتوسط ، والعناصر الألبيه والنورديه ، أى أنها اشتملت على عناصر ايبيريه سوداء الشعر ، وعناصر أخرى شقراء الشعر »(1) .

ثم يمضى أخونا الدكتور نظير سعداوى مستعرضاً الأجناس التى تألف منها الانجليز فى كتابه تاريخ انجلترا فيقول ما نلخصه فيما يلى :

« فإذا وصلنا إلى الفترة ما بين ١٢٠٠ — ٦٠٠ ق . م نجد أن السكلتيين الخلص قد انقسموا إلى عنصرين : الغاليين الذين مازالت سلالتهم تعيش فى شمال إيرلندا أو أعالى اسكتلندا ، والسكريون والبريطانيون فيعيشون فى إقليم غالة (ويلز) .

حتى إذا وصلنا إلى عام ٥٧ ق . م دخلت بريطانيا فى حكم الرومان الذين حملوا معهم عناصر جديدة من شعوب البحر الأبيض المتوسط الذين سكنوا الجزيرة وعملوا على تعميرها . ولم تكد الفرق الرومانية العسكرية تجلو عن الجزيرة حتى بدأت الجزيرة تتعرض لسلسلة من غارات التيوتون والسكوت Scot والسكسون . وفى عام ٧٨٧ انهال على انجلترا ما يسمى غارات الدانيين Danes الذين راحوا ينهبون ويسلبون ثم شرعوا يستقرون . ثم عاد الدانيون فى موجة جديدة تخرب وتحرق ، ثم تحتل انجلترا مؤلفة إمبراطورية شملت غرب أوربا ومزجت كل عناصرها . حتى إذا كان القرن الحادى عشر ، فتح وليم النورماندى انجلترا حاملا معه اللسان النورماندى والعناصر التى يتألف منها

---

(١) جزء ١ ص ٤٥٣ .

النورمان[1] ، حتى إذا بدأ العصر الحديث ، وتحولت انجلترا إلى دولة مستعمرة ، امتلأت الجزر البريطانية بعناصر من الهنود والزنوج وسائر شعوب الأرض ، التي اختلطت كلها بالعنصر الإنجليزي .

وهذا الذي حدث في انجلترا قد حدث أضعاف أضعافه في أي شعب من شعوب العالم ، وحسبنا أن نسترجع ما حدث في بلادنا مصر بالذات ، وكيف أنها كانت دائماً أبداً بوتقة لسائر شعوب الدنيا وأجناسها . وتمثل الولايات المتحدة في عصرنا الحاضر ، أكبر مزيج واختلاط بين الأجناس .

نتيجة البحث :

وقد انتهت هذه المباحث التاريخية ، والمباحث العلمية إلى حقيقتين متفق عليهما الآن ، تجدها في كل دوائر المعارف وكتب العلم ، وهاتان الحقيقتان هما :

أولا — ليس هناك جنس بشري لم يختلط ببقية الأجناس .

ثانياً — ليس هناك جنس أرقى من جنس آخر .

مؤتمر عالمي في مطلع القرن :

والعجيب أن هاتين الحقيقتين العلميتين كانتا محل بحث مؤتمر عالمي عقد في لندن في مستهل القرن أي في سنة ١٩١١ في المدة من ٢٦ يوليو حتى ٢٩ منه ، وقد حضره علماء الأجناس من أربعين دولة[2] ، وذلك في الوقت الذي بلغ فيه

---

(١) الدكتور نظير سعداوي — « تاريخ انجلترا » .

(٢) مثلت مصر في هذا المؤتمر بوفد كان يرأسه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وكان من بين أعضائه حسن بك صبري الذي أصبح رئيساً للوزارة سنة ١٩٤١ ، والدكتور محمد بدر .

النهم الاستعمارى أشده ، وغرور الرجل الأبيض بنفسه الذروة ، ومع ذلك فقد انتهى هـذا المؤتمر إلى هاتين النتيجتين ، وإنه ليطيب لى أن أنقل فقرات مما ألقى فى هذا المؤتمر من الأبحاث ، تخليداً لذكرى هذا النفر من العلماء الإنســانيين الذين تحدوا شعوبهم فى ذلك الوقت بهذه الآراء العلمية الأمينة الصادقة .

يقول Dr. Felix Von Luschen أستاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعة برلين « إننا نعلم الآن أن لون الجلد والشعر إنما يرجع فى الدرجة الأولى إلى عامل البيئة ، فنحن الأوربيين إذا كان لون جلدنا أبيض وشعرنا على ما هو عليه ، فليس ذلك إلا بسبب معيشة أجدادنا ألوفاً من السنين فى أرض محرومة من أشعة الشمس ومغلفة على الدوام بالضباب . وبياض الجلد لا يعنى شيئاً سوى نقصان مادة التلوين Pigment وإذا كان أجدادنا قد فقدوا عنصر التلوين هذا ، فذلك لأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه ، ومن الطبيعى أن يكون لون جلد بعض الأجناس الهندية أو السنغالية داكناً ، فأى سخف أن نصفهم لهذا السبب بالتوحش . لقد كان لهذه الشعوب مدنيات عريقة ، وكانوا يمارسون ديناً رفيعاً سامياً فى الوقت الذى كان مثل أجدادنا الأعلى فى الحياة ، متواضعاً جداً . ويزعم البعض أن شـكل الأجناس الملونة قبيح ، وينسى هؤلاء أن الجمال والقبح مسألة نسبية بحتة ، فاليابانيون وهم من هم من رفاهة حس وروعة فن ، يرون أعيننا الواسعة وأنوفنا المحدودبة غاية القبح .

كما يحلو للبعض أن يتشدق بالقول بأن الأجناس البدائية ليست نظيفة مثلنا ، وهؤلاء ينسون أولا ما توجد عليه شعوب أوربا الشرقية من القذارة ، وينسون بالأكثر الحقيقة الشاهدة على أن بعض الشعوب البدائية يستحم كل يوم ، بل إن جنس البانتو وغيرهم من الأجناس الأفريقية ينظفون أسنانهم عقب كل أكلة نصف ساعة (بمساويكهم) بينما لا يستعمل ملايين من الأوربيين فرشة الأسنان مرة واحدة .

ويشيرون أحياناً إلى الملابس ، وكيف أن بعض الشعوب البدائية تعيش عارية ، غير مدركين أن هذا العرى لم يمنع تطور أحاسيسهم الرقيقة المهذبة[1] . ونحن نعلم كيف أن الكثيرين من بين صفوفنا ، لم يحل لبسهم الحرير والصوف أن يكونوا أفظاظاً أشراراً شرسين .

واعتبر البعض أن فقدان بعض الشعوب البدائية للكتابة ، هو دليل على انحطاطها ، وصحيح أن الأغلبية العظمى من الشعوب البدائية لا تعرف القراءة أو الكتابة ، ولكن لا يجب أن ننسى أن ٩٠٪ من الشعب الروسى لا يعرف بدوره القراءة أو الكتابة ، وقد بقى أن نعرف أن هذه الشعوب البدائية التى لا تكتب تتمتع بذاكرة خارقة أقوى بكثير من ذاكرتنا ، مما يجعلنا نجزم بأن اختراع الكتابة قد أدى إلى تدهور الذاكرة . وكثيراً ما حاول البعض أن يتخذوا من السمات والتقاطيع ما يثبتون به وضاعة بعض الأجناس ، فالزنجى بجلده الأسود وشفتيه الغليظتين الداميتين وأنفه المفلطحة لا يمكن أن يكون إنساناً ، بل هو حيوان أليف ، بحيث يترك لكل إنسان كيفية معاملته حسب هواه ، كما لا يسأل الإنسان عن كيفية معاملته لحيواناته وخيوله .

ويحاول بعض العلماء أن يجدوا أصولا متفرقة للجنس البشرى فيرجعون الجنس الباليولوثى إلى الغوريلا وجنساً آخر إلى الأورانج ، ولكن الأغلبية العظمى من المؤلفين العصريين الثقات يرجعون الجنس البشرى بأكمله إلى أصل واحد ، فالإنسانية واحدة .

ثم عرج هذا العالم الإنسانى الكبير على استعراض فروع الأجناس البشرية كلها مثبتاً تفرعها وتسلسلها من بعضها ثم ختم بحثه العلمى الإنسانى بقوله :

---

(١) طالع للمؤلف كتاب « من وحى الجنوب » حيث تحدث بتفصيل عن قبائل الدنكا التى تعيش عارية ، ومدى ما يستمتعون به من فضائل وأخلاق .

« وبعد فقد قلت مرة فى إحدى محاضراتى فى الجامعة ، إن المتوحشين الحقيقيين الوحيدين فى إفريقيا هم بعض عناصر الرجل الأبيض ، الذين اتخذوا القتل حرفة لهم، وإنى أكرر الآن أمامكم ، أنى ما زلت مؤمناً أن بعض البيض يمكن أن يوجدوا فى مستوى عقلى وخلقى أدنى من بعض الأفريقيين السود »[1].

أما العلامة G. Spiller سكرتير عام المؤتمر فقد ألقى بحثاً فى حقيقة التساوى بين الأجناس البشرية ، فكان من بين ما قال :

« لقد قيل أحياناً إن أى فرد لا ينتمى إلى الجنس القوقازى (الأبيض) لا يمكن أن يحصل على شهادة جامعية ، بل وقيل إن عدداً من الشعوب لا يستطيع متابعة التعليم الأولى ، ولكن الوقائع والحقائق الثابتة تكذب هذا الادعاء ، فالجامعات الأوروبية تضم العدد الكبير من مختلف الطلاب المنتمين إلى شعوب غير أوروبية وشعوب ملونة ، وكلها تحصل على أرقى الدرجات إبتداء من البكالوريوس حتى الدكتوراه .

ومن بين العشرة ملايين زنجى الذين يوجدون فى الولايات المتحدة ، الكثير من المحامين والجراحين والأطباء ، وعشرات الألوف الذين حصلوا على أرقى الشهادات الجامعية . وما أكثر ما تردد وصف بعض الأجناس بعدم القدرة على التقدم ، بينما يحدثنا المؤرخون أنه فى أيام دانتى كانت الأساليب الزراعية المستعملة فى دول أوروبا الغربية باقية من أيام الحضارة الرومانية ، وفى مطلع العصر الحديث ، فإن التيوتون ذوى الشعر الأحمر والذين كانت درجة تمدنهم لا تزال بدائية جداً ، لم يبدوا أى رغبة فى محاكاة المدنية الرومانية أو الأخذ بأساليبها ، أفيحق لنا أن نستخلص من ذلك أن الجنس الأوروبى بعامة والتيوتونى بخاصة أجناس عاجزة عن التقدم ؟

---

(١) Mémoires sur le Contact des Races, p. 16.

الحق أننا يجب أن نؤمن بقول راتزل :

« أنه لا يوجد سوى نوع واحد من الإنسان ، قد تتنوع أشكاله وصفاته ولكن هذه الخلافات لا تعدو أن تكون سطحية بحتة » .

وحسبنا هذا القدر مما قيل فى هذا المؤتمر ، الذى انتهى بتقرير وحدة الجنس البشرى .

هتلر والنازية :

وقد كان يظن أن هذه القضية قد فصل فيها نهائياً ، وأنها قد زادت تدعيماً بإنشاء عصبة الأمم ، التى اعترفت بحق شعوب الأرض كلها على اختلاف ألوانها وأجناسها بحق تقرير المصير ، ولانتشار المبادىء الشيوعية التى تبشر بوحدة الكادحين فى الجنس البشرى ، أجل كان يظن أن وحدة البشرى قد تأكدت ، فإذا هى تتعرض لنكسة كأشر ما عانت فى يوم من الأيام ، وإذا بهتلر زعيم ألمانيا يطلق نيران التعصب الجنسى من عقالها ، ويرى أن لا سبيل لانتقام ألمانيا لهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، إلا أن يجعل اليهود السبب فى هذه النكبة . ولما كان اليهود ينحدرون فى رأى هتلر وحزبه النازى من أصول سامية ، فقد بدأ التبشير بالعداء للسامية ، والإعلاء من شأن الآرية التى ينتمى إليها الجنس الألمانى ، ونسبة كل الفضائل ، وكل الحضارة الإنسانية إلى العنصر الآرى ، والجرمانى بصفة خاصة ، وأن هذا الشعب وحده صاحب الحق فى السيادة على العالمين .

وليس هناك ما هو أدعى لسخرية علماء الأجناس فى الوقت الحاضر من التحدث عن جنس آرى ، فالآرية هى لغة وليست جنساً محدداً من البشر ، ومع ذلك فقد كانت هذه الحقيقة الزائفة هى التى رفعها هتلر وحزبه النازى ، وجعل منها عقيدة وديناً رسمياً للشعب الألمانى ، وباسمها وتحت لوائها خاض الحرب العالمية الثانية لتحقيق سيادة الشعب الألمانى .

ومن عجب أن هذه الدعوة التي حمل لواءها الألمان ، كانت من أفكار فرنسي وآخر انجليزي . أما الفرنسي فهو الكونت آرثر جوزيف دي جوبينو الذي نشر كتابا في منتصف القرن التاسع عشر يدور حول « عدم التساوي بين الأجناس البشرية » ونادى في هذا الكتاب بسمو الجنس الأبيض وبعلو الجنس الآري على بقية الأجناس واعتبر التيوتون هم أصفى عناصر الآريين .

أما الإنجليزي الذي يعتبر الأستاذ المباشر لهتلر في هذه الدعوة كما قرر ذلك في كتابه « كفاحي » فهو هـ . س تشمبرلين الذي ألف كتابا في « أسس القرن التاسع عشر » جاعلا من الجنس الآري الدعامة الكبرى لحضارة العالم وإنسانيته وأنه صاحب الحق في سيادة العالمين .

وكان الذي نعرفه من اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية ، وانتهائها ممزقة إلى كتلتين متباغضتين ولا تزال عاصمتها مقسمة ومحتلة بأربعة جيوش أجنبية . أما هتلر نفسه نبي الآريين والداعي إلى سيادتهم ، فقد وضع حداً لحياته بعد أن لم يبق له من ملكه العريض إلا بضعة أقدام يدفن فيها نفسه قبل أن يقع في يد الروس .

جنس إنساني واحد :

واليوم تنتصر فكرة وحدة الجنس البشري من جديد ، بعد أن أصبح العلم النظري والتجريبي يؤكدها ، والواقع الحي يشهد لها ، وليس يقلل من قوة هذه الحقيقة ، أن لا يزال بعض المتعصبين في الولايات المتحدة الأمريكية وفي جنوب أفريقيا يمارون فيها ، حيث لا تزال مظاهر التمييز العنصري تمارس على صورة كريهة .

زنوج أمريكا :

وليس أدل على أن آخر مظاهر التمييز العنصري في النزع الأخير ، أنه من هذين البلدين بالذات وأعني بهما الولايات المتحدة الأمريكية وإفريقيا ،

يأتى الدليل على سخافة كل حديث عن التفوق العنصرى . فأما الولايات المتحدة الأمريكية فقد أثبت الزنوج على الرغم من أنهم لم يتحرروا من أسر الرق والعبودية من الناحية الرسمية إلا منذ مائة عام ، وعلى الرغم من كل الظروف المعاكسة التى وضعت فى طريقهم ، فلا يوجد ميدان من ميادين النشاط الإنسانى لم يلحقوا فيه بالرجل الأبيض ، بل ويتفوقون عليه فى ميادين الرياضة والفنون ، وخاصة الموسيقى والرقص والغناء ، وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت فائزة منتصرة فى دورة طوكيو للألعاب الأولمبية ، وأحرزت المكانة الأولى بينما احتل الاتحاد السوفيتى المكانة الثانية ، فقد حققت هذا النصر بفضل تفوق أبطالها من الزنوج ، فمن بين العشرين بطلة الأمريكية اللواتى اشتركن فى مسابقات العدو كانت خمس عشرة منهن زنجيه . ومن بين الأبطال العشرة الذين تقدموا الملاكمة كان تسعة منهم من الزنوج . ومن بين الإثنى عشر لاعباً من لاعبى الباسكت بول كان خمسة من الزنوج[1] ، وهذه هى الألعاب التى حققت سيادة أمريكا .

أما فى الموسيقى والغناء والرقص ، فقد أصبحت السيادة فى هذه الفروع للزنوج . . ولم يقف تأثير هذه الفنون على البيض فى أمريكا بل لقد تعداهم إلى التأثير على الموسيقى والغناء والرقص فى كل أوربا .

وأخيراً تقول لنا دائرة المعارف البريطانية « لا يوجد فرع من فروع العلوم والتكنولوجيا والدراسات والاختراعات العلمية إلا وللزنوج الأمريكيين فيها نصيب كبير » ثم تروح دائرة المعارف تنشر القوائم الطوال بأسماء النوابغ والعلماء والفلاسفة والفنانين والكتاب ، الذين حصلوا على تقدير العالم وليس الأمريكان فقط . . . ومن بينهم عدد أحرز جائزة نوبل للسلام .

زنوج أفريقيا :

أما زنوج أفريقيا ... أفريقيا المعذبة التى طال امتهانها وامتهان شعوبها ،

(١) مجلة لايف الأمريكية عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٤ — ص ٥٥ .

فها هى ذى ترد بقوة وعنف ، وترفع رأسها فى كبرياء وشموخ ، بعد أن أصبحت تضم ٣٤ دولة مستقلة تؤلف أكبر كتلة من الدول فى قارة من القارات . . .
وبدأ زعماؤها وممثلوها السياسيون ومفكروها يلعبون دورهم على قدم المساواة مع أقرانهم من بقية الأجناس ، ويبهرون شعوب العالم من حين لآخر بما يبذلونه من جهد غير عادى للقضاء على التخلف فى بلادهم واللحاق بركب الحضارة الإنسانية ، التى حجزوا عنها حجزاً طوال القرن الماضى .

اليابان والصين :

ولا نحسب أن أحداً فى العالم ، بات لا يعرف للشعب اليابانى قدرته العجيبة التى فاقت قدرة كل شعوب أوربا وأمريكا . فهى لم تكد تخسر الحرب العالمية الثانية حتى نهضت نهضة تذهل كل الباحثين والدارسين ، فاليابان تعتبر هذه الأيام أكثر أمم الأرض إنتاجاً ونجاحاً وذلك بفضل قرائح أبنائها وعزائمهم .

أما الصين فحسبها أنها استطاعت أن توحد بين سبعمائة مليون من البشر فى ظل حكومة مركزية واحدة ، وهو شىء لا مثيل له فى أى ركن من أركان العالم ... ولقد كان نجاحها فى تفجير قنبلتها الذرية الأولى ، أكبر تحد لمن يستطيل بقوته المادية .

أوثانت البوذى :

ويتربع على كرسى سكرتارية هيئة الأمم المتحدة ، بوذى من بورما ، اختاره ممثلو دول العالم ليكون حكما محايداً بينهم وليس وراء ذلك تكريم لإنسان من غير البيض .

العلماء يذيعون بياناً نهائياً بكلمة العلم :

وقد أرادت هيئة الأمم أن تجهز بطريقة علمية نهائية على كل حديث عن التفرقة العنصرية وعن التمايز بين الأجناس ، فدعت مؤتمراً من أعلام سبع عشرة

دولة فى علم البيولوجيا ، وهى دول بلجيكا والبرازيل وكندا وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية وفرنسا والهند واليابان والمكسيك ونيجيريا والنرويج وبولندا والسنغال والمملكة المتحدة والولايات الأمريكية المتحدة وروسيا وفنزويلا .

وقد اجتمع علماء هذه الدول فى مدينة موسكو عام ١٩٦٤ وأصدروا بياناً من ثلاث عشرة نقطة أهمها على الإطلاق النقطة الأولى والتى تقول :

« كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتهى إلى نوع واحد هو النوع البشرى ، وكلها ترجع إلى سلالة مشتركة وأصل واحد . وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرقت فيهما الجماعات البشرية عن هذا الأصل المشترك[١] .

وهكذا لم تعد مسألة وحدة الجنس الإنسانى محل جدل ونقاش، بل حقيقة مقررة تسير شئون العالم على أساسها . وعلينا أن ننظر إلى الخلافات السطحية التى تفرق بين ألوان البشر ، وأمزجتهم ، نظرتنا إلى الخلافات التى توجد بين أفراد الأمة الواحدة ، بل أفراد الأسرة الواحدة ، ذلك أن روعة الطبيعة لا تتجلى أكثر من تجليها فى حياة البشر ، فلكل إنسان شخصيته وطابعه الخاص ، الذى يفرقه عن أى إنسان آخر فى الوجود ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة الثابتة ، التى بدأنا بها هذا الفصل ، من أن البشر جميعاً قد جاءوا من أصل واحد مشترك وهو الأب الأول ، وعلى أية حال فهم يولدون جميعاً بأسلوب واحد وبغير استثناء ، ثم يختمون حياتهم جميعاً بالموت بدون استثناء ، ولهم جميعاً وبدون استثناء خصائص تفرقهم عن باقى الأجناس وأنواع الحيوانات التى تغص بها الحياة ... وأما هذه الخصائص فهى :

١ — القوام المعتدل .

---

(١) رسالة اليونسكو — عدد ٤٧ .

٢ — القدرة على استخدام اليدين وصنع الآلات .

٣ — القدرة على التكلم واختراع لغة ترمز لشتى المسميات المادية والمعنوية . أو بالأحرى القدرة على التفكير والتخيل والتدليل والاستنتاج .

هذه الخصائص الإنسانية ، لا تتوافر فى كل إنسان يوجد على ظهر الأرض فى الوقت الحاضر فحسب ، بل إنها توفرت دائماً فى كل إنسان عرفته هذه الأرض ، وإلا لما استطاع الجنس البشرى أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . وسوف نعرض لهذا الموضوع عندما نتحدث عن تاريخ الإنسان .

أما الآن فحسبنا أن نخرج من هذا البحث المستفيض ، بأن الأرض لم تعرف إلا إنساناً واحداً فى كل تاريخها ، وأن هذا الإنسان قد ولد كاملاً أو بالأحرى منطوياً على كل الاستعداد للتطور وبلوغ الكمال ، أو كما يقول القرآن الكريم :

« وعلم آدم الأسماء كلها » أى جهزه بالقدرة على تعلم كل شىء ، وأن لا مناص للجنس البشرى من أن يعترف بوحدة أصله ، وأن يحس بالأخوة التى تجمعه إلى كل فرد من أفراد البشرية .

الفصل الرابع

وحدة اللغة الإنسانية

اللغة تعنى الانسانية — **تعريف اللغة** — كيف نشأت اللغة — **ابن جنى وأصل اللغة** — محاكاة الطبيعة — **كلمات اصطلاحية** — **لغة** الإشارة — اللغة الملفوظة — **الأسباب التى** تؤدى إلى اختلاف اللغات — **الجهاز الصوتى** — اختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية — **العوامل** التى تحافظ على اللغة — **وظيفة اللغة** — الكتابة — الكتب المقدسة — تدخل السلطة المركزية — اللغة حصيلة **التراث الانسانى** كله — **اللغة العربية بعد الإسلام وقبله** — القرآن والكلمات الأعجمية — **اللغة العربية كما** نستعملها اليوم — وحدة **العلم والثقافة** — **لغة** واحدة برموز مختلفة — **العلم الحديث يحل مشكلة** اختلاف اللغات .

وحدة اللغة :

لست أشك لحظة فى أن هـذا العنوان وأعنى به وحدة اللغة الإنسانية سيفاجىء القارئين والباحثين للوهلة الأولى ، فليس هنـالك ما يفرق فى نظر الكثيرين بين طوائف البشر ، سوى تعدد اللغات ، بل لعل الأساس الأوحد الذى تقوم عليه القوميات المتعددة هو اللغات المتعددة ، ولكنا سنرى بعد المتابعة فى هذا البحث ، أن ذلك كله لا يعدو سطحية فى النظر والفكر ، والجرى وراء أفكار أوربية متطرفة ، جاءوا بها فى القرن التاسع عشر ، عندما بالغوا فى الاعتداد بقوميتهم ولغتهم ، نتيجة للتفاخر بأجناسهم والادعاء بأنها تفوق سائر الأجناس ، وإلا فلم يحدث أن بالغ البشر فى موضوع اللغة قبل القرن التاسع عشر ، فقد عاشت الأمم والجماعات عبر التاريخ كله ، تتفاهم وتتعاون وتتبادل المنافع

والخدمات وتنقل عن بعضها مقومات الثقافة والحضارة ، دون أن يحول اختلاف اللغات عن تمام ذلك. فالمصريون القدماء اتصلوا بالفينيقيين والآشوريين والبابليين والحيثيين والفرس والإغريق والرومان ، ولم يحل اختلاف اللغات ، دون سير الأمور داخل هذه الإمبراطوريات المتنوعة المترامية الأطراف ، ولعل آخر نموذج من هذا الطراز سجله لنا التاريخ بكامل تفاصيله ، دخول العرب إلى إمبراطوريتى فارس والروم فى آسيا وأفريقيا ، فقد كانت هذه الشعوب التى دخلها العرب تتكلم بلغاتها الخاصة ، وقد احتاج الأمر إلى بضعة قرون قبل أن تصبح اللغة العربية هى لغة السواد الأعظم من هذه الشعوب ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع تفاعل العرب مع ثقافات هذه الشعوب وحضاراتها ، وتحويل ذلك كله إلى أعظم حضارة إنسانية عرفها البشر ، ألا وهى الحضارة الإسلامية ، التى كانت ثمرة امتزاج الحضارات الإنسانية القديمة كلها ، بعد أن سرت فيها روح القرآن ومبادىء الإنسانية الرفيعة ، وإن الإنسان ليدهش ، عندما يرى أن أئمة الفكر والعلم والفلسفة والفن ، بل واللغة والدين (كالبخارى وسيباويه) كانوا جميعاً من غير العرب أو إن شئت الدقة ، أغلبيتهم العظمى من غير العرب ، ما بين فارسى ورومى وحبشى وتركى وهندى ومصرى .

فلم يحدث أن حال اختلاف اللغات ، دون اختلاط الأجناس والتعاون على إنشاء الحضارات، كما أن التاريخ يقطع من ناحية أخرى بأن وحدة اللغة بين جماعات من الناس ، لم يكن لها أثر فى التقريب بينهم وحملهم على تأليف وحدة اجتماعية واحدة ، فالعرب عاشوا قبائل متفرقة فى جزيرة العرب يحارب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً دون أن يكون لتخاطبهم جميعاً بالعربية أو بلهجات متقاربة منها ، أثر فى تخفيف حدة الخصومات بينهم ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يعيشون فى ود مع الشعوب المجاورة فرسا كانوا أو أحباشا أو رومانا ، وهم الذين يخالفونهم فى اللغة . . . ولم يعرف العرب الوحدة السياسية والروحية فى حياتهم إلا فى ظل الإسلام ، أو بالأحرى فى ظل صدر الإسلام . . . ثم عاد العرب إلى منازعاتهم القبلية وخلافاتهم الموروثة ، فكادوا أن يودوا بوحدة العالم

الإسلامى من أساسه ، لولا أن حافظ على هذا الدين بقية شعوب الأرض التى دخلت فى الإسلام أفواجاً ، ورضيته لنفسها دينا واتخذته أساساً لحضارتها .

ومثل العرب فى جاهليتهم ، قبائل الإغريق ، فلقد عاشوا بدورهم قروناً عديدة ، وهم يقاتل بعضهم بعضاً ، مع أنهم يتكلمون اللغة الإغريقية ، فى الوقت الذى انساحوا فيه فى مناطق الشرق الأدنى ، يؤلفون المجتمعات وسط شعوب أخرى تتكلم غير لغتهم ، ويتعاونون معها فى سلام ووئام ، كما كان شأنهم فى مصر أيام إبسماتيك . ولقد ظل الإغريق يقاومون الوحدة فى بلادهم حتى فرضها عليها الإسكندر المقدونى بقوة السيف ، ثم لم تلبث بعد موته أن انفرط عقدها من جديد .

وعاشت الشعوب الجرمانية فى أوربا طوال العصور الوسطى وهى تتكلم الألمانية دون أن تفكر فى الوحدة ، بل لقد قاوم الوحدة الألمانية كل علمائها الأعلام وجهابذتها وأبطالها وفنانوها ، من أمثال كانت وجوته وشلر وبتهوفن ، وكان بعضهم يستعيذ من فكرة الوحدة الألمانية ، ويرى أن ذلك من شأنه القضاء على الحرية والعلم والفن ، ولم تتحقق الوحدة الألمانية إلا فى عصر متأخر جداً من القرن التاسع عشر سنة ١٨٧٠ على يد بسمارك ، وتمت بقوة الحديد والنار ، لا اللغة .

وفى عصرنا الحديث توجد دول ومجتمعات ، من كل صنف وطراز ، وعلى كافة المستويات ، تسودها أكثر من لغة رسمية دون أن يكون لذلك أى أثر فى رقيها أو تطورها ، ابتداء من سويسرا والبلجيك حتى جنوب أفريقيا وكندا ، ولعل الهند أعظم مثل على أن تعدد اللغات لا يحول دون الوحدة القومية ، فيقول البعض إن بالهند ٢٤٠ لغة و ٣٠٠ لهجة ويردها غوستاف لوبون إلى خمس فصائل أساسية يختلف بعضها عن بعض أكبر من اختلاف اللغات الأوربية فيما بينها ، وعلى الرغم من ذلك ، فليس ثمة من ينازع فى وجود وحدة روحية بين الشعب الهندى ، تعلو على اختلاف اللغات .

فالمبالغة فى إظهار خطورة اللغة فى حياة الجماعة أو الأمة ، واعتبارها هى العنصر الحاسم والأساسى فى التفريق بين الأمم ، هو وهم من نوع الوهم الذى عرضناه سابقاً من تقسيم البشر إلى جنسيات مختلفة ، وهو بدوره من مخلفات التراث الأوربى فى القرن التاسع عشر ، والذى بدأ يعدل عنه نهائياً فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فالإجماع منعقد اليوم بين الأعلام الثقات فى علوم اللغة ، أن ليس هناك ما هو أمعن فى الخطأ ، من القول بتفضيل لغة على أخرى ، أو تقسيم اللغات إلى لغات راقية وأخرى متخلفة[1] ، فكل لغة تؤدى بالنسبة إلى أصحابها ذات الدور الذى تؤديه فى حياة أى جماعة أخرى ، وما من لغة ،حتى لو كانت لغة أكثر الجماعات بدائية بين زنوج أفريقيا أو شعوب استراليا ، إلا وفيها جميع الخصائص التى توجد فى بقية اللغات . ومن هذه الحقيقة التى انتهى إليها الباحثون ، نبدأ نحن بحثنا فى وحدة اللغة الإنسانية ، من حيث هى أصوات ترمز لمعان ومسميات يتفق عليها ، وأن اللغة أى لغة سواء كانت الإنجليزية أو العربية أو الفارسية أو الهندية ، هى حصيلة التراث الإنسانى كله ، وقد ساهم فى تكوينها جميع الأمم والشعوب والأجناس البيضاء والصفراء والسوداء ، وكما أن أجناس البشر كلها ترتد إلى أصل واحد مشترك ، فكذلك اللغة لا يمكن إلا أن تكون قد نبعت كلها من أصل واحد مشترك هو هذا الإنسان الأول الذى نسل كل هؤلاء البنين والبنات ، مورثاً إياهم هذه الوديعة الكبرى ، وديعة اللغة ، فتشكلت وتنوعت ، كأى نتاج إنسانى آخر ، دون أن يفقدها ذلك جوهر وحدتها .

اللغة تعنى الإنسانية :

الإنسانية لا تعرف إلا باللغة ، واللغة هى المميز للانسانية عن غيرها من الكائنات ، فالإنسان لم يسم إنساناً ويختص بوجود يفرقه عن الحيوانات إلا لأنه يتكلم هذا الكلام الذى نسميه لغة ، والتى هى شىء آخر غير مجرد الأصوات

---

(١) الدكتور أنيس فريحة — محاضرات فى اللهجات .

والصرخات التى تنبعث من فم الحيوان . فليس شك أن الحيوانات تصدر مجموعة من الأصوات التى يدل كل منها على معنى معين ، فثمة صرخات للتحذير ، وصيحات للنداء ، وأخرى للتعبير عن السرور ، ولكن هذه الصيحات والهمهمات تتم كلها بحركات غريزية تلقائية أشبه بردود الأفعال ، وهى تقف عند هذا القدر لا تعدوه ولا يمكن أن تعدوه ، لأنها غير مزودة بالعقل الذى هو سر خاص بالإنسان ينفرد به كما قدمنا ، وبواسطة هذا العقل توسع الإنسان فى مدركاته ، ووضع لكل شىء ولكل معنى ولكل حالة اسماً تختص به ، وهذه هى اللغة التى هى من نتاج البشر .

تعريف اللغة :

واللغة فى أبسط تعريف لها ، هى أصوات تخرج من حنجرة الإنسان لترمز إلى مدلول معين ، بحيث يكفى التلفظ بهذا الرمز ، لكى يتمثل السامع على الفور صورة هذا المدلول ، بغير حاجة إلى وجوده أو رؤيته ، فضلا عن لمسه أو الإحساس به بأى حاسة من الحواس . وبهذا الأسلوب يمكن لأى إنسان أن يتفاهم مع الإنسان الآخر على ما يريد ، وأن ينقل له صورة مما يجرى فى فكره عن أيسر طريق وأسرعه .. فاللغة هى وسيلة من وسائل المواصلات الذهنية ، وهى لا يمكن إلا أن تكون أول أداة اخترعها الإنسان[١] ، وهى فى ذات الوقت أعظم أداة ، لأنها هى التى مكنت الإنسان من أن يصبح كائناً اجتماعياً إذ جعلته يحدد الروابط التى تربطه بأفراد عائلته ، ويؤدى الحقوق والواجبات ، ويقسم العمل ، ويستفيد من تجارب الآخرين ، ويعمل الفكر فى كل ما يجرى حوله ، فنحن نفكر بواسطة الكلمات والألفاظ . والفكر هو الذى مكن الإنسان ، وسيظل

---

(١) الرأى على أن اللغة وجدت مع الإنسان منذ مليون سنة أو أكثر ، ويستدلون على ذلك بوجود بعض الحفريات من الأدوات الحجرية مع بقايا الإنسان .. والرأى على أن اللغة لا يمكن إلا أن تكون قد سبقت صنع أى أداة .

(دائرة المعارف البريطانية) مادة لغة .

يمكنه من التخيل والإبداع والخلق ، وهو ما جعله قادراً على السيادة فى هذا الكون على بقية الكائنات ، فما كان ذلك ليكون أو يتحقق إلا بواسطة هذه اللغة التى هى أصوات ترمز لمسميات ، يستعملها الإنسان لتحقيق أغراضه وإشباع حاجاته المادية والروحية على السواء .

كيف نشأت اللغة :

وقد جرت مباحث كثيرة منذ أقدم العصور لمعرفة كيف نشأت اللغة ، وقال أقوام بأنها إلهام من الله رب العالمين للانسان ، وقد استدل علماء اليهود والمسيحيين على ذلك بقول التوراة « وجبل الرب الإله من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء ، وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها ، فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه — فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحوش الصحراء باسمها[1] .

وغنى عن البيان أن آدم لم ينطق بهذه الأسماء إلا بوحى من رب العالمين ، ومن هنا قيل إن أصل اللغة هو الإلهام والوحى من الله . وتابع كثير من علماء المسلمين هذا الرأى ، حيث يدل ظاهر آيات القرآن على هذا الرأى .

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم »[2] .

وتقول المباحث العلمية الحديثة التى تعتمد على المشاهدة والتجربة والملاحظة : إن اللغة نتاج بيولوجى تفرضه سنن الحياة فرضاً على الكائن الحى ،

---

(١) الفصل الثالث — سفر التكوين .

(٢) البقرة — ٣٢ .

وهى تتطور طبقاً لحاجات الإنسان وغريزة الإبقاء على ذاته .

ويقول علماء الاجتماع المحدثون : إن اللغة ظاهرة اجتماعية وليست مجرد ظاهرة بيولوجية ، فهى ليست وليدة الحياة بقدر ما هى وليدة الحياة الاجتماعية والمعيشة المشتركة ، ولذلك فهى تنمو وتزدهر نتيجة اتفاق الجماعة على ألفاظها ومفرداتها التى هى رموز أولا وأخيراً[١] .

ابن جنى وأصل اللغة :

ولقد كان موضوع أصل اللغة ، من المسائل التى أظهرتنى على عظمة التراث الإسلامى . فقد تصورت أن القول بأن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها من خلق الجماعة واتفاقها على مفرداتها هو قول لم يسبق إليه ، فإذا أبو الفتح عثمان بن جنى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، يتناول هذا الموضوع بكل وضوح ونصاعة ، ويظهر فى معالجته ما يوصف فى عصرنا الحديث بالشجاعة الأدبية ، حيث يصرف مدلول آية قرآنية عن ظاهر اللفظ إلى تقدير المعنى فيقول :

باب القول على أصل اللغة إلهام أم اصطلاح ؟

« إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف ، إلا أن أبا على رحمه الله (هو أبو على الفارسى أستاذ ابن جنى) قال لى يوماً : هى من عند الله واحتج بقوله سبحانه وعلم آدم الأسماء كلها . وهذا لا يتناول موضع الخلاف ، ذلك أنه يجوز تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به »[٢] . ثم مضى ابن جنى فى بحثه يقول «والذين

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى — اللغة والمجتمع .

(٢) الخصائص — الجزء الأول — ص ٤٤ .

ذهبوا إلى أن الأصل فى اللغة هو المواضعة لا الوحى قالوا : وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومة ، فيضعوا لكل واحد سمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف به ما سماه ليتميز به عن غيره ، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكليف إحضاره ، لبلوغ الفرصة فى إبانة حاله . بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه كالمعانى ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز وغير ذلك » .

وهذا الذى يقول به ابن جنى منذ ألف سنة ، هو خلاصة ما انتهت إليه الآراء والمباحث ، فى أن اللغة ظاهرة اجتماعية بمعنى أنها وليدة المجتمع الإنسانى ، وليست ظاهرة بيولوجية بحتة كغيرها من الظواهر البيولوجية ، كما أنها لم تخلق جملة مع الإنسان خلقاً ... وإنما نشأت وتطورت واختلفت وتفرعت تحت ضغط شتى الظروف والحاجات .

والرأى عندى ، أن اللغة مزيج من الظواهر البيولوجية والاجتماعية . فهى من ناحية جبلية من طبيعة الإنسان بجزءيه المادى والعقلى ، وهى من ناحية أخرى وليدة الجماعة الإنسانية والاتفاق بين أفرادها على رموز معينة للدلالة على مسميات محدودة .

فالإنسان باعتباره كائناً حياً لديه القدرة على إخراج الأصوات من حنجرته وفمه ، وهذه الأصوات تختلف وتتلون حسب حالته المادية والمعنوية ، فإذا أصيب بألم ، خرج منه صوت يختلف عن الصوت الذى يصدر منه فى غير حالة الألم ، والصوت الذى يصدر منه فى حالة الفزع والاضطراب غير الصوت الذى يصدر منه للتعبير عن أمنه واطمئنانه. والصوت الذى يصدر عنه إبان الحزن أو الغضب ، غير الصوت الذى يصدر إبان الرضا والفرح . ومن هذه الأصوات التلقائية من حركات الألم والعجب والفرح والفزع والدهشة نشأت الكلمات الأولى التى لا تزال آثارها موجودة فى كل لغة ويفهمها كل إنسان على ظهر الأرض مثل

أصوات آه ، وأوه ، ووى ، للتعبير عن الدهشة والتعجب ، وآى وآ ، وآخ ، للتعبير عن الألم وهكذا . ولا جدال أننا بالتنقيب فى كل لغة نستطيع أن نجد فيها ألفاظاً يمكن إرجاعها إلى هذه الأصوات الغريزية التلقائية . وتكون اللغة من هذه الناحية ظاهرة بيولوجية جبلية فى الإنسان باعتباره كائناً حياً .

محاكاة الطبيعة :

ولكن اللغة كما هو مشاهد وواقع لا تقف عند حد الأصوات أو الحركات التى تجىء نتيجة عوامل فسيولوجية أو سيكولوجية من ألم ومرح وحزن وغضب بل إن فيها العديد من الألفاظ التى لا ترجع إلى حركة داخلية فى الإنسان ، قدر ما ترجع إلى قدرته على محاكاة أصوات الطبيعة مما جعل بعض علماء اللغة يقولون إن هذا هو منشأ اللغة ، ومن هذا الرأى صاحبنا القديم ابن جنى حيث يقول فى كتابه الخصائص (ص ٤٦) :

« وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

وهذه الألفاظ العربية التى توحى بأنها مشتقة من أصوات الطبيعة لها مثيل فى سائر اللغات ، وفى لغتنا العامية المتداولة التى هى فى الحقيقة من اللغة المصرية القديمة كلمات قوية الدلالة فى هذا الصدد ككلمات « تف ونف وكح وبح » . وهو ما يقطع بأن جانباً من اللغة قد نشأ عن هذا الطريق .

كلمات اصطلاحية :

ولكن كلمات اللغة حتى ما كان منها بدائياً ، أى يتصل بأول مظاهر الوجود والعمران ككلمة رجل أو ولد أو بنت أو بيت ، فهذه كلها ألفاظ لا تمت إلى حركة صوتية من أى نوع كان فهى لا يمكن إلا أن تكون

إصطلاحية جرى عليها الاتفاق . ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الكلمات التى تدل على مسميات لا وجود لها فى الطبيعة المحسوسة ، حتى يقال إنها تتصل بالأصوات ، سواء التى يصدرها الإنسان أو التى تحدثها الطبيعة ، كالغول والعنقاء والعفريت ، ويدخل تحت هذا الباب كل الكلمات التى ترمز لما وراء الطبيعة من الغيبيات ابتداء من الله حتى الملائكة والبعث والنشور والخلود والروح .

وكذلك الكلمات التى تدل على المعانى المطلقة والمجردة كالسعادة والكمال ، وهذه كلها كلمات تدق معانيها حتى على المتعلمين والمثقفين . فهى دائماً فى حاجة إلى من يشرحها ويفسر معناها ليقربها إلى الأذهان ويوضح المقصود بها ، فهى والحالة هذه لا يمكن إلا أن تجىء ثمرة الاتفاق ، فهى وليدة العقل الجماعى والمجتمع الإنسانى وكون الإنسان عضواً فى جماعة يحرص على العيش فيها وتبادل المنفعة مع سائر أفرادها .

لغة الإشارة :

وقبل أن نمضى فى تتبع سير اللغة وكيف تطورت وتتطور دائماً ، والنواميس التى تحكم هذا التطور ، يجدر بنا إلى أن نشير إلى وسيلة أخرى للتفاهم بين البشر يرى المؤمنون بالتطور أنها قد سبقت اللغة ، ونراها ظاهرة إنسانية تساير اللغة وتصاحبها ، بل وتقوم مقامها عند فقدانها لأى سبب من الأسباب ، وتلك هى لغة الإشارة ، فالتعبير بالجسم والرأس واليدين ، وسيلة يدركها كل إنسان ويحس بها فى نفسه ، فنحن إذا غضبنا ، قطبنا وجوهنا ، واستطاع من ينظر إلينا أن يعرف تغير حالنا إلى الغضب . وكذلك إذا ابتهجنا أو فرحنا ، انفرجت أساريرنا ، وإذا انفعلنا اصفرت وجوهنا أو احمرت على حسب الأحوال .

وكل هذه علامات وإشارات يستطيع كل إنسان أن يفهم منها حالة الإنسان الآخر .

وهناك بعد ذلك تحريك الرأس واليدين ، بما يدل على الموافقة أو المخالفة . ومن مجموعة هذه الظواهر الجسدية والحركات العضوية تألفت لغة خاصة بالإشارة بغير حاجة إلى النطق وإخراج الأصوات بحيث يمكن القول إنه إذا كان المقصود باللغة هو مجرد التعبير ، فإنه يجب فى هذه الحالة أن تقسم إلى نوعين . . التعبير بالإشارة والتعبير بالصوت ، وكلا النوعين هما من نتاج العقل الإنسانى .

ولا جدال فى أن التفاهم عن طريق الإشارة هو لغة إنسانية عالمية ، لا يختلف فى إدراكها إنسان عن إنسان إلا بمقدار التفاوت بين القوى العقلية .

وبهذه اللغة ، لغة الإشارة يتفاهم أى إنسان غريب إذا حل فى مجتمع لا يعرف لغته ، وباستطاعته دائماً أن يشبع حاجاته الأساسية عن طريق هذه الإشارة ، بل لا سبيل لتعلم أى لغة أجنبية إلا عن طريق الإشارة ، فيشار باليد على المسمى ثم يلفظ الصوت الخاص به ، أو أن تعرض صورة الشىء ثم يشار إليها ويلفظ الصوت الخاص به ، فالإشارة إذن ، هى أولى مراحل اللغة وجزء أساسى فيها .

وهناك أناس يعيشون طول حياتهم لا سبيل لهم للتفاهم مع بنى الإنسان إلا بواسطة الإشارة ، وهم هؤلاء الذين حرموا من نعمة النطق ونعنى بهم (الخرس) . والتاريخ يحدثنا أنه حيث التقى أقوام بآخرين لا يعرفون لغتهم ، استطاعت الإشارة دائماً أن تحقق التفاهم ، كما حدث بين خرستوف كولمبس عند ما نزل أمريكا لأول مرة حيث استطاع أن يتفاهم مع الهنود الحمر عن طريق الإشارة .

والشعوب البدائية تتخاطب فيما بينها عن بعد بالإشارة ، مستخدمين دقات الطبول ، وإشعال النيران ، وقد تعلمت منهم الشعوب المتحضرة هذه اللغة منذ أقدم العصور ، فكانت الطبول ، وإشعال النيران وتحريك الأعلام

وسيلة للتخاطب عن بعد ، حتى إذا كان العصر الحديث عصر الـكهرباء والتلغراف والتليفون ... بدأ التخاطب يجرى على البعد من خلال الإشارات الصوتية التى اشتهرت باسم « إشارات مورس » .

فالتفاهم بالإشارة ، ابتداء من تحريك اليد ، حتى اصطناع الرموز المتفق عليها عالمياً ، هو وسيلة عالمية من وسائل التفاهم بين البشر على اختلاف درجاتهم من المدنية والحضارة ، مما يؤكد قدرة البشر على الالتقاء والتفاهم حتى لو لم تكن لهم لغة ملفوظة مشتركة .

اللغة الملفوظة :

على أن الذى لا شك فيه ، أن لغة الإشارة وإن استطاعت أن تسد بعض حاجات الإنسان المادية الأساسية ، فهى قاصرة عندما يراد بها التعبير عن أشياء لا عهد لأحد المتخاطبين بها من قبل ، وهى عاجزة عن أن تصور أشياء غيبية أو مجهولة . ومن هنا كانت اللغة الملفوظة هى وحدها الجديرة باسم اللغة حيث أصبح كل صوت رمز لمسمى معين ، ولما كان لا حد لما يستطيع الإنسان أن يحدثه من أصوات ، فقد أصبح بقدرته أن يضع من الرموز الصوتية بقدر ما فى الـكون من مسميات .

ولا ينبغى التشكك بحال فى أن اللغة الملفوظة قد بدأت كلغة الإشارة ، لغة واحدة يعرفها أبناء البشر الذين كانوا أول من نطقوا وتفاهموا .

وإذا كانت التوراة تقول لنا « وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً » وإذا كان القرآن الـكريم يؤكد هذا المعنى بقوله « وعلم آدم الأسماء كلها » فإن منطق الأشياء يقطع بأن الأمر لا يمكن أن يكون إلا كذلك . فما دام الأصل فى الجنس البشرى هو التسلسل من أصل واحد مشترك ، فإن الأبناء قد تلقوا دائماً اللغة عن آبائهم ، وإذا كانت اللغات قد تفرعت وتعددت

فيما بعد ، فذلك أمر طبيعى جداً نظراً للأسباب التى تؤدى إلى تطور اللغات وتعدد اللهجات مما سنعرض له فيما بعد .

ولقد استطاع علماء اللغة أن يكتشفوا الأصل المشترك للعديد من اللغات ، فيتتبعون تفرع اللغات « الأسبانية والفرنسية والإيطالية » على سبيل المثال من اللغة اللاتينية ، ثم يتتبعون اللغة اللاتينية نفسها ، فيرونها فرعاً من اللغات « الهندية الأوربية » التى تشمل فيما تشمل اليونانية والسنسكريتية . ويتتبعون عدداً من اللغات الأخرى كالعربية والعبرية والآرامية والأمهرية والمصرية القديمة، فيرونها ترجع كلها إلى لغة واحدة يطلقون عليها اسم السامية[1] .

ويتعقب بعض العلماء بعض الكلمات الأساسية فى حياة الإنسان فيجدونها واحدة فى كل اللغات أو بالأحرى تدور كلها حول صوت واحد مما يقطع بوحدة الأصل .

الأم :

فهذه كلمة الأم على سبيل المثال ، نجد أن الصوت الأساسى فيها هو حرف الميم ، وهى من أول الأصوات التى يتناغى بها الأطفال ، ولذلك فإن الكلمات التى ترمز للأم فى مختلف اللغات تحتوى على حرف الميم هذا ، فهى فى اللغة العربية أم كما تعرف وهى فى الفرنسية مير ، وبالإنجليزية موذر ، وبالسويدية مودر ، وبالألمانية موتر وبالروسية مات وبالدنمركية مودر وباللاتينية ماتر ،

---

(١) يرجع علماء اللغة المحدثون اللغات المختلفة إلى ثلاثة فروع أساسية :

— الهندية الأوربية .

— السامية .

— الفينية (نسبة إلى فنلندا) .

— خليط من اللغات لا يستطيعون وضعه تحت أى من هذه التقسيمات .

(دائرة المعارف البريطانية)

وبالإغريقية موتر وبالإيطالية مادرى ، وبالأسبانية مادرى ، وبالبرتغالية مادرى ، وبالسنسكيريتيه ماتا ... وهكذا[1] .

سماء وأرض وشمس :

والحرف الأول من كلمة سماء هو حرف السين ، فإذا جئنا إلى اللغة الإنجليزية وجدنا حرف السين هو نقطة بدايتها كذلك « سكاى » وفى الفرنسية تبدأ بحرف السين « سيل » وقد تحل الشين محل السين فى بعض اللغات ، والاتفاق على أن السين والشين يتبادلان دائماً .

وكذلك كلمة أرض ، فإن حرف الراء أو بالأحرى صوت الراء نجده فى كثير من الكلمات الدالة على الأرض فى اللغات المختلفة ، فهى فى الإنجليزية ايرث وهى فى الفرنسية تر وهى فى الألمانية إرد .

وبالنسبة لكلمة الشمس نجد الصوت الدال على السين أو الشين أو الصاد فى أغلب الكلمات الدالة على الشمس فى مختلف اللغات ، فهى فى اللغة الإنجليزية صن ، وهى فى اللغة الفرنسية : سولى ، وهى شمس فى اللغة الآرامية وهى شمسو باللغة الأكادية ، وشمس باللغة العبرية ، ولمن أراد المزيد من هذه الكلمات فعليه أن يطالع الكتب المختصة فى هذه الموضوعات .

انحصار الوحدات الصوتية للإنسان :

والرأى العلمى اليوم بعد أن أصبحت اللغات لا تدرس إلا باعتبارها أصواتاً ، على وحدة الأصل لجميع اللغات ، وهى هذه المجموعة المحدودة من الأصوات التى تصدر من الحنجرة البشرية المؤلفة من الرئتين والقصبة الهوائية

---

(١) تاريخ الجنس البشرى ، ص ٢٥ .

والتجويف الفمى واللسان والشفتين ، ويتراوح عدد الأصوات من ٢٢ — ٢٦ صوتاً يحدث اختلافها نتيجة وضع اللسان ومدى التصاقه بالحلق أو الأسنان ، وفتح الفم أو إغلاقه وتدويره ، ودرجة خروج الهواء من الفم أو الأنف وهكذا . وهذه الأصوات هى التى نطلق عليها اسم الحروف الأبجدية ، وهى التى يطلق عليها الآن اسم « الفونتكس » ولم تعد دراسة اللغات تعتمد على الكتب والمخطوطات والأعمال المكتبية ، وإنما تدرس اللغات الآن فى المعامل وبواسطة استعمال آلات التسجيل والمكبرات الصوتية ، فاللغة الملفوظة لا المكتوبة ، هى التى أصبحت محور الاهتمام فى دراسة اللغات ، على أساس أن الكتابة ليست سوى اختراع حديث جداً بالنسبة للغة ... فإذا كان الإنسان ينطق باللغة منذ مليون سنة على أقل تقدير ، فإن الإنسان لم يعرف اللغة المكتوبة إلا منذ ستة آلاف سنة فقط ، وهو عمر لا يكاد يذكر بالنسبة لعمر اللغة الملفوظة . إن شأن اللغة الكتابية بالنسبة للغة الملفوظة كمثل الأصوات الموسيقية عرفها الإنسان مذ كان إنساناً ، عندما أطلق حنجرته لأول مرة يشدو بالغناء ، بل عرفها وهو يستعمل أول ما عرف من آلات موسيقية ، ولكنه لم يستخدم النوتة لكتابة الموسيقى إلا منذ عهد قريب جداً .

وحتى فى عصرنا الحديث فإن الذين يقرأون ويكتبون من البشر بالنسبة لمن لا يقرأون أو يكتبون ، هم العدد الأقل .

وكم من لغات محفورة على الصخور والآثار . بل وتتضمنها بعض الكتب لا تجد من يهتم بها هذه الأيام فضلا عن أن يتكلم بها فهى فى عداد اللغات الميتة ، لأن اللغة الحية هى التى يتكلم بها . وعلى رأس هذه اللغات الميتة لغات عظيمة ورائعة كاللغة اليونانية القديمة أو اللغة المصرية أو اللغة الحميرية ، بل إن لغة كانت لغة أوربا كلها فى عصر من العصور كاللغة اللاتينية ، أصبحت اليوم فى عداد اللغات الميتة ، حيث لا يتعلمها إلا الدارسون والعلماء الذين ينقبون فى التاريخ .

فعلماء اللغة المحدثون لا يعنون إلا باللغة الملفوظة عند محاولتهم تقويم أى لغة ، وهذه اللغات الملفوظة تؤكد بوضوح وحدة المادة الصوتية التى تألفت منها اللغات .

الأسباب التى تؤدى إلى اختلاف اللغات وتعدد اللهجات :

حاول الكثيرون ، أن يتخذوا من اختلاف اللغات ، سبيلا للقول بتقسيم الجنس البشرى إلى أمم وجماعات ، بحيث يؤلف المتكلمون بلغة معينة أمة واحدة ، تختلف شخصيتها عن باقى الجماعات الإنسانية الذين يتكلمون بلغة أخرى ... مرجعين الاختلاف فى اللغات إلى خلاف أساسى فى مقومات الشعوب وخلق الفوارق فيما بينها .

وسيكشف لنا البحث العلمى فى الكيفية التى تفترق بها اللغات وتتعدد وتتنوع عن زيف هذا التصور ، فاللغة أى لغة ، هى فى تغير وتبدل دائمين ، ينتهى دائماً إلى تفرعها إلى لهجات جديدة بلغات متباينة ، بحيث كان يمكن أن تظل هذه العملية إلى ما لا نهاية ، لولا قيام العوامل المضادة التى تحول دون ذلك . ففى قارة مثل أفريقيا يبلغ عدد لغاتها ولهجاتها رقماً يتراوح بين ٦٠٠ — ٨٠٠ لهجة ولغة ... وقد تفرع هذا العدد العديد من ثلاثة أصول رئيسية ، وهى السواحلية فى شرق أفريقيا ، والهوسا فى غرب أفريقيا واللانجالا فى الكونغو ، ومن هذه الأصول الثلاثة تفرعت كل هذه الفروع .

ومثل ذلك يقال عن باقى لغات العالم ولهجاته التى تتراوح بين ٢٥٠٠ — و ٥٠٠٠ فهذا العديد من اللغات واللهجات يرتد بدوره إلى ثلاثة أصول رئيسية على ما يقول علماء اللغة المحدثون وهى الهندية الأوربية — والسامية — والفنلندية .

وهذا التنوع والتعدد يتم بطريقة تلقائية كنتيجة حتمية لنواميس الطبيعة

والحياة التى تأبى إلا أن تجعل لكل كائن حى ابتداء من أصغر خلية نباتية حتى أكمل صورة إنسانية ، شخصيتها المستقلة التى تختلف عن أقرب شخصية إليها.

ويقع هذا الافتراق والخلاف فى اللهجات واللغات بين الكائنات الإنسانية — وسيظل يحدث ما بقيت الحياة — نتيجة عوامل متعددة :

الأول — العامل الوراثى ، الذى يجعل كل وليد يرث بعض خصائص والديه على ما فصلنا فى الفصل السابق ، والذى يجعل تركيبه الجسدى مختلفاً عن تركيب كل من الأب أو الأم ... ولما كانت الحبال الصوتية هى أحد أجزاء الجسد فان الاختلاف يقع فيها ، كما يقع فى كل أجزاء الحنجرة ، ومع الاختلاف فى تركيب الجهاز الصوتى يقع الخلاف فى الأصوات الصادرة عنه كما سنرى .

الثانى — تأثير البيئة الجغرافية على الكائن الحى بتأثيرات تختلف باختلاف الطبيعة ، فالذين يعيشون فى الصحراء يتأثرون بمؤثرات غير الذين يعيشون على شواطىء بحر أو نهر أو فوق قمة جبل ، والذين يعيشون فى المناطق الباردة يتأثرون بمؤثرات غير الذين يعيشون فى المناطق الحارة وهكذا .

الثالث — وضع الإنسان الاجتماعى ، أى مكانه ودوره الذى يؤديه فى المجتمع ، فكما أن البيئة الطبيعية تحدث أثرها فى الإنسان ، فكذلك الشأن بالنسبة للبيئة الاجتماعية .

وقد ترتب على هذه العوامل الثلاثة ، وسيظل يترتب عليها أن تختلف اللغات واللهجات وتظل تتعدد بمقدار ما فى البشر من جماعات بل بمقدار ما فيها من أفراد ، ولنبحث هذه القضية بشىء من التفصيل .

الجهاز الصوتى :

قدمنا من قبل أن الحنجرة البشرية قادرة على إحداث عدد من الأصوات

المختلفة المتباينة يتراوح ما بين ٢٢ — ٢٦ صوتاً ، وهى الأصوات التى يؤلف كل منها حرفاً خاصاً من حروف الأبجدية . على أن الإنسان لكى يكون قادراً على إحداث هذه الأصوات كلها ، يجب أن يكون جهازه الصوتى ابتداء من الرئتين حتى القصبة الهوائية والحنجرة واللسان والأسنان والشفتين فى حالة صحة وكمال . بل وأن يكون استعداده لتعلم اللغة كاملا كذلك ، لأن اللغة يتحصل عليها بالتعليم والاكتساب وليس بالغريزة . وعلى ذلك فيكفى أن تكون إحدى أسنان الإنسان مكسورة ، بل يكفى أن يزيد مقدار الانفراج بالأسنان الأمامية لكى لا يكون باستطاعة الإنسان أن يخرج الأصوات المطلوبة بالكمال والدقة المعينين لإخراج الأصوات المختلفة ، وكذلك الشأن إذا كان باللسان نقص فى أداء حركاته ، فإنه يترتب على ذلك اختلاف فى النطق . . . ونحن نرى فى حياتنا اليومية أشخاصاً كثيرين لا يستطيعون أن ينطقوا حرف (الراء) فينطقونه (غينا) ، أو حرف القاف فينطقونه (كافا) وحرف (الثاء) فينطقونه سينا أو السين إذ ينطقونها ثاء .. وهكذا ، وبعض الجماعات لا تستطيع أن تنطق حرف (الخاء) أو الضاد .

وهناك أصوات يستثقلها الناطقون ، ويستخفون أصواتاً فيستبدلون هذه بتلك ، كما يحدث فى لغتنا اليومية حيث نستبدل بحرف الثاء (لثقله) حرف التاء ، فترانا نقول « تعلب بدلا من ثعلب ، وتوب بدلا من ثوب ، وتلج بدلا من ثلج ، وتعبان بدلا من ثعبان ، وتلاته بدلا من ثلاثة » .. وهكذا .

وكذلك استخفاف حرف الدال عن الذال ، فترانا فى حديثنا اليومى نقول « دهب بدلا من ذهب ، ودبح بدلا من ذبح ، ودراع بدلا من ذراع ، وديل بدلا من ذيل » الخ وكذلك الضاد بدلاً من الظاء ، فنقول ضلام بدلا من ظلام ، وضفر بدلا من ظفر ، وضهر بدلا من ظهر ...

أو استبدال القاف بهمزة فنقول آلت بدلا من قالت ، وفرأعت بدلا من فرقعت وهكذا .

هذا الخلاف فى الأجهزة الصوتية ومدى كمالها وصلاحها ، والرغبة فى تسهيل النطق واستثقال بعض الأصوات دون البعض الآخر ، وما ترتب على ذلك من آثار يعددها ويفصلها علم اللغات كالقلب والإدغام والحذف . . الخ كان هو أول ما أدى إلى تنويع الحروف الأبجدية وطريقة النطق ، مما أحدث اللهجات المختلفة الخاصة بكل جماعة ، وكل طائفة وكل فئة ، بل وكل فرد على حدة.

اختلاف البيئة الطبيعية والجغرافية :

أما ثانى العوامل التى تؤدى إلى التمايز بين اللغات ، فهو انتشار الإنسان وانطلاقه من بيئته الأصلية إلى بيئات جديدة ، حيث تصادفه ظروف جديدة ، ومعالم جديدة ، ومشاكل لا عهد له بها من قبل ، فيدفعه ذلك إلى نحت كلمات جديدة ليطلقها على هذه المسميات الجديدة ، أو يستعمل الكلمات القديمة استعمالات جديدة ، فالذين رأوا البحر لأول مرة هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم ، بينما يظل هذا الاسم لا مدلول له عند من لم ير البحر ، والذين شاهدوا منتجات البحر لأول مرة كان عليهم أن يطلقوا عليها الأسماء التى لا يعرفها من لم يروا هذه المنتجات ، والذين رأوا الأشجار والغابات والحيوانات والحشرات والظواهر الجوية لأول مرة كان عليهم أن يطلقوا الأسماء الأولى لهذه الظواهر والمسميات .

وهكذا أصبح يوجد لدى أى جماعة مجموعة من الأسماء لا يعرفها غيرهم ممن لم تتح لهم رؤية ما رأوا . ومن مجموعة هذه الألفاظ الجديدة ، والطريقة الخاصة بالنطق بها ، تتولد اللغات المختلفة .

اختلاف البيئة الاجتماعية :

وليس أدل على أن هذا الخلاف الذى ينشأ بهذا الأسلوب مؤلفاً اللغات

المختلفة ، لا يعنى بحال أى اختلاف أساسى بين البشر وإنما هو لون من ألوان التنوع الذى هو سمة الحياة البشرية ، أن الجماعة الواحدة فى ظل البيئة الجغرافية الواحدة التى تقع كلها على شاطىء البحر ، أو على قمة الجبل ، أو فى أحشاء الصحراء والتى تتكلم كما يقولون بلغة واحدة ، سرعان ما يختلف أفرادها بدورهم فيصبح لكل جماعة فرعية لهجتها الخاصة . ذلك أن أفراد أى جماعة من الجماعات يختلفون فى كل شىء .. فى أعمارهم ، فى حرفهم وأعمالهم ، فى حظهم من التعليم ، فى حظهم من السلطة والأهمية الاجتماعية ، فالذين يشتغلون بالصيد سرعان مايؤلفون كلمات خاصة بهم ، والتجار والفنانون والمغنون والمحامون والقضاة والمهندسون ، بل حتى المجرمين واللصوص الذين يستترون من القانون ويرتكبون جرائمهم فى الظلام سرعان ما يصطنعون لأنفسهم لغة خاصة يتفاهمون بها فيما بينهم ولايدرك معناها أو المقصود منها إلا من كان من طائفتهم .. ومن هنا قال علماء اللغات واللهجات ، إن اختلاف اللهجات واللغات يرجع إما إلى أسباب جغرافية إقليمية ، وإما إلى أسباب اجتماعية تنشأ عنها « اللهجات الاجتماعية » .

فكأن تعدد اللهجات واختلاف اللغات هى عملية مستمرة دائمة لا تقف أبداً ، متطورة أبداً ، متغيرة أبداً ، باعتبارها أحد مظاهر الحياة لها كل خصائص الحياة ، فهى تتغذى وتنمو وتتلاقح ، وهى تموت كما يموت كل كائن حى ، حيث تتحول إلى بطون الكتب ولا تعود تنطق بها الشفاه .

وكما أن علم الحياة يقول لنا إن الجسم الحى تموت بعض خلاياه فى كل لحظة ، كما تتولد فيه خلايا جديدة فى كل لحظة كذلك ، فهكذا الشأن بالنسبة للغة ، ففى كل لحظة من لحظاتها تولد كلمات جديدة ، كما تموت فى كل لحظة كلمات ، ونعنى بالكلمات التى تموت ، تلك التى لا تجد إنساناً واحداً بين ألوف ملايين البشر من ينطق بها فى لحظة ، فإن ذلك يعنى أنها قد ماتت ووويت التراب أو بالأحرى بطون الكتب ، والكلمات التى تولد هى تلك التى ينطق بها فرد

من الناس لأول مرة أو يكتبها . وحسب الإنسان أن يطلع على أى قاموس من قواميس اللغة ليراها محتوية على عشرات الألوف من الألفاظ المهجورة التى بطل استعمالها[١] ، ولو استعملت فى جملة من الجمل لبدت نابية ميتة بالنسبة للألفاظ الحية التى تحيط بها ، ولم يكن باستطاعة أى قارىء أن يعيها إلا أن يخرج معناها من القاموس .

فاللغة كائن حى يجرى عليه كل ما يجرى على الكائنات الحية من تغير وتبدل وتطور واتساع وانتشار ثم موت فى خاتمة المطاف .

العوامل التى تحافظ على اللغة :

والحق أنه لولا وجود عوامل أخرى مضادة تعمل على توفير أكبر قدر من الثبات والاستقرار وطول العمر للغة ، وتجعل الطابع الغالب على اللغة هو المحافظة والتمسك بأهداب القديم وإضفاء لون من القداسة عليه ، والحرص على استخدام هذا القديم ، نقول لولا هذه العوامل ، لكانت عوامل الفناء للغة أسرع مما هى عليه ، ولتبددت وتبلبلت الألسن، وعز التفاهم بين القديم والحديث، وهذه العوامل التى تعمل على تدعيم اللغة وتثبيتها وإطالة عمرها ، تمثل فى الطبيعة القوى الجاذبة التى تؤدى دورها فى مواجهة القوى الطاردة . . القوى التى تفرق وتشتت وتبدد .

وظيفة اللغة الأساسية :

وأول هذه العوامل ، هو طبيعة وظيفة اللغة نفسها ، فاللغة كما قدمنا هى الأداة التى اخترعها الإنسان للتعبير عن إنسانيته وللتفاهم مع الجماعة التى يعيش فيها ، فيأخذ عنها ويعطيها وذلك لا يتحقق إلا بتحديد معنى الألفاظ ومدلولاتها

(١) حيث تقدر الكلمات الانجليزية الشائعة الاستعمال فى الوقت الحاضر بألف كلمة ، فان بعض قواميسها تحوى نصف مليون كلمة .

وقد أدرك الإنسان الأول بمجرد أن تلفظ بأول كلمة ذات مدلول خاص يفهمه عنه الآخرون ، ما فى هـذه القدرة التى زود بها ، أو التى توصل إليها من سر عميق يعلو على الطبيعة العادية التى تحيط به ، ومن هنا كانت نظرته إلى بعض الألفاظ وتصوره انطواءها على قوة سحرية غامضة تسيطر بها على الطبيعة نفسها ، مما جعله يضفى عليها نوعاً من القداسة تعلو بها عن سائر الكائنات . وقد كان هذا شأن الكلمة فى القديم وهو شأنها فى كل المجتمعات الفطرية حتى فى وقتنا الحاضر . فالكلمة سلطان وللكلمة تأثير وليس هناك شىء لا تستطيع الكلمة أن تحققه بما فى ذلك التأثير على الآلهة نفسها . ويحمل كتاب العهد الجديد (إنجيل يوحنا) أثر هذا التقديس للكلمة حيث يبدأ بالعبارة المدوية التالية : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » .

هذا التقديس للكلمة قد صانها من التبدد الذى كان يمكن أن تتعرض له ، وجعل البشر يستعملونها فى تقدير واحتراس ، وحرص على المحافظة عليها .

الكتابة :

وكان اختراع الكتابة بلا جدال أو شبهة أعظم العوامل فى العصور القريبة التى مكنت من المحافظة على وحدة اللغة وثباتها واستمرارها أطول مدة ممكنة فى القسم القريب من حياة الإنسان ، وإذا كان تاريخ الكلام الإنسانى يرجع كما قدمنا إلى مليون سنة فأكثر فإن تاريخ الكتابة لا يرجع إلى أكثر من ستة آلاف سنة ، وهو كسر صغير جداً من حياة الإنسان ، وقد اخترعت الكتابة عندما أحس الإنسان بضرورتها لتخليد ذكراه ونقل سيرته وأعماله إلى من يجيئون بعده بطريقة لا يتناولها التحريف ، ونقل تجاربه ومعارفه إلى ورثته من بعده وأبنائه . والرأى على أن أصل الكتابة قد نشأ فى مصر . فاللغة الهيروغليفية هى أقدم كتابة عرفها البشر ، أما الخطوات الأولى التى نشأت منها الكتابة ، فقد بدأت مع الإنسان مذ كان يعيش فى الكهوف ، فما لا جدال

فيه أن أول محاولة للانسان أن يرسم صورة لحيوان من الحيوانات على جدران كهفه كانت هى الخطوة الأولى نحو الكتابة . . . فقد أصبحت صورة الأسد ترمز للأسد ، وعلى هذا الغرار بدأت صورة أى شىء تدل عليه ، ثم بسطت خطوط هذه الصور فاستغنى فيها عن التفاصيل ، ثم زيد فى تبسيطها فأصبح مجرد خطين متعارضين يرمزان للانسان مثلا ، ودائرة ترمز للشمس وخط منحن للقمر وهكذا . . ثم بدأت هذه الرموز تأخذ صورة مربعات ومستطيلات وزوايا وتستخدم للدلالة على أصوات ، ومن هنا بدأت حروف الأبجدية الهيروغليفية .

وكما اعتبرت الكلمة الملفوظة من قبل مقدسة ذات تأثير لا حد له . . . فبعد اختراع الكتابة انتقلت القداسة من الكلمة الملفوظة إلى الكلمة المكتوبة ، وهذا ما يجعلنا ندرك لماذا كان معنى الكتابة الهيروغليفية الكتابة المقدسة . وأصبح إيمان الناس لا حد له فى سحر الكلمة المكتوبة وقدرتها على جلب النفع أو دفع الأذى ، مما نرى آثاره لا تزال موجودة بين الناس الذين يعتقدون بالأحجبة والتمائم التى تتضمن كلمات مكتوبة . وقد كانت هذه القداسة عنصراً فعالاً فى المحافظة على اللغة وألفاظها وطريقة استعمالها[1] .

الكتب المقدسة :

وثالث العوامل التى تحفظ اللغات وتحول دون تشتيتها ، وتبقى على جوهرها هى الكتب المقدسة ، وقد رأينا من قبل أن الكلمة الملفوظة كانت مقدسة ، ثم تلتها الكلمة المكتوبة فأصبحت هى المقدسة ، فكان من الطبيعى

---

(١) لعبت العوامل الطاردة . . . عوامل التغيير والتطوير والتنويع دورها فى الكتابة كما لعبت من قبل فى اللغة الملفوظة ، حيث بدأت تتغير كلما نقلت من مكان إلى مكان ومن شعب إلى شعب إلى أن تعددت صور الحروف الهجائية وأشكالها ، ولم تلبث الكتابة أن تحولت إلى سلاح ذى حدين يعمل فى الاتجاهين المضادين ، فهى من ناحية تعمل على تثبيت اللغة والمحافظة عليها ولكنها من ناحية أخرى تساعد على تعميق الفوارق بين اللغات وتأكيدها ، وهى التى خلقت الشعور الخاطىء بوجود فوارق أساسية بين اللغات .

أن تمتد القداسة إلى الكتب ، فأى كتاب فى القديم كان يعتبر مقدساً ، ولم تكن القداسة تلحق الكلام المكتوب ، بل تشمل الكتاب نفسه بورقه وجلده ، فكان الهنود يعتقدون أن كتابهم (الفيدا) من عند الله ومن صنعه ، ونعنى بالكتاب مادة الكتاب التى صنع منها ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل المجتمعات القديمة ، فكتاب اليهود القديم كان يعتبر من عند الله ، وليس يعنى ذلك أحكام الكتاب أو ألفاظه ومعانيه بل المادة المصنوع منها الكتاب نفسه وهى الأحجار وهكذا .

وغنى عن البيان أن هذه الكتب اعتبرت دائماً أصولا للغة لا يجب أن تعدوها وإلا اعتبر ذلك تجديفاً فى حق الله ، فكان لذلك أعظم الأثر فى المحافظة على اللغات التى كتبت بها هذه الكتب .

ويلحق بالكتب المقدسة ، كل الكتب القديمة حتى ولو كانت من تأليف البشر ، فإن قدمها قد أضفى عليها جو القداسة كما هو الشأن فى الياذة هيرميروس وأوديسته ، فقد اتخذ منها الإغريق أساساً لعقائدهم وتاريخهم ولغتهم ، وأصبحت لديهم شيئاً مقدساً لعبت دورها فى اللغة الإغريقية قروناً من الزمان .

وعلى غرار هوميروس فإن العباقرة من رجال الفن فى كل أمة قد اعتبرت كتبهم دائماً شبه مقدسة ، من حيث أنها أساس للغة وألفاظها وأساليبها كما هو الشأن بالنسبة لشعراء الجاهلية بالنسبة للعربية ، ودانتى فى الإيطالية وشكسبير فى الإنجليزية الحديثة وجوته فى الألمانية الحديثة .

على أن عوامل التغير والتبدل كانت لها الكلمة الأخيرة فى النهاية ، فاللغة الهيروغليفية المقدسة ، واللغة الإغريقية وجميع اللغات القديمة ، والكتب المقدسة القديمة من أمثال الفيدا الهندية ولغتها السنسكريتية ، والأفستا الفارسية ، كل هذه الكتب قد زالت ودالت ، وتشتتت اللغات وتنوعت وتعددت اللهجات

بحكم العوامل الزمنية والمكانية وتطور المتطلبات الإنسانية المتغيرة أبداً[١] .

تدخل السلطة المركزية :

أما رابع العوامل التي تؤدى إلى حفظ اللغات وإطالة بقائها ، فهو عمل السلطة المركزية صاحبة السلطان فى الجماعة ، سواء كانت هذه السلطة تقوم على زعامة دينية أو قيادة سياسية أو تسلط خارجى ، فقدكان لهذه السلطة دائماً أثر فى تدعيم لغة من اللغات وفرض سلطانها على أوسع رقعة ممكنة وأطول مدة ممكنة كذلك .

وأغلب اللغات التى تسود أوربا فى الوقت الحاضر من فرنسية وألمانية وانجليزية وإيطالية وبلغارية وصربية ورومانية . . . الخ والتى تتخذ أساساً للتفريق بين شعوب أوربا باعتبارها أمماً مختلفة وقوميات متباينة ، ليست كلها

---

(١) القرآن الكريم .

ولعل القرآن الكريم يعتبر فى أيامنا ، ومنذ قرون خلت فريداً وفذاً بين ما عرفت البشرية من كتب مقدسة ، فقد ظل بنص ثابت واحد لم يعتوره أى تحريف فضلا عن تغيير وتبديل ، ومهما نقب بالإنسان وبحث وفتش فى أرجاء العالم الإسلامى الذى يمتد عبر القارات الست ، ومهما عاد إلى الوراء عبر الزمن خلال أربعة عشر قرنا إلا قليلا ، فلن يجد إلا نصاً واحداً وكتاباً واحداً هو القرآن الكريم المكتوب باللغة العربية ، وهى ظاهرة تتصل بإعجاز القرآن وينفرد بها كما قدمنا ، فإن الكتب الأخرى التى اعتبرت مقدسة ، قد ترجمت إلى شتى اللغات ، واعتبرت الترجمة دائماً أساساً وأصلا للغات التى نقل إليها ، ومن هنا لم تقم هذه الكتب فى حياة اللغة التى كتب بها فى الأصل الدور الذى قام به القرآن وما زال يقوم به وسيظل يقوم به فى حفظ اللغة العربية ، حيث يحرص المسلمون حتى من كان منهم لا يعرف العربية على تلاوة القرآن بلغته العربية ، إذ لا تصح له عبادة بصفة عامة والصلاة بخاصة إلا بتلاوة القرآن .

والقرآن — والقرآن وحده — هو الذى يجعل باستطاعتنا أن نطالع كتباً كتبت منذ ألف سنة دون أن نجد فى مطالعتها كبير صعوبة ، وهو ما لا يتحقق فى كثير من تراث اللغات الأخرى بالنسبة لقرائها العاديين .

إلا من فرض السلطات المركزية على الخاضعين لحكمها ، حيث استثارت لهجات معينة وجعلت منها لغات ، وراحت تدرس بها فى المدارس وتعلم بها الصلوات فى المعابد ، وتجرى التعامل بها فى دواوين الحكومة . . فتصبح بعد حين لغة قومية تحل محل لغات أخرى كان التعامل يجرى بها ، فاللاتينية كانت لغة أوربا خلال العصور الوسطى ، حتى إذا جاء عصر القوميات فى القرن التاسع عشر بدأ كل قوم يخصون أنفسهم برفع لهجتهم الخاصة إلى مرتبة اللغة ، وبدأوا يؤسسون على ذلك أوهاماً من حيث امتياز لغتهم ، نتيجة لرقى جنسهم . ولعل أقرب مثل يظهرنا على دور السلطة المركزية فى بسط سلطان اللغات ، هو ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان المهاجرون إلى الولايات المتحدة من سائر شعوب أوربا وآسيا ، وكل يتكلم بلغته الخاصة ، حتى قررت السلطة المركزية أن تكون اللغة الرسمية للدولة الجديدة هى الإنجليزية ، فأصبحت هى دون غيرها لغة الولايات المتحدة الأمريكية ، مع أنه كان من الممكن أن تكون اللغة التى تسود هى الألمانية أو الفرنسية ، أو أى لغة جديدة غير هذه وتلك .

وعند ما استعمر الانجليز الهند فرضوا اللغة الانجليزية لغة رسمية للبلاد ، ولقد خرج الانجليز من الهند منذ عشرين سنة تقريباً ومع ذلك فلا تزال اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية فى كثير من أنحاء الهند ، ذلك أن كل أعمال الدولة كانت تجرى بالإنجليزية وكل الموظفين والمثقفين والمتعلمين قد تلقوا علومهم بالإنجليزية فأصبح من الصعب عليهم ترك الانجليزية إلى لغتهم القومية الأصلية إلا بعد انقضاء عشرات من السنين تخرج فيها أجيال تتلقى علومهم باللغة الهندية.

ومثل ذلك ينطبق على الجزائر حيث فرض الفرنسيون الفرنسية لتكون اللغة الرسمية ، والتى يجرى بها التعليم ، واليوم وبعد أن استقلت الجزائر فهى فى حاجة لعديد من السنوات قبل أن تصبح العربية هى التى يجرى بها التعليم العالى .

اللغة أداة للإنسانية كلها :

ولعلنا قد رأينا من كل ماسبق ومن استعراض العوامل التى تؤدى إلى تنوع اللغات وتفرقها بل وإلى موتها ، والعوامل التى تعمل على حفظها وصيانتها من ناحية أخرى ، أنها لا تعدو أن تكون كما قلنا منذ البداية أداة من خلق العقل الإنسانى ، كأى أداة أخرى اكتشفها أو اخترعها ليستخدمها فى إشباع حاجاته ، وإثبات ذاته ، وتحقيق حياة أفضل وأكمل ، باعتباره مجرد إنسان ينتمى إلى الجنس البشرى ، وليس لأمة أو جماعة بذاتها .

وعلى ذلك فكل محاولة لتصوير اختلاف اللغات على أنه نتيجة فوارق طبيعية بين أجناس البشر ، وكل محاولة لتحويل اللغات المختلفة إلى سدود وقيود تحول دون الاعتراف بحقيقة الجنس البشرى ، وأنه ينحدر من أصل واحد مشترك ، ويتكلم لغة إنسانية واحدة هى محاولات عقيمة فضلا عن أنها ضارة .

ما من لغة إلا وهى حصيلة التراث الإنسانى كله :

وليس هناك ما يدل على أن البشر جميعاً يتكلمون لغة واحدة إنسانية وإن اختلفت طريقة نطق أى إنسان بها ، أنه ما من لغة من لغات الأرض إلا وهى تعكس التراث الإنسانى كله لا تراث جماعة مخصوصة أو أمة من الأمم .

ولا عجب فى ذلك ، فقد نشأت اللغات كما رأينا من أصل واحد ، ونشأت كلمة كلمة ثم جملة جملة ، وتألفت لغة أى جماعة من هذه الكلمات الموروثة مضافاً إليها ما تزيده هذه الجماعة من كلمات جديدة ، وهكذا مهما تنقلت اللغة عبر الزمان والمكان فهى لا يمكن إلا أن تتالف من تراث سابق زائد إضافات جديدة ، وهذا التراث السابق ، ظل لمئات الألوف من السنين يمثل تجربة الإنسانية كلها ، والتى كانت تتألف من عدد محدود من البشر فى بقعة من الأرض ضيقة ، قبل أن يتكاثر الإنسان ويسيح فى أرجاء الكوكب الأرضى .

اللغة العربية :

ولعل اللغة العربية التى يخيل للكثيرين أنها ذات طابع خاص هى أكبر دلالة على ما قدمناه من أن اللغة ، أى لغة هى حصيلة التراث الإنسانى كله ، هى مزيج من كل الأصوات التى نطق بها الإنسان ، كل إنسان عبر التاريخ للتعبير عن مختلف المسميات المادية وغير المادية .

ولنبدأ مع اللغة العربية عندما خرجت من جزيرة العرب تحت لواء الإسلام ، لتدخل إلى الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا ، فقد جاءت اللغة العربية إلى هذه البلاد بذخيرتها من الألفاظ والرموز الصوتية الدالة على معان ، فوجدت فى هذه البلاد كلها أصواتاً أخرى ترمز بدورها على مسميات ومعان لا عهد للعرب بها من قبل ، فلم يكن هناك مناص من أن تستوعب اللغة العربية كل هذه المسميات الجديدة ، دون أن تحدث بها أى تغيير إلا هذا التغيير الطبيعى الذى يحدث دائماً وهو أن يلفظ الإنسان الكلام بالطريقة التى اعتاد أن ينطق بها . ولم يكن باستطاعة نسابى العرب ومؤرخيهم إذا تحدثوا عن أنساب الشعوب وتواريخها إلا أن يكرروا أسماء الأشخاص والأماكن والوقائع كما تقال لهم ، وأن يصبح ذلك كله جزءاً من اللغة العربية . ولم يكن باستطاعة جغرافيى العرب وهم يجوبون الآفاق ، وهم يصعدون فى الجبال ويخترقون الوديان ، ويخوضون البحار ويرون من حيوانات ونباتات ، إلا أن يرددوا أسماء هذه الأماكن والبقاع بلغة أصحابها العائشين بالقرب منها ، وتصبح هذه الأسماء كلها كلمات عربية .

وعندما ذهبوا إلى أبعد من ذلك فبدأوا ينقلون علوم هذه الشعوب وآثار من سبق ، فترجموا عن الفارسية والهندية واليونانية ، فلم يكن فى استطاعتهم إلا أن ينقلوا العلوم الجديدة التى لا عهد لهم بها من قبل ، بأسمائها ، وأن ينقلوا اصطلاحات هذه العلوم التى وضعت لأول مرة من أجلها ، غير محدثين فيها

من تغيير إلا التغيير اللازم لإحسان نطقها وإعرابها وتصريفها ، بوضعها فى القالب العربى على الأوزان العربية واستخدام الحروف الأسهل . وعن هذا الطريق دخلت كلمة الفلسفة ، والفيلسوف والإيساغوجى والاصطقس وعشرات بل ومئات من الكلمات التى تصادف دارس الفلسفة فى الكتب العربية .

وعند ما نقلوا علم الطب عن جالينوس وبقراط ، لم يكن باستطاعتهم إلا أن ينقلوا أسماء الأمراض كما نطق بها جالينوس ، وأن يستعملوا أسماء الأدوية الجديدة عليهم بأسمائها الإغريقية .

وهكذا كان الشأن وهم ينقلون عن هذه المجتمعات كلها نظمها وعلومها . لم يكن أمامهم إلا استعمال نفس الألفاظ المستعملة فإذا كان الدرهم والدينار هما اسما العملة المتداولة وهما كلمتان روميتان ، أو بالأحرى يونانيتان فإنهما تصبحان كلمتين عربيتين بعد أن تصاغا هذه الصياغة لتناسب الوزن العربى والنطق العربى .

وعند ما ينظمون الدواوين فلا مناص من استعمال هذه الكلمة الفارسية التى ترمز لهذا النوع من التنظيم ، وعند ما ينظمون البريد مثلا فلا مناص من استعمال هذه الكلمة الفارسية التى تطلق على الأفراس أو البغال التى كانت تنقل البريد .

ومن هذا الطريق استوعبت اللغة العربية كل التراث الإنسانى الذى ساهم فى تكوينه جميع الشعوب .

اللغة العربية قبل الإسلام :

وهذه الحقيقة الخاصة بتأثر اللغة العربية بعد الإسلام باللغات المختلفة ، من الأمور التى يسلم بها جميع الباحثين فى اللغة العربية ، ولكن الجديد

والطريف فى ذات الوقت ، هو أن يعرف أن تأثر اللغة العربية بسائر لغات العالم لم يحدث فقط بعد الإسلام ، بل إنه كان قبل الإسلام وإبان الجاهلية بحيث أن ألوف الكلمات التى يتصور المتصورون أنها عربية ممعنة فى العروبة ، ليست فى حقيقتها إلا كلمات فارسية أو لاتينية أو يونانية أو هندية أو حبشية وهكذا .

ولا ينبغى أن يفاجأ أى قارىء بهذا الذى نقوله ، فليس ذلك إلا تطبيقاً لما جعلناه عنواناً لهذه الفقرة ، من أن اللغة أى لغة لا يمكن أن تكون إلا حصيلة التراث الإنسانى كله . ولو استحضرنا فى أذهاننا أن العرب أقوام يعيشون فى الصحراء عيشة بدائية بحتة ، حيث لا علوم أو فنون أو صناعات فضلا عن حضارة ، فباستطاعتنا أن ندرك أن كل ما جاء فى اللغة العربية منذ الجاهلية من أسماء أنواع الملبوسات والمفروشات والمطاعم والأدوات والمهمات والأدوية وغيرها لا يمكن إلا أن تكون مستوردة من الخارج بعد ما نطقت بأصوات العرب ووضعت فى قوالبهم وأوزانهم .

فعند ما نجد فى العربية القديمة أسماء الزهور من أمثال الآس والياسمين والنرجس والبنفسج والجلنار والسوسن والقرنفل والورد ... فلا يجب أن ندهش إذا علمنا أن هذه كلها كلمات فارسية الأصل فليس فى صحراء العرب زهور . . . وكان على العرب عند ما يرون هذه الزهور لأول مرة أن يكرروا الأصوات التى قيلت لهم باعتبارها أسماءها .

وعند ما نجد فى العربية القديمة كلمات تدل على مواد العطارة كالفلفل والكراوية والزنجبيل والقرفة والكافور والمسك والعنبر والصندل .... الخ .

أو أسماء مختلف أنواع الأقمشة كالخز والديباج والاستبرق والسندس .

أو أسماء الأحجار الكريمة كالياقوت والزبرجد والفيروزوالبللور والماس .

أو أسماء الأطعمة كالكعك والسميد والفالوذج واللوذنج والجلاش . . . الخ .

أو الأدوات المصنوعة ، كالكوز والإبريق والطشت والخوان والطبق والقصعة . . .

أو أسماء بعض الآلات والمهمات كالقبان والاصطرلاب والأزميل والقسطل والقنطار والترياق والقنطرة والقرطاس والصراط والفندق[١] ... الخ .

القرآن والكلمات الأعجمية :

وقد تصور كثير من علماء المسلمين ، منذ عصر مبكر ، أن القول بأن العديد من الألفاظ العربية هو فى حقيقته مستمد من اللغات الأعجمية ، يتعارض مع ظاهر القرآن ، من أنه قرآن عربى نزل باللغة العربية ولا يستعمل غير كلمات عربية « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » .

ولكن هذا الأمر لا يؤلف إشكالا من أى نوع كان . فالعربية هى ما كان العرب يتكلمون بها ، وما دامت هذه الألفاظ كانت جارية على ألسنتهم ، وفق النطق العربى موزونة على الموازين العربية ، معربة بالإعراب العربى ، فهى كلمات عربية ولم تعد أجنبية ، وفى هذا يقول ابن جنى فى الخصائص « إذا قلت طاب الخشكنان (كلمة فارسية تعنى البسكويت) فهذا من كلام العرب لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته كلام العرب »[٢] .

وقد بحث العلامة الإمام السيوطى هذا الموضوع . . موضوع الكلمات الأعجمية فى القرآن فى كتابه الإتقان فقال ما ننقله عنه فيما يلى :

---

(١) اقرأ كتاب اللغة العربية لجورجى زيدان وتعليقات الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السابق على هامش هذا الكتاب .

(٢) ابن جنى ، الخصائص ، ص ٣٥٧ .

« وأقوى ما رأيته فى الموضوع وهو اختيارى ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال « فى القرآن من كل لسان » ورد مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه ، فهذا إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شىء ، فلابد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شىء ، فاختير من كل لغة أعذبها وأحبها وأكثرها استعمالا » (١).

وبعد أن اطمأن السيوطى إلى هـذا الرأى ، راح يستعرض العديد من الألفاظ التى وردت فى القرآن ، ويردها إلى أصولها من اللغات الفارسية والعبرية والقبطية والحبشية والرومية فذكر الكلمات الآتية التى يتصور كل ناطق بالعربية أنها من أعرق الألفاظ العربية .

« بعير — جهنم — حواريون — الأرائك — الأسباط — الجبت — الرقيم — سفر — السجل — سرادق — الصراط » .

وهكذا يؤدى بنا البحث فى اللغة العربية كما سجلها القرآن وحفظها حتى اليوم ، أنها حصيلة لغات الإنسانية التى سبقتها كلها ... أما لماذا نقول إن هذه الكلمات هى من هذه اللغات ولا نقول إنها من العربية فى هذه اللغات ، فمرجع ذلك إلى أن هذه الأشياء كانت دائماً مجلوبة ومستوردة ، فعندما نجد كلمة القلم فى اللغة العربية ثم نراها فى اللغة اليونانيـة فلا يجوز أن يقال إن أصلها عربى ثم انتقلت إلى اليونانية ، لأن العرب كانوا لا يكتبون وسبقهم الإغريق فى الكتابة فيكون الأقرب إلى التصور أن اسم أداة الكتابة وهو القلم يونانى انتقل إلى العربية وليس عربياً انتقل إلى اليونانية .

على أن الأمر يستوى فى نظرنا نحن الذين نقول بأن أى لغة من اللغـات

---

(١) الإتقان ، للسيوطى ، ص ١٣٧ .

هى حصيلة التراث الإنسانى كله ... فسواء كان الأصل فى هذه الكلمات هى العربية وانتقلت منها إلى باقى اللغات أو العكس فالنتيجة واحدة فى الحالين ، وهى وحدة التراث الإنسانى .

اللغة العربية كما نستعملها اليوم :

وإذا كان هذا البحث فى الأصول التاريخية يحتاج إلى شىء من الجهد والمشقة ، فإننا لو درسنا اللغة العربية كما نستعملها فى الوقت الحاضر لتبينت لنا هذه الحقيقة التى نقول بها فى يسر وسهولة ، وحسبى أن أثبت لك بعض الألفاظ التى أصبحت تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية ، ونكتبها فى صحفنا ، وننطق بها فى إذاعاتنا على أنها لغة عربية من صميم لغتنا ، وهى كما قلنا ونقول حصيلة اللغات الإنسانية كلها ، منطوقاً وملفوظاً بأصواتنا ومخارج حروفنا ، ومكتوباً ومعرباً بقوالبنا وقواعدنا النحوية ، وإليك على سبيل المثال :

الميكروسكوب ــ التلسكوب .

الراديو ــ التليفزيون ــ التليفون ــ التلغراف ــ الرادار ــ الميكروفون ــ السينما ــ الفيلم ــ الأتوموبيل ــ الكاميرا ــ الفوتوغرافيا ــ الفونوغراف ــ البيك أب ــ الكباريه ــ الترام ــ المترو ــ البص أو الأوتوبيس ... الخ .

ومن الكلمات الدالة على ملابس :

الجاكتة ــ البنطلون ــ البالطو ــ الفستان ــ الإشارب ــ الروب ــ النيلون ــ وجميع أسماء الملابس النسائية .

ومن كلمات الزينة :

البودرة ــ الروج ــ المكياج ــ البارفان ــ الكوافير .

وجميع الألفاظ والمشتقات الخاصة بهذه العمليات .

كلمات منزلية :

الصالة ـ الصالون ـ التواليت ـ الفرنده ـ البلكونه ـ الأسانسير ـ الكنبه ـ الاستديو ـ البرافان ـ البوتاجاز ـ الفريجيدير .. الخ .

ومن أسماء الأمراض :

الانفلونزا ـ التيفود ـ التيفوس ـ الروماتيزم ـ اللمباجو ـ الدفتريا ـ الانكلستوما ـ البلهارسيا ـ الدوسنتاريا ... الخ .

ومن أسماء الأدوية :

الأسبرين ـ البنسلين ـ الكورامين ـ المورفين ـ السلفا ـ الكينين ... الخ .

وليست هذه الألفاظ إلا عينة أردت بها أن ألفت نظر القارىء إلى مدى تغلغل الكلمات الأجنبية فى حياتنا اليومية ، كل ذلك ولم أتطرق بعد إلى مختلف فروع العلم ، إذ تكاد اصطلاحات تسعة أعشار هذه العلوم تنطق بلغاتها الأجنبية ، وما عليك إلا أن ترى الأطباء وهم يتحدثون ، أو المهندسين وهم يتدارسون لترى مصطلحاتهم كلها من عديد من اللغات .

كلمات عربية لا يفهمها السابقون :

بقى أن فى لغتنا العربية المعاصرة ، كلمات وإن كانت حروفها عربية وهى من نحتنا نحن العرب ، ولكنا لو جئنا بعربى منذ مائة سنة فقط لما فهم منها ما نفهمه منها اليوم ، ولكانت بالنسبة له كلمة أعجمية بحتة . مثال ذلك كلمة الطيارة ، أو السيارة أو المسرح أو الإذاعة ، أو الجامعة ، أو الكلية ، أو الحياة النيابية أو الاشتراكية والشيوعية ، فهذه الكلمات التى نعتبرها اليوم عربية من صميم

العربية ، لا يمكن أن يفهمها عربى منذ مائة سنة فقط ، فضلا عن ألف من السنين ، فكلمة سيارة مثلا وردت فى القرآن بمعنى القافلة . كما لا يمكن أن يفهم من ألفاظنا التى نحتناها ، كالقومية والشيوعية أو الاشتراكية شيئاً من المعانى التى نرمز إليها بهذه الكلمات .

الحكم واحد بالنسبة لسائر اللغات :

ولا يتصور متصور أن هذا الذى ذكرناه خاص باللغة العربية دون سائر اللغات ، فلو أنا رجعنا إلى اللغة الإنجليزية على سبيل المثال لوجدناها تحقق نفس الظاهرة وهى أن اللغة أى لغة لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى كله .

فاللغة الإنجليزية ، وهى فرع من الأنجلوسكسونية ، التى هى بدورها فرع من اللغة الجرمانية ، التى هى فرع من اللغة الآرية ، أى أن أصول اللغة الإنجليزية تحمل تراث البشرية فى القديم مجتمعاً ، حتى إذا جاءت العصور الحديثة أى منذ ألفين من السنين استطعنا أن نميز فى اللغة الإنجليزية على ما تقول دائرة المعارف الإنجليزية :

— طبقات من اللغة اللاتينية .

— وفرنسية العصور الوسطى .

— ولاتينية حديثة وإغريقية .

ثم فرنسية حديثة .

وإيطالية .

وعند هذا الحد تقف دائرة المعارف البريطانية فلا تشير أن فى اللغة

الانجليزية عشرات بل مئــات من الـكلمات العربية التى تدل على الفواكه والأقمشة والمنتجات والأغذية والأدوية التى نقلها الأوربيون فى العصــور الوسطى من أمثال Lemon أى الليمون ، Sugar أى السكر ، Cotton أى القطن ، والقهوة Coffy — واللون القرمزى Crimson وحرير الموصل Muslin وغيرها .

بل فات دائرة المعارف أن تذكر أن كلمات علوم بأسرها هى كلمات عربية من أمثال Algebra و Kemistry أى الجبر والـكيمياء هى كلمات عربية ... بل فاتها أن تذكر وقد كانت انجلترا فى وقت من الأوقات سيدة البحار ، أن رتبها البحرية ليست سوى كلمات عربية فالأميرال Admiral ليست ســوى أمير البحر العربية ، والـكابتن Captain ليست سوى الـكلمة العربية قبطان ، وكلمة أرسينال Arsinal هى « دار الصناعة » .

ولا عجب فى ذلك فقد كانت الحضارة وكانت العلوم فى العصور الوسطى هى علوم عربية ، وكان على أوربا لتأخذ العلم والحضارة أن تأخذها عن العرب ، فنقلت المعارف بأسمائها العربية ولم يكن باستطاعتها أن تفعل غير ذلك ، ولا تزال الأرقام فى اللغات الأوربية كلها تنم عن أصلها العربى ، ولا تزال ترسم كما رسمها العرب تقريباً ، ولا يزال يطلق عليها اسم الأرقام العربية . أما كلمة الصفر فلا تزال تستعمل بنصها العربى .

وعندما امتدت الإمبراطورية الانجليزية ، وشملت فيما شملت شعوباً من أفريقيا وآسيا ، فقد كان لا مناص من أن تستوعب اللغة الإنجليزية ، أسماء كل المسميات بلغة أصحابها ، وأن يصبح ذلك كله جزءاً من بنية اللغة الإنجليزية ، كما أصبح من بنية اللغة العربية فيما مضى . .

وهكذا يتضح ما قلناه من أن أى لغة حية ، تتفــاعل مع الأحداث ولا

تعيش فى عزلة عن تيار الحياة ، لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى كله ، بكل فروعه وتشعباته وتجاربه .

وحدة العلم والثقافة :

وبغير هذه الحقيقة لم يكن من المستطاع أن يكون للانسانية علم واحد ينتفع به على مر العصور والدهور ، وثقافة مشتركة هى ثقافة بنى الإنسان مجتمعين ، فكيف كان من الممكن أن تترجم الآثار الإنسانية العقلية منها والفنية من لغة إلى أخرى ، إلا إذا كان هناك أساس مشترك لهذه اللغات كلها ، وما الأساس فى حقيقته إلا العقل الإنسانى خالق اللغة وسيدها ، وسوف نرى فى الفصل الثانى ونحن نتحدث عن تاريخ الإنسان كيف انتقلت دائماً المعارف الإنسانية فى يسر وسهولة من شعب إلى شعب ومن أمة إلى أخرى ، دون أن يقف اختلاف اللغات حائلا دون تمام ذلك .

فالمعارف المصرية القديمة قد انتقلت إلى الإغريق ، ومن خلال الإغريق انتقلت إلى اللاتين أى الرومان ، ثم انتقل ذلك كله إلى العرب فى القرون الثلاثة الأولى للاسلام بصفة خاصة .

وبدأت أوربا نهضتها الحديثة فى العصور الوسطى ، بالنقل من العربية إلى اللغات الأوربية ، وعند ما رغب بطرس الأكبر فى النهوض بروسيا للحاق بركب الحضارة الأوربية بدأ بالنقل والترجمة .

ولم تنهض اليابان إلا بعد أن أقدمت على ترجمة أمهات الكتب العلمية الأوربية .

ونحن العرب لم نبدأ نهضتنا الحديثة منذ أيام محمد على ، إلا عند ما شرعنا فى الترجمة عن اللغات الأوربية .

ولم يكن عجباً ولا هو مستغرب أن نكتشف ونحن ننقل عن الغرب ،

أنهم قد سبقونا للاستفادة من تراثنا العربى والإسلامى ، فوجدنا عندهم عشرات الألوف من الكتب والمباحث والدراسات ، فى أخص خصائصنا التاريخية والأدبية والدينية ، حتى لقد وجدنا عندهم الكتب العربية التى تسجل سيرة نبينا وقد أعيد طبعها وتنظيمها وتبويبها ، كسيرة ابن هشام ، ووجدنا عندهم قرآننا مفهرساً ومرتباً على حسب الموضوعات ، بل وجدنا عندهم مفتاحاً لكنوز السنة ، حيث يكفى أن يعرف الإنسان كلمة واحدة من أى حديث نبوى لكى يستدل على نص الحديث بتمامه وكماله وعن مكانه ، ووجدنا عندهم دائرة معارف إسلامية ووجدنا عندهم كبرى موسوعاتنا التاريخية كتاريخ الطبرى ، ووجدنا عندهم المباحث العميقة للغتنا وأصولها واشتقاقاتها وأدبها ونثرها ، ووجدناهم يجوبون العالم بحثاً خلف مخطوطاتنا القديمة وبحثاً خلف جزء ناقص من كتاب ، أو لتصويب نسبة ديوان شعر إلى صاحبه ، وهكذا رأينا أنفسنا مضطرين أن نوفد البعوث إلى جامعاتهم ، والجلوس منهم مجلس التلميذ لتلقى الكثير من أصول لغتنا وتاريخنا[1] ، بحيث قاد نهضتنا الأدبية الحديثة من تخرجوا من جامعات أوربا .

وهذا إن دل على شىء ، فعلى أن العلم لا وطن له والمعرفة تراث إنسانى ، وأنه لا الخلاف فى اللغة أو الدين أو الحظ من السلطان بالذى يحول دون وحدة التراث الإنسانى . وكل عالم وكل مثقف وكل باحث ودارس ، غير قادر على أن يضيف للعلم جديداً ، أو يخترع أو يكتشف أو يستنبط ، إلا أن ينظر فى آثار كل من سبق . وقد حقق العلماء ذلك عن طريقين ، إما بأن يطالعوا هذه الآثار فى لغتهم بعد أن يكون الآخرون قد تولوا ترجمتها إلى لغتهم ، وإما بتعلم اللغة الأجنبية لمطالعة هذه الآثار فى لغاتها الأصلية .

---

(١) أوفد الأزهر أعظم جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى العالم بعثة إلى ألمانيا « بعثة محمد عبده » للاستفادة من البحوث الألمانية فى الدراسات الإسلامية .

وما من متعلم فى عصرنا الحديث فضلا عن مثقف أو عالم ، إلا وهو يعرف لغة أجنبية أو أكثر ، أو على أقل تقدير يطالع إنتاج العلماء الآخرين أو الأدباء والمفكرين والفنانين منقولا إلى لغته الخاصة . وهذا ما يجعل المثقفين فى مختلف شعوب الأرض يحسون بقدر من التعاطف فيما بينهم ، بل يحسون برباط خاص يربطهم إلى بعضهم ، مهما اختلفت أجناسهم أو شعوبهم أو الأوضاع السياسية ، بأكثر مما يتعاطفون مع مواطنيهم من غير العلماء والمثقفين . وكم من عالم تطالع كتبه وتدرس فى غير بلاده ، بأكثر مما تقدر فى موطنه ، وكم من أديب أو فنان يلقى النجاح والرواج بين شعوب غير شعبه وخارج حدود بلاده ، إحساساً منه بوحدة التراث الإنسانى ، وكم شهدنا من علماء أفنوا حياتهم لإحياء تراث شعوب غير شعوبهم وبلاد غير بلادهم ، ولعل من أظهر الأمثلة فى عصرنا الحديث هو مساهمة علماء العالم ومثقفيه للعمل على إنقاذ معبد أبى سنبل من الغرق نتيجة إنشاء السد العالى فى مصر ، حيث تسارع الجميع ملبين نداء مصر لمد يد العون المادى والأدبى لتحقيق هذا الغرض النبيل .

لا يعرف التاريخ حروبا بسبب اختلاف اللغة :

وآخر ما نسوقه فى هذا الموضوع لإثبات أن اختلاف اللغات لا يشكل أى حاجز بين الشعوب ، ولم يكن فى يوم من الأيام مصدر متاعب للانسانية ، أن التاريخ قد يحوى بين صفحاته المعجب والمطرب من أسباب قيام الحروب واشتعالها بين الشعوب والأمم ، فقامت للخلافات الدينية والمذهبية والسياسية ، وقامت لاغتصاب هذا الشىء أو ذاك ، وقامت للأخذ بالثأر والانتقام وللرغبة فى الاستعلاء وقامت نتيجة الطمع ومجرد الرغبة فى الإيذاء ، ولكن التاريخ لم يسجل لنا حرباً واحدة ... قامت بين أمة وأمة بسبب اختلاف اللغة ، أو لغرض فرض لغة قوم على آخرين ، حقاً لقد قامت حركات فى داخل البلد الواحد فى القرن التاسع عشر لفرض لغة معينة على المحكومين أو لمقاومة فرضها ، ولكن الحرب

لم تقع أبداً بسبب اللغة ، وهو ما يقطع بأن اللغة لا تؤلف أحد أسباب الخلاف أو المنازعات بين البشر .

لغة واحدة برموز مختلفة :

وإلى هنا نكون قد انتهينا سواء من الناحية البيولوجية الفسيولوجية ، أو من الناحية التاريخية والاجتماعية ، أو من الناحية الواقعية ، إلى إظهار وحدة اللغة الإنسانية ، وأن الرموز الدالة على شيء واحد وإن اختلفت باختلاف اللغات ، فليس أيسر على العقل من أن يحل رمزاً مكان رمز . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من أيسر الأمور أن يتفاهم الانسان مع أخيه الإنسان بمجرد تلاقيهما ، وإن جهل كل منهما لغة الآخر ، بل وحتى لو كان أحدهما أو كلاهما فاقد القدرة على النطق أساساً .

العلم الحديث والتكنولوجيا يقضيان على آخر صعوبة من جراء تعدد اللغات :

وقد بقي أن نضيف إلى ما سبق ، آخر ما انتهت إليه التطورات العملية ، التى مكنت الإنسان من اختراع الآلات التى أجهزت نهائياً على أى صعوبة تنشأ من جراء اختلاف اللغات ، وذلك ابتداء من الراديو والترجمة الفورية ، وانتهاء بالترجمة الآلية عن طريق العقول الالكترونية .

فأما بالنسبة للراديو ، فقد أصبح بقدرة أى إنسان أن يقف على ما يجرى فى أنحاء العالم بلغته الخاصة وقت حدوثه ، ليس فقط من مذياع دولته بل من مذياع أى دولة أخرى ، حيث بدأت كل أمة تذيع أخبارها وإنتاج ثمرات عقول أبنائها بمختلف اللغات ، كما بدأت كل دولة من ناحيتها تنقل ثمار العقول الإنسانية المختلفة إلى لغتها .

الترجمة الفورية فى المؤتمرات الدولية :

وفى المؤتمرات الدولية التى أصبحت شعار العصر وطابعه ، والتى بدأت تعقد فى كل يوم وفى كل ساعة فى مختلف أقطار العالم ، لمعالجة شتى الموضوعات التى تمس البشرية ، سواء فى الميادين السياسية أو الفكرية أو العلمية أو الأدبية أو الرياضية، فإن المجتمعين فى هذه المؤتمرات لم يعودوا يجدون أى صعوبة للتفاهم فيما بينهم ، كما لو كانوا أبناء أسرة واحدة ، وذلك عن طريق الترجمة الفورية لكل لغة يتلفظ بها ، ثم إعادة إذاعة ما قيل بشتى اللغات التى تناسب كل واحد من المؤتمرين ، وهكذا يصغى الجميع للمتكلم عن طريق السماعات الخاصة لكل منهم ، ويتلقون عنه كلامه كلمة كلمة بلغاتهم الخاصة ، ثم يردون عليه بنفس الأسلوب .

الترجمة الآلية الإلكترونية :

ويأبى العصر الحديث إلا أن يثبت بطريقة حسابية واقعية لا تحتمل الجدل، وحدة اللغة الإنسانية وإن اختلفت رموزها ، إذ جعل بقدرة الآلات أن تحول هذه الرموز مكان بعضها البعض ، فأصبحوا يحدثوننا عن العقول الإلكترونية الجبارة التى تملكها البحرية الأمريكية وغيرها التى توضع بها المؤلفات الروسية والمقالات والأبحاث الخاصة بالذرة والفضاء بل والصحف اليومية ، لتخرج بعد ذلك مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى دقائق إن لم يكن لحظات. وليس ذلك سوى البداية ، فقد أعلن أخيراً عن البدء فى إنتاج أجهزة إلكترونية صغيرة الحجم يستطيع أى إنسان أن يحملها ، لتقوم له بعملية ترجمة الكلمات الأساسية فى أى لغة من اللغات . وإذا كان ما يقال من أن هذه الآلات ستكون قاصرة فى بادىء الأمر على ترجمة خمسمائه كلمة فليس ذلك سوى البداية . . . ومعنى ذلك أنه لن يمر وقت طويل حتى يكون بقدرة أى إنسان يحمل جهازاً صغيراً فى حجم الترانزستور ، أن يتفاهم مع أى إنسان فى أرجاء العالمين بأى لغة .

والخلاصة :

والخلاصة أن الوقت قد حان للكف عن المبالغات والتهويلات التى تضفى على اللغة وإظهارها فى صورة الأساس الأول ، إن لم يكن الأوحد ، الذى يقسم البشر إلى أمم وشعوب وقوميات متباينة . فمثل هذه الأقوال إن صلحت فى القديم حيث كانت القداسة تضفى على الكلمات والألفاظ وتعزو إليها قوى سحرية وقدرات غامضة ، فإن ذلك لم يعد يناسب زمناً أصبحت الآلات فيه تتولى الترجمة ونقل رموز الكلمات من لغة إلى لغة . وإذا كنا نحن ممن يؤمنون بما للألفاظ من قوة بالفعل ، فإن هذه القوة هى قوة الناطق بهذه الألفاظ لا فى الألفاظ نفسها .

ولقد آن الأوان لكى نتواصى بوضع اللغة فى مكانها الصحيح ، وهو ما فتئنا نقوله ونكرره ، من أنها أداة كأى أداة أخرى ، اخترعها العقل الإنسانى لإشباع حاجاته ، وتحقيق أغراضه فى حياة أسعد وأكمل ، فينبغى النظر إلى اللغة دائماً على أنها من صنع الإنسان ، ومن أجل الإنسان ، وليس الإنسان من أجل اللغة .

إنه لا يوجد بين البشر سوى لغة واحدة ، هى اللغة الإنسانية التى مهما تعددت رموزها ، واختلفت أصواتها ، فمدلولاتها واحدة ، وأصلها فى عقل الإنسان ، الإنسان الذى يعيش على هذه الأرض الواحدة ، والمنحدر من أصل واحد .

الفصل الخامس

وحدة التاريخ الإنسانى

إنسان ما قبل التاريخ — عصر التدوين والكتابة — قدماء المصريين — سومر وبابل وآشور — الفينيقيون — اخناتون ودين التوحيد — بنو إسرائيل — زرادشت وإله النور — بوذا وكونفشيوس — الإغريق والرومان — قيصر والمسيح — محمد رسول الله والدعوة الإسلامية . الحروب الصليبية — الكشوف الجغرافية — اكتشاف أمريكا — عهد النهضة الأوروبية — العالم فى القرنين الثامن والتاسع عشر — الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية — استعمار آسيا وأفريقيا — القرن العشرون ، المادية والماركسية — الحرب العالمية الأولى — عصبة الأمم — الحرب العالمية الثانية — تحرر أسيا وأفريقيا — هيئة الأمم وحقوق الإنسان .

انتهينا فى الفصلين الثانى والثالث ، إلى إظهار كيف أن العلم الحديث قد انتهى إلى ما قررته الأديان من قبل ، من أن الجنس البشرى كله يرجع إلى أصل واحد ، وأن هذا الأصل الواحد أو الإنسان الأول قد خلق من ماء وطين ، أى من مادة الأرض .

وكون الإنسان ، أى إنسان ، قد انحدر من أصل واحد مشترك وقد خلق قبل ذلك من ماء وطين ، يجعل تاريخه بالتتبع تاريخاً واحداً متصلا ومتشابكا ، بل إن علماء الحياة الحديثين ، يذهبون إلى أن أى إنسان يولد فى هذه الحياة ، يعيد تاريخ الحياة الإنسانية كلها عبر ألوف القرون من التطور ، عندما بدأت الحياة رحلتها من ماء البحر على صورة خلية واحدة (أميب) فأحياء هلامية ، فسمك ، فبرمائيات ، فزواحف ، فحيوانات أرضية .

وكل جنين فى الرحم يعيد هذه الأطوار[1] ، حتى إذا انفصل الطفل عن

---

(١) صور القرآن الكريم نشأة الحياة ، وأطوار الجنين فنطق بالحق وأبدع التصوير .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون — ١٢ — ١٤) .

أمه راح يعيد تاريخ التطور الإنسانى . والإنسان يسير على أربع قبل أن يشب واقفاً ، ويعبر بالبكاء والصراخ عن حاجاته قبل أن يتعلم الكلام ، ويتدرج فى استعمال يديه ، واستخدام الآلات ، قبل أن يصل إلى القمة باستخدام العقل لتحقيق أغراضه .

ويقول علماء التطور ، إن هذه هى الأطوار التى اجتازتها البشرية قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه الآن . ويزيد علماء النفس (الحديثون كذلك) أن ما يراه كل إنسان فى أحلامه من رؤى غامضة ، وما قد يعرض له من كوابيس (جمع كابوس) وما قد يعتريه من تصرفات شاذة ونوبات قسوة أو جنسية على خلاف المألوف ، فليس ذلك إلا من رواسب هذا الماضى السحيق ، عندما كان الإنسان لا يزال عاجزاً عن فهم نواميس الطبيعة الغامضة ، وعندما كان يحيا حياة بدائية .

ونحن ممن لا يأخذون ما يقول به التطوريون ، والفرويديون من علماء النفس مأخذ الحقيقة الكاملة ، فإن كل ما يقولونه لايعدو أن يكون مجرد فروض علمية على أحسن تقدير ، والذى يعنينا فى هذ المقام ، أن العلم الحديث يؤكد هذه الحقيقة التى قررتها الأديان السماوية من قبل ، وهى أن أى إنسان على ظهر هذه الأرض ، يمثل البشرية فى مجموعها ، أى أنه حصيلة التراث الإنسانى كله ، وهو ذروة ما وصلت إليه الطبيعة من رقى وتطور .

وليس هذا التاريخ المقروء ، والذى انقسم فيه بنو الإنسان إلى قبائل وشعوب وأمم ودول ، تتحارب وتتعادى وتتباغى ، ويستعلى بعضها على بعض ، سوى كسر صغير جداً بالنسبة لحياة الإنسان على هذا الكوكب ، حيث عاش نوعاً واحداً فى مواجهة بقية الأنواع وعناصر الطبيعة الأخرى .

ويؤكد الواقع أن البشر عاشوا على ظهر هذه الأرض ، كما تعيش المياه فى المحيطات ، وكما تعيش الرمال فى الصحراء ، وكما تعيش الغازات والأهوية فى الفضاء ، لا تنفك عن الحركة والاختلاط والامتزاج والتداخل والاتحاد ،

والعلو والانخفاض ، والمد والجزر ، والتفاعل والانفعال .

فليس هناك ما هو أبعد عن الواقع ، من التحدث عن اختصاص جماعة إنسانية ، أياً كان شأنها بتاريخ خاص فى معزل عن بقية تاريخ البشر ، فضلا عن أن توصف جماعة بصفات فريدة تميزها عن باقى البشر ، فالتاريخ أعظم شاهد ، على أنه ما من مجتمع من المجتمعات قد ارتفع ، إلا وانخفض بمقدار ما ارتفع ، وما من شعب وصل إلى ذروة القوة العسكرية ، إلا وانحدر إلى هاوية الضعف ، وتحولت انتصاراته إلى هزائم والعكس بالعكس ، وما من مجتمع اتحد إلا بعد فرقة ، ليعود للتفرق من جديد ، وما من مجتمع إلا وشهد تراكماً فى المعارف والعلوم فبنى وشيد وعمر ، ثم غشيته الغواشى فتداعى ووهن .

وبالجملة فكما أنه لم يوجد فى البشر إنسان واحد لم يخضع لنواميس الحياة ، منذ يولد حتى يموت ، فكذلك الشأن بالنسبة للمجتمعات ، فلم تعرف الإنسانية مجتمعاً لم يرزأ بالكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وطوفان ، وأوبئة وطواعين ، ونمو أراضيه الزراعية وتدهورها ، كما لم تعرف الأرض مجتمعاً بشرياً قد خلا على مر العصور من مظاهر الظلم والطغيان والاستبداد والفساد والأغلال وتفشى الجرائم واندلاع نيران الحروب .

والحفريات التى تتكشف لنا من حين لآخر ، تثبت لنا وجود حضارات عريقة مزدهرة ، حيث لا يوجد اليوم سوى الجدب والصحراء ، ففى صحراء مصر الغربية ، وفى صحراء ليبيا ، وفى صحراء الأردن والنقب ، وصحارى الباكستان وصحارى المكسيك والاتحاد السوفييتى ، تتكشف الأرض عن كل ما يدهش ويذهل من حياة مزدهرة وجدت فى هذه البقاع منذ قرون وألوف من السنين .

المحاولات الدائبة لتزييف التاريخ :

فتاريخ الإنسانية كله واحد ، بكل ما فيه من حلو ومر ونور وظلمات ، فهو تاريخ واحد ، لنوع واحد من الكائنات محكوم بخصائص ونواميس واحدة .

ولـكن القدرة التى لا حد لهـا للعقل الإنسانى والتى تعود إليها سعادة الإنسان فى القليل النادر ، وشقاوته فى الأغلب والأعم ، قد زين لـكل جماعة من البشر ، إذا واتتها القوة وأسعفها السلطان ، أن تزيف لنفسها تاريخاً ، لإظهار نفسها بمظهر التفوق الأصيل الدائم ، واختصاصها من دون العالمين بمزايا وعناصر أهلتها للسيادة والاستعلاء ، وذلك فى الوقت الذى تصور فيه أعداءها وخصومها ، أو من وضعهم القدر السيىء تحت رحمتها فى صورة الشعب غير الأصيل ، أو غير الصالح لحـكم نفسه ، وعدم جدارته بالحرية أو حق الحياة .

وليس ذلك كله إلا زيفاً وإدعاءً ، كما رأينا ونحن نتحدث عن الأجناس البشرية ، فليس هناك جنس أرقى من جنس ، أو جنس اختص بالشجاعة ، وجنس اختص بالجبن ، وجنس اختص بحب العلم ، وجنس احتكر الجهل . كل ذلك كما رأينا ، وكما سوف نرى ونحن نستعرض الخطوط العريضة لتاريخ الإنسانية فى تدفقه ، ليس إلا زيفاً وكذباً وميناً .

ارنست رينان وتزييف التاريخ :

ولقد اعترف ارنست رينان صراحة بوجوب تزييف التاريخ ، لإمكان أن تحيا أى دولة حديثة ، فى ترابط وانسجام ، فهو يقول لنا على ما نقله عنه الأستاذ ساطع الحصرى :

« إن نسيان بعض وقائع التاريخ ، وحتى التزام جانب الخطأ والغلط فى بعضها ، من الأمور الضرورية لتـكوين الأمة .

« فالأبحاث التاريخية كثيراً ما تـكون خطراً على الوحدة القومية ، لأنها تظهر للعيان ضروب القسوة والإرغام ، التى كانت منشأ ومصدر جميع الأشكال السياسية ، حتى الأحداث التى أتت بنتائج خيرة جداً ، كانت قد بدأت عملها بعنف وقسوة ، والوحدة تـكون فى جميع الأحوال نتيجة الجبر والإكراه ، إن اتحاد جنوب فرنسا مع شمالها ، إنمـا تم بعد سلسلة من أعمال الإرهاب

والإفناء التى استمرت قرناً كاملا . فيترتب على كل مواطن فرنسى ، أن ينسى مذبحة (سانت بارتلمى) وأن لايذكر شيئاً عن المذابح التى أرهبت وأرغمت الأقطار الجنوبية من فرنسا فى القرن الثالث عشر »[1] .

ونحن إذا كنا ممن يستنكرون تزييف التاريخ ، للمبالغة فى إظهار عظمة شعب من الشعوب ، وتضخيم فضائله ، والتوهين من شأن شعب آخر ، فنحن ممن يحبذون بكل قوة فكرة النسيان ، ويصرون على إسقاط الصفحات الدامية والكريهة من حياة كل أمة وجماعة ، وخاصة فى علاقاتها بالجماعات الأخرى ، ليكون فى قدرة البشر أن يحيوا معاً فى تعاون وأمن وسلام .

إن النسيان هو إحدى سنن الحياة التى جهز بها الإنسان لخيره ونفعه ، فكل إنسان يسقط بحركة تلقائية من ذاكرته ، كل الحوادث المؤسفة والمؤلمة والمحزنة التى وقعت له ، فإذا ذكرها فإنما يذكرها بطريقة عابرة ، لاتحدث فى نفسه أثراً مؤلماً ، وذلك بعكس الذكريات الطيبة والحسنة ، فهو لا يكاد يذكرها ، حتى يحس بالسعادة والانتعاش ، ويروح يستعيد هذه الذكريات بأدق تفاصيلها .

فنسيان الذكريات المؤلمة المريرة ، هو إحدى النعم الإنسانية التى يجب على الإنسان أن يحرص عليها ، وهؤلاء الذين لا ينسون ذكرياتهم المؤلمة ، قد يكونون أقرب إلى المرض منهم إلى الصحة .

والأمر كذلك بالنسبة للجماعات الإنسانية ، وإلا فهل يمكن لأهل أى قرية من قرى الريف فى مصر ، أو فى أى بلد من بلاد العالم ، أن يعيشوا فى أمن وسلام فى ظل القانون ، إلا إذا نسوا الجرائم والإساءات التى وقعت بين الآباء والأجداد وبعضهم البعض ؟ أيمكن لأى دولة من دول أوربا أو آسيا أو أفريقيا أن تعيش اليوم فى أمن وسلام إلا إذا أسدلت ستاراً على الماضى ،

(١) ساطع الحصرى — ما هى القومية .

أو بالأحرى لم تدع لمآسيه أثراً على عواطفها فى الوقت الحاضر ؟ أيمكن لسكان اسكتلندا أن يتعايشوا اليوم مع الانجليز فى دولة واحدة ، إلا إذا نسوا تاريخ الحروب الدامية بين الشعبين ، ولم يعودوا يروا فى أحاديث الماضى ، إلا مجرد قصص وحكايات ، تروى للتسلية والتفكهة ، ومجرد العلم والمعرفة ، لا لإحداث أثر فى النفس ؟

أيمكن لسكان الولايات المتحدة الأمريكية ، أن يقفوا صفاً واحداً ، إلا إذا نسى الجنوبيون ، ما أوقعه بهم الشماليون من ويلات ونكبات فى الحرب الأهلية التى وقعت منذ أقل من مائة عام ؟

أيمكن للبقية الباقية من الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية على السواء ، أن ينعموا بالحياة اليوم ، إلا إذا نسوا ما فعله بهم الرجل الأبيض وهو يعمل على إبادتهم وإفنائهم إفناءاً ؟

أيمكن لممثلى فرنسا وألمانيا ، أن يجلسوا جنباً إلى جنب فى أى مجال دولى ، إلا على أساس نسيان الماضى القريب جداً ، عندما داست الأحذية الألمانية ، أرض باريس أكثر من مرة ؟

أيمكن للهند ، أيمكن لكل شعوب آسيا وأفريقيا التى تحررت واستقلت كلها ، أن تعيد بناء نفسها ، وترفع مستويات شعوبها ، إلا إذا نسيت .. ما فعله بها المستعمرون خلال الأجيال الماضية ؟

الحق أن لا مناص من هذا النسيان لكل الحوادث المؤسفة والمحزنة ، وأن تذكر إذا ذكرت على سبيل العبرة والتأسى وضرورة تجنب الوقوع فيها مرة ثانية . لا مناص من أن تتوقف كل المحاولات لتزييف التاريخ على أساس عنصرى أو قومى أو دينى ، وأن ينظر للتاريخ الإنسانى فى مجموعه ، باعتباره تياراً إنسانياً واحداً متدفقاً ، لمواجهة الطبيعة ، والإحاطة بنواميسها ، ومحاولة بناء حياة أفضل .

وعلى هذا الهدى وبهذه الروح نوجز لك تاريخ الإنسانية ، أو بالأحرى تاريخ الكفاح الإنسانى من أجل حياة أكثر رقياً وكمالا .

وقد بحثنا باستفاضة فى كتابنا تاريخ الإنسانية ، عن المكان والاحتمالات الخاصة بمكان نشأة الإنسان الأول وخلصنا من بحثنا بأن قلنا[١] :

حصة الإنسان الأول من الحضارة الإنسانية :

وأياً ما يكون موطن الإنسان الأول ، وهل بدأ من موطن واحد كما تقول الأديان السماوية ، وكما أعتقد أنا شخصياً ، أو أنه بدأ فى أماكن متعددة ، كما يقول المنادون بتطور الإنسان عن القردة العليا ، وسواء كان موطنه فى سيلان ومنها تفرع إلى سائر البقاع ، أم فى سيلان والهند وأواسط آسيا وغرب أوربا ، أو فى فرنسا وأسبانيا ، كما يحلو للبعض أن يقول ، فإن الحقيقة التى لا شك فيها أن هذا الإنسان قد نما وتفرع وتكاثر وانتشر فى أرجاء الدنيا سائراً على قدميه فوق اليابسة ، أو محمولا على جذوع الأشجار الطافية فوق الماء إلى الجزر المتناثرة ، وأنه فعل ذلك منذ ثلاثين ألف سنة أو يزيد ، وأنه ترك آثاره فى كل مكان وأورث الإنسان فى العصر الحديث أهم مقومات الحضارة الإنسانية على الإطلاق والتى لم يستطع الإنسان أن يزيد عليها إلا قليلا . . . أو بالأحرى لم يزد عليها شيئاً وإن كان قد تطور بها بما يتفق وحاجاته الجديدة وظروفه الطارئة . وأما هذه المقومات فهى :

١ — اللغــــة .

٢ — صنع الآلات والأدوات وأهمها القواطع والروافع والعجلة .

٣ — إشعال النار .

---

(١) لم يكن ثمة مناص ونحن نحاول استعراض الخطوط العريضة لتاريخ البشرية فى هذا الفصل تأكيداً لفكرة الوحدة الإنسانية ، من أن نعتمد اعتماداً كلياً على كتابنا « تاريخ الإنسانية » بعد اختصار ما لا يخل بعملية العرض وتصحيح بعض الأخطاء التى لفت نظرنا إليها بعض إخواننا الصادقين .

٤ — استئناس الحيوان واستخدامه لإشباع مختلف حاجات الإنسان .

٥ — زراعة الأرض واستخراج معادنها .

٦ — التدين والاعتقاد كأساس لتنظيم العلاقات البشرية فى أحسن صورة ممكنة .

هذه العناصر الستة من مقومات أى حضارة ، والتى لا تقوم حضارة إلا بها ، هى تراث هذا الإنسان القديم ، إنسان ما قبل التاريخ المكتوب ، إنسان ما قبل عشرة آلاف سنة أو عشرين ألفاً أو كائناً ما يكون أقدم تاريخ للانسان .

إنه دين الإنسان الأول على كل إنسان عاش فى مختلف العصور وفى عصرنا الحديث ، بل وفى العصور المقبلة ، عندما ينطلق الإنسان إلى الكواكب الأخرى ، ويستخدم الطاقة الذرية فى تحقيق أغراضه وإشباع حاجاته ، فهو فى كل ما يفعل أو يبذل من جهد أو يفكر لتحسين أحواله ، لا يمكن أن يخرج عن هذا النطاق الذى شاده الإنسان الأول ، نطاق اللغة والدين والاعتقاد بصفة عامة ، وصناعة الآلات والزراعة ، واستخدام النار والحيوان .

تراث مشترك للإنسانية كلها :

بقى أن نعرف أن هذا التراث الحضارى الإنسانى الذى هو الأساس لكل حياتنا الحالية ، عام وشائع بين بنى الإنسان فليس يعرف على وجه التحديد كيف بدأ ولا أين بدأ ، ولسنا نعرف شعباً ، فضلا عن إنسان فرد يمكن أن تنسب إليه هذه الاختراعات والكشوف العظيمة ، فهى من صنع البشر مجتمعين . إنها من صنع البشر الآريين والساميين والحاميين ، أو بالأحرى البيض والسمر والسود والصفر ، الرجال والنساء ، من صنع أفريقيا وآسيا وأوربا واستراليا والأمريكتين وجزر المحيط الهادى . . . إنها من صنع

الإنسان[1] ، إنها الحقيقة التى تؤكد وحدة الحضارة الإنسانية .

تقسيم عصور ما قبل التاريخ :

ويقسم المؤرخون عصور إنسان ما قبل التاريخ وأوائل التاريخ إلى ستة أقسام ، ويحددون لكل عصر أزمنة تقريبية على الوجه التالى :

١ — العصر الحجرى القديم — من مليون سنة حتى ٨٠٠٠ ق . م

٢ — « « المتوسط — ٨٠٠٠ حتى ٣٠٠٠ سنة ق . م

٣ — « « الحديث — ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ سنة ق . م

٤ — « « النحاسى (فى الشرق الأدنى) ٤٠٠٠ — ٣٥٠٠ ق . م

٥ — العصر الحجرى البرونزى ٣٠٠٠ ق . م .

٦ — « « الحديدى ٢٥٠٠ ق . م .

ويقوم هذا التقسيم على أساس نوع الأدوات التى كان يصنعها الإنسان فى كل عصر من العصور ، وكيف ابتدأ دائماً باستخدام الأحجار المشظاة أى غير المصقولة « حجرى قديم » ، ثم بالأحجار المصقولة « متوسط وحديث » ثم بمحاولة استخدام النحاس فالبرونز فى صنع الآلات . . . ثم ظهور الحديد لأول مرة فى أدوات الإنسان وآلاته ومهماته .

وتدل الأرقام السابقة على أننا إذ رمزنا لتاريخ الإنسان مذ كان إنساناً بالرقم مائة ، فإن تاريخه فى العصر الحجرى يستغرق ٩٩ من هذه المائة ، ويؤلف الواحد فى المائة الباقى ، تاريخ الإنسان مذ أصبح له تاريخ معلوم ومكتوب[2] .

---

(١) راجع كتاب موسوعة تاريخ العالم — الجزء الأول — ص ٣ وما بعدها .

(٢) موسوعة تاريخ العالم — ص ١٨ وما بعدها .

ولعل هذا الكشف عن طول الفترة التى عاش فيها الجنس البشرى يؤلف نوعاً واحداً من الكائنات فى مواجهة الأنواع الأخرى ، يؤكد لنا ضآلة الفترة التى انقسم فيها الإنسان إلى أمم ودول وامبراطوريات ، راحت تعمل على تعميق الفروق بين بنى البشر ، وتوسع هوة الخلافات ، وتحول الجماعات الإنسانية التى خلقت لتتعاون وتتضامن إلى كتل متعادية متباغضة ، متحاربة متباغية يسعى بعضها إلى إفناء البعض الآخر ، على خلاف ناموس الطبيعة والحياة الذى جعل من غرائز الكائن الحى أن يحافظ على بقاء النوع لا أن يعمل على إفنائه .

الإنسانية فى العصر التاريخى :

ويبدأ دخول الإنسان فى عصر التاريخ ، ونعنى بذلك التاريخ المحقق والمدون على الآثار وجدران المعابد والتماثيل ، أو فى بطون الكتب وأوراق البردى على شتى الصور والأشكال . فعن طريق التدوين أو بالأحرى الكتابة دخل الإنسان فى عصر جديد ، أصبح من المستطاع فيه تراكم المعلومات والمعارف الإنسانية للاستفادة بها ، والانتفاع بثمراتها عبر الزمان . . . وعلى اختلاف الأمكنة .

وإذا كان اختراع اللغة الملفوظة هو الذى أقام هذا الفارق الضخم بين الإنسان وغير الإنسان . فإن اختراع الكتابة قد فرق بين العصور فجعل ما قبلها يوصف بأنه ما قبل التاريخ وأما ما بعدها فقد دخل فى نطاق التاريخ .

كيفية اختراع الكتابة :

ولقد تم اختراع الكتابة بالطريقة التى تم ويتم بها أى اختراع إنسانى ، أى من خلال سلسلة من التطور نتيجة تراكم المعلومات ، وتعقد الحاجات ، فليس من شك فى أن أول نقش نقشه الإنسان على الحجر ، أو رسم ملون يحكى به صورة ثور أو أسد أو حصان ، كان يضع اللبنة الأولى فى اختراع

الـكتابة ، فقد أصبحت الصورة ترمز للواقع وأمكن استحضار شىء غائب إلى الذهن برسم صورته .

ومن الصور التى ترمز لموضوعاتها ، بدأ التطور الذى انتهى بالأبجدية ... فمن الصور الـكاملة للدلالة إلى شىء معين ... إلى الصورة المبسطة[1] . فمجرد الخطوط الأساسية ، ثم استعمال هذا الرمز للدلالة على صوت معين . وهـكذا نشأت الأبجدية أى الصور الخطية الدالة على الأصوات الملفوظة .

مصر القديمة :

والقول بين الباحثين والدارسين على أن مصر القديمة هى مبدعة اختراع الـكتابة ، وعنها تلقت باقى شعوب وأمم ما يعرف الآن بالشرق الأدنى أو الشرق العربى ، وتولت فينيقيا (لبنان الحديث) صياغة الأبجدية فى صورتها الحاضرة المألوفة ، ونشرها فى أنحاء عالم ذلك الزمان .

وسواء أكانت مصر القديمة هى مخترعة الـكتابة ، أم أنها نقلتها عن الشعوب المجاورة ، فإن ثمة حقيقة لا تجد خلافاً عليها ، وهى أن أقدم نصوص مكتوبة قد وجدت فى مصر ، حيث تشير إلى معرفة المصريين القدماء للتقويم الشمسى وتقسيم السـنة إلى ٣٦٥ يوماً وأن التقويم قد بدىء فى استعماله عام ٤٥٤١ ق . م .

على أن هناك من يقول إن التاريخ المـكتوب يجب أن يبدأ عند مصب الدجلة والفرات ، حيث كانت سومر وبابل وأشور ، وأن المصريين القدماء أنفسهم ، إنما جاءوا من هذا القسم من العالم حاملين حضارته عن طريق شبه جزيرة سيناء[2] . ونحن الذين حاولنا أن نثبت أن آسيا هى موطن الإنسان

---

(١) لا تزال الـكتابة الصينية تقف عند هذه المرحلة .

(٢) عبد العزيز الدسوقى — الـكيان العربى — ص ١٧ .

الأول ومنشــأ الحضارة ، لا نرى ما يدفعنا إلى دحض هــذا الرأى ، ولــكن ثمة آراء أخرى تقول إن المصريين القدماء قد جاءوا من الجنوب سائرين مع النيل شمالا حتى وصلوا إلى مصبه ، وأن آسيا كانت موطنهم الأول ، وقد كانت الأرض متصلة بين آسيا وأفريقيا ، وحتى بعد أن حدث الصدع وغمر ماء البحر بوغاز باب المندب ، فقد ظل المضيق يسمح بالانتقال عبر البحر من اليمن إلى الحبشة ، وبالعكس . والذين يأخذون بهذا الرأى يقولون إن حضارة وادى النيل قد سبقت حضارة الدجلة والفرات .

ومرة أخرى نقول ، كما قلنا بالنسبة للـكتابة ، سواء سبقت الحضـــارة فى سومر وبابل وأشور أم كانت سابقة على ضفاف النيـــل ، فالحقيقة الثابتة المقررة أن أهرامات مصر هى أقدم الآثار المبنية فوق سطح الأرض فى الوقت الحاضر وعلماء الآثار يتراوحون فى تحديد تاريخها بين ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ ق .م. ولا يعرف سطح الـكرة الأرضية أثراً قائماً باقياً على الزمن أقدم من هرم زوسر والمصاطب التى سبقت بناءه .

إنشاء المدن :

وظهرت المدن بمعناها المفهوم لنا لأول مرة على صفحة التاريخ حيث يسكن الزراع والصناع وأصحاب الحرف الأخرى إلى جوار بعضهم فى علاقات منظمة تحكمها قيــادة واحدة ، وتقاليد واحدة ، وأنظمة واحدة . وكانت المدينة تنشأ دائماً حول هيكل الرب المعبود لهذه الجماعة . ولا شك فى أن كاهن هذا المعبد وسادنه كان هو أول حاكم وملك للجماعات الأولى ، فقد كانت السلطات كلها تنحدر من هــذا الإله ، والقوانين والتعاليم والأوامر والنواهى كلها لا تتصور إلا باعتبارها أوامر الإله ، فـكان الناطق باسم الإله هو دائماً صاحب السلطة والآمر المطاع . . . وهى حالة ستظل تقابلنا فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة . . . وستظل تهيمن على المجتمع البشرى خلال العصور ، ولا تكاد

تخف حدتها فى بعض المجتمعات حتى تعود لسلطانها كأقوى ما كانت فى أى وقت مضى . . . كما سيكون عليه الحال فى أوربا فى ظل المسيحية وبابوات المسيحية ثم ملوك المسيحية .

تكوين الدولة المصرية :

ونشأة المدن حول هيكل المعبود وتمتع سادن الهيكل بالسلطة والنفوذ ، ظاهرة مقررة فى كل المجتمعات . . . ولـكن كثيراً من المجتمعات حتى فى عصور متأخرة وحديثة قد ظلت عند دائرة المـــدن لا تعدوها ، فتؤلف كل مدينة وحدة سياسية قائمة بذاتها ويكون لها جيشها الخاص واستقلالها الذى تحرص عليه كما سنرى ذلك عند الإغريق . . . بل وفى إيطاليا وأوربا كلهـا فى العصور الوسطى .

ولـكنا نرى مصر القديمة تشذ عن هذه القاعدة منذ عصر مبكر ، فنراها كلها وقد توحدت فى ظل دولة مركزية فى العالم كله ، حيث تدار الأمور من عاصمة تخضع لها سائر المدن والمناطق . ولا شك فى أن نهر النيـل وفيضانه السنوى كان هو العامل الذى أدى إلى توحيد مصر فى هـذا العصر المبكر . فقد كان هـذا الفيضان يشكل فى كثير من الأحوال خطراً داهماً مشتركا لـكل من يعيش على ضفتيه ، ولم يكن هناك ثمة سبيل لدفع هـذا الخطر إلا من خلال تعاون جميع الساكنين على شاطئيه ، وإذا كان النيـل من ناحية أخرى يؤلف شرياناً حيوياً للمواصلات ، وليس كالمواصلات بين الجماعات سبيلا إلى توحيدها وتجميعها ، فقد انتهى النيـل بأن كان على رأس العوامل التى وحدت مصر سياسياً . ولذلك فليس هناك ما هو أصدق من كلمة هيرودوت المؤرخ الإغريقى الذى سيزور مصر فى القرن الخامس قبل الميـلاد . . عندما يقرر أن مصر هبة النيل ، فها هو النيل يخلق أول دولة تسـاس على الطراز العصرى منـذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد كان النيل قبل ذلك هو خالق دلتا النيل خلقـاً

من العدم بما يجلبه كل عام من طمى يقذف به إلى البحر .

عهد الأسرات :

وهكذا يطالعنا تاريخ مصر بجلوس مينا على عرش المملكة المصرية الموحدة ، ويلبس لأول مرة تاج الوجه القبلى والبحرى معاً عام ٢٩٠٠ ق . م على أكثر الآراء مبالغة فى تقريب هذا التاريخ . إذ أن هناك كثيرين وعلى رأسهم بريستيد ، يرجعون بهذا التاريخ خمسة قرون إلى الوراء .

وهكذا نرى أنفسنا لأول مرة أمام أكبر تكتل بشرى ، يمتد على رقعة طويلة من الأرض يخضع لسلطة مركزية تبدأ برئيس دولة يعاونه وزراء وقضاة ، ويبعث بحكامه إلى بقية المحافظات والمديريات ، ويجبى الضرائب ويقيم العدل بين الناس على أسس من قوانين ثابتة مكتوبة وأنظمة إدارية محكمة .

وبدأنا نشهد مجتمعاً ينطوى على كل ما تنطوى عليه مجتمعاتنا الحديثة من مظاهر ومقومات ، فعمل فى سبيل الإنتاج ، وعمل فى الإدارة ، وجد ولهو واستمتاع مادى ومعنوى بالحياة ، فأجود الأطعمة المطهية والأشربة والأنبذة والفواكه وأصناف الحلوى والخبز والكعك ، كل ذلك قد عرف طريقه إلى المائدة .

والفنون بكل أنواعها من موسيقى ورقص وشعر وأدب ورسم ونحت ، بل إن النحت ليصل إلى ذروة لم يصل إليها أى نحات فى القديم أو الحديث . والألعاب الرياضية وألعاب الفروسية ، من قذف بالجلة والرمح والعدو والمصارعة والملاكمة والسباحة والتجديف والصيد ، كل ذلك قد أصبح يمارس على أوسع نطاق .

وأصحاب المهن والصناعات المتخصصون بدأوا فى الظهور ابتداء من البنائين

والنجارين والمبيضين ، حتى الكتاب والموظفين والأطباء والمعلمين . وهكذا نرى الإنسان قد وصل فى هذا العهد البعيد إلى الحياة الإجتماعية الراقية كما نفهمها وكما نزاولها ، ويستمتع بحياته كما يستمتع بها أحدث إنسان عصرى ، عندما يتخذ من لعب الكرة أو مشاهدة مباريات الكرة أعظم هواياته .

اختراع الورق :

وإذا كان إنسان ما قبل التاريخ قد وضع أسس اللغات أو صناعة الآلات . . . إلخ مما أشرنا إليه فيما سبق ، فإن أحد اختراعات إنسان التاريخ جدير بأن يشار إليه لعظيم خطره فى الأجيال والقرون التالية وذلك هو الورق ، فلو لم يكن الورق لظلت الكتابة بكل جلالها وخطرها محدودة النفع والأثر ، وليس مثلنا فى العصر الحديث من يقدر قيمة الورق ، وكيف أن حضارتنا الحديثة إذا كان يحلو للكثيرين أن يصفوها أحياناً بأنها حضارة الحديد والصلب والكهرباء ، ويقيسوا رقى الشعوب بنصيب كل فرد من الصلب أو الكهرباء ، فما أحراهم أن يصفوها أولا بأنها حضارة الورق قبل أن تكون حضارة الصلب والكهرباء ، فلولا الورق لما كان شىء من ذلك كله ، وإنى لأجهد نفسى فى تصور ماذا كان يمكن أن تكون عليه حياتنا لو لم يكن فيها هذا الورق . . . أكان من الممكن أن أخط هذا الكتاب ، أكان من الممكن أن يجد سبيله إلى ألوف القراء ما لم يكن هناك ورق ؟ ومن أين كنت أستقى معارفى إذا لم يكن هناك ورق ؟ ... كيف يمكن للتعليم أن يتم بغير كتب وورق ؟ كيف يمكن لأية حكومة أن تزاول سلطانها عن غير طريق الورق ، أكان يمكن لأى اختراع أو اكتشاف أن يتم ما لم يكن هناك ورق توضع عليه الرسومات الأولى والتصميم ؟

والإنسان فى مصر كان هو أول صانع للورق بلا جدال أو شبهة ، ولذلك لا يزال اسمه فى اللغات الأوربية كلها يحمل الاسم المصرى الذى اشتقه الإغريق

من اسم نبات البردى وهو Papyrus، وسوف نرى أن الأداة التى يصنع منها الورق سوف تتغير على مر العصور . . . فيصنع أحياناً من رق الغزال أى جلده وسيصنعه الصينيون من القماش ، وسنصنعه فى عصرنا الحديث من لب النباتات . . ولكن الأساس والفكرة واحدة وهى صنع هذه الأداة الخفيفة البسيطة البيضاء لنكتب عليها .

الهندسة والرى والطب والفلك والكيمياء والتعدين :

وبقيام المجتمع المتكامل والدولة الموحدة ، كان طبيعياً أن تصب المعارف الإنسانية فى علوم يستقل بعضها عن بعض ، ويتخصص فى كل فرع منها المتخصصون ، فكان علم الفلك حيث استطاع الإنسان فى هذا الوقت البعيد أن يحدد السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوماً ولن تتجلى عظمة هذا الكشف إلا عند ما ندرك أن الإنسانية بعد ذلك لم تستطع أن تغير من هذا الحساب إلا بقدر خمس ساعات وكسور . وقام علم الهندسة والطب والكيمياء والجيولوجيا أى التعدين ، ووجد الأطباء والمهندسون والكيميائيون والوزراء والحكام الإداريون والقضاة والكتبة وسائر الموظفين .

الدين :

ووصل الوازع الدينى ، أو بالأحرى الضمير الإنسانى وهو المقياس الذى يمكن أن تقاس به درجة رقى أى مجتمع إلى درجة عالية ، ولست أحسب أن هناك ما يمكن أن نسوقه لتصوير ما كان عليه الإنسان فى مصر فى هذه الحقبة من التاريخ ، من حيوية الضمير ويقظته أكثر من أن ننقل نصاً واحداً من مئات النصوص التى وجدت منقوشة على القبور والتى يقدم فيها الميت الحساب عن أعماله .

فهذا حاكم مقاطعة (جبل الحية القرناء يقول عن نفسه) :

« لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع فى جبل الحية القرناء .

« لقد كسوت كل من كان عارياً هناك .

« لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة وأراضيه المنخفضة بالماشية الصغيرة .

« ما ظلمت أحداً حتى شكا منى بسبب ذلك لإله مدينتى ، ولكنى كنت أنطق بما هو خير وأتحدث به .

« لم يوجد شخص يستولى عليه الخوف بسبب شخص أقوى منه حتى شكا منه للإله .

« لقد كنت صانع معروف ، إنى لا أنطق بأكذوبة ، لأنى كنت شخصاً يحبه أبوه وتثنى عليه أمه ، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوباً لدى أخته »[1].

وقد يكون كل ما جاء فى هذا النص ، لا ينطوى على غير المباهاة والتفاخر الكاذب ، فنحن نعلم أن الحكام فى كثير من الأحيان يقولون ما لا يفعلون ، بل إن ماكيافللى قد أوصى الحكام بذلك على أساس أن ذلك هو فن الحكم . ونحن نعلم أن اتباع الحكام ينافقونهم بما ليس فيهم ، وقد يصفونهم بالعدل وهم فى أوج الطغيان ، ومع ذلك فإن هذا النص يسجل لنا دستور الحكم ومبادئه الأساسية من ناحية ، والأخلاق الفاضلة من ناحية أخرى ، والتى يجب أن يتصف بها الحاكم ليكون جديراً بالثناء عليه عند الآلهة وعند الناس .

انظر إليه وهو يتحدث عن توفيره أنواع الماشية ، ووضع كل منها فى مكانه الصحيح ، تراه يفتخر بما تفتخر به الدولة العصرية بمضاعفة الإنتاج .

---

(١) بريستيد — تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة — ص ٢٤٢ .

وانظر إليه وهو يتحدث عن إطعام الجائع وكسوة العارى ، تجد أن الفكرة الاشتراكية التى تقوم على إحسان التوزيع بين الناس كانت معروفة لدى هذا الحاكم منذ ستة آلاف من السنين . وانظر إليه وهو يقول إنه لم يوجد فى رعاياه من يمتلىء قلبه خوفاً من إنسان لكونه أقوى منه ... لترى أعظم مظاهر الديموقراطية التى تقوم لتأكيد حقوق الإنسان ، أو ما نطلق عليه التحرر من الخوف . وأخيراً انظر إلى علاقته بأبويه وأخيه وأخته وكيف يفخر بأنه كان محبوباً منهم جميعاً ، تجد أمامك النفس البشرية فى رقتها وصفائها .

ولعل القارىء يدرك قبل ذلك من مطالعة هذا النص ، أن أشد ما يفزع الحاكم فى الدرجة الأولى ، هو أن يشكوه المظلوم إلى إله المدينة .

التدين سر الحضارة المصرية :

والحق أن الخوف من الله كان هو مفتاح الحضارة المصرية القديمة ، وليس باستطاعتنا أن ندرك قليلا أو كثيراً من تفوق قدماء المصريين الخارق إلا على ضوء فهم عقيدتهم الدينية التى كانت تملأ عليهم كل حياتهم . لقد كانوا ينظرون إلى الدنيا باعتبارها معبراً إلى الحياة الثانية ، وليس باستطاعتنا فى هذه العجالة أن نفصل الكثير من أحكام هذه الديانة[1] ، وحسبنا أن نشير إلى أن المصريين قد عرفوا جوهر الأديان كلها ، وأعنى به الإيمان بالأمور الغيبية ، كالبعث بعد الموت ، والحساب على ما قدمت يد الإنسان فى هذه الدنيا ، ثم الثواب والعقاب فإما إلى جنة الخلد أو إلى قاع الجحيم ، وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث كثيراً عن الميزان الذى توزن به أعمال الإنسان « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » فإن قدماء المصريين بلغتهم التصويرية قد صوروا الميزان على جدران قبورهم وقد وضع فى إحدى كفتيه قلب الإنسان .

---

(١) اقرأ للمؤلف كتاب « فى الإيمان والاسلام » .

رع وأوزوريس :

ولقد أشرنا فيما سبق أن كل مدينة كانت تتخذ لها إلهاً خاصاً بها ، بحيث **يمكن القول** إنه كان لدى المصريين القدماء من الآلهة بمقدار ما عندهم من مدن **وجماعات** ، والرأى الراجح أن هذه الآلهة كانت تمثل الأصول والأجداد لكل **قبيلة** ، وبعض الأبطال الذين اشتهروا بجلائل الأعمال ، ولكن سنة الاجتماع **التى دفعت** المصريين إلى توحيد دولتهم ، سرعان ما بدأت تعمل فى توحيد **عقائدهم** ، فبدأت عملية مزج بين الآلهة المختلفة وتزويجها إلى بعضها ، أو إيجاد **القرابة فيما** بينها كأن يكون هذا الإله شقيق الإله الآخر ، أو ابنه . ثم تلت ذلك **عملية أخرى** وهى ترتيب الآلهة فى درجات يعلو بعضها بعضاً فمن آلهة كونية **تنسب إليها** عمليات الخلق كنوت إله السماء وجب إله الأرض ، فهى آلهة تعلو **الآلهة** . ثم آلهة إقليمية محلية تختص بتصريف شئون البشر وإعانتهم على قضاء **حاجاتهم** ، أشبه بالأولياء الذين نجدهم فى بلادنا فى الوقت الحاضر فى مختلف مدن **القطر** ، وأهل كل مدينة يتعصبون لوليهم وينسبون إليه القدرة الفائقة على عمل **كل شىء**[١] .

وقد انتهى الباحثون فى الديانة المصرية إلى تفوق عقيدتين سيطرتا على **بقية العقائد الأخرى** ، وهما العقيدة الشمسية التى تدور حول عبادة الإله رع **(أى الشمس)** والذى أقيمت له المسلات والأهرامات ونرى اسمه قد أصبح **جزءاً لا يتجزأ** من أسماء الملوك باعتبارهم أبناء الشمس (خفرع ... منقرع) . **والعقيدة الثانية** هى العقيدة الأوزورية التى تدور حول الإله أوزوريس **وزوجته** : وابنهما حوريس وشقيقه ست[٢] .

---

(١) كالسيد البدوى فى طنطا ، والدسوقى فى دسوق ، وعبد الرحيم القناوى فى قنا والحجاجى فى الأقصر . . وهكذا .

(٢) أوزوريس على ما تقول العقيدة المصرية ، هو معبود حكم الأرض بعد رع وخلفه فيها ، وقد أحبه الخلق كثيراً لعدالته وشفقته . ولكن حكمه لم يدم طويلا لأن أخاه ست كاد له حتى =

هاتان العقيدتان اللتان تدوران حول الشمس ، لأن أوزوريس نفسه قد انتهى بأن يصبح رمز الشمس عند الغروب ، سيكونان مصدر الوحى والإلهام لأعظم حركة توحيد عرفها البشر فى هذا الوقت المبكر .

أهرامات الجيزة :

والحق أن إيمان المصرى القديم قد أوصله إلى درجة جعلته يفعل المعجزات التى ما كان يمكن أن يقوم بها لولا هذا الإيمان .. وعلى رأس هذه المعجزات بناء الأهرام .

فنحن نعلم أن الهرم قد بنى على مساحة ١٣ فداناً ، ويبلغ من الارتفاع ٤٨٠ قدماً ، وقد ظل هذا الارتفاع هو أعلى بناء فى العالم حتى مطلع القرن العشرين أى طوال خمسة آلاف سنة . وقد تطلب من الصخور لبنائه مليونين وثلثمائة ألف حجر ، متوسط ثقل الصخرة الواحدة طنان ونصف ، أى أن ثقل هذه الأحجار فى مجموعها يبلغ خمسة ملايين طن . وقد قطع الجزء الأكبر من هذه الصخور من جبل المقطم ونقل إلى صحراء الهرم عبر النيل . أما كسوة الهرم الخارجية ودهاليزه الداخلية وحجرات الدفن فقد صنعت من حجر الجرانيت الذى استجلب من أسوان ، وحيث تبلغ زنة بعض الأحجار من عشرين طناً إلى ١٥٠ طناً[١] .

وعلينا أن نستحضر الآن فى أذهاننا ، أن الصلب لم يكن قد عرف

= قتله ، فاجهدت إيزيس زوجته نفسها حتى أنقذت جثة زوجها، وتلت عليها التعاويذ السحرية حتى أعادتها إلى الحياة وحركت أعضاءها ، واستطاعت إيزيس فى هذه المرحلة أن تحمل من أوزوريس وأن تنجب منه ابنهما حوريس الذى راحت تربيه خفية عن عين عمه وتحرضه على أن يثأر لأبيه . على أن أوزوريس لم يستطع أن يسترجع مركزه الدنيوى فعكف على الحياة الآخرة ، علوياً محترماً يحكم بين الموتى . وعندما كبر حوريس وبلغ رشده ناضل عمه ست نضالا شديداً حتى انتصر عليه واعتلى عرش أبيه .

(١) ول دورانت — قصة الحضارة الجزء الأول — ص ٧٠ .

فى ذلك الوقت وكذلك الطاقة الكهربائية ، فبأى قوة وطاقة أمكنهم قطع هذه الأحجار ونحتها ، ثم نقلها هذه المسافات الطويلة ورفعها بعد ذلك إلى هذا المدى الكبير.

بل علينا أن نتصور قبل ذلك وبعد ذلك ، بأى عقول قد صممت هذه الأهرامات ورسمت ، ثم بأى قدرة وبأى تجربة وبأى فن نفذت بهذه الدقة العجيبة التى تذهل أعظم المهندسين دقة فى العصر الحديث فحيث يبلغ طول ضلع قاعدته ٧٥٠ قدماً فإن نسبة الخطأ فى طول بقية الأضلاع والمسح والفراغ لا تبلغ $\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ كما أن مواضع تلاصق الصخور الضخمة لا تزيد مسافتها عن $\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ من البوصة . ويقول بريستيد « وإن هذه الدقة فى السطوح والحافات التى تشمل مساحات تقدر بالأفدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين العصريين ، الذين لا تتعدى دقتهم بضع أقدام أو ياردات »[١].

الأهرام رمز لقدرة الإنسان :

وما أكثر ما ارتفعت الأصوات من حين لآخر ، تحاول على ضوء مقاييس العصر الحديث أن تحكم على صواب هذا العمل ، وأن تتخذ منه رمزاً على الطغيان والاستبداد وأن تصور الأهرام على أنها مجرد قبر لإنسان فرد ، وعندنا أن ذلك كله هو لون من ألوان التخبط وإلقاء الكلام على عواهنه ، فما كان الطغيان بقادر على أن يبنى ويعمر فضلا عن أن ينشىء معجزة الدهور كلها .

وما كان لشعب يرزح تحت أثقال الظلم ، أن ينهض بهذا العمل الجبار ، ولا أن يجد العقول المبدعة التى تبدعه ، وإنما الحق يقال أن ليس سوى شعب مؤمن بفكرة الخلود ، وتوفرت لديه العزيمة على تحدى الزمن وعوامل الفناء ، من يقدر على بناء هذا الهرم الذى قال قائلهم فيه بحق « إن العالم يرهب

(١) بريستيد — تاريخ مصر — ترجمة حسن كمال — ص ٧٧ .

الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام[1] .

والحق أن بناء الأهرام يجب أن ينظر إليه على أنه رمز لعظمة الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، وكما يحاول كل شعب وتحاول كل أمة أن تبنى بناء يرمز لما وصلت إليه من قوة واقتدار ... فيجب أن يعتبر الأهرام رمزاً ناطقاً على مر الدهور ، إن الإنسان قبل خمسة آلاف سنة وصل إلى هذه الدرجة من القوة والاقتدار والسيطرة على الطبيعة وتحديها .

حضارة سومر :

ولندع الآن الإنسان فى مصر حيث قد بلغ أوج حضارته ، ليسرى عليه قانون الحياة حيث يعقب العلو والارتفاع ، الهبوط والانخفاض . وقانون القوة الجاذبة نحو المركز ، يقابله قانون القوة الطاردة بعيداً عن المركز . لندع مصر بمن فيها ألفاً من السنين تراوحت فيهـا أقدارها بين المد والجزر ، والتشقق بعد التوحد ، وطروء هجرة جديدة عليها ممن يسميهم التاريخ بالهكسوس ، ونجاح أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة فى القرن السادس عشر ق . م ، فى إجلائهم عن مصر ، فلسنا نؤرخ فى كتابنا هـذا لتفاصيل أحداث التاريخ وإنما للجانب الحضارى منها ، ولنسرع إلى بلاد ما بين النهرين ، الدجلة والفرات ، أو بالأحرى إلى دلتا النهرين حيث تهتف كثير من الأصـوات بأن الحضارة بدأت من هناك .

ولقد قلنا من قبل إننا لم نبدأ بمصر إلا لأن تاريخها المكتوب يسبق كل تاريخ . والذين يتحمسون للحضارة السومرية يحاولون أن يرجعوا بتاريخها الثقافى إلى ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، ويرى بريستيد وول دورانت[2] أن القائلين بهذا القول يبالغون بل ويسرفون على أنفسهم ، أما وليم لانجر صاحب موسوعة تاريخ العالم فلا يضع تاريخاً للحضارة السومرية قبل عام ٢٤٥٠ ق. م.

---

(١) دورانت — قصة الحضارة — ص ٧٢ .

(٢) قصة الحضارة — الجزء الثانى — المجلد الأول — ص ١١ .

قصة الخلق والطوفان :

ولعل أروع ما أضفى على الحضارة السومرية شهرتها وأهميتها هى محاولة علمائها وشعرائها عام ٢٣٠٠ ق. م. أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم ، فكتبوا قصصاً عن بداية الخلق وعن اثنين من حكام البلاد وهما تموز وجلجيميش ، ثم يتحدثون باستفاضة عن طوفان مروع غمر الجنة وخربها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين . ونقل البابليون قصة الخلق والطوفان عن السومريين ، وعن البابليين نقل العبرانيون (بنو إسرائيل) فأصبح حديث الخلق والطوفان بهذه الصورة جزءاً من العقيدة اليهودية والمسيحية[١] .

الكتابة المسمارية :

وللسومريين أبجدية للكتابة تختلف عن هيروغليفية المصريين القدماء ، مما يجعل البعض يرجح أن تكون هى أصل الأبجدية التى انتشرت فى العالمين ، ولكن السومريين على خلاف المصريين لم يعرفوا الكتابة على الورق ، وإنما كانوا يكتبون على قوالب من الطين وهى لا تزال طرية ، مستخدمين فى الكتابة عليها مسماراً ومن هنا سميت باللغة المسمارية .

وكانت ملابس السومريين من الصوف وكانوا يحلقون رؤوسهم وكانت الزراعة هى محور حياتهم ، وكانت مدنهم تتألف كما هو الشأن فى نشأة المدن فى تلك الأيام حول الهيكل المقام لمعبود الجماعة الخاص ، حيث يكون الكاهن هو صاحب النفوذ والسلطان وسرعان ما عملت عناصر التوحيد على ضم المدن المختلفة واستعلاء إله الملك الظافر على بقية الآلهة وقد وجدت نقوش من آثار مدينة « إريك » حيث يعلن إلهها على لسان كاهنها الملك ، سلطانه المطلق على المنطقة الممتدة من الخليج الفارسى حتى البحر الأحمر[٢] .

---

(١) دورانت المرجع السابق .

(٢) هـ . ج . ويلز — مختصر تاريخ العالم (بالانجليزية) ص ٥٩ .

الأكاديون :

ويسجل التاريخ أن حشداً من الساميين من سكان الصحراء ممن عرفوا باسم الأكاديين قد أغاروا على سومر عام ٢٧٥٠ ق . م تحت زعامة سرجون، ولم يلبث أن كون أول امبراطورية فى هذا الجزء من العالم تمتد من الخليج الفارسى حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط .

بابل وحمورابى :

على أن إمبراطورية سرجون لم تلبث أن ذوت ، وجاءت حشود جديدة من الساميين فاستولوا على المنطقة وأسسوا لهم عاصمة جديدة سيظل اسمها يدوى خفاقاً فى العالمين لعدة أجيال وقرون بأقوى مما تدوى اليوم أسماء باريس ولندن أو برلين ، وتلك هى مدينة بابل التى تحولت تحت لواء إلهها مردوك إلى بوتقة من أعظم بواتق الحضارة الإنسانية ، والتى وصلت إلى عصرها الذهبى عام ٢١٠٠ ق . م على يد ملكها العظيم حمورابى الذى حكم ٤٣ سنة ، وترك للبشرية أول مجموعة من القوانين المكتوبة ، أو بالأحرى المنقوشة أجمل نقش على اسطوانة من حجر الديوريت، والمنظمة بصورة مذهلة على أحدث الأساليب العلمية العصرية ، فثمة قوانين خاصة بالعقارات ، وأخرى خاصة بالمنقولات ، وثالثة للتجارة والصناعة ورابعة خاصة بالأسرة وأنظمتها وحقوق أفرادها . . . وقوانين خاصة بالعمل وأخرى للأضرار الجسيمة وهكذا ، ويقول دورانت مؤرخ الحضارة الإنسانية عن هذه القوانين ، إنها من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة ، وقل أن يجد الإنسان فى تاريخ الشرائع كله ، ألفاظاً أرق وأجمل من هذه الألفاظ التى يختم بها حمورابى ذلك الملك البابلى العظيم شريعته :

« إن الشرائع العادلة التى رفع منارها الملك الحكيم حمورابى والتى أقام بها فى الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة ،أنا الحاكم الحفيظ الأمين

عليها ، فى قلبى حملت أهل أرض سومر وآكد ، وبحكمتى قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة . فليأت أى إنسان مظلوم له قضية ، أمام صورتى أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذى على أثرى ، وليلق باله إلى كلماتى الخطيرة ، ولعل هذا يكون هادياً له فى قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ولعله يريح قلبه فينادى « حقاً إن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه . لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة . ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على أثرى »(1) .

وإذا كنا قد اكتفينا من وصف حضارة مصر فى عهدها القديم بالوقوف عند الأهرام حيث تغنى بنفسها عن أى حديث ، فإن قوانين حمورابى بهذا التنظيم العلمى الدقيق ، وبهذه الروح السامية الرفيعة ، تغنى بنفسها عن الإفاضة فيما كانت عليه بابل ، أو الحديث عن حدائقها المعلقة ، وأبراجها المتعالية نحو السماء ، إن قوانين حمورابى هرم معنوى يخلد حضارة الإنسان منذ أقدم العصور كما يخلدها بناء الأهرام سواء بسواء .

علم الفلك والعلوم الرياضية :

على أننا لا نستطيع أن ننهى حديثنا عن حضارة بابل دون أن نشير إلى علم كان وما زال علماً عليها ونعنى به علم الفلك والتنجيم وما يتصل به من حساب وعلوم رياضية ، فقد كان البابليون هم الذين قسموا لنا الدائرة التقسيم الذى نستعمله حتى الآن وهو ٣٦٠ درجة وكانوا هم الذين قسموا الدرجة إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ٦٠ ثانية ، وقد كانوا هم أول من قدر الزمن بالساعات المائية وبالمزولة ، والرأى الراجح أن هاتين الآلتين من اختراع البابليين بالذات .

---

(١) دورانت . قصة الحضارة — ج ٢ مجلد ١ ص ١٩٢ .

وقد استطاع البابليون منذ ٢٠٠٠ سنة ق. م أن يسجلوا بدقة عجيبة شروق كوكب الزهرة وغروبهـا ؛ وأن يميزوا بين النجوم الثوابت والـكواكب السيارة ، ويحددوا مسارات الـكواكب ويعينوا تاريخ الانقلابين الشتوى والصيفى ، والاعتدالين الربيعى والخريفى ، وأن يلاحـظوا الخسوف والـكسوف (١) .

الأشوريون :

وبقدر ما كانت صفحة بابل القديمة مشرقة ، بقدر ما كان يقع فى شمالها دولة أخرى متجهمة ، وهى دولة الأشوريين فى حوض الدجلة والفرات العلويين وكانت عاصمتها مدينة نينوى .

وتاريخ الأشوريين تاريخ عاصف دموى عنيف ، وقد استطاع ملوكها فى خاتمة المطاف أن يستولوا على بابل ويحـكموها ، وأن يسيطروا على إمبراطورية ضمت تحت جناحيها المنطقة الممتدة من عيلام فى المشرق وأرمينيا وميديا وسومر وبابل ، حتى فلسطين وسوريا وفينيقا ومصر فى عهد متأخر فى المغرب .

الفينيقيون عابرو البحار :

وبينما كانت الحضارة تزدهر على ضفاف النيل من ناحية ، وعلى ضفاف الدجلة والفرات أيام حمورابى ، وتتخضب المنطقة بالحروب والدم أيام اصطدام الإمبراطوريتين المصرية والبابلية أو الأشورية ، كان ثمة شعب يقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط قد تميز بكيانه الخاص وحبه للبحر والانطلاق فوق عبابه لينقل لدنيا ذلك الزمان ما فى هذا الشرق من منتجات وسلع مادية ومعنوية معاً ، أولئك هم الفينيقيون . ويقول عنهم المؤرخون الأوربيون المعنيون بتقسيم العالم

---

(١) دورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، مجلد أول ص ٢٥١ .

إلى فرق وأجنـاس ، أنهم ينتمون إلى الجنس السامى كالبابليين والأكاديين والعموريين ، فيتصدى لهم فريق آخر لينفى هذه النسبة إلى السابقين ويردها إلى الجنس الذى أنشأ الحضارة الإيجية أى الـكريتية ، ولنا ما قالوه هم عن أنفسهم وأثبته هيرودوت فى تاريخه على لسانهم أن أجدادهم جاءوا من شواطىء الخليج الفارسى (١) .

وأياً ما يكون الأصل الذى نشأ منه الفينيقيون فهم فرع من هذه الشجرة التى ازدهرت ونمت وترعرعت فى هذا الجزء من العالم ، وألقى عليهم القدر رسالة حمل حضارته وعلومه وفنونه ولغته وحروف كتابته إلى كل الساكنين حول حوض البحر الأبيض أولا ، ثم خارج نطاقه فى الجزر البريطانية ، وحول أفريقيا كلها التى كانوا أول من طاف حولها .

ولم يكن الفينيقون أول من مخر البحار ، فقد دلت الحفريات الحديثة على وجود شعب بحرى فى جزيرة كريت .

بل لقد عرف المصريون القدمـاء ركوب متن البحـار منذ أمد كبير سابق على ميلاد فينيقيا ، وقد كان النيل أكبر حافز لهم على صنع السفن التى تمخر عبابه وتخرج منه إلى البحر ، ولقد ظفرنا فى العصر الحديث بمراكب خشبية من صنع المصريين القدماء مطمورة إلى جوار الأهرامات باعتبارها سفن الشمس ، ونرى السفن ذوات الشراع ، وذوات المجاديف منقوشة على جدران الهياكل والمعابد المصرية . . . ويحدثنا تاريخ حتشبسوت أنها أرسلت سفناً إلى بلاد أرض بونت « الصومال » ولـكن لم تـكد فينيقيا تظهر فى الوجود حتى بدأنا نراها تقوم عن مصر بعملياتها البحرية . وإن الإنسان ليستطيع أن يتصور أن المصريين القدماء استجلبوا الآرز وهو الخشب الصالح لصناعة السفن من فينيقيا ، ثم باع الفينيقيون بعد ذلك لمصر سفناً مصنوعة وجاهزة ، ثم ذهبوا إلى

---

(١) دورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، المجلد الأول ص ٣١٠ .

ما بعد ذلك فزودوا مصر بالسفن وملاحيها ، وبذلك قام تعاون وثيق بين البر والبحر فى عالم التجارة بين مصر وفينيقيا حتى ليسجل التاريخ أن الفينيقيين كانوا أول من طاف من البشر حول أفريقيا لحساب نخاو فرعون مصر فى القرن السادس قبل الميلاد ، فسبقوا بذلك ملاحى البرتغال « دياز وفسكودى جاما » بألفين من السنين أو أكثر .

وعرف البحر الأبيض المتوسط أول مدن عظيمة تشاد على شواطئه لعل أقدمها بيلوس أما أكبرها وأشهرها وأعظمها فمدينتا صور وصيدا .

ومن هذه المدن انطلقت حضارة الإنسان فى هـذه الحقبة على متن هذه السفن ذات الشراع الواحد ، والسبعين قدماً فى الطول لتطوف حول حوض البحر الأبيض المتوسط بمحاذاة شواطئه ، فلم تـكن البوصلة قد اخترعت بعد لتهدى الملاحين فى سيرهم ، وإن كان النجم القطبى فى الليل قد أصبح بعد قليل هادياً ومرشداً ، وأنشأ الفينيقيون المدن حيث ساروا فى جزيرة صقلية وفى سواحل إيطاليا ، وعلى شواطىء فرنسا ، وليست مرسيليا إلا أحد المواقع التى أسسها الفينيقيون ثم فى مالطه وكورسيكا ، حتى إذا وصلوا إلى أسبانيا التى كان يسكنها فى ذلك الوقت شعب ساذج بالنسبة للفينيقيين راحوا يغترفون ذهب القوم وفضتهم كما سيفعل الإسبانيون بعد عشرين قرناً بالنسبة لشعوب أمريكا الجنوبية . ومن أسبانيا عبر الفينيقيون مضيق الصخرة كما كان يعرف بهذا الاسم فى ذلك الوقت والذى سيسمى فيما بعد بجبل طارق وتابعوا رحلتهم بحذاء الشاطىء الأفريقى . . حتى إذا جاءوا إلى موقع تونس الفريد ، أنشأوا لهم كما هى عادتهم مركزاً تجارياً ومستعمرة ، وأطلقوا على هذا الموقع اسم قرطاجنه ، والتى سيكون مقدراً لها بعد بضعة قرون ، وبعد أن تزول فينيقيا كقوة سياسية فى شرق البحر الأبيض ، أن تـكون هى مركز القوة والسلطان والإشعاع فى هذا الجزء من حوض البحر الأبيض . ولقد كان الفينيقيون هم أول من أثبت أن الحضارة والمدنية تسير فى ركاب التجارة والتبادل التجارى ،

فقد وجدت آثار مصر، وآثار مصنوعاتها حيث ذهب الفينيقيون وهذا ما يفسر وجود الآثار المصرية فى الجزر البريطانية[١] .

على أن أعظم دين تداين به فينيقيا الحضارة الإنسانية إذا جاز هذا التعبير هو تبسيطها الحروف الأبجدية التى اخترعها المصريون ، وتحديد هذه الحروف بـ ٢٢ حرفاً فى صورة مبسطة مجردة سهلة الاستعمال ، ونشر هذه الحروف الهجائية فى حوض البحر الأبيض ، والإجماع بين الباحثين على أن الإغريق تلقوا هذه الحروف عن فينيقيا وعن الإغريق والفينيقيين إلى بقية شعوب البحر الأبيض .

(١) دورانت ، المصدر السابق ص ٢١٣ .

— ٢ —

مصر ترفع لواء التوحيد :

إذا كان الإنسان فى مصر قد رفع منذ عصر مبكر مشكاة الحضارة واللغة والكتابة والهندسة والطب والكيمياء وبقية الصنائع ، فقد كان مقدراً له ، وهو العريق فى تدينه كما رأينا ، أن يسهم بأوفر نصيب فى حضارة البشر الروحية ، عن طريق إطلاق أول دعوة لتوحيد الألوهية ، وتصوير الله بصورة زاهرة مشرقة تفيض بالخير والمحبة ، وتخلصها من أحابيل الكهان وخداعهم وطقوسهم ، وطلاسمهم .

وكان الإنسان الذى جاء يحمل للبشر هذا النور ملكا فرعونا ، وهو أمر لم يسبقه إليه سابق ، ولم يكرره من بعده التاريخ ، فالأنبياء الذين عرفهم البشر ، لا يمكن إلا أن يكونوا من عامة الشعب ، فما كان لملك يؤلهه الناس ويعبدونه فى أكثر الأحيان ، أن ينزل عن عرش الألوهية طائعاً مختاراً وأن يطلب من الناس الكفران به ، وعبادة الله الذى يعلو فوق الجميع ويسوى بين الناس .

ولكن أمنحوتب الرابع فرعون مصر (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق . م) كان هو الإنسان الفذ الذى أحدث هذا الحدث فى التاريخ . ولقد اعتبر امنحوتب الرابع الذى غير اسمه إلى أخناتون ، أى روح آتون فى نظر معاصريه من رعاياه ، كافراً ومجنوناً وملحداً ، بل اعتبر إنساناً مخرباً يحطم الإمبراطورية المصرية ، أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، والتى شادها تحوتمس العظيم (١٥٠١ — ١٤٤٧ ق . م) من خلال سلسلة المعارك الظافرة والانتصارات المجيدة التى بهرت العالم فى ذلك الزمان ، والتى ترتب عليها أن أصبحت رقعة مصر تشمل فلسطين وسوريا وفينيقيا وتصل إلى نهر الفرات وإلى جبال طوروس .

وبدلا من أن يتابع هذا الفرعون خطة آبائه وأجداده الذين بعثوا مصر

من جديد إلى مثل ما كانت عليه فى عهد الأهرام ويزيد ، إذ أصبحت الحياة أكثر غنى بالفنون ومظاهر الاستمتاع ، بدلا من أن يكثر من استجلاب الذهب والفضة من البلاد التابعة ويقر الأمن والنظام ويؤدب العصاة والمتمردين ممن تحدثهم أنفسهم بعصيـــــان فرعون مصر ، إذا هو يدعو هذه الدعوة (المنكرة !!) إلى السلام والمحبة والتساوى بين البشر تحت ظل إله واحد (آتون) روح الوجود وخالقه وسيد العالمين .

صلاة أخناتون :

ويناجى أخناتون ربه آتون بكلمات عذاب ، ما أكثر ما يقارنها الأوربيون المسيحيون بمزامير دواد[1] ، إذ يقول فى صلواته :

أنت خالق الجنين فى بطن أمه ، أنت خالق نطفة الإنسان ، أنت واهب الحياة للفرخ فى البيضة ، فإذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده وواثباً بقدميه .

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها ، أنت الإله الأوحد ، لا شريك لك فى الملك ، خلقت الأرض بإرادتك ، ولما كنت وحيداً فى هذا الكون ، فقد خلقت الإنسان والحيوان ، الكبير والصغير ، والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها . أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه ، وأنعمت عليه بحاجاته ؛ فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المحدودة . لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك » .

وهكذا نرى اسم السورى يذكر إلى جوار المصرى إلى جوار النوبى

---

(١) بريستيد ، تاريخ مصر القديمة (بالعربية) ص ٢٤٧ .

باعتبارهم جميعاً أبناء لرب واحد كان يطلق عليه اسم « سيد الحب » « الأب الكائن فى السماء » « الرحمن الرؤوف بعباده » .

وحيث كانت فينيقيا وأشور وشعوب الأرض فى ذلك التاريخ وبعده تتقرب لآلهتها بالذبائح البشرية ، وتقيم هيا كلها ومعابدها ضخمة جبارة « كمعبد الكرنك » ومعتمة مظلمة لتخلع قلوب البشر وتملأهم رهبة وخشية وروعة ، هاجر أخناتون من طيبة موطن عبادة آمون ، ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وارتحل شمالا وأنشأ عاصمة ديانته الجديدة فى تل العمارنة ، وأقام هيكلا عجباً للرب الواحد الأحد . . وكان الهيكل يتألف من ساحة كبيرة مكشوفة يغمرها نور الشمس نهاراً ، وتظلها كواكب السماء بالليل ، وفى بعض أجزائها سقائف وحجرات لسكنى الخدم ، وموظفى المعبد ، وفيما خلا مائدة القربان التى وضعت فى وسط الساحة ، لم يرتفع فى هذا المعبد تمثال أو نصب أو تابوت للرب ، وأحيط المعبد بعد ذلك بالحدائق الغناء التى استنبتت فيها أجمل الزهور والرياحين ، وأجريت فيها جداول الماء ، وأنشئت فيها أحواض لتسبح فيها الطيور ذات الريش الجميل والدواجن من بط وأوز ، ذلك أن الأزاهير والطيور والمياه والحيوانات والأشجار ، كلها كائنات تسبح بحمد الرب الخالق ، وتشهد ببديع صنعه وعظيم آلائه[1] .

ذلكم هو أخناتون أول دعاة توحيد الألوهية ، وتساوى البشر وتآخيهم فى تعاون وسلام ومحبة .

الثورة ضد أخناتون :

وغنى عن البيان أن هذا الصوت الإلهى الرفيع قد بدا كما ذكرنا فى ذلك الوقت شاذاً وغريباً ، فلا عجب إذا ثار عليه كهنة آمون الذى كان هذا الدين

---

(١) بريستيد ، تاريخ مصر القديمة ، ومن وحى الجنوب (للمؤلف) .

الجديد يقوض سلطانهم، وينزلهم عن عرشهم، وساعدهم على ثورتهم تمرد الشعوب فى سوريا وفينيقيا وفلسطين، وبدلا من أن يرسل لهم اخناتون عجلاته الحربية كما فعل تحوتمس من قبل وكما سيفعل رمسيس من بعده، أرسل إليهم هداة يدعونهم إلى الدين الجديد، دين الرحمة والحب والمساواة. وكانت هذه دعوة سابقة لأوانها فى هـذه العصور الخشنة فعمت الثورة أرجاء مصر، ومات إخناتون أو قتل على يد كهنة آمون والشعب الثائر، وأسرع خلفه توت عنخ آتون فتبرأ من اسم آتون ولاذ من جديد بآمون وأصبح اسمه «توت عنخ آمون» كما خف سريعاً إلى طيبة مقدماً القرابين لإلهها آمون. وإن الإنسان ليحار . . . أهى محض صدفة أم هو تخطيط معين من القدر، أن يكون توت عنخ آمون هذا هو الذى يقدر له أن يهز وجدان العالم هزاً فى القرن ...رين، وتبعث ذكرى إخناتون ودعوته إلى التوحيد، عند ما اكتشفت ...ته لأول مرة عام ١٩٢٤، فروع العالم ومازال يروع بأعظم كشف أثرى ... التاريخ، جعل حضارة مصر القديمة، وفنون مصر القديمة، وغنى مصر ...يمة، على كل لسان فى العالمين.

الديانة العبرية وبنو إسرائيل :

وقد حاول الكثيرون أن يربطوا بين دعوة إخناتون، ودعوة العبرانيين المتأخرة إلى التوحيد، باعتبارها جاءت فى الترتيب الزمنى بعد دعوة إخناتون، ولكن المطالع لكتاب العهد القديم (التوراة) الذى يتخذه اليهود كتاباً مقدساً، لا يجد مصداق هذا الرأى، بل يجد عكسه على خط مستقيم (فيهوه) إله اليهود (الخاص بهم) أو إله إسرائيل كما يلقبونه، يسمى دائماً «رب الجنود» وهو رب دموى كأى إله من الآلهة الوثنية فى ذلك الوقت، يطالب أتباعه بإبادة جميع الشعوب التى تعترض سبيلهم، بنفس أسلوب اشوربانيبال، وبنفس الأسلوب الذى سوف يتبع مع اليهود على مر العصور.

ولعل ما هو أغرب من ذلك كله فى وصف هـذا الرب الإسرائيلى (الخاص بهم) أنه محدود القدرة ، وهو غير معصوم عن الخطأ ، وهو يندفع فى ثورته وغضبه ، فيزجره موسى قائلا « ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر لشعبك — فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه »(١) .

والمطالع لـكتاب العهد القديم ، الذى حوى تاريخ اليهود على مر السنين ، يصادفه من أمثال ذلك ما يدهش ويبعث الاستنكار فى النفس ، ولـكنه مع ذلك قد أخذ مكاناً كبيراً فى دنيا التاريخ والأدب والحياة الروحية لبنى الإنسان، إذ قدر للمسيح فيما بعد أن يخرج من هذا الشعب . وأياً كان الرأى فى العهد القديم ، فهو يمثل أقدم كتاب متداول يضم بين دفتيه علوم العالم القديم ومعارفه وحضارته ، كما كانت تتمثل فى أرض مصر وأشور وبابل وفارس وفلسطين وفينيقيا وسوريا .

الوصايا العشر :

وقد اشتهرت الديانة اليهودية بوصاياها العشر التى دعا إليها موسى بعد إخراجه اليهود من مصر حوالى عام ١٢٠٠ ق. م، باعتبارها وصايا الله لشعبه إسرائيل . فهى أول تعاليم سماوية لا يزال يتعبـد بها حتى الآن بين طائفة اليهود وإليك نصها .

١ — أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من دار العبودية فلا يكن لك آلهة أخرى تجاهى .

٢ — لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من أسفل ولا مما فى المياه من تحت الأرض .

---

(١) سفر الخروج ، الفصل الثانى والثلاثون ، ١٣ ، ١٤ وانظر أيضا ، دورانت ، جزء ثان مجلد ١ ، ص ٣٤١ وعبد الله التل ، خطر اليهودية العالمية .

٣ — لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يزكى من يحلف باسمه باطلا .

٤ — اذكر يوم السبت لتقدسه .

٥ — أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك .

٦ — لا تقتل .

٧ — لا تزن .

٨ — لا تسرق .

٩ — لا تشهد على قريبك شهادة الزور .

١٠ — لا تشته بيت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك .

ولقد اعتبر بنو إسرائيل دائماً هذه الوصايا خاصة بهم فى علاقتهم ببعضهم باعتبارهم شعب الله المختار ، أما فى علاقتهم ببقية الشعوب فهم فى حل من تطبيق هذه الوصايا . ولم تتجه العقيدة اليهودية نحو التوحيد بمعناه الذى نفهمه إلا فى القرن الخامس ق . م على يد أشعيا الثانى .

وهـذا ما يجعلنا نخالف القائلين بأن الديانة اليهودية قد تأثرت بدعوة إخناتون .

زرادشت نبى النور وعدو الظلام :

والرأى الذى نرجحه ، أن تطور الديانة اليهودية نحو صورة أصفى وأكمل

من التوحيد فى القرون المتأخرة ، قد جاء فى خلال فترة أسرهم فى بابل[١] ، حيث كان إلى الشرق منها قد بدأ دين جديد يغمر فارس التى كانت تدعى فى ذلك الوقت ميديا ، ويدعو إلى مبادىء سامية وإلى تصور أكثر رقياً لماهية الله الخالق ونسبته إلى النور ، وإن كان هذا الدين لم يرق إلى مستوى التوحيد الكامل وجنح إلى الثنائية ، بفكرة أن إله الظلام يواجه إله النور ، والشر يواجه الخير ، فكان بذلك سابقاً لكل الذين جاءوا من بعده محاولين تفسير الطبيعة من خلال الثنائية . . . أو بالأحرى من خلال المتناقضات (الديالكتيك) وكان صاحب هذا الدين الجديد هو زرادشت كما سمى بلغة الفرس الحديثة أو زورواستر كما سماه الأغريق فيما بعد ، حيث يحتل الحديث عنه مكاناً بارزاً فى تاريخ هيرودوت .

وقد حدد الإغريق لحياة زرادشت تاريخاً سابقاً على تاريخهم بخمسة آلاف سنة ، ولكن مؤرخاً بابلياً قرب هذا التاريخ إلى ألفى عام ق . م . أما المؤرخون المحدثون الذين يعتمدون على البحث والتنقيب فيحددون تاريخ زرادشت فى فترة تتراوح بين القرنين العاشر والسادس ق . م[٢] .

أهورا مزدا الإله الحق :

ولقد وجد زرادشت قومه يعبدون آلهة شتى هى آلهة الهنود من قبلهم ، ويختلف الرأى هل الهنود من الفرس ، أم الفرس من الهنود ، ولكن المحقق أن الاثنين يضمهم الأصل الآرى الذى يعتبر كتاب الفيدا المقدس هو أقدم كتاب دينى له ، وكتاب الفيدا يتحدث عن عشرات الآلهة . . . آلهة لكل شىء ولكل قوة وظاهرة طبيعية — بل إن فى الفيدا نصوصاً تتحدث عن مئات الألوف من الآلهة ، وعلى هذه الحالة وجد زرادشت قومه وهم عاكفون

---

(١) كان نبو خذناصر ملك بابل قد دمر مدينة أورشليم عاصمة اليهود وساقهم جميعاً أسرى إلى مدينة بابل فى القرن السادس قبل الميلاد .

(٢) دورانت ، قصة الحضارة ، جزء ٢ مجلد (١) ص ٤٢٥ .

على النصب والتماثيل والأصنام من كل شكل ولون وطراز فأنكر عليهم ذلك كل الإنكار ودعاهم إلى عبادة الإله الحق الواحد الأحد « أهورا مزدا » إله النور ، وكما خاطب إخناتون آتون روح الشمس المشرقة ، فكذلك فعل زرادشت فراح يخاطب مزدا بالعبارات التى تفيض بالإجلال والتعظيم :

« من ذا الذى رسم مسار الشموس والنجوم يا أهورا مزدا ، من الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ، من ذا الذى رفع السماء ووضع الأرض من تحتها ، من ذا الذى أمسك السماء أن تقع ، من ذا الذى حفظ المياه والنباتات ، من ذا الذى سخر للرياح والسحب سرعتها ، من ذا الذى أخرج العقل الخير يا أهورا مزدا ؟ »[1] .

وكان لأهورا مزدا سبعة مظاهر أو سبع صفات وهى : النور والحق والخير والخلود والعقل الطيب والتقوى والسلطان .

أهريمن إله الشر :

وفى مواجهة أهورا مزدا الذى كان يمثل فى الحياة كل ما هو حق وخير وعدل وحسن ، كالصحة والعافية البدنية والعلم والمعرفة ، والبناء والإنشاء والتعمير ، والخصوبة والنظافة ، والحب والأمن والسلام ، والوفاء والصدق والإخلاص ، يقف أهريمن قوة الظلام والشر ليحدث فى الدنيا كل ما هو حزين وكئيب وضار ومؤذ ومعتم ؛ فالمرض والجذام والوباء والموت والدمار والخراب والظلم والحشرات المؤذية ، والجراد والقمل والجرب والقحط والليالى المظلمة ، والشتاء القارص ، والفقر والخطيئة ، كل ذلك من صنع أهريمن إله الظلام والشر ؛ وأصبح جوهر دعوة زرادشت لأتباعه الصالحين أن يقفوا إلى جوار أهورامزدا إله النور لينصروه على إله الشر بالقيام بالأعمال الصالحة بالبناء والإنشاء والتعمير ؛ بالحب بالسلام بالرحمة ، ولننقل الآن بعض فقرات من كتاب

(١) دورانت ، قصة الحضارة ، جزء ٢ مجلد (١) ص ٤٢٨ .

زرادشت المسمى « ألأفستا » لنرى إلى أى حد وصل الإنسان فى القرن العاشر قبل الميلاد فى بلاد فارس إلى التعلق بالمثل العليا فى الأخلاق والفضيلة والمعاملات .

« إن من يزرع الخير إنما يزرع القداسة — إننى ألعن الشيطان أهريمن ، وأقور عبوديتى لمزدا ، وتبعيتى لزرادشت ، وعدوانى للشياطين وتمجيدى للملائكة . إننى أحرم السرقة وخطف المواشى ، وأحرم النهب والعدوان على قرى المخلصين لمزدا ، وأحترم حق أصحاب البيوت فى احترام مساكنهم وحرية إدارتهم ليعيشوا مع قطعان ماشيتهم ، إننى أقسم ويدى مرفوعة مخلصاً طائعاً ، أننى لن أسلب ، ولن أعتدى منذ الآن على الجماعات المؤمنة بمزدا ، ولن أحاول البتة أن أنتقم منهم انتقاماً جسدياً أو دموياً » .

« ليكن فى هذا البيت انتصار الطاعة وهزيمة العصيان ، ليسد فيه الحق والصدق ضد الكذب ، ليفشو بين جنباته السلام والأمن ، لا النزاع والشجار والقلق ، ليتصف بالكرم لا البخل ، والتواضع لا الكبرياء ، لتكن العدالة لا الظلم شعاره »[1] .

وإذا كان دين زرادشت قد حرف فيما بعد ، واعتبر بمثابة دين لعبادة النار التى كانت توقد فى المعابد رمزاً على النور ، فهو فى رأى الكثيرين من الدارسين فى الأديان يمثل صورة من أبهى صور العبادة :

الحضارة الفارسية :

ولا عجب وهذه تعاليم الدين ومبادئه ، دعوة قوية إلى البناء والتعمير ومحاربة التخريب والفساد ، فلا عجب إذا كان نقطة انطلاق لبلاد فارس ، فإذا هى فى هذه الحقبة من التاريخ تطلع على الوجود كأعظم قوة عرفها البشر حتى ذلك العهد ، لاتقف عند حد الرقعة التى وصلت إليها الإمبراطوريات التى سبقتها

---

(١) فى الإيمان والإسلام للمؤلف ، ص ١٨ .

(مصر — وبابل وأشور) والتى ضمت فى أوسع مناطقها الرقعة من الأرض الممتدة من الخليج الفارسى حتى شاطىء البحر الأبيض وضفاف النيل ، بل لقد امتدت جنوباً لتشمل حوض السند ؛ وشمالا لتشمل القوقاز ومنطقة بحر قزوين .

ولمع فى سماء التاريخ اسم كورش الملك العادل الرحيم [١] وخلفه قمبيز ابنه الذى لم يستطع أن يصل إلى شأو أبيه فى الاتزان والعدل والرحمة . وإن كان قد استطاع أن يدخل إلى مصر غازياً . ومن بعدهما جاء دارا الأول أو دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) والذى كان مقدوراً له أن يبدأ سلسلة الحروب والمعارك التى دارت مع هذه القوة الجديدة الوليدة قوة الإغريق ، والتى قد حان الوقت لنتحدث عنها منتقلين بذلك إلى الحديث عن أوربا التى بدأت تدخل التاريخ ، ولكن آسيا ما تزال تشدنا شداً وما زال فى هذا الحديث بقية . . . وما زالت كواكب من البشر أظلت العالم فى القرن السادس ق . م تزين صحف الحضارة الإنسانية أجمل تزيين .

الهند :

تاريخ الهند القديم ، هو من أغمض التواريخ حيث يلفه الضباب كهذه السحب التى تملأ سماء الهند ، ولم تترك الأمطار الغزيرة قديماً آثاراً فى الجنوب ، وليس إلا فى الشمال الغربى ، عند حوض نهر السند حيث اكتشفت آثار فى (موهنجودارو) التى يرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ ق . م ولم يحدد المؤرخون حتى الآن مدى علاقتها بحضارة بلاد ما بين النهرين ، من حيث أسبقية إحداهما على الأخرى ، وعندما ينقشع الضباب عن تاريخ الهند ككل ، نجد أنفسنا فى الفترة من عام ١٢٠٠ — ٨٠٠ ق . م حيث يسيطر الجنس الذى يسمونه بالآرى على بقية الأجناس الهندية ، مخلفاً لنا كتب الهند المقدسة (الفيدا) والمكتوبة باللغة

---

(١) يقدس اليهود ذكرى كورش لأنه كان هو المنقذ الذى أنقذهم من أسر بابل وأعادهم إلى بيت المقدس .

السنسيكريتية ، حيث العشرات والمئات والألوف من الآلهة كما أشرنا من قبل ، وحيث الأسماء التى تقابلنا فى ديانة الفرس القديمة ، وتقابلنا عند الإغريق والرومان والقبائل (النوردية) فى شمال أوربا ، وقبائل الجرمان وغيرها من أمثال اندرا (إله الهواء) وأجنى (آلهة النار) وسوما (آلهة الخمر) وفارونا حامى نظام الـكون .

ويطالعنا هذا المجتمع الهندى الفريد فى تـكوينه من حيث انقسامه إلى طبقات (متحجرة) لا يجوز لأى من المنتمين إلى واحدة منها أن يتجاوزها إلى الطبقات الأخرى فضلا عن أن يتزوج بمن ليس من طبقته ، إذ أن مثل هذا الزواج لاينجب إلا ملعونين مذمومين وهم المنبوذون والأنجاس . أما هذه الطبقات فهى طبقة (البراهما) أى الـكهنة وهى أرقى الطبقات ثم تليها (كاشتريا) طبقة المحاربين والنبلاء . ثم الطبقة الثالثة (الويش — أو الفازيا) وهى تشمل أرباب المهن والحرف والزراع ، وأخيراً طبقة (الشودرا) وهم الخدم وأرباب المهن الدنيا والحقيرة .

والرأى الراجح أن هذه الطبقة الأخيرة هى أول من عزلهم الآريون لسواد لون جلدتهم .

وليس لهذا التقسيم الطبقى أى أساس من الدين الهندى القديم كما قد يتصور البعض ، فليس فى كتب الفيدا ما يشير إليه . وليس يتسع المجال للافاضة فى الحديث عن دين الهند ، الذى لا تقوم حياة الهند فضلا عن حضارتها إلا عليه ، فهو من الأمور المستعصية التى أعجزت الباحثين عن الإلمام فضلا عن الإحاطة به[1] .

على أن الديانة الهندوكية لا تـكاد تذكر إلا ويتبادر إلى الذهن على الفور الأصلان الجوهريان اللذان تقوم عليهما :

(١) أمة تبعث ، للمؤلف .

١ — وحدة الوجود .

٢ — عقيدة تناسخ الأرواح .

فأما وحدة الوجود فتتلخص فى أن ليس هناك إله خالق وكون مخلوق ، وإنما هو إله واحد فاض منه الكون بكل أجزائه ، فليس فى الوجود إلا الله ... وكل ما تقع عليه العين هو مظهر الوجود الواحد ، لا الأرض والسموات والأشجار والغابات فحسب ، بل وكذلك الإنسان والحيوان أو كما جاء فى الجيتا : العارف الذى يعبد الله ، يرى الكثرة فى الوحدة ، والوحدة فى الكثرة ، وأينما يتولى يرى وجه الله ، إنه تعالى فى كل شىء وهو الحى الذى لا يموت وهو الرب الذى يقوم به كل شىء[1] .

وهذا الفكر الذى سبق به الهنود ، لا يفتأ يقابلنا فى كل زمان ومكان عند مختلف الأمم والشعوب ، ومئات وألوف من الفلاسفة والمفكرين ، وما بعض متصوفة المسلمين إلا من معتنقى هذا المبدأ على وجه التحقيق ، حيث يقول لنا الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

إنى مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود ... أنا الحق .

وتصادفنا ذات الفكرة عند المسيحيين والعدد الكبير من كبار مفكريهم وفلاسفتهم .

عقيدة التناسخ :

أما فكرة الهندوكية الثانية وهى تنبثق من فكرة وحدة الوجود ، فهى عقيدة التناسخ التى تتلخص فى أن روح الإنسان تتقمص بعد وفاته ، صورة

(١) أمة تبعث ، للمؤلف .

جديدة وشكلا جديداً تبعاً لأعماله ، فإن كانت أعمالا خيرة تقمصت روحه جسد إنسان من طبقة أعلى ، أما إن كانت أعماله شريرة ، فقد تتقمص روحه جسد حيوان مفترس كذئب ، أو ثعبان أو عقرب يلعنها بنو الإنسان ويطأوها بالنعال .

وكانت فكرة التناسخ هذه وأبديتها تعتبر أعظم لعنة يعيش فيها الإنسان ، ولذلك فقد قيل إن الإنسان إذا أحرقت جثته بعد موته وألقى بها فى مياه الكنج ، توقفت عملية التناسخ ونعم بالراحة الأبدية . . . ولكن ذلك ظل أمراً مشكوكا فيه .

ثم جاء بوذا :

ثم كان بوذا . وشخصية بوذا لا يمكن أن توضع إلا فى صف أصحاب الرسالات الكبرى فقد أحدث أثراً فى حياة مئات الملايين من البشر ولا يزال يحدث حتى الآن .

ومع ذلك فقد خلت تعاليم بوذا عن الحديث عن الله ، ولم يجعل تعاليمه إلى الإنسان أوامر صادرة لبنى الإنسان من الله بل صادرة منه شخصياً ، ولقد اشتهر عنه قوله :

« لست أعرف شيئاً عن سر الإله ، ولكنى أعرف أشياء عن بؤس الإنسان » . وربما استطعنا أن نفسر ذلك بأنه اكتفى بما جاء فى الفلسفة الهندوكية من كلام كثير فى هذا الموضوع ... وأنه أراد أن يضع مبادىء لسلوك الإنسان لتخلصه من الألم فى هــذه الدنيا ، وتضع حداً للعنة التناسخ الأبدى ، بإيصال الإنسان إلى حالة « النرفانا » التى ترمز للنعيم الأبدى .

ومن عجب أن بوذا ، الذى لم يقل شيئاً عن الله ، قد تحول هو نفسه بعد موته إلى إله تشاد له المعابد والهياكل ، وتقام له النصب التى يتقرب إليها أتباعه بالقرابين والتقدمات باعتباره المعلم الأكبر وروح الوجود والكون .

قصة بوذا :

ويشبه بوذا أخناتون إلى حــد ما من ناحية أنه ولد فى بيئة السلطان والنفوذ ، فقد كان ولى عهد لأبيه أمير إحدى ولايات الهند الشمالية ، وقد عاش بوذا حياته الأولى كما يحيا أمثاله من الأمراء العاطلين المدللين ، حيث لا هم لهم إلا الاستمتاع بالحياة . وعندما أدرك التاسعة عشرة من عمره تزوج من ابنة عمه الأميرة الجميلة ، التى لم تلبث أن أنجبت له غلاماً ذكياً .

وقد حدث أن خرج بوذا ذات يوم من الأيام فى مركبته التى يسوقها أحد أتباعه ، فإذا نظره يقع لأول مرة على رجل عجوز قد أثقلت السنون كاهله فراح يدب وقد انحنى ظهره فى صورة مؤلمة ، فانزعج لمرآه . . . بينما قال له سائق عربته « هذا يا مولاى هو طريق الحياة » فعاد بوذا كئيباً وقد عزف عن نزهته .

حتى إذا عاود الخروج مرة ثانية ، إذا نظره يقع على إنسان شحاذ قد هرأه الجوع والذل وشوهه البرص . . . فازداد فزع بوذا وجزعه بينما كان سائقه يقول له :

« وهذا أيضاً طريق الحياة يا مولاى »

فانطلق بوذا وقد استبد به الذعر ، فإذا هو يرى جثة عارية ملقاة على الطريق وقد جفت وتنتنت ، وإذ أوشك أن يغمى على بوذا من هذا المنظر كان صاحبه سائق العربة يهمس له « وهذه يا سيدى هى نهاية الحياة » .

وبدأت قصة بوذا ، فقد قرر أن يهجر القصر وحياة السلطان والبذخ ، وأن يكرس نفسه للبحث عن حقيقة الحياة ، فخرج من قصره ، حتى إذا صادف أول متسول تبادل معه ملابسه الثمينة بأسماله البالية ، وراح يضرب فى بيداء الأرض هائماً ، جائعاً شريداً ، معذباً نفسه ، مما هز قلوب البعض فرأوا فيه

أستاذاً ومعلماً فتبعوه وهم يبكون من فرط ألمهم على ما يفعله بنفسه وقد سلك طريق بعض النساك والبراهمة ، عندما يفرطون فى إجاعة الجسد وتعذيبه أشد العذاب للوصول إلى المعرفة . ولكن ذلك لم يجد بوذا شيئاً سوى اضطراب حياته وتشويش فكره ، ففاجأ أصحابه الملتفين حوله ذات يوم بأن طلب منهم الطعام والشراب ، فأصابهم ذلك بخيبة أمل شديدة ، وتفرقوا عن هذا الإنسان الذى ضعف وعاد إلى فتنة الجسد . . إن بوذا ليس هو القديس الذى تصوروه إنه يأكل ويشرب كبقية الناس .

وفى ذات ليلة بينما كان بوذا يعيش وحيداً يكافح الشك والقلق فى الغابة تحت إحدى الأشجار « التى أصبحت خالدة » إذ هبطت عليه سكينة عظيمة غمرت قلبه . وعندما استيقظ فى الفجر لم يكن هو جوتاما الذى كان بالأمس ، بل بوذا أى المتنور ، ذلك أن الحقيقة قد انكشفت له فأدرك سر الآلام التى يتكبدها البشر ، وعرف أسبابها وطريق علاجها . فطلع على الناس بتعاليمه الخالدة التى تهز النفس أياً كان تفكيرها ، وكانت عقيدتها وكان إيمانها .

لخص بوذا تعاليمه فيما أسماه « الحقائق النبيلة الأربع » :

الحقيقة الأولى : **الحياة ألم** — منذ يولد الإنسان حتى يموت والأكدار تلاحقه والآلام تسيطر عليه .

الحقيقة الثانية : **سبب الآلام** — رغبات الإنسان وشهواته سواء كانت مادية أو معنوية ، فليست الرغبة سوى نار تحرق صاحبها ، وكلما تحققت الرغبات ولدت رغبات جديدة أكثر اشتعالا ، فكأنها النار يصب عليها البترول .

الحقيقة الثالثة : **إيقاف الألم** — عن طريق التحرر والخلاص من الرغبات « وهذا هو جوهر البوذية »

الحقيقة الرابعة : **كيفية منع الألم** — وتتلخص فى ثمانية مبادىء .

١ — الإدراك الصحيح للحقائق الأربع .

٢ — الأهداف الصحيحة — بالتخلى عن الملذات وعدم إضمار الحقد أو الحسد أو الكراهية أو رغبة الإيذاء .

٣ — القول الصحيح — الابتعاد عن كل زور وبهتان فى القول وعن السب والإهانة وكل ألفاظ خشنة أو ثرثرة فارغة .

٤ — السلوك الصحيح — وهو يتناول فضائل الحياة مع الضغط على التحذير من القتل ، وأخذ ما ليس من حق الإنسان وكل صنوف الاستهتار أو التحلل والاستغراق فى الشهوات .

٥ — الجهد الصحيح — وفى هذا المبدأ يقول بوذا « لسنا فى الحقيقة سوى ثمرة لما يعتمل فى تفكيرنا — وعندما يتكلم الإنسان ، أو يتصرف بفكرة شريرة فإن الألم يتبع ذلك على الفور — وإذا تكلم أو تصرف بأفكار خيرة فإن السعادة تتبع ذلك كما يتبع الظل الشىء دائماً .

٦، ٧ — العقلية الصحيحة — ويندرج تحتها — ضبط النفس ، ويقول بوذا فى شرح هذا المبدأ . إذا كان هناك رجل قد انتصر على ألف رجل فى ألف معركة — وثمة رجل قد انتصر على نفسه ، فإن هذا الأخير هو أعظم الرجلين[1] .

٨ — النشوة الصحيحة — وتلك هى ختام المراحل التى لا يحصل عليها الإنسان إلا من خلال التأمل والتفكير العميق للوصول إلى الإشراق الروحى ، فيصبح الإنسان حراً من كل العواطف التى تربطه بالحياة ، ويدخل بذلك إلى حالة السكينة والسلام سكينة « النرفانا » .

---

(١) ما أشبه هذا القول بقول سيدنا محمد إذ عاد من إحدى الغزوات « عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس » .

وهكذا ، قبل أن يطلع على الدنيا يسوع المسيح حاملا للدنيا رسالة الحب والسلام والزهد والتواضع ، كان بوذا قد سبقه إليها بستة قرون . وإذا كان يسوع المسيح قد ترعرع فى بيت صغير متواضع ، هو بيت يوسف النجار ، فإن ذلك يتسق مع ثورته بعد ذلك على المال والغنى والسلطان ، ولكن غير المتسق والذى يخالف طبائع الأشياء ، أن يكون بوذا ، سليل الملوك ، والمترعرع فى بيئة الغنى والعز والسلطان ، هو الداعى لهذه المبادىء المتجردة السامية العجيبة ، فلا عجب وهذا شأنه أن يؤثر كل هذا التأثير العجيب ، ولايزال يستولى على أفئدة المئات والألوف من كبار المفكرين والفلاسفة من رجال أوروبا وأمريكا حتى فى هذا العصر الحديث[١] .

الملك أشوكا والحضارة البوذية :

وكما أنتجت تعاليم زرادشت ملكا حضارياً عظيما ، فكذلك كان شأن تعاليم بوذا ، فقد شقت طريقها فى خاتمة المطاف إلى قلب أحد ملوك الهند وهو « أشوكا » فأعلن على رؤوس الأشهاد عهده أن ينبذ روح العسكرية والجندية ، وأنه لن يحارب بعد اليوم ولن تعرف الدنيا على يديه سوى السلام وأنه سيكرس حياته لنشر التعاليم البوذية . ذلكم هو أشوكا الذى امتد سلطانه على شبه الجزيرة الهندية كلها ابتداء من أفغانستان حتى طرفها الجنوبى ، مكوناً بذلك أول وحدة هندية يعرفها التاريخ عام ٢٥٤ ق . م وقد استمر حكم أشوكا ٢٨ سنة تعتبر من أزهى صفحات التاريخ الإنسانى بأكمله ، فقد أوقف حياته على التعمير ، فنظم جماعات لم يكن لها عمل إلا حفر الآبار فى طول الهند وعرضها ، وجماعات لتغرس الأشجار التى تزود الناس بالثمار والظل ، وأنشأ المستشفيات ونظم مزارع خاصة لإنبات الأعشاب الطبية لمداواة المرضى ، وأنشأ

---

(١) يعتبر تولستوى أعظم كتاب الروس من المتأثرين بالمبادىء البوذية ، أما غاندى فهو تلميذه فى دعوته إلى عدم العنف .

ما يمكن أن نسميه وزارة خاصة للعناية بمنكوبى النظام الطبقى فى الهند ، وهيأ السبيل لتعليم المرأة ، وأعاد تنظيم جماعات الرهبان البوذيين ، ودعاهم إلى تخليص العقيدة البوذية من الخرافات والإضافات والانحرافات ، داعياً إياهم من جديد للعودة إلى بساطة تعاليم المعلم الكبير . وأوفد البعثات تبشر بدين بوذا ، دين المحبة والسلام وكراهية العنف إلى أرجاء العالمين ، إلى كشمير وسيلان وفارس . . . بل وإلى مصر ، أو بالأحرى عاصمة مصر وعاصمة الدنيا آنذاك ونعنى بها مدينة الإسكندرية[١] .

وكونفشيوس فى الصين :

ولا يكاد بوذا يذكر كأحد معلمى الإنسانية ، حتى يذكر كونفشيوس على الفور والعكس بالعكس ، فإلى الشمال الشرقى وإلى الشمال من الهند تقع هذه البلاد العظيمة الرهيبة التى تكاد تؤلف ربع الدنيا . فكأنها نصف آسيا تقريباً على مر الأيام والعصور ، ومساحتها كقارة أوربا تقريباً ومع ذلك فهى تضم شعباً واحداً ، يتكلم بلغة واحدة ، ويكتب بطريقة واحدة وله طباع وعادات واحدة ، بالرغم من أن عدد القوم يناهز السبعمائة مليون ، فلا عجب وهذا شأن الصين أن يكون تاريخها ضارباً فى القدم إلى أبعد ما يصل إليه الإنسان ، وإذا كنا قد استلهمنا فكرة القدم مما توجد عليه الهند وشعوبها من اختلاف فى اللغات والأشكال والألوان ، فإن فكرة هذه الوحدة الصينية الفريدة المثال ، يمكن بدورها أن تكون الوجه الثانى للقدم ، وكيفما كان الأمر فإن بقايا « إنسان بكين » التى عثر عليها جعلت علماء الأركيولوجى يقررون أن حضارة العصر الحجرى الأوسط ، قد وجدت فى الصين منذ عشرين ألف سنة ، وأرجح الآراء اليوم تعتقد أن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف سنة متواصلة غير منقطعة ، وهى ظاهرة قل أن توجد فى مكان على ظهر الأرض

---

(١) دورانت ، قصة الحضارة .

غير الصين « باستثناء مصر القديمة » فلا عجب وهذا شأن الصين أن تفتن عقول المفكرين والعلماء والحكماء لا فى العصور القديمة فحسب عند ما زارها ماركوبولو وابن بطوطة وقالا عنها ما قالا ، بل فى العصور الحديثة جداً ، فى عصر النهضة الأوربية العارمة فى القرن الثامن عشر ، فهذا فولتير يقول لنا :

لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر فى القوانين أو العادات ، أو اللغة ، أو فى أزياء الأهلين ، وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو فى الحق خير ما شهده العالم من نظم .

وقال الكونت كيسرلينج بعد أن توفر على دراسة حياة الصينيين وتاريخهم عن كثب فى كتاب له يعد فى رأى الثقات أغزر الكتب علماً :

« لقد أخرجت الصين القديمة ، أكمل صورة من صور الإنسانية وكانت فيها صورة مألوفة عادية ، وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله ، وإن عظمة الصينيين لتتملكنى وتؤثر فى كل يوم أكثر من ذى قبل ، وإن عظماء تلك البلاد ، لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ، وإن أولئك السادة لهم طراز سام من البشر وسموهم هذا يأخذ بلبى . إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ، وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ، ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم »[1] .

ولن أزيد فى هذه العجالة عما ساهمت به الصين فى حضارة البشر منذ العهود القديمة ، أكثر من أن أذكر القارىء العزيز أنه قد يتلفظ اسم الصين ومنتجات الصين أكثر من عشرات المرات كل يوم ، وهو يتحدث عن حاجاته الأساسية ، فأطباق الطعام « الصينى » إنما ترمز لهذا التراث الجميل الذى قدمته

---

(١) دورانت ، الجزء الرابع ، مجلد (١) ص ٩ .

الصين للبشرية وهو الخزف الأبيض المنقوش الذى يعتبر أنظف وأصح إناء ، لا ليأكل فيه الإنسان فحسب ، بل وليضع فيه مختلف المواد الطبية وهو آمن عليها من التلوث .

وعند ما تطلب كوبا أو فنجاناً من الشاى ، كأجمل وألذ ما تشرب الإنسانية من مشروب جميل صحى ، فنحن نبارك من حيث لا ندرى الصين التى قدمت لنا هذا المشروب والمشتق اسمه من اسمها ، وعند ما تختال عرائسنا فى ثوب العرس المصنوع من الحرير الطبيعى ، أو يخب رجالنا فى أقمصتهم الحريرية كأنخم ما يمكن أن يلبسوا ، فليس ذلك بدوره إلا من مبتدعات الصين ، وعندما نستطيب طعم الأرز كأنخر طعام ، فلا يجب أن ننسى أنه بدوره من هدايا الصين .

وعندما نؤرخ لانتشار الثقافة والعلوم بعد اختراع الطباعة والورق الحديث ، فيجب أن نقدم شكرنا للصين ، فقد كانت بلا جدال أو شبهة مخترعة الطباعة ومزاولتها على أوسع نطاق قبل أن يصنع جوتنبرج آلة طباعته الأولى فى ألمانيا بعدة قرون . بل وحتى عند ما نتحدث عن حروبنا الحديثة . . . وكيف تحولت من حروب محددة تدور بين الفرسان ، إلى حروب شاملة مخربة مدمرة ، فقد كانت الصين هى مصدر البارود ومكتشفته . وعند ما تروعنا الصواريخ الصاعدة إلى السماء ، فإن الصين ترد على الفور كأقدم صانعة للصواريخ ؛ وعندما نقرر أن الكشوف الجغرافية الحديثة عبر البحار ما كانت لتتم بغير « البوصلة » فعلينا أن نذكر فضل الصين . وهكذا صنعت الصين مئات الحاجات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية والعلمية ، ويتصورها الكثيرون من نتاج أوربا ، أو من صنع التطور الحديث وهى ليست فى حقيقتها إلا من صنع الصين وإنتاجها ، سبقت بها البشرية الحديثة بالعديد من القرون ، فالتعامل بأوراق النقد ، ونظام البنوك والتأمين ، وتحقيق الشخصية والسفن الكبرى من عابرات المحيط ، كل ذلك من صنع الصين منذ عصر مبكر .

كونفشيوس :

ولا يكاد اسم الصين يذكر ، إلا ويرد على الفور اسم كونفشيوس الذى كان أول من كتب تاريخها ، وحفظ تراثها القانونى والأدبى ، ثم رسم طريق السلوك فى الحياة لكل خلية من خلايا المجتمع ابتداء من الصبى الصغير حتى الملك الكبير ، فى العسر مثل ما فى اليسر ، فى الصحة مثل ما فى المرض ، فى الحرب والسلام على السواء ، للرجل مثل ما للمرأة ، للعالم مثل ما لغير المتعلم . والإجماع منعقد على أن أعظم رجل صبغ ويصبغ حياة الصينيين منذ خمسة وعشرين قرناً هو كونفشيوس .

وليس كونفشيوس نبياً ولا هو قديس ، بل وليس من طراز بوذا الباحث عن سلام النفس وخلاصها من خلال الزهد والتجرد . . وإنما هو معلم بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، هو مدرس ومعلم وسياسى ، وهو فيلسوف بالقدر اللازم لإحسان سياسة الفرد والجماعة والدولة . وقد كان ذلك شأن الصينيين دائماً ، فلم يشغلهم ما وراء الطبيعة بقدر ما أهمتهم وشغلتهم هموم الدنيا ومشكلاتها ومحاولة التغلب عليها . ويمكن اعتبار كونفشيوس أعظم من كتب فى سياسة الأمم والجماعات ووضع القواعد التى يراها مؤدية لسعادة الجنس البشرى . وقد رسم بكل تفصيل ودقة كل ما ينبغى للفرد ، كل فرد ، أن يحصله ويتعلمه ويجيده لكى يجعل من نفسه « الإنسان الكامل » ورسم بكل دقة وتفصيل ، كل ما يلزم لتنظيم علاقات أفراد الأسرة الواحدة ، لكى تكون أسرة سعيدة وناجحة .

ورسم بإسهاب وفى غير ملل أو كلل ، كل ما يلزم للحاكم وجهاز الحكم ، من مبادىء وقواعد ونظم لكى يتحقق ما نسميه اليوم مجتمع الرفاهية والعدل ، ولكى يسعد المحكومون .

وعاش كونفشيوس طول عمره يطوف فى أرجاء الصين ، باحثاً عن الملك

والأمير الذى يتخذ منه وزيراً لـكى يطبق مبادئه فى فن الحـكم والإدارة وقيادة الجماهير وإسعادهم ، فلم يظفر بأمنيته إلا مرة واحدة ، إذ ولاه أحد الأمراء زمام الأمور ، ولـكن دسائس البلاط وغيرة بقية الأمراء من نجاح كونفشيوس انتهيا به إلى العزل والعودة إلى تشرده من جديد فى البحث عن ملك أو أمير عادل يرضى بأن يكون تلميذاً له . ولم يبق أمام كونفشيوس فى خاتمة المطاف إلا أن يلقن مبادئه لعشرات من التلاميذ الذين التفوا حوله يتعلمون منه ، ومات كونفشيوس مقهوراً عام ٤١٩ ق . م خائب الأمل لعدم استطاعته أن يحقق حلمه العظيم فى تحويل الصين إلى ما أطلق عليه اسم « جمهورية التوافق العظيم » حيث تتحول الدنيا كلها إلى جمهورية واحدة يتعاون الناس فيهـا فى إخلاص ومحبة ، عاملين من أجل السلام العالمى . وفى هذه الدولة لن ينظر الإنسان لوالديه باعتبارهم آباءه من دون البشر ، كما لن ينظر إلى أبنائه ، باعتبارهم أولاده من دون الناس أجمعين ، حيث يحصل كل رجل على حقه ، وكل امرأة على شخصيتها ، حيث تختفى الأنانية ولا تجد نافذة لتطل منها ، حيث يتطهر وجه الأرض من اللصوص والمجرمين والخونة والأشرار ، فقد تحولت الدنيا كلهـا إلى التوافق العظيم[(١)] .

نقول لم يكد كونفشيوس يختم حياته ، حتى انتشر تلامذته فى أرجاء الصين ينشرون مبادئه وتعاليمه ، التى لم تلبث أن أخذت طابع القداسة وأصبحت ديناً للصينيين .

الإنسانية :

ويمكن تلخيص تعاليم كونفشيوس التى ملأت عشرات المجلدات ومئات الـكتب فى كلمة واحدة وهى « الإنسانية » .

فالفضيلة بالنسبة للانسان الفرد هى أن تحب الناس ، والحـكمة فى أن

(١) ص ٦٧ Religious Leaders .

تفهمهم . وإذا كانت الأسرة هي صورة المجتمع ، فإن الجنس البشرى كله يؤلف أسرة واحدة ، فيقول أحد تلامذته .

ما بين البحار الأربعة ، جميع الناس إخوة .

ويقول كونفشيوس ، إن الرجل الفاضل حقاً الذى يريد أن يبنى كيانه الخاص ، يجب أن يفعل ذلك من خلال بناء كيان الآخرين . والذى يريد النجاح لنفسه ، عليه أن يكافح من أجل إنجاح الآخرين وأن تكون قاعدته الذهبية هى « أن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به »[1].

ويزيد كونفشيوس الأمر تفصيلاً فى واجبات الرجل الفاضل أو « الإنسان الكامل » — يجب أن يكون فياضاً بالعطف على الناس جميعاً ، لا يغضبه أن يسمو غيره عليه ، فإذا رأى أفاضل الناس فكر فى أن يكون مثلهم ، وإذا رأى سفلة الناس ، عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره . والإنسان الكامل يضع نصب عينيه أموراً لا ينفك يقلبها فى فكره :

١ — بالنسبة لعينيه يجب أن يرى بوضوح .

٢ — بالنسبة لحديثه ، يجب أن يكون مخلصاً .

٣ — بالنسبة لوجهه ، يجب أن يحرص دائماً على أن يكون وقوراً .

٤ — وفى تصريف شئون عمله ، يجب أن يكون حريصاً على بذل أقصى عنايته .

٥ — وفى صلاته بالآخرين ، يجب أن يبعث فيهم الاحترام لشخصه .

٦ — وفى الأمور التى يشك فيها ، يجب أن يحرص على سؤال الآخرين ممن يعلمون .

٧ — وإذا غضب فيجب أن يفكر فيما يجره عليه غضبه من الصعاب .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية . مادة كونفشيوس .

٨ — وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامة .

ذلكم هو كونفشيوس حكيم الصين ومعلمها ، فهل يدهشنا الآن لماذا تفوقت الصين على سائر العالمين فى القديم ، وأسهمت بأكبر نصيب فى حضارة الإنسان ، وهل يدهشنا الآن أن نراها وقد نهضت لتلحق بأعظم دول العالم ، وحيث لا تزال لغة القوة هى اللغة السائدة ، فقد فجرت الصين قنبلتها الذرية ، ولكن لا نستبق الحوادث ولنرجع إلى حديثنا عن التاريخ القديم . . . تاريخ ما قبل الميلاد ، وقبل أن نفرغ من طى صفحة آسيا وشمال أفريقيا مؤقتاً ، لنفتح صفحة أوربا ، يجدر بنا أن نقدم قائمة الحساب ، حساب الشرقين القريب والبعيد إلى تراث الحضارة الإنسانية :

« على هذا المسرح الآهل بالسكان والثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطب وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورة دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب والموسوعات ، وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والتحف وهندسة البناء وصنع الخزف المطلى المصقول ، والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج واستخدمت أدهان التجميل والحلى ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور .

عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان .

وقصارى القول أن « الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء ، لأن ما ورثوه منها ، كان أكثر مما ابتدعوه »[1] .

(١) دورانت ، قصة الحضارة ، جزء ٢ مجلد (١) ص ٩ .

— ٣ —

الاغريق :

هم سكان ما يعرف اليوم ببلاد اليونان ، أى سكان شبه جزيرة البلوبونيز ، وشبه جزيرة أتيكا ، وما اشتهر يوماً باسم تراقيا . ويقول مؤرخو الأوربيين الحريصون كل الحرص على إثبات تفوق الجنس الآرى ، إن الإغريق القدامى من الجنس الآرى ، وأنهم كانوا يسكنون فى بادىء الأمر فى منطقة بحر قزوين ثم هبطوا منها نحو سواحل غرب آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وشبه جزيرة اليونان . وكانوا فى أول عهدهم كشأن بقية أسلافهم من آريى أوربا ، برابرة متوحشين بالقياس إلى ما كان الإنسان قد توصل إليه من حضارة ومدنية . فوجدوا فى هذا الجزء من العالم الحضارة (الأيونية) أو الحضارة الإيجية نسبة إلى بحر إيجه ، وهى حضارة شادها شعب كان قد أصبح على درجة عالية من الحضارة ، لاتصاله بمصر القديمة إما مباشرة أو عن طريق فينيقيا ، وكانت زعامة هذه الشعوب الحضارية والروحية تنتهى إلى جزيرة كريت أو بالأحرى عاصمتها مدينة كونوسس حيث اكتشف من الآثار ما يدل على حضارة ترجع إلى أربعة آلاف سنة قبل المسيح متأثرة بالحضارة المصرية .

على أن الإغريق القدامى قد برهنوا على أنهم شعب محب للعلم والمعرفة ، سباق إلى التمدن والتحضر ، فقد اغترفوا من منهل التراث الحضارى الذى سبقهم ، ولم يلبثوا أن أضافوا إليه إضافة جديدة جديرة بأن تنسب إليهم وأن ينالوا فخرها ، وهى تأصيل المعارف الإنسانية ، وصوغها فى شكل نظريات عامة تجريدية ، ثم تنظيم هذه المعارف وتبويبها وتقسيمها من خلال إعلاء سلطان العقل البشرى ، واكتناه أسرار الطبيعة بواسطته ومن خلاله ، باستعمال ملكة النقد والشك والتمحيص ، رافضين قبول الحقائق الجاهزة التى لا يقوم عليها دليل أو برهان .

ولقد أدى ذلك إلى أن جعل من الأغريق معلمين لغيرهم من الشعوب وكل من اتصل بهم من خلال الحرب أو السلم ، ابتداء من الرومان ، حتى الفرس والهنود والعرب فى خلال ازدهار حضارتهم ، وأخيراً فى أوربا الحديثة .

إلياذة هوميروس :

وتعتبر إلياذة هوميروس وأوديسيته التى يفرضون لها تاريخاً تقريبياً عام ٩٠٠ ق . م أول تاريخ مكتوب لا للأغريق فحسب ، بل لأوربا كلها[١] .

والإلياذة هى هذه الملحمة الشعريةالتى تصور حرب الإغريق ضد طرواده (حوالى عام ١١٩٦ ق . م) والتى انتهت بانتصار الإغريق .

وكان الإغريق خلال عدة قرون من تاريخهم يتألفون من قبائل متحاربة متعادية ، لم تلبث كل قبيلة من هذه القبائل أن أنشأت لنفسها مدينة خاصة بها . وهكذا امتلأت شبه الجزيرة اليونانية بعديد من المدن التى تؤلف كل منها دولة مستقلة ، وتتميز بطابع خاص وقوانين وأنظمة وحضارة خاصة ، ولذلك فسرعان ما اشتبكت هذه المدن فيما بينها فى عديد من الحروب ، بينما دخل بعضها فى محالفات ضد البعض الآخر . . . وساد السلام بين هذه المدن حيناً ، واشتعلت الحرب فى أكثر الأحايين .

اسبرطة وأثينا :

وبرزت فى هذه المدن مدينة اسبرطة التى اتخذت من الصحة وقوة الجسم والتمرس على الحرب والقتال ديناً وأسلوباً وهدفاً للحياة فى ذات الوقت . وظلت تحكم بقواعد صارمة فى النظام والتربية ، من وضع « ليكرغ » قائدها ومشرعها وملكها .

على أن مدينة أخرى ، كانت الحياة فيها أقل صرامة وقيوداً وأكثر مرحاً

(١) A History of Europe. A Grant. P.L.

وفناً وتمثيلا (وفلسفة) هى التى قدر لها أن تلمع فى تاريخ الإغريق وتعلو على غيرها من المدن ، وتلك هى أثينا التى تعتبر « صولون » هو أبوها الروحى ومشرعها ، وبركليس هو صاحب عصرها الذهبى . وإلى جوار أثينا واسبرطة كان حشد آخر من المدن الإغريقية التى تنال كل واحدة منها شهرة خاصة مثل كورنثة وطيبة وأرجوس ، ودلفى ، وفى هذه المدينة الأخيرة كان الوحى يهبط على كهانها وعرافيها ، فمن أراد استفتاء الآلهة فى أمر يغم عليه فى جميع أنحاء اليونان ، فقد كان عليه أن يحج إلى دلفى ويقدم القرابين للآلهة لـكى يتلقى من خلال كاهن المعبد ... رأى الآلهة فى مشكلته .

الألعاب الأولمبية :

على أنه لا اسبرطة مدينة القوة العسكرية ، ولا أثينا مدينة القوة الفكرية ، ولا دلفى مدينة القوة الروحية ، بالتى عملت على توحيد الإغريق ، مثل ما عملت مدينة أوليمبيا حيث كان اليونانيون يلتقون بها ، فى سلام وأمن ، مرة كل أربع سنوات ، ليتسابقوا فيما بينهم أيهم بطل الأبطال فى السرعة ، أو الوثب ، أو الجرى ، أو الملاكمة ، أو رمى القرص أو الجلة أو الرمح ... الخ . ذلك أنه إذا كان للاغريق دين مشترك ، فهو عبادة الصحة والجمال حيث يقول سميندس أحد أعلامهم :

إن أحسن ما يستطيع الإنسان أن يتمتع به هو الصحة الجيدة . وتأتى بعد الصحة جمال الشكل وحسن الطبع ، ثم تلى ذلك الثروة ينالها الإنسان من غير غش أو خداع ويأتى فى المرتبة الرابعة ، أن يكون الإنسان فى نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان .

بينما يقول هوميروس فى أوديسته « ليس ثمة مجد يستطيع الإنسان أن يناله طوال حياته ، أعظم مما يناله بيديه وقدميه »(١).

(١) دورانت جزء أول — مجلد ٢ ص ٣٨٥ .

الدين الاغريقى :

ويختلف دين الإغريق عن كل ما مر بنا من الأديان « عدا العبرية » ، فى أنهم لم يتخيلوا العديد من آلهتهم إلا على صورة إنسانية بحتة بكل ما فى الإنسانية من نقائص فى بعض الأحيان ، فالآلهة تغش وتخدع وتسطو وتنهب بل وتفسق وتزنى بزوجات الآلهة الأخرى ، وزوجات الإنسان على السواء . وليس من فارق بين الإنسان والإله إلا أن الإنسان قصير العمر فهو يموت ، أما الآلهة فخالدة لا تموت . وباستطاعة الإنسان دائماً أن يرقى إلى رتبة الآلهة فيصبح من الخالدين من خلال الأعمال البطولية التى يقوم بها مثل هرقل . ومن ناحية أخرى فما أكثر ما يتصل الآلهة ذكوراً وأناثاً بأفراد من البشر فينجبون منهم ومنهن أنصاف آلهة .

فالإنسان وصورة الإنسان وخلق الإنسان ، كان عند الإغريق هو أعلى صورة فى الوجود فلا تعلوها صورة أخرى .

ولقد احتاج المجتمع الأغريقى إلى بضعة قرون ، قبل أن ترتفع من بين المفكرين والفلاسفة أصوات الاحتجاج ضد هذه الفوضى فى تصور الألوهية ، فراح أكسينوفان يقول :

« إن الناس قد أساءوا إلى الله فصوره كل بحسب حالته ، فالزنوج يجعلون الآلهة سود الشعر فطس الأنوف ، بينما التراقيون يجعلون الآلهة زرق العيون ذهبى الشعر ، ولو استطاعت الخيول والأبقار أن تصور الله ، لصورته فى صورة الخيول والأبقار . وعلى هذا الأساس فإن الناس قد صورت الآلهة بصورة الإنسان ، ولم تكتف بهذا ، بل أضافت أيضاً إلى الآلهة الأفعال الإنسانية الدنيئة ، خصوصاً عند هوميروس وهزيود . والواقع أن كل ذلك يتنافى أشد التنافى مع التنزيه الواجب لله ، لأن الله منزه كل التنزيه عن أن يتصف بصفات البشر ، فلكى نحتفظ للألوهية بقدسيتها ، لابد أن ننزهها عن صفات الإنسان . ولما كان

الله هو الكمال ، فإن الله أيضاً واحد ، لأن الآلهة لا يمكن أن يتفق مع مقامها أن تكون خاضعة لشيء ، كما أن الآلهة من ناحية أخرى ، ليست فى حاجة إلى أن تتخذ خدماً أو أتباعاً . ولذلك فليس هناك إله أكبر تحته آلهة أو بجواره آلهة . بل لابد من إله واحد قديم أزلى منزه عن الجسدية(١) .

الفلسفة الأغريقية :

وإذا كان أكسينوفان قد وصل بالتفكير المنطقى البحت إلى توحيد الله وتنزيهه فإن ذلك يدلنا على موطن تفوق الأغريق وعظمتهم ، فهم واضعو علم الطبيعة كما نفهمه الآن ، وهم واضعو الفلسفة التى تغذى عقولنا وأفكارنا حتى الوقت الحاضر . وباستطاعتنا أن نقول فى غير تردد إنهم واضعو أسس العلوم كلها ، بحيث أصبح من الميسور تعلمها على كل من يرغب فى التعليم ، متى كان قادراً على القراءة والكتابة والحساب .

لقد أقام المصرى القديم كما رأينا أعظم المبانى التى عرفها البشر فى التاريخ القديم أو الحديث ، ونحت التماثيل ، واستخرج المعادن ، ورصد البابليون الكواكب والنجوم ، وطاف الفينيقيون البحار ، ولكن هؤلاء جميعاً قد حبسوا العلوم فى صدورهم ، يلقنونها لأبنائهم وورثتهم تلقيناً ذاتياً ، فظلت المعارف الإنسانية والفنون والصناعات تتم من خلال الممارسة والتجربة العملية وكثيراً ما كانت تعتبر ضرباً من ضروب السحر والكهنوت ، وهى فى كل الأحوال من الأسرار التى لا تفشى أو تذاع .

أما اليونانيون ، فقد كانوا أول من صاغ العلم نظريات كما قدمنا ، وألفوا الكتب فى الهندسة والرياضة والطب والتاريخ والجغرافيا ، والموسيقى والشعر والفلسفة والمنطق وعلم الحيوان . وقد كانت هذه الكتب هى السبيل المباشر لنقل هذه المعارف بصورة منظمة إلى كل من جاء بعد ذلك من أجيال .

---

(١) انظر للمؤلف كتاب « فى الإيمان والإسلام » .

طاليس :

ويبدأ تاريخ أعلام الفكر الأغريقي بطاليس (٦٤٠ ق. م) والذي يرمز تاريخه للصلة بين مصر والأغريق وكيف تلقت الثانية العلم عن الأولى ، فالرأى الثابت فى شخصية طاليس أنه من أبوين فينيقيين وأنه تلقى معظم تعليمه فى مصر والشرق الأدنى[1] وكان طاليس على ما تقول الروايات الأغريقية هو أول من أدخل العلوم الرياضية والفلكية إلى بلاد اليونان وقد أجمع الأغريق على تلقيبه بالحكيم واعتبروه على رأس حكمائهم السبعة .

وقد سئل طاليس مرة عن أصعب الأشياء فقال هو « أن تعرف نفسك » ولما سئل عن أسهلها ، قال هو « أن تسدى النصح لغيرك » وسئل ما هو الله فأجاب هو « ما ليس له بداية أو نهاية » وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله » .

بركليس :

ثم تترى بعد طاليس أسماء النجوم والأعلام من أبطال الإغريق ومشاهيرهم فى مختلف ميادين الحياة ، وقد كان من الممكن أن تعد هذه الأسماء من الأساطير والخرافات لولا أنهم تركوا آثارهم المادية والمعنوية خالدة على مر الزمن .

فهذا زعيمهم بركليس ، يقوم معبدا الأكروبوليس والبارثيون ، اللذان أنشأهما وزخرفهما الفنان فدياس ، فى أثينا شاهداً على عصر الأغريق الذهبى . . ليس فقط فى دنيا الفنون أو العلوم والهندسة ، بل فى دنيا الحكمة والسياسة ، حيث بلغت الديمقراطية أوجها ، ولا يزال البشر يستعملون كلمة الديمقراطية حتى اليوم ، وكثيرون لا يعرفون أنها الكلمة اليونانية التى صكها الإغريق فى هذه الفترة والتى تعنى كلمة حكم الشعب بالشعب وللشعب . فالشعب كل الشعب

---

(١) دورانت — المرجع السابق — ص ٢٥٠ .

هو الذى يختار حكامه فى انتخابات حرة ، وقد ظل الشعب يختار بركليس حاكما له فى الفـترة من ٤٦٧ — ٤٢٨ ق. م أى نحو تسعة وثلاثين عاماً وهو يجدد انتخابه عاماً بعد عام .

وكان الشعب كل الشعب يصوت على القوانين ، ويحكم فى القضايا ، ويشهد الألعاب ، وحفلات التمثيل .

ولم يكن يعيب هذه الديمقراطية إلا أنها كانت تشبه ديمقراطية الأمريكان فى هذه الأيام ، وهو أنها على رائع عظمتها وقف على فريق دون فريق ، فكما يأباها الـكثيرون من الأمريكان على الزنوج حتى بعد صدور القوانين التى تحظر التفرقة . . . فقد كان الإغريق لا يعترفون بالحرية والتمتع بالحقوق المدنية إلا لأبناء المدينة دون غيرهم . . . أما من عداهم من الشعوب فليسوا سوى عبيد وأرقاء ، أو أجلاف برابرة فى أحسن الحالات .

العلماء والفلاسفة :

على أنه لا ديمقراطية الإغريق ، أو فنانوها العظام ، أو آثارها الخالدة هى التى جعلت من أثينا معلمة العصور الحديثة ، قدر ما كان ذلك هو الأثر المباشر لعلمائها وفلاسفتها الأفذاذ ، وأينا لم يدرس فى المدرسـة نظرية فيثاغورس الرياضية . وقد بقى أن نعرف أنه كان أول من تحدث عن دوران الأرض حول الشمس التى هى عبارة عن كرة ملتهبة من النار .

ويتلقى عنه انكساغوراس علمه ، ليقول لنا فى وضوح أسباب الـكسوف والخسوف :

« إن القمر يخسف إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس ، كما تكسف الشمس إذا توسط القمر بينها وبين الأرض . وربما كانت بعض الأجرام السماوية

مسكونة ، عليها خلائق كالأرض وعليها يقوم ناس وحيوانات »[1] .

ثم يلمع اسم بقراط أبى الطب والذى شرَّح الحيوانات ، وفسر فسيولوجية النوم وقرر أن المخ هو العضو الرئيسى فى عالم التفكير ، وعرف الصحة بأنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة . وكذلك اسم جالينوس صاحب الكتب الطبية الخالدة . وهيرودوت المؤرخ الذى يلقب باسم « أبو التاريخ » والذى ما فتئنا ننقل عنه من حين لآخر .

ويدوى اسم ديمقريطس فى أيامنا الحاضرة كما لم يدو من قبل اسم عالم أو فيلسوف إغريقى ، باعتباره صاحب نظرية الذرة ، وأن الكون كله يتألف من الذرات والفراغ ، وهو آخر ما انتهى إليه علم الطبيعة . ثم أنبادوقليس مبدع نظرية العناصر الأربعة التى يتألف منها الكون وهى الهواء والنار والماء والتراب ، والتى ظلت مهيمنة على العالم الإنسانى حتى القرن التاسع عشر . على أن أروع ما جاء به أنبادوقليس هو تقريره بأن الطبيعة تنطوى على قوتين رئيسيتين هما : قوة الجذب ، وقوة الطرد أو قوتا الحب والبغض .

سقراط وأفلاطون وأرسطو :

ثم يأتى ثالوث الحكمة والفلسفة الذى يبدأ بسقراط الذى أوثر عنه قوله « الخير أعظم الخير هو فى حديثى كل يوم عن الفضيلة ، وفحصى عن نفسى وعن غيرى ، لأن الحياة التى لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال » ، وبعد سقراط أفلاطون الإلهى وأرسطو الذى أطلق عليه المسلمون اسم المعلم الأول .

الشعر والتمثيل :

وليست تقل أسماء ايخيلوس ويوربيدس وسوفوكليس وإرسطوفان ، شهرة أو لمعاناً فى دنيا الفن عن شهرة السابقين فى دنيا العلم ، ومن من المثقفين

(١) دورانت ، قصة الحضارة ، ج ٢ مجلد ٢ ص ١٨٠ .

فى العالم كله — بما فيه مصر — لم ينعم بمشاهدة مسرحية أوديب التى ألفها سوفوكليس ومثلت على مسارح أثينا لأول مرة عام ٤٦٨ ق . م ولا تزال وستظل تمثل على المسارح حتى اليوم والغد ... وقد بقى أن نعرف أن مسرحية أوديب ليست سوى واحدة من ١١٣ مسرحية مماثلة ألفها سوفوكليس .

الاتصال بين الفرس والاغريق من خلال الحرب :

ولما كان الإغريق كالفينيقيين يشتغلون بالتجارة الدولية على أوسع نطاق ، بل إن شعار (بركليس) كان يدور حول البعد عن الحرب فى كل ما يمكن أن يتحقق من خلال التجارة . ومن هنا كان الإغريق — وإن لم تجمعهم وحدة سياسية واحدة — منتشرين فى حوض البحر الأبيض كله ، وخاصة فى بحر إيجه والبحر الادرياتيكى وعلى شواطىء إيطاليا الشرقية ، وفى شمال إفريقيا ، بل وفى مصر نفسها ، حيث كانوا أصدقاء وحلفاء لفراعنة مصر فى هذه الفترة .

وقد جعلهم هذا الانتشار والتفوق فى البحر خطراً على إمبراطورية فارس التى كانت قد وصلت فى هذه الفترة إلى أوج اتساع رقعتها وعظمتها كما قدمنا . فكان أن خشيت فارس على ممتلكاتها فى غرب آسيا الصغرى ، من قوة الإغريق النشطة الزاحفة ، فأعد (دارا) الأول جيشاً لغزو الإغريق ، ولكن محاولته باءت بالفشل ، كما فشل من بعده إجزرسيس ، وخلدت على مر التاريخ معارك ماراتون وترمو بيل ، حيث استطاع شعب صغير أن يدافع عن نفسه ضد جيوش تفوقه فى العدد والعدة ، وحتى عندما تفوقت عليه هذه الجيوش فى البر ، فقد استطاع أن يهزمها فى البحر (موقعة سلاميس) مؤكداً لأول مرة فى التاريخ الحقيقة التى تجعل الكلمة الأولى فى السيطرة والقوة ، لسيادة البحر . وقد كانت هذه المخاطر التى تعرض لها الإغريق حافزاً يدفعهم للتجمع والتوحد ، على أن توحيد الإغريق فى صورته النهائية ، جاء على يد فيليب ملك مقدونيا الذى لم يكن الإغريق يعتبرونه إغريقياً ، وكان ابنه الشاب الاسكندر المقدونى

تلميذ أرسطو هو الذى قدر له أن يقود الإغريق لهزيمة أعدائهم الفرس فى عقر دارهم ، ولينشر الحضارة الإغريقية فى أنحاء العالم القديم .

الاسكندر فى الشرق :

وعبر الاسكندر بوغاز الهلسبونت (الدردنيل) عام ٣٣٤ ق . م ثم راح ينتصر على جيوش فارسية تفوقه أضعافاً مضاعفة فى العدة والسلاح . وفى فترة وجيزة بحساب تلك الأيام ، كانت فينيقيا والشام وفلسطين ومصر قد أصبحت تحت سلطان الاسكندر ؛ الذى لقى أعظم ترحيب من المصريين ، ونادوا به ابناً لآمون بعد أن قدم خضوعه بالفعل لآمون . وترك الاسكندر مصر ليتابع فتوحاته عبر الشرق ، ولكنه لم يتركها إلا بعد أن خلف لها ما هو أبقى على الزمن ، وتلك هى مدينة الاسكندرية التى ستظل تشهد كل صباح ومساء على مر الدهور بعظمة منشئها « الاسكندر » .

وجاءت الساعة التى استولى فيها الاسكندر على فارس وجلس على كرسى مملكتها ، ثم راح يجوس خلالها صاعداً نحو الشمال إلى بحر قزوين وما يحيط به، ومتجهاً فى الشرق نحو تخوم التركستان وفى الجنوب وصل إلى الأفغان ثم اجتاز منها إلى ممر خيبر قاصداً الهند ومستولياً على حوض السند ، حيث جوبه لأول مرة بالجيوش المزودة بالأفيال ولكنها لم تكن ذات أثر عليه .

وعاد بعد هذه الفتوحات التى لم يسبق لها مثيل إلى عاصمة ملكه الجديدة فى فارس .

الاسكندر والحضارة :

ولم نكن لنحتفل بالاسكندر المقدونى ونتتبع سيرة حياته لو أنه كان مجرد غاز من الغزاة الفاتحين الذين يخربون ويدمرون لمجرد التخريب والتدمير وترويع الخصوم والأعداء ... وإنما يأخذ الاسكندر المقدونى مكانه فى التراث الحضارى

الإنسانى لأن نفسه قد امتلأت عقب انتصاراته بفكرة الدولة العالمية الواحدة التى تذوب فيها الأجناس والأديان والقوميات ، وقد رأيناه فى مصر يقدم خضوعه لإلهها آمون ويتقبل بنوته له ، وفى فارس قرر أن يمزج الثقافة الشرقية بالأغريقية فتزوج ابنة دارا عدوه ، وطلب من قواده ورؤساء جيشه أن يقتدوا به فى الزواج من الفارسيات ، وفى ليلة من ليالى سنة ٣٢٤ ق. م أقيم أعظم عرس شهده التاريخ من قبل أو من بعد .. عرس يرمز لزفاف الثقافة الغربية من الثقافة الشرقية .. حيث تزوج الاسكندر وثمانون من زعماء جيشه .. وعدد لا يحصى من جنوده بفارسيات ، وخلع الاسكندر عنه ملابسه الإغريقية وارتدى الملابس الفارسية ، وعاش فى بلاطه الفارسى الجديد ، كما كان يعيش كسرى ، واعتنق نظم الإدارة الفارسية فى الحكم والسياسة ، بعد أن رآها أرق وأحكم وأدق من كل ما عرفه الإغريق من نظم .

على أن عمر الاسكندر لم يطل ليحقق أمنيته فقد مات فى شرخ الشباب ولم يتجاوز عمره ٣٣ سنة ، فأشبه فى حياته الشهب والنيازك التى تبدد ظلمات الليل الحالكة ولكنها لا تكاد تومض حتى تحترق .

مات فى بابل عاصمة حمورابى الملك العظيم ، بعيداً عن مسقط رأسه فى مقدونيا ولكن جثمانه نقل إلى مصر ؛ إلى مدينته التى أنشأها ، والتى بقيت من دون آثاره الأخرى نابضة مزدهرة تفيض بالحياة[1] .

الهيلينية أو امتزاج الحضارة الاغريقية والشرقية :

ولقد أدهشنى أن أرى أحد الكتاب من الأوربيين[2] ، يصف الاسكندر وأفكاره (بالطموح الصبيانى والغرور الساذج) وعندى أن ليس هنا ما هو

---

(١) لا تزال المباحث والمحاولات جارية حتى الآن فى الاسكندرية ، للكشف عن مقبرة الإسكندر .

(٢) هندريك فان لون « قصة الجنس البشرى » ص ٤٢ .

حقيق بوصف الغرور الساذج والتفكير الصبيانى ، من قولة هذا الكاتب ، الذى يصف أحد كواكب الجنس البشرى بهذا الوصف لمحض كونه قادراً على كتابته ، فدور الإسكندر فى التاريخ لا يقاس بمدى نجـاحه فى توحيد العالم بالفعل ، بل بالآثار والنتائج التى تركها ، وأعظم هذه النتائج والآثار ، هو ما أصبح يعرف فى التاريخ باسم الحضارة الهيلينية ، تلك الحضارة التى طبعت الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض كله بطابعها خلال القرون التالية . وكانت الإسكندرية وليست أثينا ولا أى مدينة أخرى من مدن الإغريق هى حاملة المشعل فى هذه الحقبة من التاريخ . فقد أنشأ بطليموس الذى حكم مصر بعد وفاة الإسكندر فى مدينة الإسكندرية ، مكتبة لم تكن مجرد مخزن للكتب ، بل مركزاً لنسخ الكتب وبيعها ، فتألف حولها جيش من النساخين الذين لم يلبثوا أن تحولوا إلى علماء ، وسرعان ما تحولت مكتبة الإسكندرية ومتحفها إلى جامعة دولية ، أعادت إلى الإنسـانية ذكريات جامعة عين شمس القديمة وعصر بركليس . وبدأت الإسكندرية تشهد عصراً ذهبياً من التنوير والوهج العلمى . يأخذ بروع ذوى الألباب من علماء الغرب فى أيامنا هـذه ، وكما لا تزال أسماء علماء أثينا تدوى فى الآفاق ، فإن أسماء علماء الإسكندرية فى هذه الحقبة من التاريخ تنافسهم الشهرة والخطر فى تراث البشر الحضارى . . . وأينـا لا يعرف إقليدس رب الهندسة (الإقليدية) التى ظلت تهيمن على الفكر الإنسانى حتى العصر الحديث ، ومن منا لا يعرف اسم أرشميدس صاحب النظرية الخالدة عن الأجسام الطافية .

وقد بقى أن تعرف أن قوة البخار التى لم يعد كشفها إلا فى القرن الثامن عشر قد عرفت فى هذه الفترة من تاريخ البشر ، حيث اخترع هيرون الاسكندرى ، قبل جيمس وات بألفى سنة ، ما يجب أن يعتبر أول آلة بخارية فى التاريخ[1] .

ويبهرنا من علماء هذه الفترة أراتستنيز الذى قاس محيط الكرة الأرضية

---

(١) هـ . ج . ويلز ، مختصر تاريخ العالم ص ١٠٤ ودورانت فى قصة الحضارة .

مقدراً إياه بـ ٢٤٫٦٦٢ ميلا حيث نقدره الآن بأدق آلات قياسنا بـ ٢٤٫٨٤٧ أى بفارق ضئيل لا يكاد يذكر .

وليس أقل الجميع شأناً ، بطليموس الفلكى صاحب كتاب المجسطى الذى فرض نفسه على علم الفلك حتى القرن السادس عشر ، بنظريته التى تقول إن الشمس هى التى تدور حول الأرض وليس العكس ، بل إن القبة السماوية كلها هى التى تدور حول الأرض الثابتة ، ولا ينبغى أن يدهش أبناء عصرنا الحاضر أن يكون ذلك هو النظر العلمى ، فقد كانت نظرية بطليموس قادرة على تفسير كل الأحداث الفلكية بنفس الدقة التى تفسرها لنا نظرية دوران الأرض حول الشمس (١) .

ويقول الكاتب العلامة هـ . ج . ويلز تعليقاً على حضارة الإسكندرية فى هذه الفترة :

« هنا نجد على وجه التحقيق نقطة البدء لهذه الحياة الذهنية المنطلقة التى نعيش فيها فى أيامنا هذه ، هنا نجد التجميع والتوزيع المنظم للمعارف البشرية . إن تأسيس المتحف والمكتبة مرحلة من أعظم مراحل التاريخ الإنسانى ، إنه نقطة البداية الحقة للتاريخ الحديث » (٢) .

ويحدثنا التاريخ حديثاً عجيباً عن منارة الإسكندرية ، التى ظلت تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ، أو العجيبة الثانية بعد عجيبة الأهرام . فقد كانت تتألف من أربعة طوابق يبلغ ارتفاع طابقها الأول ٦٠ متراً وكان مربع الشكل

---

(١) يقول سير هربرت سبنسر جونس فى كتاب « الفلك العام » — يمكن تفسير حركة النجوم اليومية (كما رأينا) إما بفرض أن الكرة السماوية كلها تدور حول محورها أو بفرض أن الأرض نفسها هى التى تدور بينما تبقى الكرة السماوية ثابتة . ويبدو لنا أن الفرض الأخير أكثر قبولا ووضوحاً بالرغم من كونه غير ضرورى منطقياً .

(٢) مختصر تاريخ العالم ، ص ١٠٤ .

يحتوى على ثلثمائة حجرة لسكنى العمال والموظفين . أما الطابق الثانى فقد كان مثمن الشكل ويرتفع إلى ثلاثين متراً . والطــابق الثالث كان مستدير الشكل ويرتفع إلى ١٥ متراً ، ويلى هذا طابق المصباح الذى كانت تعلوه قبة شيدت على أعمدة جميلة رشيقة يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار ، وكان يعلو القبة تمثال بوسيدون إله البحار بطول قدره سبعة أمتار . وكان يحيط بالمصباح مرآة سميت بالمرآة السحرية فقد كان الاعتقاد أنها تقوم بما يشبه عملية الرادار هذه الأيام أن تكشف الأساطيل المغيرة على بعد ميل قبل أن ترى بالعين المجردة[1] .

ولقد ظلت هذه المنارة ترشد السفن فى ظلمات الليل حتى القرن التاسع بعد الميلاد ، حتى لقد رآها العرب ووصفها المسعودى والمقريزى فى كتبهما ، بل إن مئذنة المساجد المألوفة عندنا لا زالت تشاد على نفس هذا الأسلوب .

وهكذا حيث كانت جامعة الإسكندرية ترشد العقول وتنير الأفئدة ، فقد كانت منارة الإسكندرية تبدد ظلمات الليل وترشد السفن فى ظلمات البحار .

(١) الدكتور هنرى رياض مدير المتحف اليونانى « مجلة قافلة الزيت عدد أكتوبر ١٩٦٤ » .

الرومان :

قصة الرومان فى التاريخ قصة طويلة عريضة تمتد من القرن الثامن قبل الميلاد ، حتى القرون الحديثة عندما حاول موسولينى زعيم إيطاليا فى مطلع القرن العشرين أن يبعثها من جديد ، فراح يطلق على البحر الأبيض (بحرنا) ، ورسم سياسة استعمارية تقوم على ضم كل البلاد التى كانت تتألف منها الإمبراطورية الرومانية .

والرومانيون لا بد أن يكونوا طبقاً لنظرية المؤرخين الأوربيين ، من الجنس الآرى ، وفدوا إلى إيطاليا حيث كان يسكنها أقوام من جنس البحر الأبيض المتوسط ، وقد أخذوا هذا الاسم اسم الرومان نسبة إلى مدينتهم روما التى أخذت بدورها هذه التسمية من روميلوس الذى أرضعته ذئبة ، والذى أنشأ روما على سبعة تلال عام ٧٥٣ ق . م

وبدأ سكان هذه المدينة يظهرون منذ عصر مبكر تعلقهم بأهداب القانون والنظام ، فأرسلوا عام ٤٥٤ ق . م . بعثة إلى الأغريق لتحصل على قوانين صولون وتدرسها . وقد تمخضت جهود الرومان الأوائل المتصلة عن وضع ما اشتهر فى التاريخ باسم « الألواح الإثنى عشر » والتى اعتبرها الرومان شريعة مقدسة ، فكانت مصدراً وأساساً لكل التشريعات الرومانية التى جاءت خلال القرون التالية والتى لا تزال روحها تحكم أوربا حتى الآن بل وتحكمنا نحن فى مصر كما سوف نرى .

ومع ذلك فإن قوانين الألواح الإثنى عشر التى أثرت هذا التأثير فى تشريعات الإنسانية ، لا تعتبر ذات مستوى رفيع من حيث قيامها على العدل أو الرحمة وتنظيم العلاقات الإنسانية . فهى مشوبة بالعنف والبربرية والشكلية التى تصل إلى حد الطلاسم السحرية . ونرى فيها سلطة الأب سلطة مطلقة على آل بيته

ابتداء من زوجته وأولاده فضلا عن عبيده وأرقائه ، فباستطاعة الأب لا أن يؤدب ابنه فيربطه بالأغلال أو يجلده فحسب ، بل باستطاعته أن يبيعه وأن يقتله إذا شاء . وإذا كان هذا ما يستطيع الأب أن يفعله بابنه فباستطاعتنا أن نتصور ما يفعله بأرقائه .

وقد كانت هذه القوانين طبقية أشبه بطبقات الهند ، فكانت تحرم الزواج بين من ينتمون إلى طبقة الأشراف ، ومن ينتمون إلى طبقة العامة ، وكان سكان روما بصفة عامة ينقسمون فى كل شىء إلى هاتين الطبقتين . وكان الدائن يملك على مدينه حرية مطلقة من كل قيد . فيسجنه أو يسترقه أو يبيعه إذا لم يسدد الدين . وكانت حقوق الملكية مقدسة إلى حد أن السارق الذى يضبط متلبساً بالسرقة ، يصبح عبداً رقيقاً للمسروق منه يفعل به ما يشاء .

وكانت الشكليات هى روح هذا القانون وجوهره ، بحيث كان صاحب الحق يخسر حقه إذا لم يتبع إجراء شكلياً تافهاً . ولا تزال هذه الروح تحكم قانوننا المصرى المنقول عن القانون الفرنسى ، المنقول بدوره عن القانون الرومانى ، وكثيراً ما تضيع فى مصر الحقوق على أصحابها لخلو عريضة الدعوى من عبارة معينة أو تاريخ معين ، وما أكثر ما راح أصحاب الحقوق الثابتة يستغيثون ولا مغيث ، دون أن يعرفوا أن سبب نكبتهم هو تسلل روح قوانين الألواح الإثنى عشر إلى عصورنا الحديثة[(١)] .

ولم يكد القرن الثالث قبل الميلاد يحل ، حتى كانت روما قد بسطت سلطانها وامتد نفوذها إلى الجزء الأكبر من شبه جزيرة إيطاليا ، وقد جعلها ذلك تقف وجهاً لوجه أمام القوى التى سبقتها إلى شواطىء شبه الجزيرة الإيطالية الجنوبية والجزر الغربية منها ؛ وهما قوة الإغريق وقوة الفينيقيين الذين كانوا

---

(١) لا تعرف الشريعة الإسلامية التى كانت متبعة فى مصر قبل استعمال القانون الحديث هذه الشكليات التى تهدر الحقوق .

قد أصبحوا يسمون بالقرطاجنيين نسبة إلى مديتهم العظيمة قرطاجنه « تونس الحالية » .

وصفت روما حسابها مع المستعمرات الإغريقية فى شبه الجزيرة فاستولت على بعضها وأخضعت البعض الآخر لنفوذها ، ودخلت بذلك سلسلة من الحروب انتهت بإدخال بلاد اليونان وما يجاورها كلها تحت سلطان روما .

وقد كان هذا التوسع من شأنه أن يدخلها فى عراك مع قرطاجنه ، فخاضت الدولتان سلسلة من الحروب التى اشتهرت فى التاريخ باسم الحرب البونية الأولى والثانية والثالثة حيث تداول الطرفان فيها النصر ، وتهيأ خلالها لقرطاجنة قائد يدوى اسمه بين عظماء القادة العسكريين من بنى الإنسان ، وهو هانيبال الذى اتخذ منه نابليون بعد ألفين من السنين أستاذاً له وإماماً ... فقد كان هانيبال هو أول من فكر فى مهاجمة إيطاليا عن طريق اختراق جبال الألب إبان الشتاء . على أن عبقرية هانيبال لم تنقذ قرطاجنة من مصيرهـا المحتوم ، فقد أبادها الرومان عام (١٤٦ ق . م) ولقد اعتدنا أن نستعمل كلمة الإبادة على سبيل الاستعارة والمجاز ، ولكن كلمة الإبادة بالنسبة لقرطاجنة تستعمل لوصف ما وقع بالفعل فى التاريخ ، فقد كان عدد سكان المدينة يبلغ ٢٥٠ ألفاً ، ظلوا يقاومون الرومان الذين حاصروهم مقاومة يضرب بها المثل فى الفداء والاستشهاد والصبر ، حتى أن عدد من ظلوا فى المدينة عند استسلامها لم يكن يزيد على ٥٠ ألف نسمة ، وقتل الرومان من هذا العدد من شاء لهم أن يقتلوه من الرجال والنساء والأطفال ، وأبقوا ما رأوا أن يبقوه ليتخذو منهم أسرى وعبيداً فساقوهم إلى روما مكبلين بالأغلال ، أما المدينة نفسها فقد أشعلوا فيها النيران ... حتى إذا أتت عليها النيران ولم يبق منها سوى الرماد ، حرثوا الأرض وزرعوها ، حتى ينسى البشر أنه كان فى هذا المكان أعظم مدن البحر الأبيض على الإطلاق بعد مدينة الإسكندرية .

ولقد كان مصير قرطاجنة ، هو نموذج لخطة الرومان بالنسبة لمن يقاومهم أو يعترض مشيئتهم .

كليوباترا ومارك أنطونى :

ودانت لهم أجزاء كبيرة من أوروبا الشرقية وبلاد الغال (فرنسا) ووصلت جيوشهم إلى الجزر البريطانية فاحتلوها . وتؤلف قصة كليوباترا ومارك انطونى الفصل الأخير من تاريخ روما الجمهورية وتحولها إلى روما القيصرية الإمبراطورية . ونحن نعلم كيف أوقعت الأميرة المصرية يوليوس قيصر العجوز فى شباك هواها فرفعها على عرش مصر ضد رغبة أخيها ، وأنجبت كليوباترا ولداً من يوليوس قيصر أسمته « قيصرون » كان يمكن أن يجلس على عرش روما ومصر فى يوم من الأيام ، لولا أن يوليوس قيصر قد سقط صريع المؤامرة المشهورة التى نعرفها والتى دبرها بقية أحرار روما تحت زعامة بروتس ، ليحولوا دون حكم الفرد وانفراده بالسلطة المطلقة .

ووقع أنطونيو أحد خلفاء يوليوس قيصر فى غرام كليوباترا بدوره ، فهجر روما وتبعها بجيشه وأسطوله إلى الإسكندرية ، وجاءت روما تثأر لكرامتها فى شخص أكتافيوس قيصر ، وخسرت كليوباترا وصاحبها المعركة فى البر والبحر فى معركة أكتيوم فانتحرا ، وأصبحت مصر تابعة لأكتافيوس قيصر . وإنه لقدر غريب ذلك الذى يخلد قصة غرام إلى هذا المدى بحيث تصبح جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الرومان والعالم ونقطة التحول فى تاريخ هذا الجزء من العالم .

أغسطس قيصر :

لقد كانت مصر آخر معقل يتمتع بالاستقلال عن روما فى حوض البحر الأبيض ، وبانتهاء استقلال مصر ، أصبح البحر الأبيض بكل شواطئه والشعوب الواقعة عليه خاضعاً لسلطان روما ، فلا عجب إذا اعتبر عصر اكتافيوس قيصر هو عصر الرومان الذهبى ، ولا عجب أن أوصله معاصروه إلى مرتبة الألوهية ، فأطلقوا عليه اسم أغسطس قيصر وشادوا له التماثيل والهياكل وتقربوا له بالقرابين . وإذا كان استاذه يوليوس قيصر قد أطلق اسمه على أحد الشهور ، فليكن اسم أغسطس هو اسم الشهر التالى لشهر يوليو .

قيصر والمسيح :

على أن التاريخ الإنسانى ، كان يرسم على شفتيه ابتسامة ساخرة من هذا الذى يجرى فى روما التى وصلت إلى أوج ما عرف البشر من قوة وسلطان وجبروت وتحكم فى رقاب العباد ، ففى الوقت الذى كانت التماثيل تقام لأغسطس قيصر فى الهياكل لتعبد من دون الله رب العالمين ، كانت هناك عذراء فى بيت لحم تضع وليداً لها خفية عن أعين الناس ، فلم تكن تعرف كيف تواجه أهلها فضلا عن الناس وهى الفتاة العذراء عندما تتقدم لهم بغلام ، ولذلك فقد وضعت طفلها فى مزود بقر حتى لا تقع عليها العيون أو يسمعها أحد . وكان مقدراً لهذا الطفل المولود من غير أب أن يكون هو سيد روما بعد قليل من الزمن وليس قيصر ، وأن تحطم تماثيل أغسطس قيصر لتشاد له هو التماثيل وتقام باسمه المعابد . . . ذلكم هو يسوع ابن مريم اليهودية العذراء ، أو المسيح الذى يسميه أتباعه من المسيحيين والنصارى « ابن الله » .

نصيب روما فى الحضارة الإنسانية :

على أنا ونحن على وشك أن نطوى صفحة روما الوثنية ، لنتحدث عن روما المسيحية يجب أن نقف قليلا كما وقفنا من قبل أمام مصر وبابل والهند والصين وفارس والأغريق لنسجل نصيبها من التراث الحضارى ، ومن عجب أن الإجماع منعقد على أن هذا القدر هو جد ضئيل لا يمكن أن يقارن بما أسهمت به حضارة الإنسان فى أى بلد من هذه البلاد السابقة الذكر .

ففى خلال الألف سنة التى سادت فيها روما الجزء الأكبر من حوض البحر الأبيض لم تستطع أن تخلق فيلسوفاً واحداً من طراز أفلاطون أو أرسطو ، أو مؤرخاً كهيرودوت ، فإن مؤرخ الرومان المشهور وهو (بلوتارك) إغريقى وليس رومانياً ، وإذا كان هذا شأنهم فى الفلسفة والتاريخ ، فباستطاعتنا أن ندرك كيف لم يكن بينهم عالم واحد يمكن أن يذكر فى الهندسة أو الطب

أو الطبيعة أو الفلك ، أى أنهم عاشوا بالنسبة لكل هذه المعارف والعلوم عالة على ما تلقوه من الأغريق ومن الإسكندرية .

ولولا بضعة أسماء استطاعت أن تصل إلى درجة من الشهرة لخلا تاريخ الرومان إلا من أسماء القواد العسكريين والملوك والقياصرة .

سنكا :

وأول هذه الأسماء « سنكا » الفيلسوف الرواقى والذى يمكن أن تقاس درجة علمه وفلسفته المتواضعة بالدرس الأول الذى أعطاه للناس فى الفلسفة « إننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء فى كل شىء ، ولسنا فى حقيقة أمرنا ، إلا قطعاً متناثرة فى الفضاء اللانهائى ، ولحظات قصيرة فى الأبدية (وإن محاولة هذه الذرات الضئيلة (أى الإنسان) أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحاً[1] .

ولعل أطرف ما يمكن أن ننقله عن هذا الفيلسوف هو وصفه إحدى زياراته لملاعب الرومان :

« وأعود إلى منزلى أكثر مما كنت نهما وقسوة ووحشية لأنى كنت بين آدميين . لقد شاهدت بمحض المصادفة معرضاً مقاماً فى وقت الظهيرة ، وكنت أتوقع أن أرى بعض ما يبعث السرور أو الفكاهة ، أو يروح عن النفس بعض متاعبها ، وتستطيع عين الإنسان أن تجد ما تستريح به من رؤية المجازر التى تذهب فيها حياة الإنسان ، ولكنى رأيت عكس هذا ، المحاربين فى وقت الظهيرة يخرجون وليس عليهم دروع من أى نوع كان ، أجسامهم معرضة للطعنات فى كل جزء منها ، فكل طعنة تصيبهم فى الصميم إنهم فى الصباح يلقون الناس أمام الأسود ، أما فى الظهيرة فيقذف بهم أمام نظرائهم . وترى الجماهير تطلب

(١) دورانت قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٣ ص ١٨٠ .

من المنتصر الذى قتل خصمه أن يقاتل من جديد رجلا آخر حتى يقتل، ويحتفظ دائماً بالمنتصر الأخير ليقتل بدوره على يد إنسان آخر ، وهذه الأمور وأمثالها تحدث والمقاعد تـكاد تـكون خالية . وإن الآدمى الذى لا يحل للانسان قتله، يقتل لهواً ولعباً وجلباً للمسرة(١) .

شيشرون وفرجيل :

حتى إذا فرغنا من سنكا ، فليس أمامنا من نذكر اسمـه سوى شيشرون المحامى والخطيب والذى اتخذت خطبه عنواناً على البلاغة والفصاحة اللاتينية .

ثم يطالعنا فرجيل الشاعر « بالانيادة » التى أرخ فيها لأغسطس قيصر وللرومان والتى لا يمكن أن تقارن بالياذة هوميروس لولا أنها إلى التاريخ أقرب .

فإذا ذكرنا بعد ذلك اسم ماركوس أوريليوس الإمبراطور الفيلسوف ، نكون قد استوعبنا تقريباً ،كل أعلام الفكر والأدب من الرومانيين .

عبادة ايزيس :

حتى بالنسبة لدنيا التدين والعقيدة التى ساهم فيها كل البشر بالتهذيب والتوسيع والتعميق ، يقف الرومان موقف المتلقى . وقد بدأوا كـكل القبائل الآرية يعبدون العديد من الآلهة والأرواح والأشباح ، حتى إذا احتكوا بالأغريق أخذوا عنهم آلهتهم بعد أن أعطوها أسماء لاتينية . فزيوس اله الاولمب أصبح جوبتير ، وأثينا آلهة الحـكمة تحولت الى منرفا وهكذا .

على أن تأثرهم العقائدى الأكبر قد جاء من مصر بعد اتصالهم بها ، وزحفت عليهم كما زحفت على الأغريق من قبل عبادة الثالوث المقدس ، المؤلف من أزوريس « الأب » وايزيس« الأم »وحوريس « الإبن » . وقد كانت هذه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

العبـــادة الأوزورية العريقة قد تبلورت أيام البطالسة وأصبحت الدين الرسمى الغالب ، وأنشىء لها فى الإسكندرية معبد السرابيوم بعد أن أصبح يطلق على أوزوريس اسم سيرابيس . وكانت ايزيس الأم تصور دائماً وتنحت وهى حاملة بين ذراعيها الإبن الطفل « حوريس » وقد استهوت هـــذه الصورة ، صورة ايزيس والطفل الإغريق ، ولـكنها فتنت الرومان فنقلوها إلى روما وأنشأوا لها معبداً خاصاً بها .

وسرعان ما أصبحت عبادة ايزيس حاملة الطفل هى أكبر العبادات انتشاراً فى حوض البحر الأبيض المتوسط وكثير من الباحثين فى الأديان المقارنة ، يقطعون بأن عبادة ايزيس وابنها هى الأساس الذى تقوم عليه فـكرة تقديس العذراء أم المسيح ، وهى السر فى امتلاء كنائس روما الـكاثوليـكية « دون سائر الـكنائس » بتماثيل مريم وصورها والتقرب لها بالقرابين والصلاة والتراتيل .

وهكذا يمـكن القول ، إن روما بكل سلطانها وحولها وطولها والألف سنة التى حكمتها ، لم تسهم كثيراً فى دنيا العقائد الروحية ، أو المبادىء الفلسفية أو الحقائق العلمية ، أو دنيا الفنون .

القانون والإدارة :

على أننا يجب أن لا ننسى ما ذكرناه سابقاً من دور القـــانون فى حياة الرومان وعظيم أثره فى حياة المجتمع الإنسانى ، فقد تطورت الألواح الإثنى عشر التى ذكرنا من أمرها ما ذكرنا . تحت ضغط الحاجات المتزايدة ، والظروف المتغيرة ، واتساع رقعة الإمبراطورية حتى وصل التشريع الرومانى إلى أدق نظام تشريعى عرفه الإنسان .

وقد كان فضل المحافظة على هذا التراث القانونى وإذاعته على العالمين ، يرجع إلى عهد متأخر بعد انتشار المسيحية وانقسام الدولة الرومانية إلى غربية وأخرى شرقية مما سنشير إليه فيما بعد .

الطرق :

واشتهرت روما فى التاريخ الى جوار اشتهارها بالقانون ، بالطرق المعبدة التى كانت تخرج من روما الى أنحاء شبه الجزيرة والتى كانت منشأ القول المأثور « جميع الطرق تؤدى الى روما » .

ويعزو الكثيرون الى هذه الطرق السر فى استطاعة الرومان السيطرة على إمبراطوريتهم هذا المدى الطويل من السنين .

حضارة مادية :

وجملة ما يقال فى وصف الحضارة الرومانية ، إنها كانت حضارة مادية بحتة ، تقوم على الغلبة العسكرية ، واصطناع القوة ووسائل القمع والبطش والإرهاب ، وتحويل العدد الأكبر من الشعوب المغلوبة على أمرها إلى عبيد أرقاء ، يساقون إلى روما مصفدين بالأغلال ، مربوطين إلى عجلات المنتصرين .

ولقد جاء الوقت الذى أصبح فيه غالبية سكان روما من العبيد الذين ثاروا على أسيادهم أكثر من مرة . واذا كانت روما قد نجحت فى قمع هذه الثورات[1] باصطناع أعنف الوسائل وحشية ، فقد جاء الوقت الذى تهاوت فيه تحت أقدام هؤلاء الأرقاء والعبيد ، الذين تسلحوا بإيمان جديد ، زودهم بقوة تعلو على الحديد والنار ... قوة مقابلة الشر العاتى ، بالهدوء والطمأنينة والرجاء ... مقابلة الكره بالحب ، عندما نفذت روح المسيحية الى القلوب .

---

(١) قامت فى روما عدة ثورات للعبيد الأرقاء أولها عام ١٣٥ ق . م . وأشهرها ثورة سبارتكوس عام ٧٣ ق . م .

يسوع الناصرى :

وليس فى العالم اليوم إنسان واحد يقرأ ويكتب لم يسمع باسم المسيح ، فالبشرية اليوم فى مجموعها تؤرخ بتاريخ ميلاده حتى المسلمين الذين كانوا طوال ثلاثة عشر قرناً يؤرخون بتاريخ هجرة نبيهم محمد رسول الله ، قد أصبحوا فى العصر الحديث يستعملون التاريخ الميلادى كذلك ، دون أن يروا فى ذلك غضاضة ، لأنهم بدورهم يؤمنون بولادة المسيح المعجزة .

ويؤمن المسيحيون بألوهية المسيح ، وأنه ابن الله الحبيب الذى أرسله إلى الأرض ، ليتعذب ويذبح على الصليب ليكون فى دمه كفارة عن ذنوب البشر ، وكل من آمن بهذه الفكرة فهو ناج خالص من هول يوم الدينونة ، ولذلك يدعى المسيح بالمخلص ، وأما من لا يؤمن بالمسيح على هذه الصورة وأنه ابن الله المولود غير المخلوق ، وهو من نفس جوهر الأب ، وأنه نزل وتجسد وصار إنساناً وتعذب ورفع على الصليب وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات ، فإنه لا يكون مسيحياً مؤمناً[١] .

أما المسلمون فيرون فى المسيح « عيسى بن مريم » صورة أبسط وأبعد عن هذا التعقيد ، فهو واحد من رسل الله الذين بعث بهم على مر العصور إلى بنى الإنسان يدعون إلى سبيله وإلى الأخذ بأسباب الفضيلة والاستقامة وإحقاق الحق وإقامة العدل بين الناس ، وجوهر دعوته هو دعوة كل نبى من قبله أو من بعده ، وهو الإيمان بالله واحداً أحداً لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، تنزه وتعالى عن التشبيه والتجسيد والحلول فى شىء من

---

(١) عقيدة مجمع نيقية عام ٣٢٥ م دورانت جزء ٣ مجلد ٣ ص ٣٨٥ .

مخلوقاته . ذلكم هو إيمان المسلمين بعيسى أو يسوع الناصرى . . . ومعجزة ولادته بنفخة من روح القدس ، لا تشكل فى نظر المسلمين إعجازاً غير عادى لا يكون إلا لابن الله . . . فليست ولادته عن غير أب بأعجب ولا أعصى فى قدرة الله على خلق آدم من غير أب أو أم على السواء .

أما اليهود الذين خرج المسيح من بين صفوفهم ، وتوجه أول ما توجه بالدعوة إليهم ، فيرمون أمه بالإفك ولا يرون فيها إلا فتاة خاطئة واعتبروا المسيح مدعياً ومنحرفاً عن تعاليم كتابهم المقدس وطالبوا حكامهم الرومان بإعدامه ، وبالفعل رفع على الصليب « كما تقول الرواية المسيحية » بناء على طلبهم . وأنكروا ولا يزالون ينكرون أن يكون هو المسيح الذى بشرتهم به أنبياؤهم السابقون ، والذى سيظهر فى آخر الزمان ويملأ الدنيا عدلا وأمناً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

وكتب التاريخ التى كتبت فى القرن الأول الميلادى لا تحدثنا عن شخصية المسيح بشىء كثير أو قليل . وأول إشارة للمسيحيين فى الأدب والتاريخ نراها فى مطلع القرن الثانى الميلادى ، حيث أرسل « بلنى » الأصغر عام ١١٠ م خطاباً إلى تراجان إمبراطور الرومان يستشيره فى الكيفية التى يعامل بها المسيحيين ، وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ أشار تاستس إلى اضطهاد نيرون للكريستيانى أى المسيحيين(١) .

هذا الإغفال من كتب التاريخ هو ما حدا بكثير من الباحثين الأوربيين الذين يتشككون فى كل شىء ، أن ينكروا وجود شخصية المسيح ، وأن يرجعوا أسطورته إلى الأساطير التى كانت شائعة فى هذه الفترة من التاريخ(٢) .

وليس كتابنا هذا خاصاً بإثبات شخصية المسيح ، وحسبنا أن القرآن

---

(١) دورانت ، المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٢) دورانت ، جزء ٣ مجلد ٣ ص ٢٠٢ .

ومن قبله الإنجيل يتحدث عن وجوده ، ولنا الحقيقة المادية الثابتة ، وهى أن وجوده ، أحد معالم الاجتماع الإنسانى الذى أثر ولا يزال يؤثر فى مئات الملايين من البشر قرابة عشرين قرناً من الزمان .

قصة المسيح كما ترويها الأناجيل:

ولا مناص للباحث غير المسلم أن يتلمس قصة المسيح من الأناجيل الأربعة ، وهى تنطق كلها بحياة إنسانية ، فقد ولد يسوع فى قرية بيت لحم « من أعمال فلسطين » ولم تلبث أمه « مريم » أن فرت بطفلها مع خطيبها « يوسف النجار » إلى مصر هرباً من اضطهاد « هيرودوس » ثم لا نلبث أن نرى المسيح يظهر فجأة فى منطقة الجليل وهو يكرز أو بالأحرى يبشر باقتراب ملكوت السماء ، داعياً بنى إسرائيل إلى التوبة والاستغفار مما ارتكبوه من الخطايا والذنوب .

ويقدر الباحثون مدى حياة دعوته وتبشيره بعامين ، لم يلبث بعدهما أن جاءت نهايته ولحق بالرفيق الأعلى فى سنة ٣٢ م والرأى الراجح أن سنه كان يتراوح حول الثلاثين عاماً .

وعندى أن معجزة المسيح الكبرى ، التى تصدع العقل البشرى وتضطره اضطراراً إلى التسليم بانطواء شخصه على سر يستعصى على التحليل العلمى ، هو هذه الحياة العامة المتناهية فى القصر « عامان » مع عظمة التأثير الذى أحدثته فى تاريخ البشر . فكم شهد التاريخ أشخاصاً دعوا إلى الحق والفضيلة والاستقامة والخير ودفعوا حياتهم ثمناً لدعوتهم . . . ومع ذلك فلا يكاد يذكرهم إنسان ، وكم امتلأ التاريخ بالملوك العظام والقياصرة والغزاة والفاتحين والعلماء والفلاسفة ومع ذلك فليس يسجل التاريخ لواحد منهم أثراً باقياً فى نفوس مئات الملايين كما يسجل للمسيح ، إلا أن يكون بوذا من قبله ، وسيدنا محمد من بعده ، وهذا الانفراد بهذا السلطان الروحى على البشر هو الذى ينطق بانطوائهم على سر يستعصى على العقول والأفهام .

وليس للمسيح فى أناجيله الأربعة ، التى قصت علينا قصة حياته السريعة وكيف انتهت ، سوى موعظة واحدة جامعة لـكل تعاليمه وروحها وهى موعظة الجبل ، وهى ناطقة بأن المسيح قد ارتضى الإطار العام للديانة اليهودية ، كما فعل بوذا من قبله إذ ارتضى إطار الديانة الهندوكية ، وحصر تعاليمه فى محاولة إنقاذ النفس البشرية من براثن الشهوات والأحقاد والمادية الطاغية ، والمناداة بدين الحب ، جاعلا الله رمز المحبة[1] . بقوله « الله محبة » ويصل إلى الذروة فى الدعوة إلى الحب والتســامح عندما يقول : « أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم » « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر »[1] . . . . الخ .

تلامذة المسيح أو حواريوه :

وتبع المسيح فى جولاته بعـد أن آمن به ، اثنا عشر تلميذاً يعرفون باسم الحواريين والرسل ، وقد كان واحد منهم « يهوذا » هو الذى خانه وباعه لليهود إذ دل على مكانه ليقبضوا عليه ؛ أما بقية تلامذته ، فقد كمل إيمانهم بعد قيامة المسيح من قبره وتحدثه معهم بروح القـدس ، ثم دعوته إياهم إلى أن يذهبوا إلى الأمم والشعوب ليشهدوا على ما رأته عيونهم وليبشروا باقتراب ملـكوت السماء .

وصدع الحواريون بما أمروا به ، وانطلقوا إلى مراكز الحضارة فى المنطقة وما يجاورها . . . نحو أنطاكيه وكورنثه وغلاطيه . وانفرد مرقص بالذهاب إلى الإسكندرية مكوناً بذلك أعظم كنيسة مسيحية فى الشرق وأقدمها . بينما ذهب داعية آخر ليس من تلامذة المسيح نحو روما مركز الحـكم والسلطان فى تلك الأيام ، فأصبح مقدراً له أن يكون هو ناشر المسيحية فى أرجاء أوربا ، ولـكنها مسيحية من نوع جديد تختلف كل الاختلاف عن مسيحية الشرق ، ولذلك فقد تحولت كما سوف نرى إلى النقيض من كل ما دعت إليه موعظة الجبل . وقد كان هذا الداعية القوى النشيط هو بولس . أو سانت بول .

---

(١) أثبتنا نص موعظة الجبل فى كتابنا تاريخ الانسانية .

مسيحية بولس :

وكان بولس يدعى شاول ، ولم يكن من تلامذة المسيح ولا ممن رآه فى حياته بل لقد سخر نفسه لمقاومة المسيحيين واضطهادهم ، ثم حدث أن أصيب بالعمى وزاره المسيح فى المنام وزجره وأنبه ، ووعده بالشفاء إذا هو آمن به وأقلع عن اضطهاد أتباعه ، ومن ناحية أخرى زار المسيح واحداً من أتباعه وأمره أن يذهب إلى شاول ليشفيه . وشفى شاول بالفعل وارتد بصيراً ، ومن هنا بدأ الانقلاب فى حياته فأصبح من أشد المؤمنين إيماناً بالمسيح ، وحماسة فى نشر الإيمان به ، فى إخلاص وفدائية وصدق .

وكان بولس هو صاحب هذه الدعوة من أن المسيح هو ابن الله ، لا على سبيل الاستعارة والتشبيه حيث يقول المسيح « أبى وأبوكم » ، بل على سبيل الحق واليقين فهو « ابن الله » بمعنى أنه الله بذاته[١] ، حيث يقول فى رسالته إلى أهل كورنتس « لقد رأيت المسيح يسوع ربنا»[٢] ، وكثير من الباحثين الأوربيين ، يعتبرون المسيحية الأوروبية الكاثوليكية ، شىء لا يمت إلى المسيحية الأصلية بسبب وأنها قد تأثرت بالأفكار والعقائد اليونانية ، وهى فى كل الأحوال من صنع بولس .

روما المسيحية :

ولم تعن روما ذات الجلال فى بادىء الأمر بهذا الصارخ فى البرية أن عبدوا طريق الرب ، بل لعلها لم تسمع به على وجه التحقيق كما رأينا طوال القرن الأول ، حتى إذا بدأت تسمع به لم تحفل بما سمعت كثيراً ، ولكن جمهرة سكان روما الذين كانوا من العبيد ، بدأوا يرون فى هذه الدعوة الجديدة باقتراب ملكوت السماء ، أملاً فى الخلاص مما يعانونه من ويلات ، ووجدوا فى التعاليم

---

(١) أعمال الرسل الفصل التاسع ص ٣١ .

(٢) رسالة القديس بولس — إلى أهل كورنثه — الفصل التاسع .

الموحية بالحب والتسامح والغفران ، شفاء لجروحهم المادية والنفسية المتقيحة ، ووجدوا فيها غذاء لأرواحهم الجائعة ، وسرعان ما وجد بولس فى روما بيئة صالحة. وجاء على أثره بطرس أحب تلامذة المسيح إليه والذى قال له «سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السماوات »[1] .

وصادف أن ولى عرش روما قيصر مجنون يدعى نيرون ، عنّ له فى يوم من الأيام أن يحرق روما ليغنى على جحيم لهبها أعظم قصائده (أو هكذا تقول بعض التواريخ) حتى إذا ثاب إلى رشده وأدرك عظيم ما ارتكب ، أذاع أن المسئولين عن هذه الفعلة هم هذا النفر من المارقين على دين الآباء والأجداد ، الخونة الذين يبشرون باقتراب ملك غير ملك روما ، يسمونه ملك السماوات .

وبدأت قصة اضطهاد المسيحيين فى روما وفى أنحاء الإمبراطورية كلها ، كما صورتها فأحسنت تصويرها العديد من الأفلام السينمائية ، وإذا كانت صور الوحشية التى عومل بها المسيحيون مما تكشف عن طبيعة الرومان وحضارتهم ، وتملأ النفوس بالاشمئزاز والتقزز ، فإن الجانب الآخر من القصة ، جانب المسيحيين الأوائل ، وكيف قابلوا المحنة ، مما يثلج الصدر ويرفع من كرامة الإنسان ، فلقد كانوا يرمون إلى السباع الجائعة ، أو يعلقون على الصلبان وتشعل فيهم النيران ، وهم لا ينفكون عن الإنشاد والترتيل تعظيما للرب ، ومن بينهم من يلهج لسانه بقول المسيح « رب اغفر لهم فإنهم لا يعلمون » .

وكان حريا أن يسرى هذا الإيمان العميق إلى قلوب الألوف والملايين . . وهكذا انتشر الإيمان بقرب ملكوت السماء .

مصر مركز العقيدة المسيحية :

وظهرت مصر على الأفق من جديد كمركز رئيسى لهذه العقيدة الجديدة

(١) إنجيل متى ، الفصل السادس عشر ص ٢٠ .

التى تبتعث ما دعا إليه أخناتون قبل ذلك ببضعة عشر قرناً أجمل ابتعاث ، والتى تعكس طبيعة الشعب المصرى أكثر من أى شعب آخر ، فى وداعته وحبه للتسامح ونسيانه الإساءة ، وتغليبه عاطفة الحب على غيرها من العواطف . وعلى ذلك فقد أصبحت الإسكندرية مهبط مرقص الرسول ، هى أعظم كنيسة عالمية للمسيحية ، وبدأ أباطرة الرومان ينيخون على مسيحيى مصر بكلكلهم فى الاضطهاد والتعذيب ، حتى وصل الأمر أيام دقلديانوس إلى أن يصدر أمراً عاماً شاملا عام (٣٠٣) بذبح كل مسيحى رجلا كان أو امرأة أو طفلا . ولكن ذلك لم يزد مسيحيى مصر إلا إيماناً على إيمان ، ورغبة فى إعلاء شأن المسيحية أكثر وأكثر .

قسطنطين يعتنق المسيحية :

وسرعان ما انتصر كفاح المسيحيين وثباتهم ... فلم تمض عشر سنوات ، حتى كان القيصر الرومانى الذى خلف دقلديانوس وهو قسطنطين ، يعتنق المسيحية بنفسه ويصبح حامياً لها ، ولقد حاول بعض خلفائه ، أن يرتد عن هذا القرار ، ولكن القدر كان قد قال كلمته ، والدين الجديد دين المحبة والسلام بسط سلطانه على روما الطاغية الباغية المتغطرسة ، عندما أعلن تيودوسوس المسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية الرومانية حوالى سنة ٣٩٠ م .

تدهور الامبراطورية الرومانية :

وإنه لقدر مقدور أن يقترن إعلان المسيحية ديناً رسمياً للرومان ، بتدهور الإمبراطورية الرومانية وتفككها وانقسامها فى بادىء الأمر إلى شرقية وغربية ، لا تلبث الغربية منها أن تقع فى يد القبائل المتبربرة من القوط والواندال والفرانك والجرمان. والقول على أن هذه القبائل المتبربرة هى أفواج جديدة من هذا العنصر الذى يحرصون على تسميته بالآرى ، أو الهندى أوربى أو القوقازى، وقد ضغطت عليهم أرجال من المغول والتتار الذين سد فى وجوههم باب الصين شرقاً فلم يبق

أمامهم إلا أن يندفعوا غرباً ليخربوا ويدمروا ويعيثوا فى الأرض فساداً . فزحفت أرجال منهم أطلق عليها اسم « الهن » فاكتسحوا أمامهم هذه القبائل الآرية المتبربرة والمتمركزة فى منطقة بحر قزوين والقوقاز ، فانتشروا بدورهم فى منطقة شرق أوربا بينما سكن فريق منهم غابات شمال أوربا التى كانت بدأت تصلح للحياة .

وقد استطاع الرومانيون دائماً وهم فى قوتهم الأولى أن يردعوا هذه القبائل المتبربرة ، وأن يبقوهم على حدود امبراطوريتهم العظيمة مشردين متناثرين ، ولكن مع الزمن واتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية ، وفقدان روح التقشف والحياة الصادقة التى عاشها الرومان فى قرونهم الأولى ، وبعد أن انخرط الكبار والسادة فى الحفلات والملذات والشهوات ، وغصت البلاد بالعبيد والرقيق الثائر المتمرد فى حنايا نفسه ، وغلب العسكريون على القياصرة فأصبح كل قائد جيش يطمع فى العرش إذا هو قهر قرناءه قواد بقية الجيوش الأخرى . . . كل ذلك جعل السوس ينخر فى عظام الإمبراطورية ويفكك أوصالها ، فبدأت القبائل الأوربية المختلفة تجد الطريق معبداً أمامها لكى تغير على أملاك الدولة وتقتطع منها ما شاءت أن تقتطع دون أن تجد رادعاً أو حائلا ، ثم امتدت الجرأة فى الهجوم على روما نفسها ، وأدهش هذه القبائل أن لم تستطع روما أن تقف فى وجههم فزادوا فى جسارتهم . . . وهكذا أصبحت روما مكاناً غير آمن لإقامة الأباطرة .

إنشاء القسطنطينية :

وتصادف فى ذات الوقت أن بدأ الفرس أصحاب الحضارة الزاهرة ، نهضة جديدة فى ظل كسرى جديد وهو ازدشير ، وبدأوا يوسعون نطاق دولتهم على حساب ممتلكات الرومان فى آسيا ، وإذ كانت روما بعيدة عن هذا الخطر ، فقد قرر قسطنطين وخاصة بعد اعتناقه المسيحية ، أن ينقل عاصمة الرومان إلى مكان أكثر أماناً من غارات القبائل الأوربية وأكثر قرباً من موطن الخطر الجديد فى

الشرق ليكون بقدرته مواجهته وملاقاته ، فاختار موقعاً يسيطر على بوغاز البوسفور يطلق عليه اسم بيزنطة . وأنشأ عندها مدينة عظيمة أطلق عليها اسمه ، كما أطلق الإسكندر من قبل اسمه على الإسكندرية ، فأصبحت تدعى القسطنطينية التى أصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية رسمياً فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ ميلادية .

على أن الاسم القديم (بيزنطة) ظل هو الغالب ، فأصبح هذا القسم من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، يعرف منذ ذلك الوقت بالإمبراطورية البيزنطية .

ولم يكد قسطنطين يموت حتى انقسمت الإمبراطورية الرومانية على يد أولاده إلى دولتين مستقلتين . وعجل انتقال السلطة من روما بنهايتها كعاصمة تقدر على الدفاع عن نفسها ، فتعرضت لهجمات عنيفة أكثر من مرة من قبائل القوط تحت زعامة (ألرك — أتيلا) والواندال فاقتحموها ونهبوها ، وأخيراً استطاع « اودكر » قائد إحدى الفرق المرتزقة من الجرمان الذين تجمعوا للنهب والسلب أن يستولى على المدينة عام ٤٧٥م ، وطرد آخر امبراطور للقسم الغربى ، ونادى بنفسه حاكما على روما ، وأسرع امبراطور القسم الشرقى بالاعتراف بهذا الحاكم الجديد ، فقد كان فى شغل عما يجرى فى روما بالأحداث التى كانت قد بدأت تجرى فى الشرق ، مشكلة أكبر المخاطر على وجوده وكيانه .

العصور الوسطى المظلمة ؟ ؟ !

ويختار الأوربيون حادثة تاريخ سقوط روما بين القبائل المتبربرة نقطة يختمون عندها تاريخ العالم القديم ، ليبدأوا تاريخ العالم الوسيط الذى يصفونه بالظلام وانتكاس الحضارة ، ويمدونه عشرة قرون لينهوه فى القرن الخامس عشر بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ، لكى يبدأوا تاريخ العالم الحديث بنهضة أوربا ، وعودة الحضارة إلى الوجود .

ولعل استعراضنا السابق يكشف عن خطأ هذا التقسيم وما ينطوى عليه من رغبة فى ربط الأمور كلها بأوروبا واعتبارها محور الكون ، فإذا أظلمت

أوربا فذلك يعنى أن الدنيا كلها أصبحت فى ظلام ، وإذا عادت أوربا إلى الحياة الحضارية ، فقد عاد الوجود كله إلى الحياة .

إن تاريخ الحضارة كما مر بنا وحدة تكاد لا تقبل التقسيم والانفصال فليس هناك حضارة قديمة وأخرى جديدة ، وليس هناك حضارة شرقية وأخرى غربية ، أو حضارة أسيوية وحضارة أوربية . . . إن تيار الحضارة تيار متصل ، إنه تيار الحياة نفسها التى لا تعرف التخلف والعودة إلى الوراء . . . إنها إلى الأمام أبداً ، وإذا حدث فى جزء من أجزائها ، أن غربت شمس الحضارة لأى سبب من الأسباب ، فليس ذلك إلا لأنها تشرق فى مكان آخر أكثر بهاء وجلاء ونوراً مما كانت فى يوم من الأيام . وهو ما بدأ يدركه الآن معظم الباحثين من المؤرخين والدارسين والكتاب من الأوربيين والأمريكان ، فيبددون خرافة القول بأن الدنيا غشيها الظلام إبان العصور الوسطى ، ويقررون الواقع الذى يثبت عكس ذلك ، فإذا كانت روما نزلت بالفعل عن عرشها ووقعت فى يد المتبربرين ، وأعقب ذلك بضعة قرون غرقت فيها أجزاء كثيرة من أوربا فى الظلام ، فإن أربعة أخماس البشرية فى ذلك الوقت كان يزدهر بالحياة الحضارية الرفيعة ويتهيأ لاستقبال إحدى وثبات الإنسانية ومرحلة من مراحل حضارتها الإنسانية الكبرى .

جوستنيان :

فامبراطورية الرومان الشرقية كانت لا تزال تمثل أرقى ماوصل إليه الرومان ، سواء فى القوة العسكرية ، أو الموهبة التشريعية والقانونية ، والقدرة الفنية فى الإنشاء والتعمير ، وقد تحقق ذلك كله على يد رجل واحد هو جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) فاستعاد سلطانه فى البر والبحر ، وأصدر « مدونة جوستنيان » القانونية التى جمع فيها كل تراث الرومان القانونى ، والتى اعتمدت عليها البشرية منذ ذلك التاريخ كلما أرادت الاغتراف من القانون الرومانى ، وأنشأ فيما أنشأ كنيسة أيا صوفيا ، التى حولها المسلمون بعد فتح

القسطنطينية إلى جامع أيا صوفيا ، ثم أعاد كمال أتاتورك فى القرن العشرين الجامع إلى كنيسة جاعلا منها متحفاً للفن البيزنطى فى أعظم صوره وبهائه .

فارس والهند والصين :

وإلى الشرق من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، كانت فارس تتضوع من جديد بالحضارة التى ألمعنا إليها فيما سبق ، وتسترد قوتها العسكرية فتصطدم فى سلسلة من المعارك بالإمبراطورية البيزنطية وتتغلب وتنتصر عليها .

وإلى الجنوب من فارس كانت الهند ، تكون مدارسها الفلسفية التى شادت هذا البناء الشاهق من الفكر الإنسانى ، الذى يقف الإنسان فى العصر الحديث أمامه حائراً مشدوها أن يكون العقل الإنسانى قد وصل إلى هذه الدرجة من محاولة التعمق والغوص فى دنيا المجهول واللانهائى .

وإلى جوار الهند كانت الصين بدورها فى مرحلة من مراحل الازدهار الحضارى وازدهار المدارس الأدبية والفنية وخاصة الشعر والشعراء ، كما أسهمت البوذية فى الصين وفى الهند بدورها فى إذكاء لهب الفلسفة والفكر والحكمة ، وطبعت فى هذه الفترة الكتب والمؤلفات والموسوعات التى حفظت تراث الصين كله والتى تجعلها جنة المؤرخين .

وحفل الشرق بمئات الملايين من البشر فى الهند والصين وفارس ومصر ، عاشوا حياة مهذبة تفيض قلوبهم بالشفقة والمحبة ، وتهتز مشاعرهم بالرقة والحنان ، ولعل أغلبيتهم الساحقة لم تسمع عن سقوط روما فى يد القوط والواندال ، وغابة أودكر وخلفائه عليها ، غير أن الأمر المحقق أنه لم يطف بخيال العائشين فى الهند والصين ومصر ، أن الحياة فى أوربا الغربية سوف تنحدر ، فلا تعرف حياة المدن ، ولا تعود تزيد لعدة قرون عن قرى مسورة ، تضم بين جنباتها أكواخاً صغيرة ، حيث تقوم من حين لآخر فوق هذا المرتفع أو ذاك ، قلاع

كئيبة مظلمة ، حيث يعيش النـاس فى هذه أو تلك ، يغمرهم الجهل والتمزق والانقسام ، ويحرقهم التعصب باسم الدين المسيحى دين الحب والرحمة ، فيحولونه إلى جحيم من الخوف والأحقاد والاضطهاد والتنـكيل والتقتيل باسم الصـليب والمسيح ، لا ، لم يكن يطوف بخيال مئات الملايين فى الهنـد والصين وفارس ومصر والشرق بصفة عامة ... أن مثل هذا يحدث فى أوربا ، فقد كانت العقول متفتحة متسامحة منطلقة فى لهفة إلى المعرفة ، تقدس العلم والعلماء[1] . وليس أدل على أن ذلك كان شأن الشرق فى هذه الفترة من أن هرقل امبراطور بيزنطة ، أرسل إلى الصين وفداً يلتمس ودها ويسـتعين بها ضد فارس غريمته ، ولـكن امبراطور الصين ، فيما يظن ، قد اعتذر عن إجابة هرقل إلى طلبه فلم يعرف عن الصين المتمدينة أنها بدأت حرباً هجومية على جيرانها ، بل لقد أنشأت حول نفسها سور الصين العظيم لـكى يكون سـداً يدفع عنها غارة المغيرين ، ويذكرها بأن لا تتجاوزه لتعتدى على الآخرين .

رسالة من محمد رسول الله :

ويقول بعض مؤرخى أوربا ، إن امبراطور الصين قد تلقى رسالة أخرى من إنسان كان فى ذلك الوقت أقل شأناً بكثير من هرقل الروم ، وكان شأن هذه الرسالة عجباً أى عجب ، فهى على خلاف رسالة قيصرة لم تستعده ضد أحد ، أو تطلب منه عطاءاً من أى نوع كان . . . وإنما تضمنت دعوة لا يمـكن أن تـكون قد بدت غريبة فى نظر امبراطور الصين ومن يحيط به ، إذ أنها تتحدث عن إله واحد خالق للـكون ومدبره ، وتدعو امبراطور الصين للايمان به للفوز فى الدنيا والآخرة[2] .

---

(١) مختصر تاريخ العالم — هـ.ج ويلز — ص ١٦٩

(٢) لم تذكر المصادر العربية كابن هشام والطبرى ، نبأ هذه الرسالة وإنما القول على أن رسائل الرسول قد أرسلت إلى كسرى فارس وهرقل الروم ومقوقس مصر وامبراطور الحبشة . ولم يذكر هـ . ج . ويلز المصدر الذى نقل عنه هذا الخبر لنتحقق منه ، على أن لدينا من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ، حديثاً يقول « اطلبوا العلم ولو بالصين » وهو كاف للدلالة على مكانة الصين العلمية وشهرتها وحث المسلمين على شد الرحال إليها .

ولم يكن أمبراطور الصين هو وحده الذى استقبل سفارة محمد بن عبد الله الداعية إلى التوحيد ، فقد تسلم مثلها عظماء العالم ورؤوس دوله فى ذلك الزمان : تسلمها كسرى ملك فارس ، وهرقل امبراطور الروم ، وامبراطور الحبشة زعيم أفريقيا ، والمقوقس كبير القبط فى مصر وقد جاء فى الرسالة إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعوة الإسلام ، إسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وهكذا كان ما اعتبره مؤرخو أوربا بدء العصور الوسطى المظلمة ، هو بدء عصر من أزهى العصور الإنسانية ، عصر غمر بالحضارة والنور القسم الأكبر من البشر فى ذلك الوقت ، وبدلا من روما بقسوتها وجلاديها ووحوشها وعبيدها وأرقائها ، طلع على الإنسانية عهد من المحبة والأخوة البشرية والأمن والسلام العالمى ، ما لم تنعم به من قبل كثيراً .

ميلاد محمد بن عبد الله :

أشرنا فيما سبق ، كيف أن روما عند ما كانت تجعل من أغسطس قيصر إلهاً وتنشىء له الهياكل والتماثيل ، ولد فى بيت لحم يسوع الناصرى الذى كان مقدراً له أن يرث عرش قيصر وأن تقام له لا لقيصر ، الهياكل والتماثيل .

وكأن التاريخ يأبى إلا أن يكرر نفسه من حين لآخر ، إذ بينما وجدت فارس فى شخص كسرى برويز ملكا عظيما أعاد لها مجدها وعظمتها كأبهى ما كانت فى يوم من الأيام ، وبينما وجدت الإمبراطورية الرومانية الشرقية « بيزنطة » فى شخص امبراطورها هرقل ملكاً قوياً حازماً رشيداً استطاع أن يجدد شبابها وأن يقيل عثرتها وأن يوقف تدهورها ، وظن أن عصرها الذهبى يوشك أن يعود من جديد .. كان يولد فى مكة عام (٥٧٠ م) محمد بن عبد الله . ومكة مسقط رأس محمد لا تعدو أن تكون قرية تقع فى منطقة مقفرة مجدبة تحيط بها الجبال ، لا ينمو فيها زرع ولا تسقط فيها أمطار ، وإنما يعيش سكانها على بئر واحدة من الماء هى بئر زمزم . وتقوم شهرة هذه القرية القابعة بين الجبال على أنه يقوم وسطها بناء الكعبة ، وهو بناء من الحجر الصلد مربع الأركان والارتفاع ، وهو مكعب نموذجى ، وليست هذه الكعبة سوى بيت أقامه إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل لعبادة الله الأحد ، ولكن العرب من بعد إبراهيم وإسماعيل حولوه إلى مجمع للأوثان والأصنام ، جرياً على سنة هذه العهود الوثنية .

ولما كانت مكة تقع فى شبه جزيرة العرب وهى صحراء قفراء بلقع ، فلم يحدث أن فكر فاتح أو غاز من الشرق أو الغرب سواء من بابل أو فارس أو مصر أو اليونان أو الرومان ، فى أن يستولى عليها ، فما كان لغير الأعراب راكبى الجمال ، وقارضى الشعر ، أن يخترقوا هذا الخضم من الرمال ، وما كان

باستطاعة الجيوش أن تقطع هذه المسافات الشاسعة ، لغير سبب أو هدف إلا أن تضيع فى الرمال .

على هذه الصورة عاش العرب فى قلب الجزيرة العربية ، لا يعرفون سوى حياتهم القبلية الخاصة ، لم يحدث أن جمعهم فى أحد الأيام جامع ، فحياتهم كلها حروب متصلة بين القبائل وبعضها ، وإذا توقفت حرب السيف والرمح ، فلكى تثور حرب الشعر والهجو باللسان . لا يعرفون معنى الاستقرار ، ولا تطيب لهم الحياة فى سلام ، تؤلف إبلهم كل ثروتهم ومحور حياتهم .

قصة الرسول :

وقصة الرسول أشهر من أن تعرف ، ولعلها انفردت من بين سائر أقاصيص الأنبياء ، وعظماء البشر أجمعين ، بأنها محققة بكامل تفاصيلها ، فليس يستطيع أكثر المتنطعين تشككاً وتحذلقاً أن يتشكك فى حقائقها الثابتة فقد جرت كلها على سمع التاريخ وبصره ، وسجلها تاريخ الشرق والغرب ، وعاصرها عشرات ومئات الألوف من الناس ، وتركت أثرها المادى والحضارى على جبين الزمان .

مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب وهو لا يزال فى بطن أمه « آمنة بنت وهب » وعهد به بمجرد ولادته على عادة العرب إلى إحدى المرضعات فى البادية « حليمة السعدية » وبعد موت أبيه وجده ، كفله عمه أبو طالب أحد زعماء قبيلة قريش وهى التى كانت تسكن حول مكة ، وسرعان ما اشتهر منذ صباه المبكر بالصدق والأمانة ، فاشتغل بالتجارة مع عمه فى خدمة سيدة نساء قريش « خديجة بنت خويلد » ولم تلبث أن أوقع الله حب محمد فى قلبها فعرضت عليه الزواج منها وقبل .

فكفته بذاك مؤونة الكدح سعياً وراء لقمة العيش ، وكرس نفسه للبحث وراء الحقيقة ، فقد كان كل شىء من حوله يهتف به أنه إنسان فذ بين العالمين ،

كانت العيون لا تقع عليه إلا ويحس أصحابها أنهم فى حضرة بشر غير عادى ، كان لا ينطق بقول ، أو يتصرف تصرفاً إلا وتصغى له الآذان وتتفتح له القلوب ، وهكذا امتلأت نفس محمد بن عبد الله بأن عليه واجباً ورسالة نحو بنى الإنسان ، وهو أن يكشف لهم عن حقيقة الوجود والحيـــاة ، فاستحب العزلة ومداومة التفكير والتأمل ، ووجد شفاء نفسه من هذه الناحية فى الاعتصام برأس جبل يوجد فيه غار هو غار حراء ، فراح يعتـكف فيه شهراً من كل عام هو شهر رمضان ، حيث كانت زوجته المخلصة تزوده بطعام يكفيه شهراً ؛ ينقطع فيه عن ملاقاة بنى البشر وصروف الحياة ، يقطعه فى التأمل فى ملـكوت السموات والأرض فى الجبال من حوله ، والشمس والقمر ، فى الإنسان والحيوان والنبات فى الحياة والموت ، فيما وقع للبشر من أحداث وما يجرى بينهم وما هو آت إلى آخر الزمان . حتى إذا كانت ذات ليلة من ليالى رمضان ، وهو ملتجىء إلى الغار كعادته كل عام ، وكان قد أتم الأربعين من عمره إذ فاجأه ما روعه وجعل بدنه يرتجف ، فرأى ضوءاً وسمع صوتاً ، وأحس بشىء يهزه بقوة ويهتف به « اقرأ » فلما أن احتج وهو فى شدة الفزع بعدم قدرته على القراءة ، هزه هذا الطارىء الخفى ، هزة أقوى من الأولى وألح عليه فى القراءة ، وعـــاود محمد الاعتذار ، فإذا الصوت الخفى الذى يعجز علمنا عن تفسيره يهتف به فى وضوح وجلاء :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

وكان هذا أول القرآن ، ومنذ هذه اللحظة بدأت أعجب وأغرب قصة قصتها صحائف التاريخ ، وليس ما يقرب منها أو يدانيها مع اختلاف الشكل والآثار غير قصتى بوذا والمسيح ، على أن شخصيتى بوذا والمسيح قد غرقتا فى خضم من الأساطير والضباب ، وتحولتا إلى آلهة وأرباب . . . وظلت شخصية محمد بن عبد الله شخصية إنسانية متـكاملة واضحة محدودة ، فقد حرص سيدنا محمد على

تأكيد هـذا المعنى فى نفس كل من يحيط به ورده القرآن وكرره لينقشه فى الأفئدة والصدور « قل إنما أنا بشر مثلـكم يوحى إلىّ » .

والمسلم لا يـكمل إيمانه ، بل لا يكون مسلماً إلا إذا شهد بأن الله واحد ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فما الذى فعله هذا الإنسان الذى انفرد من بين نظرائه فى أن يظل الإنسان.

الدعوة المحمدية :

لقد بدأ أول ما بدأ ينكر على قومه عكوفهم على الأصنام ، ودعاهم إلى الإقلاع عن عبادتها وعبادة الله الواحد الأحد ، رب السماء والأرض الذى لا شريك له ، ليس كمثله شىء وهو السميع العليم .

الله خالق البشر جميعاً والمسوى بينهم فى الإنسانيه والحرية والـكرامة . وكانت هذه الدعوة تمثل بالنسبـة لقريش والعرب ، كل ما يقلب حياتهم وأفكارهم ومفهوماتهم فى كل شىء ، ولذلك فقد تلقوا دعوته ساخرين ، حتى إذا بدأوا يجدون عبيدهم وأرقاءهم يفتحون قلوبهم لها ، تحولوا من السخرية إلى تشديد النكير ، فبدأوا يضطهدون كل مستمع لهذا الدعوة فضلا عمن يستجيب لها ، فما أذهلهم إلا أن يروا نفراً من سادتهم كأبى بكر الصديق ، ومن أشدهم مغالاة فى محاربة المسلمين ينضم إلى صفوفهم « كعمر ابن الخطاب » ، فقرروا فى خاتمة المطاف أن يقتلوا محمداً ويضعوا حداً لرسالته ، فهاجر من مكة إلى المدينة . وبدأ لون جديد من الاضطهاد أخذ صورة العدوان المسلح على المؤمنين ، وكان المؤمنون يطالبون فى المرحلة الأولى بالصبر والإذعان واحتمال الأذى . . . حتى إذا وصل الأمر إلى حد تجييش الجيوش لإبادة الدعوة الجديدة أذن الوحى للرسول وأتباعه أن يدافعوا عن أنفسهم ، أو بالأحرى أن يدافعوا عن عقيدة

التوحيد والحق والعدل الإنسانى والسلام « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » .

وصدق الله وعده للمؤمنين بمحمد فإن هى إلا ثمانى سنوات بعد الهجرة من مكة ؛ حتى كان يعود إليها مهللا مكبراً بدين الحق ، وحتى كان يحطم الأصنام من حول الكعبة وهو يهتف قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . . . ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

دين الإخاء والمساواة والكرامة الإنسانية :

وتوحدت شبه جزيرة العرب لأول مرة فى تاريخها حول لواء التوحيد ، ولكن رسالة محمد لم تكن لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم وإنما كانت للناس كافة ، فراح يرسل مبشريه يحملون رسائله إلى ملوك العالم ورؤسائها يدعونهم بدعوة التوحيد والأخوة البشرية .

والدعوة إلى الأخوة البشرية قديمة قدم الإنسان كما رأينا . . . ولكن محمداً رسول الله لم يقف عند حد الدعوة إليها ، بل لقد طبقها بالفعل ، فجعل من خواص صحابته بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، وجعل زيد بن حارثة وهو المولى والرقيق ، أميراً على أقيال قريش[1] الفخورة بأورمتها ، والمعتزة بأنسابها . وهو ما لم يتم تحققه حتى الآن فى أرق المجتمعات ادعاء للديمقراطية وتفاخراً بالحضارة والمدنية ، حيث لا يزال التمييز العنصرى والجنسى يفرض نفسه فرضاً .

وقد كان الرسول يصدع فى ذلك بدعوة القرآن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

---

(١) محمد صبيح — نور الله .

« إنما المؤمنون إخوة » « المسلمون سواسية كأسنان المشط » « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ولا تتسع هذه العجالة للافاضة فى شرح مبادىء الإسلام ، وكيف غاص إلى جوهر الأديان كلها ، وقدم للبشرية أصفى توحيد للألوهية وأنقاه ، وحرر الإنسان من نير الكهنة والكنيسة ومحترفى الأديان ، فجعل العلاقة بين الإنسان والرب علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط ، وجعل من أركان الدين أن يشارك الفقراء الأغنياء فى أموالهم بقدر معلوم ودعا أصحاب الديانات كلها للتآخى والعيش مع الإسلام فى سلام(1) .

خلفاء النبى :

ومرة أخرى لم يكن عجباً ، أن لا يكاد الرسول صلوات الله عليه يلحق بالرفيق الأعلى (٦٣٢ م) حتى مضى صاحباه أبو بكر وعمر بن الخطاب على سنته ، فملئت الدنيا حيث وصلت جيوش المسلمين عدلا وسلاماً .

ويقف جميع الكتاب والباحثين والدارسين فى أى شأن من الشئون من الأوربيين أو الأمريكان مذهولين حيارى أمام هذه الظاهرة التى يعجز العلم المادى عن تفسيرها ، ظاهرة انهيار جحافل الفرس والرومان أمام الطلائع الإسلامية ، فإن هى إلا بضع سنوات حتى كانت فارس والعراق وسوريا وفلسطين ومصر تستظل بلواء هذه الدعوة الإسلامية الجديدة ، دعوة توحيد الله ومساواة البشر وأخوتهم . . وإن هى إلا سنوات أخرى حتى كان شمال أفريقيا يدخل تحت لواء الدعوة ، ومن شمال أفريقيا عبرت الطلائع الإسلامية مضيق الصخرة الذى سمى منذ ذلك اليوم بجبل طارق زعيم المسلمين ، وانتشر الإسلام فى أرجاء شبه جزيرة إيبريا فيما يسمى الآن أسبانيا والبرتغال . وبينما كان هذا

---

(1) أقرأ تفصيل ذلك كله فى كتاب « فى الإيمان والإسلام » للمؤلف .

يحدث فى الغرب ، كانت الطلائع الإسلامية تزحف شرقاً حتى وصلت إلى حدود الصين ، ولم تكن الدعوة فى حاجة إلى اقتحام سور الصين بالقوة ، فقد نفذت إليها دعوة التوحيد فى سلام ، ونفذت إلى الهند جنوبا وإلى أرمينيا والقوقاز شمالا .

وما أكثر ما قاومت الشعوب من اعتبرتهم غزاة فاتحين ، فقاومت عقائدهم وعاداتهم ولغاتهم فضلا عن الخضوع الدائم لسلطانهم ، أما هذه المرة وهذا موضع الدهشة عند الباحثين ممن لا يؤمنون بالإسلام ديناً من رب العالمين ، فقد ألقت الشعوب ، التى أظلها الإسلام ، بكيانها فى أحضان دعوته ، فاعتنقت الإسلام ديناً واتخذ أكثرها لغة القرآن بديلا عن لغته القومية ، وحتى بعد أن زال سلطان العرب العسكرى ظلت هذه الشعوب تلوذ بالإسلام ، وتضطرم حماستها له ولنشر تعاليمه ، كما فعل الأتراك العثمانيون ومن قبلهم المغول والتتار .

وفى ذلك يقول دورانت ، كاتب قصة الحضارة البشرية :

« وحيث عجزت الهيلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف سنة ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية ، فى كل هذه البلاد والأقاليم انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، واعتنق الدين الجديد المسيحيون ، وجميع الزرادشتيين والوثنيين ، وكثير من اليهود فى آسيا ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين وأندونيسيا والهند حتى فارس والشام وجزيرة العرب ومن مصر حتى الأندلس ، وتملك خيالهم وسيطر على أخلاقهم وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ، وأوحى إليهم العزة والأنفة[1] » .

وعندنا أن السر الذى يشده الأوربيين ويستعصى على أفهامهم إنما يكمن

---

(١) دورانت الجزء (٢) مجلد (٤) ص ١٣٣ .

فى حقيقة بسيطة واضحة ، وهى أن الإسلام يوحد الألوهية ويلغى كل وساطة بين الإنسان وخالقه ، ويحقق أمل بنى الإنسان فى الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية ، وهو ما فتئوا ، على مر العصور ، يسعون إليه ويجاهدون من أجله .

توقف موجة المد الإسلامى :

لقد وقفت موجة المد الإسلامى عند القسطنطينية فى أوربا الشرقية ، كما توقفت فى الغرب عند حدود فرنسا الغربية ، عندما استطاع شارل مارتل زعيم القوط أن يهزم عبد الرحمن الغافقى فى موقعة « بواتييه » عام ٧٣٢ م .

ولقد هللت مراكز النصرانية فى ذلك الوقت ، وظلت تهلل نيفاً وعشرة قرون لهذا النصر الذى أنقذ أوربا من أن تقع فى « براثن » الإسلام ، ولكن من حسن الحظ أن الحقيقة لا يمكن إلا أن تنتصر أبداً ... فما أكثر كتاب أوربا وكبار مفكريها ممن يؤرخون اليوم لأوربا ، يندبون حظها لهزيمة المسلمين فى تلك الموقعة ، إذ ترتب عليها غرق أوربا خمسة قرون على الأقل فى دياجير الظلام ، وحسبنا أن ننقل ما كانت عليه حياة أوربا فى هذه الفترة كما وصفها العلامة الأمريكى المؤرخ درابر :

« لقد كانت أوربا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حول المدن فكانت تنتشر فيها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم حيث يستغيثون ولا مغيث .

« وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والبوص ، ولم يكن فيها نوافذ أو أرضيات خشبية . أما الأبسطة فكانت مجهولة لديها ، وكان يقوم مقامها القش فينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف بالبيت ثم يتسرب من ثقب صغير

صنعوه له فى السقف ، فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل أنوع الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة ، فيلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، أكواماً تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم حيواناتهم المنزلية .

«وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش ، فوقه كيس من الصوف يستخدم كمخدة . وكانت النظافة معدومة لديهم فلا يعرفون لها رسماً ، وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا مرة فى الأسبوع . ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط أو مصابيح ، وكان من أثر الجهالة المنتشرة فى أرجاء أوربا أن عمتها الخرافات والأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وراجت أحابيل الدجالين . وكان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ، ولم يلتفتوا إلى أمر النظافة فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً حتى أنها زارت أوربا عدة مرات ، فاجتاحت ملايين من أهلها فى أيام معدودة »[1] .

قرطبة وبغداد :

والآن فلنقارن هذه الصورة التى كانت عليها أوربا فى هذه العصور بما كانت عليه حال العالم الإسلامى ، كما تصوره حاضرتان من حواضره العديدة وهما قرطبة فى الغرب وبغداد فى الشرق . فأما قرطبة فيصفها العلامة درابر الذى وصف لنا حالة أوربا بقوله : « ليست أوربا العصرية بأعلى ذوقاً ولا أرق مدنية ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس فى عهد العرب ، فقد كانت الشوارع مضاءة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط وكانت تدفأ شتاء بالمواقد وتهوى صيفاً بالنسمات المعطرة ، بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة بالزهر . وكان لهم حمامات ومكتبات ومحلات لتناول

---

(١) محمد فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين .

الغذاء ، وينابيع مياه عذبة . وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات . وكانوا بدل النهم وإدمان السكر فى المـآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين ، يحلون مآدبهم بالقناعة فكانت الخمر محرمة عليهم . وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تنزههم فى الليالى القمرية فى حدائقهم البالغة حد الجمال ، أو بجلوسهم حول أشجار البرتقال ، يستمعون إلى قصة مسلية ، أو يتجادلون فى موضوع فلسفى ، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم ، إنها لو كانت بغير آلام أو إصابات لنسوا حياتهم . وكانوا يوفقون بين جهادهم فى الحياة ، وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة » .

ولا جدال عندنا أن العلامة الأمريكى درابر قد ترك لخياله العنان ليصور هذه اللوحة الأدبية لحياة المسلمين فى قرطبة ، غير أن الذى لا شك فيه أنه كونها طبقاً لمطالعاته عن حقائق الحياة الإسلامية فى تلك الأيام .

أما صاحبنا دورانت فهو يصف لنا بغداد فى الشرق بقوله :

وليس لدينا إحصاء لسكان بغداد موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون ٨٠٠ ألف ، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين . ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت فى القرن العاشر الميلادى أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم ، وكان فيها حى للمسيحيين مزدحم بهم تقوم فيه كنائس وأديرة ومدارس .

ويمضى دورانت فى وصف قصور بغداد إلى أن يقول :

« حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ م سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين الحكومة البـالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، وإيواناتها ذات الأعمدة الرخامية وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر ، تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران .

وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيل الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة . وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة » إلى أن يقول :

« ويمكن القول بوجه عام أن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الترقى ، وكان من المظاهر التى تشرف بها الحياة فى بغداد ، أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء »(١) .

المأمون وشارلمان :

وإذا كنا قد قارنا بين القرى فى أوربا والمدن العظمى فى العالم الإسلامى ، فقد بقى أن نقارن بين ملك من أعظم ملوك أوربا فى هذه الفترة وكيف لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وذلك هو شارلمان الذى توج إمبراطوراً مسيحياً على أوربا كلها ، وبين المأمون الذى كان إذا قهر إمبراطور بيزنطة فى احدى المعارك ، جعل الغرامة الحربية تتلخص فى تسليم قدر معين من كتب أرسطو وأفلاطون وجالينوس وغيرهم من علماء اليونان وفلاسفتهم .

حضارة إنسانية :

وإنى لأحسب أننى قد أسهبت فى المقارنة بين ما كانت عليه أوربا المسيحية بعد سقوط روما وما كان عليه بقية العالم فى ظل الإسلام ، وأخشى ما أخشاه أن يتهمنى متهم بالتعصب لدين ضد دين أو لجماعة ضد أخرى ، والله يشهد أن ذلك هو أبعد ما يكون عن خاطرى وإنما جرنا إلى هذا السياق هو أن نرد الحق

---

(١) قصة الحضارة — جزء (٢) مجلد (٤) — ص ١٦٤ .

إلى نصابه ، فما أكثر ما تجنت أوربا على الشرق والمسلمين بصفة خاصة .. . حتى لقد أسقطت تاريخهم وتاريخ الشرق كله من الحساب كما رأينا ، فوصفت العصور الوسطى بأنها كانت عصور ظلام . فكان لزاماً على المؤرخ المحايد أن يثبت زيف هذا الادعاء . . . وأن الظلام كان فى أجزاء من أوربا أو على وجه التحقيق فى أوربا الغربية ، ولكنه لم يكن كذلك حيث عاش المسلمون فى غربها « فى الأندلس » ولا حيث احتك المسيحيون فى الشرق بالمسلمين فى بيزنطة الأوربية ، ناهيك ببقية العالم التى كانت فى أوج مظاهر المدنية والحضارة .

مزيج من الحضارات :

وليس أدل على أننا نؤمن بوحدة الحضارة الإنسانية ، وأن التعصب أبعد ما يكون عن نفسنا وتفكيرنا ، أن نسرع فنقرر أن هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التى ازدهرت فى عواصم العالم الإسلامى الكبير ابتداء من سمرقند ، حتى بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة ، ليست سوى مزيج من كل هذه الحضارات التى تحدثنا عنها من قبل ، حضارة مصر القديمة وبابل وفينيقيا وفارس والهند والصين والإغريق والرومان وبيزنطة مجتمعة ، بعد أن نفخ فيها الإسلام من روح القرآن ، القرآن الذى بدأ أول ما بدأ كما رأينا بالدعوة إلى القراءة والإشادة بالعلم ، والذى حمل حملة شعواء على الجمود والتقليد والتمسك بالأوهام البالية ، ودعا الى البحث والإنطلاق والتدبر ، والتفكر فى كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر فلكية وأخرى طبيعية . كما يستحث على مذاكرة التاريخ ، والسياحة فى الأرض فى طلب العلم والمعرفة ، ورفع العلم والعلماء مكاناً علياً ، فقال فيما قال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فلا عجب إذا انكب المسلمون على استيعاب كل ما وقع فى أيديهم من علوم

الأولين والآخرين ، ولا عجب أن أسرعوا ينقلون إلى العربية تراث الإغريق والهنود والفرس ، وأضافوا إلى ذلك كله ما توصلوا إليه بتجاربهم التى أربت على تجارب الأولين بعد أن رأوا من الدنيا ما لم يرونه ؛ فكان أن أبدعوا وجددوا من العلوم ما لا يزال يحمل الأسماء العربية حتى الآن تتردد على ألسنة علماء الذرة صانعى الصواريخ لأنهم لا يستطيعون مواصلة أبحاثهم إلا على أساسها ومن خلالها ، كعلم الجبر وعلم الكيمياء .

— ٦ —

الحروب الصليبية :

وكان لا بد وقد انقسم العالم كما رأينا إلى قسمين متقابلين ، قسم اختص فيه المسلمون بالرقى والتمدن والحضارة ، وقسم كان يعيش فى الجهالة وضيق الأفق والتعصب ، أن يقع الاصطدام بين الكتلتين . ولقد وقع الاصطدام بالفعل فيما يعرف فى التاريخ باسم الحروب الصليبية حيث كان الأوربيون المحاربون قد اتخذوا من الصليب شعاراً لهم ، فرسموه على ملابسهم وعلى دروعهم وأعلامهم. ويعزى إلى قس أوربى متعصب جاهل ، يدعى بطرس الراهب أنه كان صاحب أول صرخة بالدعوة إليها عام (١٠٨٨) فقد عاد بعد زيارة إلى بيت المقدس يبكى ويولول ، ويستحث المسيحيين الطيبين لتخليص مهد المسيح وبيت المقدس من المسلمين الكفار . وتصادف فى ذات الوقت أن استغاث إمبراطور بيزنطة بالبابا اربان الثانى بابا روما ، مستنجداً به للدفاع ضد المسلمين الذين كانوا يهددون القسطنطينية . فانتهز اربان هذه الفرصة لكى يزيد من سلطانه وسيادته على أوربا من مشرقها لمغربها ، وكانت البابوية فى هذه القرون هى السلطة الوحيدة المعترف بها فى قلوب المسيحيين جميعاً ، ولذلك قد وجه اربان نداءه لتخليص البلاد المقدسة من أيدى المسلمين الكفرة ، إلى النبلاء والشعوب ، واعداً بالجنة كل من ينتصر أو يموت فى هذه الحرب الدينية المقدسة ، ومهدداً بالنار والجحيم كل من يتقاعس عن تلبية النداء ، ومبشراً بالفتح والنصر كما ألهمه يسوع الرب . . وعلى هذه الصورة ابتدأت الحروب الصليبية ، والتى ظلت مستعرة الأوار أكثر من مائتى سنة « ١٠٩٥ — ١٢٩١ » وكانت الحملة الأولى التى قادها بطرس الراهب من شذاذ الأرض وخليط من الناس ، وقد أبيدت هذه الحملة فى الطريق قبل أن تصل إلى بيت المقدس .

وتعددت بعد ذلك الحملات الصليبية التى يخطئها العد أحياناً ، وقد وصلت الحماقة والجهل ببعض هذه الحملات إلى أن تألفت من الأطفال والصبيان ، لأن السيد المسيح تجلى لواحد من الدعاة وبشره أن فتح بيت المقدس سيكون على يد الأطفال . . . وتسير جموع الصبية بالفعل وراء هذا النداء ، فيموت منهم بالجوع والبرد فى أثناء الطريق من يموت ، ويساق البقية الباقية ليباعوا كعبيد وأسرى . وقصدت حملات إلى مصر باعتبارها رأس العالم الإسلامى ولا سبيل لتحطيم الإسلام إلا فى القاهرة ، ولكن هذه الحملات ارتدت عنها خائبة ... وحملات سلمية قام بها بعض الملوك العقلاء من أمثال « فردريك الثانى » ، والذى استطاع أن يحقق بالاتفاق مع سلطان مصر ما لم تستطع الجيوش أن تحققه .

وانتهت الحروب الصليبية وأسدل الستار عليها بسقوط آخر موقع بقى فى يد الصليبيين وهو مدينة عكا عام ١٢٩١ ، واندحر الأوربيون نهائياً وأعلنوا يأسهم من الانتصار نهائياً على الشرق الإسلامى ، ولكنا قبل أن نتحدث عن نتائج الحروب الصليبية ، لا نستطيع إلا أن نذكر صورتين متقابلتين من صورها ، لا لنصور الفارق بين الغرب المسيحى الذى أعماه التعصب والجهل ، بالشرق الإسلامى المستنير المتسامح فحسب ، بل لأهمية هذه المقارنة فى كسر حدة الحروب الصليبية وإطفاء نارها المتأججة .

الصليبيون فى بيت المقدس :

أما الصورة الأولى فهى صورة الصليبيين المؤلفين من الفرنسيين والإنجليز والألمان وغيرهم ، عند ما نجحوا لأول مرة فى فتح بيت المقدس وانتزاعه من المسلمين فقد أبوا إلا أن يمارسوا ما اعتاد الرومان والقبائل المتبربرة فى حروبهم أن يمارسوه ، فأقسموا أن يخوضوا فى بحار من الدماء وأن يقيموا جبالا من الجثث والجماجم ، وقد بروا بقسمهم فكانت النساء يقتلن طعناً

بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون من فوق أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد . وذبح السبعون ألف مسلم الذين ظلوا فى المدينة . أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم وأشعلت فيهم النار وهم أحياء[١] .

« ثم توجه المنتصرون وعيونهم تفيض بالدمع وقلوبهم تخفق بالعرفان بالجميل للمسيح المخلص رب الحب والسلام »[٢] .

صلاح الدين فى بيت المقدس :

ومرة أخرى نعتذر ، كما اعتذرنا من قبل ، فليست أمثال هذه الصور مما تروى فى كتاب يتحدث عن تاريخ الإنسانية ، ولكن الصورة الحضارية التالية لا يمكن أن تدرك بكل أبعادها إلا بعد التقديم لها بالصورة السابقة ، فعند ما قدر للمسلمين تحت زعامة صلاح الدين أن يستردوا بيت المقدس من الصليبيين بعد معركة حطين (١١٨٧ م) ودخل صلاح الدين بيت المقدس ، لم يقتل أحداً من سكانها النصارى ، بل حقن دماءهم جميعاً ، وعرض على من يرغب فى عتق نفسه من الرق والعبودية أن يغادر المدينة بعد أن يدفع عشر قطع ذهبية إذا كان رجلا ، وخمس قطع عن المرأة ، وقطعة واحدة عن الطفل ، فتقدم العادل ، شقيق صلاح الدين واستوهبه عتق ألف من الفقراء غير القادرين على دفع الفداء فأهداهم له فأصبحوا أحراراً ، ثم راح زعماء الصليبيين ومطارنتهم يستهدون بدورهم صلاح الدين مثل هذه الهدية فيهديهم إياها ، ولم يلبث صلاح الدين نفسه أن عتق كل من لم يستطع دفع الفدية من كبار السن .

ويضيف دورانت نقلا عن مؤرخى الحروب الصليبية من الأفرنج « ورق

---

(١) دورانت — الجزء الرابع مجلد (٢) ص (٢٥) .

(٢) العبارات للدكتور هندريك فان لون — قصة الجنس البشرى .

صلاح الدين لدموع النساء والبنات ، فأطلق من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن المحاربين . أما النساء والبنات اللائى قتل أزواجهن أو آباؤهن ، فقد وزع عليهن من ماله الخاص ، ما أطلق ألسنتهن بحمد الله والثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة[1] . وقد أحنقت هذه المعاملة الإنسانية التى لم يسمع بمثلهما فى تاريخ الحروب بعض معاصرى صلاح الدين ومؤرخى هذه الحقبة ، فانتقدوه واستهجنوا تصرفاته ، فقد كان من رأيهم أن يعامل الصليبيون بمثل ما عاملوا المسلمين به من قبل فتقطع رؤوسهم أو يحرقون ، ناسين أن صلاح الدين كان يعكس حضارة إنسانية من أسمى ما عرف البشر من حضارات ، وكان يتأسى ويقتدى برسول الله الذى عذبته قريش ما عذبت ، وهددته بالإفناء ، حتى إذا أمكنه الله منها ودخل مكة فاتحاً منتصراً ، قال لهم كلمته المشهورة المدوية فى كتاب الزمان « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ولقد انتصر الرسول ففتح القلوب كلها بهذا الأسلوب الجديد فى معاملة المغلوبين والمقهورين ، فقد دخلت الناس على الأثر فى دين الله أفواجا أحراراً طائعين فرحين مهللين .

وكذلك كان الأثر المباشر لتصرف صلاح الدين الكريم ، فقد انكسرت حدة الحروب الصليبية ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة وإن استمرت بعد ذلك قرناً آخر من الزمان .

الحروب الصليبية نقطة البدء فى نهضة أوربا :

انتهت الحروب الصليبية بهزيمة أوربا ، ولكنه كان خذلاناً خيراً من الانتصار فقد عاد على أوربا بأطيب الثمرات . فقد ذهب الصليبيون أول ما ذهبوا إلى الشرق تاركين وراءهم ما وصفناه سابقاً من قرى صغيرة تغص بالزرائب ومرابط الخنازير ، والفضلات المتعفنة ، وروائح الناس الذين ورثوا معاطفهم وقبعاتهم عن أجدادهم الذين لم يعرفوا قط نعمة الصابون ، حتى لقد

---

(١) دورانت — المرجع السابق (ص ٣٨) .

غشى يوماً على ملك فرنسا نفسه عندما كان ينظر من نافذة قصره من نتن رائحة الخنازير التى كانت ترعى فى شوارع باريس ، وكانت الأوبئة والطواعين والجدرى تفرى الناس فرياً .

وعاد الصليبيون من الشرق بعد أن رأوا شمسه وحضارته وجمال مدنه ، ناقلين معهم طائفة جديدة من المواد الغذائية والفواكه التى زرعوها (لاتزال تحمل أسماءها العربية) عادوا يلبسون العباءات الفضفاضة من الحرير والقطن المصنوعة فى الشرق(١) .

وهكذا لم يبدأ القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى كانت أوربا تخلع عنها نهائياً ظلمات العصور الوسطى التى تردت فيها ، وشهدت ازدهاراً تجارياً لامثيل له فى القرون السابقة ، واستتبع الازدهار التجارى أو سبقه وعاصره ثورة زراعية عارمة ونهضة صناعية كبرى . وبدأت المدن الجمهورية تنمو وتكبر بسرعة فى إيطاليا على وجه الخصوص باعتبارها كانت حلقة الصلة بين أوربا الغربية والشرق من خلال البندقية وجنوا فى البحر ، وفلورنسا وبيزا وميلان فى الداخل .

وترنح عهد الإقطاع ؛ حيث كان كل أمير أو فارس يبنى لنفسه قلعة يتحكم منها على كل من يجاوره من فلاحين فيصبحون أتباعاً له مرتبطين بالأرض لا يستطيعون منها فكاكا ، ويدخل كل إقطاعى فى حرب لاتنقطع مع جيرانه أصحاب القلاع ، حتى يدين أحدهما للآخر بنوع من الولاء . وبدأ الملوك فى انجلترا وفرنسا يشتد ساعدهم ، ويزيدون من سلطانهم على بقية الإقطاعيين من الأمراء والفرسان تمهيد التوحيد دولتيهما .

الماجنا كارتا :

ومن ناحية أخرى ، فإن إبرام ميثاق « الماجنا كارتا » فى إنجلترا ، يرجع إلى هذه الحقبة من تاريخ أوربا ، عندما أرغم أساقفة الكنيسة والأمراء

(١) هندريك فان لون — قصة الجنس البشرى — ص ٨٣ وما قبلها وما بعدها .

ملك انجلترا عام ١٢١٥ على توقيع هذا الميثاق ، الذى يقيد سلطان الملك المقدس ، وتعتبر هذه الحركة هى أول ثورة فى أوربا للحصول على الدساتير بمعناها الحديث ، حيث تقرر فى الدرجة الأولى حقوق الإنسان . ولم يكن ذلك إلا أحد آثار احتكاك أوربا بالعالم الإسلامى .

على أن أهم أثرين جاءا فى أعقاب الحروب الصليبية وكان لهما أكبر الأثر فى دفع أوربا نحو التطور المذهل الذى شهدته القرون التالية ، هما حركة الإصلاح الدينى ، وحركة الكشوف الجغرافية .

الإصلاح الدينى :

ولا تكاد تذكر عبارة الإصلاح الدينى حتى يرد على الفور اسم مارتن لوثر الذى كان أول من تحدى سلطة البابا فى منح الغفران ودخول الجنة عن طريق بيع صكوك لكل من يدفع ثمنها ، حتى أصبحت هذه الصكوك أشبه بالعملة الورقية المتداولة بين الناس ، وقد حدث ذلك التحدى والاحتجاج أول ما حدث عام ١٥١٧ أى فى القرن السادس عشر . ومع ذلك فإن هذا الإصلاح الدينى لم يكن فى الحقيقة نقطة البداية بقدر ما كان خاتمة المطاف ، فقد كان من شأن الدعوة الإسلامية بمجرد انتصارها هذا الانتصار الساحق أن تحدث أثرها العميق فى الديانة المسيحية .

فمنذ مطلع القرن الثامن الميلادى (٧٢٦ م) نرى إمبراطور بيزنطة (ليو) يشن حملة لمحاربة مظاهر الوثنية فى الديانة المسيحية ، فيدعو إلى تحطيم تماثيل المسيح من الكنائس ومسح صوره وأيقوناته ، مبتدئاً فى تاريخ المسيحية ما عرف باسم محاربة عبادة الصور أو الحركة (اللاأيقونية) . وقد ظلت هذه الدعوة ، تنتصر حيناً ، وتهزم حيناً آخر لتعود للظهور تارة أخرى ، وليس ذلك إلا أحد مظاهر تأثر العقيدة المسيحية نفسها بتعاليم الإسلام الذى قام فى الدرجة الأولى على محاربة الأصنام .

ولذلك فليس ينبغى كما قدمنا أن يعتبر مارتن لوثر أول من بدأ حركة

الإصلاح الدينى ، وإنما الحق أن يوصف أنه هو الذى انتصرت على يديه نهائياً حركة الإصلاح الدينى ، وانتصاره بالذات كان هو دليل ما وصل إليه سلطان الكنيسة من وهن وضعف ، فقد أحرق من قبل كل من حاول من المصلحين أن يتصدى لمحاربة الفساد البابوى . . . وذل الملوك الذين حاولوا أن يرفعوا رأسهم متحدين سلطة البابا وسيادته على العالم المسيحى ، باعتباره خليفة بطرس الرسول ظل المسيح على الأرض(١) . فنجاة مارتن لوثر من الحرق جزاء كفره وخروجه على الكنيسة ، وتصدى بعض أمراء ألمانيا لحمايته ، وعدم مبادرة الشعب نفسه إلى تمزيق لوثر ، هو آية التحول الذى كان قد طرأ على دنيا المسيحية ، وسنشير فيما بعد لماذا كانت ألمانيا من دون سائر بلاد أوربا هى البادئة بإعلان العصيان والتمرد على سلطة البابا والكنيسة بصفة عامة ، وعلاقة ذلك المباشرة بالاتصال بالحضارة والتعاليم الإسلامية .

وحسبنا الآن أن نسجل أن جوهر الإصلاح البروتستنتى الذى يقوم على الغض من سلطان الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة من ناحية ، وتحرير العقل الذى أدى إلى انطلاق الأوربيين فى ميدان العلم والكشف من ناحية أخرى ، يتفق وتعاليم الإسلام والحضارة الإسلامية .

وتقوم الكنائس البروتستانتيه فى طول الدنيا وعرضها خالية من تماثيل المسيح والعذراء كشاهد حى على هذا الأثر(٢) .

---

(١) بلغت سلطة البابا فى العصور الوسطى أوجها على يد جريجورى السابع . عندما فرض على إمبراطور ألمانيا هنرى الرابع ، أن يسير ذليلا خاضعاً على قدميه من ألمانيا حتى مقر البابا فى بلدة كانوسا ، وكان الإمبراطور يلبس ملابس من الخيش إشعاراً بتوبته ، وظل واقفاً على باب مقر البابا ثلاثة أيام بلياليها ، قبل أن يؤذن له فى المثول بين يدى البابا لينال عفوه وغفرانه .

(٢) اقرأ البحث الطريف القيم عن « صلة الإسلام بإصلاح المسيحية » الذى قدمه الأستاذ أمين الخولى إلى مؤتمر الأديان الدولى المنعقد بمدينة بروكسل عام ١٩٣٥ .

عصر الكشوف الجغرافية :

على أنه لا نهضة إيطاليا الفتية ، أو ازدهار الحركة التجارية وقيام المدن ، ولا حركة الإصلاح الدينى بكل جلالها ، بالتى كان يمكن أن تحدث كل هذا الانقلاب الذى حدث فى حياة أوربا فقلبها رأساً على عقب وحولها من قارة متخلفة ، إلى قارة متقدمة وسابقة فى التقدم ، لو لم تكن حركة الكشوف الجغرافية ، التى يعترف الجميع بأنها أحد الآثار المباشرة للحروب الصليبية .

فقد كان معنى هزيمة الصليبيين واندحارهم العسكرى نهائياً وجلائهم عن آخر موطىء لأقدامهم ، أن طريق الشرق قد أصبح مسدوداً فى وجوههم ، ولم يعد باستطاعة الأوربيين الذين تذوقوا أطعمة الشرق وارتدوا ملابسه ، أن يستغنوا عن هذه الأطايب ، ولما كان الشرق البعيد أى الهند والصين وجزر الهند الشرقية هى مصدر الكثير من هذه المنتجات الزراعية والصناعية من أفاويه وحرابر وأسلحة ، وخاصة هذه الحبوب السحرية العجيبة التى تسمى الفلفل والتى تجعل للطعام مذاقاً رائعاً ، فقد جهد الأوربيون الغربيون أنفسهم لضمان استمرارهم للحصول على هذه المواد . وقد كان الطريق الطبيعى للحصول عليها هو من خلال تجارة البندقية مع مصر التى كانت تحتكر هذه التجارة وحققت قدراً كبيراً من الغنى بسببها أيام سلاطين المماليك . ولم يكن أكره على الأوربيين الغربيين من أن يكونوا سبباً فى زيادة ثراء المصريين ؛ بل إنهم جميعاً قد بدأوا ينفسون على مدينة البندقية عظمتها وثروتها وغناها الذى حققته من خلال احتكارها للتجارة مع مصر والشرق الإسلامى فبدأت الأبصار والعزائم كلها ترنو إلى اكتشاف وسائل جديدة للاتصال بالشرق البعيد (الهند والصين) عن غير هذا الطريق .

ماركوبولو :

وشاءت الظروف أن يتمكن أحد أبناء البندقية الذى اشتهر فى التاريخ باسم « ماركوبولو » أن يصل بجهوده الخاصة عبر سهول روسيا إلى الصين ،

ثم يعود منها عام (١٢٩٧) ليحدث مواطنيه عما رآه وشاهده فى هذه البلاد العظيمة التى لم تقع عليها عين أوربى من قبل ، حدثهم عن « قوبلاى خان » إمبراطور الصين العظيم وعن حكمته وعلمه ، عن المدن التى يتجاوز عدد سكان الواحدة منها المليون ، عن الريف الصينى المشرق الذى يغص بالخيرات والأمن والسلام ، وكيف تقام على جوانب الطرقات فنادق لتأوى المسافرين وتقدم لهم الطعام والشراب . حدثهم عن منسوجات الحرير والقطيفة الملونة المزركشة بخيوط من الذهب والفضة ، وعن أوراق النقد التى يتعامل بها الصينيون ، وعن الورق والطباعة والبارود ، بل لقد ذهب فى حديثه معهم إلى ذكر هذه الجزر الكبيرة التى تتاخم شاطىء الصين والتى كان يسمع الأوربيون اسمها لأول مرة فى التاريخ وهى « اليابان » وعن كميات من الذهب والفضة التى لا حصر لها فى هذه الجزر .

وقد اعتبر الأوربيون أقوال ماركوبولو خرافات وتهاويل ، ولكن مواطنيه من البنادقة أهل جنوا وإيطاليا بصفة عامة وفى أسبانيا والبرتغال ، حيث كانت الحضارة الإسلامية ، لم يقابلوا كلامه بالتكذيب الذى قوبل به فى غير هذين المركزين من بلاد أوربا ، وإنما كان لأقواله فعل السحر فى إلهاب خيال الملاحين والمغامرين والتجار فى البحث عن اكتشاف طرق للوصول بها إلى هذا الشرق البعيد الغنى ، عن غير طريق مصر والعالم الإسلامى .

وكانت أسبانيا والبرتغال من دون سائر بلاد أوربا هى الرائدة فى هذا الميدان ، ميدان الكشف عن طريق للوصول إلى الشرق . أما لماذا كانت البرتغال وأسبانيا من دون سائر أوربا هى صاحبة هذا الجهد فذلك يقتضينا أن نعود إلى الوراء بضع عشرات من السنين فقد كان آخر العهد بنا أن هاتين الدولتين « أسبانيا والبرتغال » كانتا تعرفان باسم الأندلس وكانتا تستظلان بظل الإسلام .

سقوط الأندلس :

إذا كانت أوربا الصليبية قد فشلت كما رأينا فى غزو الشرق ، فإنها لم تلق

البلاح نهائياً ضد الإسلام والمسلمين ، فقد كان للمسلمين فى غرب أوربا نفسها معقل أى معقل ، فتحولت الحرب الصليبية وأخذت قوة جديدة وهدفاً جديداً ، وهو تصفية المسلمين والإسلام من شبه جزيرة ايبريا .

وكان العصر الذهبى للحكم الإسلامى فى الأندلس ، عصر عبد الرحمن الناصر والمنصور قد ولى منذ زمن بعيد ، وحل محل هؤلاء الملوك العظام ، أمراء شغلهم اللهو والمنازعات القبلية عن واجباتهم ، فبدأ الزحف المسيحى ينتزع المدن الإسلامية معقلا بعد معقل ، واستطاع حاكما دولتى أرجون وقشتاله « فردناند وإيزابلا » بعد زواجهما أن يوحدا جهودهما مؤلفين دولة أسبانية قوية استطاعت أن تنتزع آخر معقل فى غرناطة عام (١٤٩٢) وبذلك طوى العلم الذى استمر ثمانية قرون (٧٣٠ — ١٤٩٢) وعادت أسبانيا والبرتغال بأجمعها إلى حظيرة الكاثوليكية . ولما كان المسلمون فى هذه الحقبة من التاريخ قد بلغوا شأواً كبيراً فى الملاحة وعلم البحار ، وأجادوا استعمال البوصلة التى كانت تمكنهم من ارتياد البحار فى أوسع مجال بالليل والنهار ، فقد استخدم البرتغاليون هذه العناصر العربية فى القيام بنشاط بحرى واسع النطاق يهدف إلى اكتشاف طريق للوصول إلى الشرق بالطواف حول أفريقيا . فبدأت رحلات من يلقب بالأمير هنرى الملاح . وأعقبه بارتلوميودياز الذى كان أول أوربى طاف حول رأس الرجاء الصالح (١٤٨٨) .

اكتشاف أمريكا :

وبينما كان البرتغاليون يجاهدون فى مثابرة لتحقيق حلم أوربا الغربية العظيم وهو الوصول إلى الهند والصين عن غير طريق مصر والشرق الإسلامى ، وقعت الواقعة على يد ملاح من جنوا عمل لحساب أسبانيا ، ونحن نسميها واقعة فليس لهذا الحدث من تسمية سوى أنه واقعة ، كان مقدراً لها أن تزلزل العالم القديم زلزالا ، حيث خرج للدنيا ما ظل يوصف حتى عهد قريب بالدنيا الجديدة .

ولابد أن تكون قد عرفت الآن من هو هذا الرجل المقصود فهو ليس إلا خريستوف كولمبس ، الذى طالع فيما طالع كتب ابن رشد وما تضمنته من أحاديث عن كروية الأرض ، كما قال الإغريق من قبل وأمن العرب على أقوالهم ، واقتنع كولمبس بفكرة كروية الأرض ووصل اقتناعه إلى حد الإيمان ... فأعلن مشروعه ، وهو الذهاب إلى الشرق عن طريق السير فى البحر غرباً . فكان مواطنوه من أهل جنوا أول من سخر به ، فاضطر أن يذرع أوربا كلها عارضاً مشروعه على الملوك والأمراء ورجال الكنيسة ليجد من يساعده على تحقيقه ، فصدت فى وجهه الأبواب واعتبر مجنوناً ومعتوهاً ، وليس إلا فى بلاط أسبانيا ، حيث كانت آثار الحضارة الإسلامية لاتزال باقية زاهية ، أن وجد كولمبس مستمعاً لمشروعه الخيالى ، وكانت ايزابللا ملكة أسبانيا بالذات من مدت له يد المساعدة .

وعلى ذلك ففى الثالث من أغسطس عام ١٤٩٢ أبحر كولمبس من ميناء بالوس بأسبانيا فى ثلاث سفن ، مبتدئاً رحلته نحو الهند عن طريق السير غرباً فى بحر الظلمات ، كما كان المحيط الأطلسى يسمى فى هذه الأوقات ، وحملته الرياح التجارية فأوصلته إلى جزر البهاما ، ثم إلى جزيرة كوبا ، فتصور كولمبس أنه قد وصل إلى بلاد الهند بالفعل بلاد « الخان الأعظم » وعاد إلى أسبانيا فى ١٥ مارس من العام التالى (١٤٩٣) معلناً نجاحه فى اكتشاف الطريق إلى الهند عن طريق السير نحو الغرب .

وارتجت أوربا لهذا النبأ ، وكان حقيقاً بها أن ترتج ، فهى لم تكن قد اكتشفت طريقاً جديداً للوصول إلى الهند فحسب ، ولم تكن قد أثبتت كروية الأرض محدثة بذلك ثورة فى معارف ذلك الزمان فحسب ، وإنما كانت تضم إلى قارات العالم الثلاث قارتين أخريين ستغيران ميزان القوى والحضارة ، وتبدآن صفحة جديدة من صحائف التاريخ .

على أن هذه الحقيقة ظلت خافية على كولمبس نفسه بالرغم من أنه قام

بأربع رحلات إلى أمريكا ، ومات وهو يجهل حقيقة ما كشف ، ولذلك فلم يكن اسم كولمبس هو الذى أطلق على القارتين الجديدتين ، بل كان ذلك من حظ أحد ملاحيه ، الذى قام بعد كولمبس بعدة رحلات سنة (١٥٠٠) وكان هو الذى قال لأوربا المذهولة ، إن هذه الأرض ليست هى الهند وإنما هى قارة جديدة ، ولما كان هذا الرجل يدعى أمرجو فقد سميت القارة الجديدة بهذا الاسم فأصبحت أمريكا .

فاسكو دى جاما وماجلان :

أما الطريق المنشود إلى الهند ، فقد كان فاسكو دى جاما هو الذى توصل إليه ، بعد أن طاف حول أفريقيا ووصل إلى الهند وتصدى للأسطول المصرى فى المحيط الهندى ليضمن الغلبة للأسطول البرتغالى ، وليقضى على الطريق التقليدى لتجارة الهند والصين والشرق عبر البلاد المصرية . ووصلت هذه الاكتشافات الجغرافية البحرية ذروتها على يد ماجلان الذى طاف حول العالم فى ثلاث سنوات مثبتاً بذلك كروية الأرض بما لا يحتاج بعد ذلك إلى برهان ، ومكتشفاً لأوربا جزر الفلبين ، وكان هو الذى أطلق عليها هذا الاسم نسبة لفيليب ملك البرتغال. وإذا كان قد قدر له أن يموت قبل تمام الرحلة فإن سفنه أتمت الرحلة وعادت من حيث أبحرت ، فأعلنت البرتغال نفسها سيدة على البحار .

تقسيم العالم بين أسبانيا والبرتغال :

وكاد أن يقع بين البرتغال وأسبانيا الاصطدام ، إلا أن البابا تدخل لحسم النزاع بين الدولتين الكاثوليكيتين فأعلن بما بقى له من شبح السلطة تقسيم العالم بين الدولتين ، فإلى الشرق من خط معين يكون من نصيب البرتغال ما لم يكن فى حوزة أمير مسيحى يوم عيد ميلاد سنة ١٤٩٢ ، وما يقع إلى الغرب من هذا

الخط فهو من نصيب الأسبان ، مع مراعاة نفس الشرط وهو أن لا يكون فى حوزة أمير مسيحى فى التاريخ المذكور[١] .

وقد كان هذا التقسيم لوناً من ألوان الأوهام ، التى كانت لا تزال تدور فى ذهن بابا روما ، فإن هى إلا عشرات من السنين حتى تكون الدول المسيحية وعلى رأسها هولندا وانجلترا ، بل وفرنسا الكاثوليكية نفسها ، هى أول من يضرب عرض الحائط بهذا التقسيم ، وتظل تنتقص من أطراف الإمبراطورية الأسبانية حتى لا يبقى لها سوى مسقط رأسها فى شبه الجزيرة وكذلك الشأن بالنسبة للبرتغال[٢] .

سقوط القسطنطينية بأيدى المسلمين الأتراك :

ولعل القارىء الذى يتابع معنا هذه الكشوف المذهلة والتطورات البعيدة المدى فى سير التاريخ ، يقدر لماذا لم يحدث سقوط القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية المسيحية الشرقية فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ فى يد الأتراك المسلمين كبير فزع أو جزع فى نفوس مسيحيي الغرب ، فقد كانوا يتهيأون للقيام بأحداث جسام ، وكان حديث الحروب الدينية قد أمضهم ، ولم يعد يثير فى نفوسهم أى حماسة .

الأتراك العثمانيون :

أما من هم هؤلاء الأتراك المسلمون ، الذين نجحوا أخيراً فيما عجز المسلمون طوال تسعة قرون عن تحقيقه ، وهو احتلال القسطنطينية ، فهم فرع من الأسرة المغولية ، اعتنقوا دين الإسلام منذ عهد مبكر ، وقد سموا بالعثمانيين نسبة إلى جدهم الأول عثمان الذى قادهم إلى آسيا الصغرى ، وخاض بهم أول معركة ناجحة .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم — الجزء الثالث — ص ٢٨٩ .

(٢) لا يزال للبرتغال بعض مستعمرات فى أفريقيا « أنجولا وموزامبيق » ولكنها فى طريقها إلى التحرر .

وقد استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم دولة قامت على حطام الدولة البيزنطية ، التى كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والهزال ، وبعد أن فرغ آل عثمان من احتلال ماللبيزنطة من أراض فى آسيا الصغرى وشرق البوسفور ، فقد عبروا إلى الشاطىء الأوربى وبدأوا فى الاستيلاء على أملاك الدولة فى منطقة تراقيا ومقدونيا (رومانيا وبلغاريا) وانتهى الأمر بمحمد الفاتح أن استولى على القسطنطينية نفسها ، جاعلا منها عاصمة الإمبراطورية العثمانية الجديدة ، ولا شك فى أن بابا روما قد طرب فى ذلك الوقت لهذا النبأ لما يعتبره جزاءاً وفاقاً لتمرد هذه البلدة الكافرة على سلطانه ، وتمسكها بأن كنيسة الشرق لا كنيسة روما هى صاحبة السلطة العليا فى دنيا المسيحية .

أهى نهاية العصور الوسطى ؟

وكما حلا للمؤرخين الأوربيين أن يعتبروا سقوط روما هو بدء العهد الوسيط عصر الظلمات فى أوربا والعالم ، فقد حلا لهم كذلك أن يعتبروا سقوط القسطنطينية بين الأتراك هو نهاية هذه العصور المظلمة وبدء عصر النهضة فى أوربا ، ويربطون بين بداية نهضة أوربا وسقوط القسطنطينية برباط ساذج « علمونا إياه فى المدارس فى صبانا » وهو أنه قد ترتب على سقوط القسطنطينية أن فر من بها من العلماء والفلاسفة من المسيحيين إلى بلاد أوربا ، حاملين معهم تراث الإغريق القديم ، فلم تكد هذه الكتب العظيمة ، كتب أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس وإقليدس ، تقع فى يد الأوربيين حتى راحوا يغترفون منها ومن هنا بدأ عهد النهضة وعصر التنوير .

والكتاب المحدثون من الأوربيين أنفسهم يرون سذاجة هذا التفسير ، ويضربون عرض الحائط بهذا التقسيم التحكمى لعصور التاريخ ، فليس هناك فجوات وفواصل بين عهد وعهد وعصر وعصر ، فالعصور كلها متداخلة متشابكة والحضارة لا تمنع عن أوربا جملة ثم تتهيأ لها جملة .

ولقد رأينا فيما مر بنا ، كيف لم ينقطع الاتصال بين الأوربيين والمسلمين قبل الحروب الصليبية وأثناءها وبعدها ، ولقد عرفت أوربا كتب أفلاطون وأرسطو عن طريق المسلمين وفلاسفتهم وحكمائهم ، كما عرفت جهابذة العرب من أمثال الخوارزمى (صاحب الجبر) وجابر بن حيان (صاحب الكيميا) وابن سينا (صاحب الطب) والبيرونى وابن خلدون وعشرات غيرهم(١) .

وقد كان هناك فى أسبانيا مركز دائم للترجمة فى مدينة طليطلة ، بعد أن تحولت إلى مدينة مسيحية من جديد ، وفى هذا المركز كانت ذخائر العربية كلها تترجم إلى اللاتينية ، ولذلك فلم يكن بمحض الصدفة ، أن كانت جامعة باريس من دون جامعات أوربا كلها هى البادئة بدراسة الفلسفة (عام ١١٠٠ م) والإجماع منعقد على أن جامعة باريس قد عرفت الفلسفة الإغريقية ، وفلسفة أرسطو خاصة عن طريق ابن رشد .

والرأى منعقد كذلك على أن عملاق الكنيسة المسيحية فى ذلك الوقت وهو توما الاكوينى « توماس اكوناس » قد تلقى معارفه عن أرسطو من خلال هذا الطريق نفسه ، وروجر بيكون « ١٢١٠ — ١٢٩٣ » الذى يقول عنه هـ. ج. ويلز فى كتابه مختصر تاريخ العالم « إنه أعظم اسم يدوى فى هذا التاريخ بعد أرسطو » . كان يعترف بما للعلوم الفلسفية الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله ، وبما هو مدين به لليونان عن طريق العلماء المسلمين(٢) .

صقلية الإسلامية :

ولم تكن الأندلس فى غرب أوربا هى المصدر الوحيد المباشر لانتقال المعارف الإسلامية إلى أوربا ، بل كان ثمة مصدر آخر تنتقل منه هذه المعارف

(١) تراث العرب العلمى ، قدرى حافظ طوقان .

(٢) دورانت جـ ٦ مجلد ٤ ص ٢٠٦ .

بطريق مباشر إليها ، وذلك هو جزيرة صقلية فقد حكمها المسلمون منذ فتوحاتهم الأولى وظلوا يحكمونها حتى استولى عليها النورمان عام ١٠٩١ ، ولم يلبث روجر الثانى أن جعل من بلرم فى صقلية عاصمة ملكه ، واستعان بمن فيها من المسلمين على تنظيم حكومته فكانت له حكومة تعتبر من أرقى ما عرفت أوربا من حكومات ، ومن أكثرها غنى وحضارة وعلماً ، وحسبنا أن نذكر أنه كان من بين علمائها الإدريسى العالم الجغرافى العظيم الذى ألف كتاب « نزهة المشتاق » والذى اعتبر أعظم كتاب من كتب الجغرافيا والتاريخ فى تلك الأيام ، وقد أهداه لروجر .

ومن بين خلفاء روجر ، جاء فردريك الثانى الذى كان إمبراطوراً على ألمانيا وصقلية فى ذات الوقت ، وهو يعتبر أعظم ملوك القرن الثالث عشر ، وكان من مقومات عظمته إجادته اللغة العربية ، واستيعابه العلوم والمعارف الإسلامية مما جعله يحقق أعظم انتصار سلمى فى الحروب الصليبية . وكان بلاطه يغص بفلاسفة المسلمين واليهود وعلمائهم ، وكانت عملية الترجمة لنقل المراجع الإسلامية دائبة لا تنى ، ولعل هذا يفسر لنا لماذا كانت ألمانيا من دون دول أوربا كلها هى البادئة بالإصلاح الدينى (١) .

بدء النهضة الأوربية من إيطاليا :

ولما كانت جزيرة صقلية هى الشاطىء المقابل لجنوب إيطاليا ، وكانت البندقية من قبل هى حلقة الاتصال بين إيطاليا والشرق ، وكانت تمثل صورة من الحضارة المشرقة التى تذكر بحضارة أثينا وعصرها الذهبى ، فلا عجب أن كانت إيطاليا هى البادئة بالنهضة وسارت على أثرها فرنسا وألمانيا ، ومن هاتين الأخيرتين امتدت إلى سائر الأرجاء .

---

(١) دورانت ج ٤ مجلد ٤ ص ٢٨٧ ، وصلة الإسلام بالمسيحية لأمين الخولى ص ٣٦ .

نشأة المدن الأوربية والطبقة الوسطى :

ومع ازدهار التجارة التى ألمعنا إليها من قبل ، بدأت تنشأ المدن التجارية داخل أوربا ، ونشأت طبقة التجار ، وإلى جوار التجار نشأت هـذه الطائفة الأخرى من العلماء والفنانين ؛ مؤلفين بذلك طبقة جديدة لا هى من النبلاء والفرسان ، ولا هى من الزراع والحرفيين ، فأطلق عليها اسم الطبقة الوسطى ، وسرعان ما أثبتت هذه الطبقة أن مركز الثقل قد انتقل إليها . ومع استعمال أوربا للبارود الذى نقله إليهم العرب عن الصين كما قدمنا . . . بدأ عصر الفروسية وعهد القلاع فى التداعى ، وظهرت على الأفق الملـكيات القوية التى قضت بالتدريج على عصر الإقطاع . كل هذه العوامل مجتمعة هى التى أدت بأوربا إلى نهضتها الحديثة ، وهى عوامل ممتدة على الزمن كما رأينا وليس حادث سقوط القسطنطينية ، إلا كحادث سقوط روما من قبل لا يؤلف ولا يصح أن يؤلف نقطة تحول فى التاريخ .

عهد النهضة :

وعندنا أن عهد النهضة الأوربية قد بدأ بانتهاء الحروب الصليبية ، أو لعله قد بدأ خلالها ؛ وجاءت الـكشوف الجغرافية فـكانت هى النار التى أشعلت عزائم الأوربيين وشوقهم إلى المعرفة والمقامرة واقتحام المجهول والتمرد على القديم والتطلع إلى كل ما هو جديد .

وبدأنا نشهد فى أوربا عصراً كعصر مصر القديمة أو عصر بابل أو الإغريق ، أو عصر الإسكندرية أو عصور بغداد والقـاهرة وقرطبة ، وبدأ يلمع فى سماء أوربا نجوم زاهرة ما زالت تسطع حتى الآن فى دنيا الفنون والعلوم كما سطعت أسماء أسلافهم من قبل ، وبدأت تطالعنا الأسمـاء المدوية فى شتى الميادين ، فنرى دانتى عملاق الشعر يذكر بهوميروس ، وبوكاشيو وبترارك يبدآن أدباً إيطالياً بلغة جديدة ، ونرى فى دنيا الفن أسماء تذكر بفيدياس الإغريقى ، من أمثال

ميكائيل أنجلو ورفائيل وليوناردو دافنشى . وفى دنيا العلوم والفلك تطالعنا أسماء كوبرنيكس وجاليليو وديكارت ، وتدخل انجلترا لأول مرة فى ميدان العلوم والمعارف الإنسانية ، فتقدم لنا شكسبير كأعظم ما يكون الشاعر والمؤلف الدرامى ، وتقدم لنا نيوتن كأعظم ما يكون العلماء .

ويحلو للأوربيين ، كما هو شأنهم ، أن يرجعوا إلى هذا العهد طلائع النظم الديمقراطية ، واختراعات الطباعة والورق والبارود ، واكتشافهم الأسلوب والمنهج العلمى التجريبى الحديث على يد رجال من أمثال روجر بيكون وفرانسو بيكون وديكارت ، وقد رأينا كيف أن ذلك كله محض تفاخر ، فقد سبق الإنسان الصينى والهندى والعربى إلى ذلك كله ، وإنما الصحيح أن يقال ، إن أوربا الحديثة توصلت إلى هذه المعارف فى هذا التاريخ ، ونفخت فيها من روح العصر وحاجاته الجديدة المتطورة .

— ٧ —

ظهور دول أوربا الشمالية :

نحن الآن على وشك الانتهاء من القرن السابع عشر ، واستهلال القرن الثامن عشر حيث يتهيأ المسرح العالمى للمرحلة التى نعيش فيها مرحلة القرنين التاسع عشر والعشرين . فدول أوربا الشمالية والشرقية التى نعرفها اليوم قد أخذت مكانها فى العرض العظيم ، ولست أعنى بهذه الدول فرنسا وانجلترا أو ألمانيا وهولندا وأسبانيا والبرتغال ، فهذه أسماء قد مرت بنا وترددت أكثر من مرة فى فصولنا السابقة ، وإنما أعنى بها دول السويد والنرويج والدانمرك ، بعد أن خرجت من الضباب الذى كان يلفها وخلفت دينها الوثنى وإلهها « أودين » واندمجت فى الأسرة المسيحية ، كما برزت النمسا والمجر وبروسيا وبولندا ، وراحت هذه الوحدات الجديدة كسابقتها من قبل تخوض المعارك فيما بينها ، وبين الدول الأقدم عهداً ، ثم بدأت ريح المعارك والحروب تهدأ ... هذه الحروب التى أخذت فى التاريخ عديداً من الأسماء كحرب المائة عام ، أو حرب الثلاثين وحرب السبع سنوات ، والتى اتشحت بثوب الدين والتعصب الدينى ، حيث يقوم أبناء الوطن الواحد والبلد الواحد ليذبح بعضهم بعضاً ، كما حدث فى مذبحة سانت بارتلمى التى وقعت فى باريس عام (١٥٧٢) ، أو حيث كانت محاكم التفتيش تقوم بضروب من التعذيب تقشعر لهولها الأبدان ، وحسبنا أن نشير إلى حرق جان دارك قديسة فرنسا وهى حية على يد قضاة فرنسيين ينتمون إلى محكمة التفتيش .

كل ذلك كان قد أصبح حديثا ماضياً ، واستقرت أوربا بموجب صلح وستفاليا (١٦٤٨) وبدأت تنشق نسائم التسامح الدينى .

روسيا :

وكانت السحب الكثيفة والضباب قد انجاب نهائياً عن هذا القسم الكبير من العالم ، والذى يقع إلى الشرق من نهر الفستولا فى بولندا ويحتل القسم الشمالى كله من قارتى « أوراسيا » أى أوربا وآسيا ، ونعنى بها بلاد الروس .

وقد كان الروس الذين هم خليط من الأجناس الشمالية والمغولية والسلافية ، قد كونوا لأنفسهم دولة وجعلوا عاصمتها موسكو واعتنقوا المسيحية الشرقية ، ولم تكد القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية تسقط فى يد الأتراك ، حتى اعتبر الروس أنفسهم ورثة هذه الإمبراطورية الشرعيين ، وأعلنوا أنفسهم حماة ورعاة للعقيدة الأرثوذكسية ، ليس فقط داخل حدود بلادهم بل فى كل أرجاء العالمين .

على أن روسيا ظلت تعتبر بلداً أسيوياً ، حتى قرر أحد قياصرتهم أن يجعل منها بلداً أوربياً ، وذلك هو بطرس الأكبر . فنقل عاصمة روسيا من موسكو إلى ساحل بحر البلطيق (١٧٠٣ م) ليطل على أوربا وسميت المدينة باسم منشئها بطرسبرج ، وهى التى تعرف اليوم باسم لننجراد ، وفرض على رجال بلاطه أن يحلقوا ذقونهم وأن يرتدوا الأزياء الأوربية ، وأدخل الصناعات الحديثة إلى بلاده ، بل هو أول من سافر بنفسه إلى أوربا ليتعلم هذه الصناعات .

وهكذا لم يبزغ القرن الثامن عشر على الدنيا ، حتى كان العالم الذى نعرفه ونعيش فيه بكل أبعاده وألوانه وتوتراته ومشكلاته قد أخذ طريقه إلى الوجود .

صراع البحار :

وبدأت الدنيا تشهد نوعاً جديداً من الصراع يجرى على صفحات الماء ،

ولقد مرت فى التاريخ من قبل معارك بحرية كسلاميس وأكتيوم ،وذات الصوارى ولكنها كانت أقرب ما تكون إلى المعارك البرية ، حيث كان يحتشد فوق السفن العدد الكبير من الجند ، وإنما هى معركة واحدة يلتحم فيها الأسطولان ثم تنتهى بالفوز أو الهزيمة الدائمة لهذا الجانب أو ذاك . أما الآن فنحن إزاء شكل جديد . لم يعد الالتحام فيه يجرى بين أسطول وأسطول فى معركة واحدة ثم ينتهى الأمر بعد ساعات ، وإنما هو التحام دائم بين قوات هذا البلد أو ذاك فى أرجاء البحار التى شملت الكوكب الأرضى ، فانتشرت حروب القرصنة ، حيث راح كل مغامر وكل باحث عن الشهرة والمجد والثروة من أقصر طريق ، يقود سفينته ويهاجم سفن الآخرين ، ناهباً وقاتلا وحارقاً ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وإذا كانت أسبانيا والبرتغال سباقتين كما رأينا لاكتشاف العالم الجديد ، والطرق الملاحية الجديدة للوصول إلى الشرق . فقد جاء على أعقابهما الإنجليز والفرنسيون والهولانديون كل ينافس الآخر السيادة على البحار ، وينتزع من أملاك الدولتين ما يقدر على انتزاعه ، غير محترمين قرار البابا المهيب الذى قسم به العالم بينهما .

وتزاحمت هذه الدول على اكتشاف هذه المجاهل الجديدة التى ظلت بدون اكتشاف فى أمريكا الشمالية بصفة خاصة حيث الجو البارد لم يلائم فيما يبدو طبيعة الأسبانيين والبرتغاليين الحارة .

شركات الهند التجارية :

وتألفت شركات تجارية ضخمة لتقوم باستعمار واستغلال والاتجار مع هذه المناطق التى اكتشفت طرقاً جديدة للوصول إليها ، وذلك حسب الظروف والأحوال . فتأسست شركة الهند الهولندية الشرقية ، وشركة الهند الإنجليزية الشرقية والفرنسية وهكذا . وراحت هذه الشركات تنشىء لها المراكز التجارية

أولا والعسكرية ثانياً ، ثم الاستعمارية ثالثاً على شاطىء الساحل الغربى للهند وجزر الهند الشرقية التى تعرف الآن باسم أندونيسيا .

الهند والصين :

وإذا كان الأسبان قد بدأوا عملياتهم فى أمريكا فى صورة سافرة من النهب والسلب ، ونزح ثروة البلاد من الذهب والفضة ، شاقين طريقهم بقوة السلاح والقوة الوحشية السافرة ضد السكان الأصليين ، فإن زملاءهم الجدد من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين لم يستطيعوا أن يفعلوا فى بادىء الأمر مثل فعلهم فى الهند أو الصين ، فقد كانت الهند لا تزال تعيش فى سنا ضوء أباطرتها العظام من آل بابر المغوليين المسلمين .

كانت روح الإمبراطور أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) لاتزال تربط الهند إلى بعضها وتملؤها بالقوة والحياة ، كانت النفوس لا تزال عبقة بنسيم الحضارة والثقة بالنفس، التى ملأ بها « أكبر » الهنود والذى يعتبره كثير من مؤرخى الهنود المحدثين ، من أعظم من عرفت الهند فى كل تاريخها من حكام. فقد حاول أن يوحد بين الهند على اختلاف مللها وأديانها وعقائدها ، وراح يعقد الندوات ليتناظر فى حضرته ممثلو المسيحية مع ممثلى الإسلام والأديان الهندية الأخرى فى رفق وحوار ذكى .

ثم راح يطبق روح الإسلام الذى يهفو أول ما يهفو إلى تآخى البشر ، فتزوج ودعا رجاله جميعاً — كما فعل الإسكندر من قبل — إلى الزواج من النساء الهندوكيات .

ولما كان توحيد اللغة دائماً أسهل من توحيد الدين ، فقد صك أكبر لغة تجمع بين كل لغات الهند وفارس والعرب وهى اللغة « الأردية » التى تعتبر مزيجاً من هذه اللغات كلها ، ولا تزال اللغة الأردية حتى اليوم من أوسع اللغات فى الهند انتشاراً بين المثقفين .

وكان بلاط أكبر يغص بالعلماء والأدباء والفنانين والشعراء، لا من الهنود فقط بل من مختلف جنسيات العالم، ولم يكن يسمع عن فنان أو موسيقى أو شاعر إلا ويدعوه إليه ويشمله برعايته وتشجيعه، كما كان به ولع شديد إلى كل ما هو جديد من الآلات والاختراعات الآلية، فكان يستقدم صاحب الآلة أو الاختراع لكى يجربه تحت إشرافه، وكأنه كان يحس بضمير الغيب أن هذه الآلات سوف تغير ميزان القوى ... وسوف تغير مصير الهند بل ومصير الشرق كله .. فتخضعه لأصحاب هذه الآلات طوال قرن من الزمان .

التاج محل :

وذهب أكبر كما يذهب الناس، ولكن بعض خلفائه واصلوا من بعده هذه الحياة الباهرة الذكية، يدل على ذلك مقبرة « التاج محل » التى تقوم اليوم فى مدينة أجرا، كأعظم أثر فنى دقيق أنتجه الإنسان فى كل العصور، حيث يقف الزوار والسائحون من أنحاء العالم مبهورين مشدوهين، لا يجدون الألفاظ التى تصور إحساسهم ومشاعرهم أمام هذا الجلال والبهاء، فيقول بعضهم إنه يرى حلماً من الرخام، أو يقول آخر إنها موسيقى من الأحجار، ويذهلهم أن يكون بقدرة الإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من رهافة الحس، وإبداع الجمال، وهذه الشفافية فى الذوق والتعبير (١) .

غفوة الشرق :

على أن ذلك كله لم يلبث أن انقضى، وأصابت الهند كما أصابت الصين من بعدها، ما يصيب كل كائن حى، وهو أن يمرض أو يتوعك أو يصاب بسنة من النوم، أو أن يصاب بلطشة برد أو نزلة زكام أو روماتيزم يعييه بعض لوقت . فإذا كنا فى النصف الأخير من القرن السابع عشر فقد تحولت شركة

---

(١) اقرأ فى وصف التاج محل « أمة تبعث » للمؤلف .

الهند الشرقية إلى قوة ضاربة ، فإذا هي تضع يدها قوة واقتداراً على مدينة بومباى ، بعد النجاح فى هزيمة السفن البرتغالية التى كانت تسرح وتمرح وحدها فى مياه الهند .

وبينما تخصصت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى الهند ، فقد انشغلت الشركة الهولندية فى جزر الهند الشرقية . . أما الفرنسيون فقد ذهبوا نحو هـذه البلاد الأبعد ، نحو الصين واليابان رافعين لواء المسيحية والتبشير بالمسيحية على يد قساوسة الجزويت ورهبانهم ، فبدأوا يناقشون قساوسة البرتغاليين والأسبان الذين كانوا قد سبقوهم إلى هذه البلاد .

اكتشاف أستراليا :

ومضت انجلترا فى نهمها إلى أرض جديدة ومنافذ جديدة للتجارة ، ترتاد المحيط الهادى الذى لا يكاد يعرف له أول من آخر ... وإذا كان بعض الملاحين قد تحدثوا عن وجود قارة جديدة ، فقد صدرت الأوامر لجيمس كوك عام ١٧٧٦ أن يكتشف قارة استراليا ، فتحقق له ذلك .

الشرق الأوسط والشرق الأدنى :

كان ذلك هو الوضع بالنسبة إلى العالم الجديد والشرق الأقصى ، وما وراء البحار ، فما الذى كان عليه حال ما يعرف بالشرق الأوسط والأدنى ، ذلك الذى رأيناه فواراً بالحضارات المتعاقبة ؟ لقد كان عصره المزدهر قد انتهى بتحول التجارة الدولية إلى البحار كما رأينا ، وكانت غارات التتار من الشرق تحت قيادة هولاكو وتيمورلنك ، بعد هجمات الصليبيين من الغرب قد تركت هذا القسم من العالم منهوكاً مضعضعاً ... وكان عصر سلاطين مصر العظام ، الذين أعادوا إليها عصراً من أزهى العصور ، من أمثال توران شاه ، وقطز ، وبيبرس ، وقلاوون ، وقايتباى (١٢٤٩ — ١٤٩٦) قد انتهى ، ووقعت مصر كما وقع الشرق العربى كله تحت سلطان العثمانيين ، الذين شرعوا — بعد أن فرغوا من

السيطرة على أملاك الدولة البيزنطية — يستولون على البلاد الإسلامية ، حتى دخل السلطان سليم إلى الشام ومصر وضمها إلى الدولة العثمانية (١٥١٧ م) وأعلن نفسه خليفة على المسلمين . وإذ كان العثمانيون قوم حروب وصدام لا قوم حضارة وتمدن ، فقد انطفأ نور العلم والتحضر حيث ذهبوا وأنى حكموا ، وإن كانت انتصاراتهم العسكرية المشهورة قد حجبت عن الأبصار هذه الحقيقة ، فقد راحوا يغزون أوربا الشرقية ويستولون عليها بلداً إثر أخرى حتى دخل (البلغار واليونان والرومان والصرب والمجر والألبان) تحت حكمهم ، وأصبحوا سادة فى البحر الأبيض ، بعد أن هزموا البنادقة وتوغلت جيوشهم حتى وصلت إلى أسوار فينا (١٢ سبتمبر ١٦٨٢) وإذا كان البابا لم يحفل منذ قرنين مضيا لسقوط القسطنطينية ، فما كان ليسكت أو يسكت معه الأوربيون على سقوط فينا قلب أوربا ، ولذلك فقد تألفت عصبة مقدسة تحت زعامة البابا لتقف سداً فى وجه الزحف العثمانى ؛ وتوقف العثمانيون .

ونحن الذين نؤرخ للحضارة ووحدتها لا نستطيع أن نأسف ، كما لم يأسف المفكرون والمؤرخون جميعاً لتوقف الأتراك ، كما أسف الكثيرون منهم لتوقف المسلمين عن النفوذ إلى فرنسا ، فلم يكن لدى الأتراك ما يضيفونه للحضارة الإنسانية فما كانت صناعة الحرب التى يتفوق فيها الأتراك من دنيا الحضارة .

الحروب الروسية التركية :

وإذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، فسرعان ما تصدت هذه القوة الجديدة الصاعدة ، قوة روسيا لقوة العثمانيين ، فراحت تخوض معها حرباً متصلة ، ينتصر فيها الأتراك مرة وينهزمون مرات ، ولكنهم فى كل مرة سواء فى حالتى النصر أو الهزيمة يخرجون أضعف كياناً وأقل قدراً مما دخلوا إلى المعركة ، وسيظل هذا شأنهم حتى يطلق عليهم اسم « الرجل المريض » .

التاريخ يسرع :

على أن القرن الثامن عشر لم يكد يقترب من نهايته حتى كان تاريخ الإنسان يأخذ شكلا جديداً ، فأسرع فى خطوه وزاد فى نبضه ، ثم لم يلبث أن راح يسرع ثم يعدو ولن يلبث أن يطير ، ولعلنا الآن فى بدء مرحلة طيرانه ، فقد رأينا كيف كان التاريخ يمشى حتى الآن فى بطء وتمهل ، رأينا كيف تحدثنا عن تاريخ الإنسان الأول الذى قد يجاوز مئات الألوف من السنين فى سطور قليلة بل كلمات قليلة ، حتى إذا اقتربنا من التاريخ المكتوب بدأ الموضوع يتطلب منا صفحات بأكملها . حتى إذا دخلنا فى التاريخ ، احتاج الأمر إلى فصول كاملة لنصف سير الحضارة وتطورها عبر ألوف من السنين — أما الآن فقد رأينا أنفسنا مضطرين لأن نخصص الفصول الطويلة للتحدث عن قرن واحد أو قرنين فى حياة البشر ، بعد أن أصبح كل عام من الأعوام يحمل للبشرية انفجاراً جديداً فى العلاقات بين الدول والجماعات ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان فى علاقته مع الطبيعة والقوى الكونية .

كانت الإمبراطوريات تتألف فى القديم كما رأينا لتدوم ألف عام أو بضعة قرون على أقل تقدير . . أما الآن فلن تدوم أعتى الإمبراطوريات ، ونعنى بها الإمبراطورية الانجليزية ، إلا قرناً واحداً من الزمان كما سنرى .

الثورة الامريكية :

كان أول الانفجارات التاريخية التى أشاعت الحرارة فى القرن الثامن عشر ، هو الثورة الأمريكية على انجلترا عام ١٧٧٨ . ولقد تركنا الحديث عن هذا العالم الجديد « الأمريكتين » وهو ملك خالص لأسبانيا ترتع فيه ، ورجلها كورتيز يطحن ذلك الشعب المتمدين « الأزوتيك » الذى كان يسكن المكسيك وبيرو . وكان الأسبانيون يفعلون بهذه البلاد الجديدة وسكانها

ما كان يفعله الرومانى القديم بأملاكه وعبيده ، إن شاء أبقاهم أحياء وإن شاء أماتهم ، إن شاء باعهم أو إن شاء استرقهم . وسرعان ما أصبحت أسبانيا أغنى دول أوربا على الإطلاق لما تكدس فيها من الذهب فكان ذلك مدعاة لظهور أول مذهب أوربى اقتصادى بمعناه الحديث ، والذى أطلق عليه اسم المذهب التجارى ، وهو يدور حول ضرورة تدخل الدولة فى التجارة الدولية لتوفير أكبر قدر من الذهب والفضة داخل حدودها .

ولما كان حصول أسبانيا على الذهب الوفير قد جاء من أمريكا ، فقد اتجه الطامعون الجدد صوب أمريكا ، وقد كان هؤلاء الطامعون الجدد هم هولاندا وانجلترا وفرنسا ، ودارت المعارك بين هذه القوى الجديدة وقوة أسبانيا والبرتغال القديمة ، وخرجت انجلترا من هذه المعارك منتصرة بعد تحطيم الأرمادا أسطول أسبانيا العظيم سنة ١٥٨٨ ، فاستطاعت أن تستأثر بأمريكا الشمالية كلها فتكون من نصيبها باستثناء المكسيك التى ظلت أسبانية[١] .

وكان المهاجرون قد بدأوا يتوافدون على هذه البلاد الجديدة من مختلف العناصر الأوربية من هولنديين وانجليز وفرنسيين وألمان ، وأكثرهم فار من وجه الاضطهاد الدينى الذى كان يسود أوربا ، بينما جاء البعض طامعاً لتحقيق الغنى والثروة ، ودخل الوافدون الجدد فى معارك مع الهنود الحمر سكان البلد الأصليين .. وإذ كانت الأراضى الجديدة واسعة وشاسعة بلا حدود ، فقد ظل الوافدون الجدد يتوسعون مؤلفين ولايات جديدة ، تدين بالولاء للتاج البريطانى الذى كان يحكمهم حكما مباشراً من لندن .

وجاءت الساعة التى أحس فيها أبناء هذا العالم الجديد ، وقد نشأوا فى دنيا جديدة من الحرية والانطلاق ، أنه من غير المعقول أن يحكموا من وراء البحار ،

---

(١) حصلت المكسيك على استقلالها خلال الفترة (١٨١٠ — ١٨٢٠) .

فاجتمع مندوبون من ثلاث عشرة ولاية فى مدينة فيلادلفيا فى ٤ يوليو ١٧٧٦ وأعلنوا استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن انجلترا تحت زعامة جورج واشنطون ، وقد كان هذا الإعلان هو أول ثورة شعبية فى العصور الحديثة على حق الملوك المطلق ، وقد جاء هذا الإعلان ثمرة إيمان نفر من عظماء الرجال بكرامة الإنسان وحقه فى الحرية ، من أمثال بنيامين فرنكلين وآدمز وجيفرسون الذى عهد إليه صياغة الإعلان الذى جاء فى مقدمته :

« إننا نؤمن أن الحقائق التالية واضحة وضوحاً ذاتياً . . إن الناس جميعاً قد خلقوا متساوين ؛ وأن خالقهم قد منحهم بعض الحقوق التى لا يجوز التنازل عنها ، وأن من هذه الحقوق ، حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة . ولضمان هذه الحقوق قد أقيمت الحكومات من الناس مستمدة سلطانها العادل من رضاء المحكومين ، وأنه عندما يصبح أى شكل من أشكال الحكم هادماً لهذه الأغراض ، فمن حق أفراد الشعب أن يغيروه أو يلغوه وأن يقيموا حكومة جديدة واضعين أساسها على المبادىء ، منظمين سلطانها فى الشكل الذى يبدو لهم أنه يحقق أمنهم وسعادتهم »[1] .

الثورة الفرنسية :

وإذا كان هذا الذى قالته وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكية هو ترديد لدعوات هذا النفر من الكتاب والمفكرين الفرنسيين من أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وكتاب الأنسكلوبيديا من أمثال ديدرو ودالمبير ، فلا عجب إذا لم يمض عقد واحد من الزمان أى أقل من عشرين سنة ، حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية فى باريس حيث سقط الباستيل رمز العبودية فى ١٤ يوليو سنة ١٧٩١ ، وبدأت هذه المأساة الفرنسية التى أغرقت فرنسا فى

---

(١) جيفرسون ، الرئيس الفيلسوف . برنارد مايو ، ترجمة محمد عبد المعز نصر ص١٤ .

بحر من الدماء ، بدأت بدم ملك فرنسا لويس السادس عشر وملكتها ماري انطوانيت وأبت أن تتوقف إلا بعد أن رويت بدماء زعماء الثورة أنفسهم ومشعلي نارها وعلى رأسهم دانتون أولا ثم روبسبير أخيراً .

وليس يعنينا من الثورة الفرنسية تفصيلات وقائعها الدموية وتطوراتها وانعكاساتها ، قدر ما يعنينا أنها صاغت لأوربا نفسها بعد أمريكا مبادىء كانت جديدة على أوربا كل الجدة ، إذ نودى فيها لأول مرة بما أسموه حقوق الإنسان ، حيث لم يكن إلا للملوك والأمراء ورجال الكنيسة حقوق . وكان الملك لويس الرابع عشر يقول فى بساطة « الدولة أنا » وكانت الولايات تتوارث وتنتقل من حاكم إلى حاكم باعتبارها مهراً « دوطه » لأميرة من الأميرات .

وسار إعلان حقوق الإنسان الفرنسى على نهج إعلان حقوق الإنسان الأمريكية :

١ — فالناس قد ولدوا أحراراً متساوين فى الحقوق ، وسيبقون كذلك أحراراً متساوين ، وأن التمييز المدنى أو الأهلى بينهم إنما يقوم على مقدار النفع منهم للانسانية .

٢ — غاية العلاقات السياسية هى حفظ حقوق الإنسان الطبيعية التى لا يمكن ضياعها أو إبطالها بمضى المدة ، وهذه الحقوق هى الحرية والملكية والطمأنينة ومقاومة الاضطهاد .

٣ — الأمة مصدر السلطات جميعاً وليس لأى فرد ولا نفر من الناس أى حق ما لم يكن مستمداً من الأمة ذاتها .

٤ — لا يجوز اتهام أى شخص ، أو القبض عليه ، أو اعتقاله إلا فى الحالات التى ينص عليها القانون وبالكيفية التى يعينها ، وكل من يخالف ذلك مباشرة أو بالوساطة محكما أهواء سلطته بدل نصوص القانون يجب معاقبته .

ولا يجوز أن يحاكم شخص بموجب قانون لم يصدر قبل اتهامه وكل إنسان ينبغي أن يعتبر بريئاً حتى تثبت إدانته .

٥ — من حيث أن التعبير الحر عن الخواطر والآراء من أغلى حقوق الإنسان فلكل مواطن أن يتكلم أو يكتب أو ينشر بحرية ما دام مسئولا عن سوء تصرفه فى استعمال الحرية(١) .

— وليست هذه المبادىء إلا ترديداً لما سبق إليه الدستور الأمريكى الذى أعلن فى عام ١٧٨٧ . ولقد رأينا كيف أعلنها القرآن وطبقها المسلمون بالفعل قبل اثنى عشر قرناً سابقة على الثورة الفرنسية(٢) .

ولكنه يحلو للفرنسيين أن يعتبروا الثورة الفرنسية هى نقطة البدء فى التاريخ الحديث للانسان ، وأن إعلان حقوق الإنسان هو شىء لا عهد للبشرية به من قبل ، ولعل القارىء يستطيع أن يدرك الآن بنفسه مدى المبالغة فى هذا الادعاء .

وليس أدل على أن الثورة الفرنسية لم تأت بجديد إلى الإنسانية أن وجه العالم بعدها قد ظل كما كان قبلها ، بل إن وجه فرنسا نفسه قد خضب بالدماء بما لا مثيل له فى كل تاريخها ، ولم يلبث بحر الدماء أن طغى على أوربا كلها من خلال حرب نابليون التى استغرقت خمسة عشر عاماً . وعندما انعقد مؤتمر فينا بعد هزيمة نابليون عام ١٨١٥ راح يعيد تنظيم أوروبا كما لو لم تقع الثورة الفرنسية، أو يكون نابليون . ويقول كثيرون إن مؤتمر فينا كان أكثر رجعية من مؤتمر وستفاليا . على أنه من الحق أن يقال إن الثورة الفرنسية قد صاغت التفكير السياسى لأوربا عامة وفرنسا خاصة طوال القرن التاسع عشر ، وأنها كانت الأساس لكل دستور وضع نظام الحكم بعد ذلك للعالم ، كما كانت البذرة التى تفرعت منها شجرة القومية فامتدت إلى أرجاء أوروبا . وبدأ كل شعب يطالب بحقه فى الحرية وتقرير المصير وإنشاء دولة خاصة به .

---

(١) محمد شاهين حمزة ، حقوق الإنسان ، ص ٤٤ .

(٢) انظر ص ٢٣٨ من هذا الكتاب .

الثورة الصناعية :

على أنه إذا كانت الثورة الفرنسية بكل أحداثها المثيرة والدموية والحروب التى أشعلتها لم تأت بجديد إلى دنيا الحضارة الإنسانية ، فقد جاء الجديد فى ثورة أخرى لم ترق فيها الدماء ولم تقطع فيها رءوس وتلك هى الثورة الصناعية التى جاءت للعالم بجديد بالفعل ، وكان مقدراً لها أن تقلب أسس الحضارة كلها فتحولها من روحية معنوية إلى مادية بحتة لا تعترف بغير سلطان المادة وقدرة الآلة ، ومنطق القوة السافرة .

وقد بدأت الثورة الصناعية لا باكتشاف قوة البخار كما يقال عادة ، فقوة البخار كانت معروفة منذ عهد بعيد كما قدمنا ، وإنما يجب اعتبار مبدئها الحقيقى هو إمكان تسخير هـذه القوة فى تحريك الآلات[1] — وبالدرجة الأولى عندما أصبح من المستطاع تسيير السفن بالبخار ، وتسيير المصانع بقوة البخار ، وأولا وقبل كل شىء عندما أمكن تسيير أول قطار سكة حديد بالبخار .

ولكى نستحضر عظم الانقلاب الذى أحدثه قطار السكة الحديد فى شئون العالم ، فما علينا إلا أن نستحضر فى أذهاننا كيف أن نابليون بونابرت وهو يتراجع عن روسيا هذا التراجع الذى قرب نهايته ، لم يكن يستطيع أن يسير بسرعة تفوق السرعة التى كان يمكن أن ينتقل بها أى فرعون مصرى ، أو كسرى فارسى ، أو قيصر رومانى قبله بألفين أو ثلاثة آلاف من السنين أو يزيد .

فمذ دخل الإنسان فى عالم التاريخ ووسيلته الكبرى للمواصلات السريعة هى استعمال الخيول إما مباشرة بركوبها أو عن طريق جرها للمركبات .

ولم تكد قوة البخار تعرف ، والقطار الحديدى يستعمل ، حتى كان وجه الحياة يتغير تغيراً كلياً من حيث قدرة الإنسان على الانتقال بسرعة عبر مسافات

(١) اخترع جيمس واط الانجليزى أول آلة بخارية عام ١٧٦٥ — واخترع فيتش الأمريكى فولتون السفينة البخارية عامى ١٧٨٧ ، ١٧٩٨ على التوالى .

طويلة ، هذه السرعة التى لا تزال تزيد منذ ذلك التاريخ عاماً بعد عام وشهراً بعد شهر ثم يوماً بعد يوم بل وساعة بعد أخرى .

تفوق أوربا :

هذه الثورة الصناعية ، التى جاءت للانسان بقوة جديدة ، كانت هى التى مكنت الأوربيين من التحليق فى آفاق جديدة فى دنيا العلم والمعرفة ، كما كانت هى التى هيأت السبيل لما توالى بعد ذلك من اكتشافات واختراعات تستخدم الطاقة الكهربائية ، وما ترتب على ذلك كله من تفوق أوربا فى دنيا السلاح والعتاد والثقة بالنفس ، فكان أن استطاعت نهائياً أن تسيطر على الشرق كله ، أفريقيا وآسيا .

وكانت الهند أول من سقط صريع هذه القوة الجديدة الجبارة ، قوة الصناعة الحديثة ، قوة السفينة البخارية وقطار السكة الحديد ، وأنوال النسيج الميكانيكية ، والبندقية والمدفع ، وأخيراً تحولت من أملاك خاصة بشركة الهند الشرقية ، إلى مستعمرة للتاج البريطانى ، ونودى بفكتوريا ملكة انجلترا امبراطورة للهند عام ١٨٧٧ .

عصر الاستعمار :

ولم يكد القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه حتى كانت قارة أفريقيا كلها ، قد أعيد مسحها وتخطيطها واحتلالها بمعرفة الأوربيين ، وكانت البرتغال هى أول من وضع قدمه على ساحل أفريقيا الغربية كما رأينا ، وتلاها الأسبان فالإنجليز حيث اتخذ كل منهم مراكز فى غرب القارة يتجرون فيها فى العبيد ، ولكن شمال أفريقيا العربى الإسلامى ظل بمنجاة من الاحتلال ، وعندما حاول نابليون فى مستهل القرن أن يغزو مصر استطاع الشعب المصرى أن يحطم إرادة فرنسا ، وتصورت انجلترا أنه يمكن أن تنجح حيث فشل الفرنسيون ، ولكنها دحرت بدورها بقوة الشعب المصرى (١٨٠٧) ، ثم كانت نهضة مصر أيام

محمد على حيث تحولت إلى قوة دولية عظمى و بدأت تلحق بركب الحضارة العامية الحديثة ، ولـكن القوى الأوربية الجديدة وقفت لها بالمرصاد .

وفى عام ١٨٣٠ شرعت فرنسا فى احتلال الشاطىء الأفريقى المقابل لها وهو دولة الجزائر ، وعلى الرغم من مقاومة الشعب الجزائرى الجبارة تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائرى ، فقد تفوقت القوى الجديدة الزاحفة ، قوى النظام الآلى والقدرة الإنتاجية الحديثة ، وبالرغم من أن الجزائر كانت تعتبر من الناحية الإسمية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . فلم تأبه فرنسا لذلك ، فقد راح الوقت الذى كانت أوربا تخشى فيه الاصطدام بالدولة العثمانية .

وتلا احتلال فرنسا للجزائر احتلال الإنجليز لمصر عام١٨٨٢ بعد أن شقت على أرض مصر قناة السويس التى ربطت البحرين الأبيض والأحمر[1] وبفتح هذا الطريق عادت مصر إلى سابق عهدها معبراً لتجارة الشرق المارة إلى الغرب وبالعكس ، فرأى الإنجليز أن لا سبيل لهم للسيادة على العالم إلا بوضع أيديهم على مصر ... وتوالت الغزوات لباقى شمال أفريقيا فاحتلت فرنسا تونس ١٨٨١ ثم مراكش ١٩١٢ حتى إذا لم يبق من البلاد العربية سوى ليبيا احتلها الطليان فىمطلع القرن العشرين ١٩١١ .

وإذا كان هـذا مصير شمال أفريقيا المؤلف من بلاد عريقة فى المدنية فباستطاعتنا أن ندرك ماذا جرى فى بقية أنحاء القارة . لقد كان احتلالها أمراً من أيسر الأمور ، فقد توغل الرجل الأبيض من هذه المراكز التى اتخذ منهـا أسواقاً لتجارة العبيد إلى داخل القارة لاستجلاب مزيد من العبيد والخامات لهذه الصناعات الجديدة النهمة التى لم يعد هناك حد لإمكانياتها .

وإذا كان الإنجليز قد احتلوا أجزاء من أفريقيا الغربية لتيسير تجارة العبيد ، فقد تحولوا إلى أكبر دعاة لمحاربة الرق بعد أن نجحوا فى ثورتهم الصناعية ، إذ أصبح أعظم ما يهدد هـذه الصناعات الآلية الحديثة رخص اليد

(١) تمت عملية الربط بين البحرين عن طريق النيل أكثر من مرة عبر التاريخ ، فكانت قناة سيزوستريس فى عهد الفراعنة وقناة أمير المؤمنين فى العهد الإسلامى .

العاملة كما يتحقق ذلك فى استعمال العبيد ، وراحوا يحتلون بقية أجزاء القارة بدعوى محاربة الرق وتجارة العبيد ، وبدأت المنافسة من جديد بينهم وبين الفرنسيين ، أيهم يحتل من أفريقيا أكبر قدر من الأرض والشعوب ، ولم تلبث بلجيكا أن لحقت بهم ، وجاءت ألمانيا فى خاتمة المطاف لتأخذ نصيبها من الغنائم والأسلاب ، فقد كانت شعوب أفريقيا البدائية لا حول لها ولا طول إزاء هذا الرجل الأبيض المسلح بالحديد والنار .

وجاء وقت دعا فيه سيسل رودس الإنجليزى والذى عين رئيساً لوزراء جنوب أفريقيا ، إلى إنشاء خط للسكة الحديد يصل مدينة الكاب فى أقصى الجنوب من أفريقيا حتى القاهرة والاسكندرية أقصى ميناء فى الشمال ، على أن يمر هذا الخط الذى يخترق القارة كلها فى أرض إنجليزية ، ولما سئل عن ضخامة هذا البرنامج قال قولته المشهورة « كم كان بودى لو استطعت أيضاً أن أضم إلى انجلترا كواكب السماء » .

وهكذا تحولت أفريقيا كلها إلى قارة مستعبدة ، وأطلق عليها اسم القارة السوداء ، والقارة المظلمة . ولم يتصور الأوربيون شعوب آسيا وأفريقيا إلا باعتبارهم سلعاً ومواد أولية يفعلون بها ما يشاءون .

الولايات المتحدة الأمريكية وآسيا :

غير أن سيادة أوربا إذا كانت قد بدت مطلقة فى أفريقيا فهى لم تكن كذلك فى آسيا أو على الأقل فى شرق آسيا فقد بدأت تجد مزاحماً وقوة جديدة صاعدة وهى الولايات المتحدة الأمريكية . لم تكد الولايات المتحدة ، تحصل على استقلالها وتضع دستورها قبيل نهاية القرن الثامن عشر ، حتى نشطت فى بناء قوتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإذ كانت تبدأ فى مجتمع جديد وبكر ، فقد كانت أسرع إلى الاستفادة بنتائج الثورة الصناعية ، بل وكانت هى السباقة فى استخدام قوة البخار فى السفن وفى السكك الحديدية

التى كانت عظيمة الأثر فى الإبقاء على وحدة الولايات المتحدة ، فلولا هذه الوسيلة الجديدة من المواصلات ، لانفرط عقد الاتحاد كما انفرطت الدول الواسعة النطاق من قبل .

وعندما سقطت قوة أسبانيا فى أوربا باحتلال نابليون لها ، تصورت دول أوربا أن باستطاعتها أن ترث أملاكها فى أمريكا الجنوبية ، فأسرع مونرو رئيس الولايات المتحدة عام ١٨٢٣ وأطلق إنذاراً وتحذيراً لدول أوربا وطلب منها أن ترفع يدها عن الأمريكتين ، معلناً أن كل تدخل أو اعتداء على أى جزء من الأمريكتين ، يعتبر عدواناً على الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو ما اشتهر فى التاريخ الحديث باسم « مبدأ مونرو » .

وصدعت أوربا بالإنذار فبدأت دويلات أمريكا اللاتينية تتحرر من الاستعمار الأسبانى والبرتغالى ، وكانت المكسيك هى البادئة بالاستقلال عام ١٨٢٠ ، ثم تبعتها بقية دول أمريكا الجنوبية التى نعرفها فى الوقت الحاضر .

اليابان :

ولم تكد الولايات المتحدة تهضم هـذا النجاح وتزداد ثقة بقوتها وتزداد مطامحها حتى راحت تتجول فى المحيط الهادى بأساطيلها البخارية القوية الجديدة ، فقابلها على حدود آسيا هذه الجزر اليابانية التى ظلت موصدة الأبواب أمام الجزويت والتجار الأوربيين ، لا تعرف حضارة سوى الحضارة الصينية ، ولا أسلوب حياة إلا أسلوب الحياة اليابانية . ورفضت اليابان أن تفتح أبوابها للأمريكان ، فجاءوها بقوة لا قبل لها بها ، أساطيل تطلق مدافع تنسف كل شىء يعترض طريقها ، ورضخت اليابان لهذه القوة الجديدة ففتحت أبوابها للأمريكان عام ١٨٥٤ ، وأبرمت تحت الضغط والإكراه معاهدة تجارية . وفى اليوم المقرر لتوقيع المعاهدة أنزل قائد الأسطول الأمريكى ٥٠٠ من رجاله

ليكونوا حرساً له ، وهكذا ظهرت على الأفق لأول مرة هذه القوة الجديدة الزاحفة .

على أن اليابان لم تنس هذا الدرس القاسى الذى تلقته وراحت تحلل سر هزيمتها ، فوجدت أن مرجع ذلك هو هذه القوة الآلية الجديدة ، فآلت على نفسها أن تسد هذا النقص فى حياتها فانطلق اليابانيون يعملون فى همة وصمت على اقتباس هذه الأساليب والعلوم الجديدة ، وعلى نقل الآلات والماكينات إلى بلادهم .

فلم يمض على اقتحام الأمريكان لبلادهم نصف قرن فقط حتى كانوا يسفرون عن قوتهم الجديدة ويفاجئون العالم بهزيمة روسيا عام ١٩٠٤ فى البر والبحر على السواء ، وذهلت أوربا واهتزت ثقة الأوربيين بأنفسهم ، أن يكون باستطاعة شعب أسيوى أن يهزم قوة الروس الجبارة ، التى هزمت من قبل نابليون .

العالم فى نهاية القرن التاسع عشر :

نحن الآن فى ختام القرن التاسع عشر ، وقد وصلت الثورة الصناعية إلى ذروتها بعد تطور صناعة الصلب والكهرباء واستخدام الأخيرة فى الإنارة وتوليد الطاقة واستعمالها فى التلغراف والتليفون ، السلكى واللاسلكى[1] وإقامة المصانع والمؤسسات الجبارة ، التى راحت تزاول تجارتها ونشاطها على الصعيد العالمى .

ولم تعد بكين أو دلهى وسمرقند ، أو دمشق وبغداد والقاهرة أو القيروان وقرطبة ، هى مراكز الإنتاج العالمى والاتجار والحضارة ، فقد حلت محلها مدن

(١) تم أول إرسال برقية تجارية عام ١٨٤٤ وأول اتصال تليفونى تجارى عام ١٨٧٨ واخترع ماركونى التلغراف اللاسلكى عام ١٨٩٦ .

لندن وباريس وأمستردام وفيينا وبرلين « بعد أن توحدت ألمانيا » وروما « بعد أن توحدت إيطاليا » وأصبحت هى محور النشاط العالمى ومظاهر القوة والحضارة الجديدة .

حرب التحرير الأمريكية :

وفى العالم الجديد ، قامت حركة كادت تعوق سير هـذه القوة الزاحفة ، إذ أعلن الجنوب رغبته فى الانفصال عن الشمال ، تشبثاً منه بالإبقاء على نظام الرق الذى ألغاه الشمال ، فقامت حرب أهليـة استغرقت أربع سنوات (١٨٦٢ — ١٨٦٥) انتهت بانتصـار الشمال على الجنوب ، حيث أعلن إبراهام لنـكولن من جديد وحدة البلاد وتأكيد معانى الحرية التى قامت على أساسها الولايات المتحدة الأمريـكية ، فأعلن إلغاء الرقيق فى طول البلاد وعرضها ، ولم تلبث أن لمعت فى سماء هـذا الجزء من العالم مدن واشنطون ، ونيويورك ، وسان فرنسيسكو وشيـكاغو ، منافسة مدائن أوربا السابقة الإشارة إليها .

— ٨ —

بين الإيمان والإلحاد :

رأينا حتى الآن كيف أن البشر على مر العصور وتباعد الأماكن والأقطار ، قد أحسوا بوجدانهم وفطراتهم منذ وجدوا على هذا الكوكب الأرضى ، أن لا بد وأن يكون لهذا الوجود خالق أوجده ، وعقل يدبر شئونه ، ولابد أن يكون لهذا الوجود تبعاً لذلك غاية وهدف . هذا الإحساس الفطرى والغريزى فى كل نفس هو جوهر التدين ، وما ينطوى عليه من جنوح لعبادة الله على شتى الصور والأشكال ، مما ألممنا به سريعاً فيما سبق .

على هذا الوجدان عاش الناس ، مستمدين من هذا التصور قوة تعينهم على تحمل مشاق الحياة وآلامها ، وتهيىء لهم طاقة من الأمل فى الحصول على نصيب أوفى من العدل والجزاء .

وإلى جوار الوجدان والإحساس والشعور بوجود الله ، اجتهد الفلاسفة الذين يحاولون عن طريق التفكير بالعقل المجرد وأساليب المنطق ، أن يتوصلوا إلى فكرة وجود الله . فقالوا بأسبقية الفكرة على المادة ، وهذا يعنى أن هذا الوجود قد خلق على أساس فكرة سابقة عليه فى عقل الله وفكره .

على أنه إلى جوار هذا التفكير الفلسفى الذى يوصف بالمثالية ، وجد دائماً على مر العصور قلة من المفكرين والفلاسفة ، رفضوا التسليم بهذه النظرية ، وقالوا بأسبقية المادة على الفكرة ، فالمادة كانت حيث لم يسبقها شىء ، وما الأفكار التى تتردد فى أذهاننا إلا انعكاساً لهذه المادة .

على أن هذه الفلسفة المادية ، والتى اعتبرت دائماً أبداً إلحادية تنكر أن يكون لهذا الكون خالق حكيم سابق عليه ، كانت دائماً محدودة الأثر ، لا يتجاوز نطاقها بعض الفلاسفة والمفكرين ، ولذلك فلم يحدث أن أخذت

طريقها إلى الجماهير بل لم يجرؤ إلا أقل من القليل من بين المفكرين على مجابهة الجماهير بمعتقده فى إنكار الألوهية .

حتى إذا كانت الثورة الصناعية وما سبقها وعاصرها ولحقها من اكتشافات علمية واختراعات آلية وكشوف جغرافية زادت فى إحساس الإنسان بقدرته على استغلال النواميس الطبيعية ، تصور الكثيرون من مفكرى الأوربيين وفلاسفتهم أنه لم يعد هناك محل للقول بوجود الله ، فليس سوى الإنسان والطبيعة المادية الجامدة العمياء التى أحدثت ما أحدثت نتيجة التطور طبقاً لنواميس مقررة أو الصدفة البحتة .

وقد كان الدور السيء الذى لعبته الكنيسة فى حياة الأوربيين وكيف حالت دون انتشار العلم والمعرفة ، سبباً فى إذكاء نار الثورة والتمرد على المسيحية بل وفكرة التدين من أساسها ، فكان أن كثر العلماء والفلاسفة والمفكرون الذين راحوا يسخرون من الديانات كلها. حتى إذا كانت الثورة الفرنسية كان من أول أعمالها وهى تقضى على الإقطاع أن تقضى على كل ما للكنيسة من نفوذ وسلطان بتقويض فكرة الألوهية نفسها ، ولم نلبث أن رأينا روبسبيير يدعو إلى دين جديد ، هو عبادة العقل ويحتفل بتنصيبه كاهناً أعظم لهذا المعبود الجديد « عقل الإنسان » .

وعندما راحت الاختراعات والاكتشافات الجغرافية والعلمية تترى فى جميع الاتجاهات علت أصوات القائلين بآلية الطبيعة وقدرة الإنسان على الإحاطة بها وفهم كل مغاليقها وأسرارها . ومن بين عشرات ومئات الدعاة إلى هذه الفكرة قام رجلان كان مقدراً لهما أن يحدثا ثورة فى دنيا العلم والاجتماع ، أما أول هذين الرجلين فهو داروين ، وأما ثانيهما فهو ماركس .

داروين وتنازع البقاء :

فأما داروين فهو صاحب كتاب أصل الأنواع ، الذى نادى فيه بأن الحياة

ليست سوى طور من أطوار المادة وأنها انبثقت منها خلال قانون النشوء والارتقاء .

وفكرة التطور ، واشتقاق الحياة من اللاحياة ، ليست شيئاً جديداً فى دنيا الفكر والعلم فقد سبق بها أرسطو وتحدث عنها العرب فى كتبهم .

ولكن داروين هو الذى أفرغ هذه النظرية فى ثوبها العلمى الصارم ، جاعلا منها قانوناً وناموساً ، بعد أن ساق ألوف الحجج والملاحظات على تأييد فكرته . فالطبيعة أو بالأحرى المادة فى تطور دائب ومستمر ، من خلال الصراع الذى لا ينتهى بين ما هو صالح ، وما هو غير صالح لبقائها ، فالصالح يبقى أبداً ، والطالح يزول دائماً .

ولم يكن داروين فى هذا الذى يقوله عن سنة الحياة والطبيعة من أنها تطور نحو الأكمل والأوفى من خلال الصراع المستمر ، إلا عاكساً فى الحقيقة روح عصره الذى كان ينمو فى هذه الفترة من خلال الصراع ، من خلال إهدار كل القيم القديمة والأخذ بالقيم الجديدة .

فالصراع على استعمار أكبر جزء من الأراضى والشعوب كان على أشده بين الدول ، والنظام الرأسمالى الجديد الذى حل محل الإقطاع نتيجة الثورة الصناعية ، بدأ لا يرى فى العمال إلا سلعة تباع وتشترى كأى سلعة فى السوق ، وأجر العامل لا يحدده سوى سعر السوق ، حتى ولو كان هذا السعر لا يسد الرمق ولا يبقى على الحياة ، ولا يجب أن يشكو من ذلك أحد أو يبتئس أو يتألم ، فإن العمال عندما يموتون من الجوع نتيجة ضآلة أجورهم ، فإن ذلك سوف يقلل من عددهم ، وبالتالى يزداد التنافس على الحصول عليهم فترتفع أجورهم من جديد إلى القدر الذى يكفى لإبقائهم أحياء ، حتى إذا ترتب على زيادة الأجور كثرة عدد العمال ، انخفضت أجورهم من جديد فيموت من يموت فتعود أجورهم إلى الارتفاع وهكذا دواليك(١) .

---

(١) انظر للمؤلف كتاب « علاقات العمل » .

هكذا تصور الاقتصاديون الأوربيون العلاقات الإنسانية لا تعدو أن تكون كيمياء ، وقوانين عمياء لا مكان فيها للتحدث عن العواطف الإنسانية ، أو المعانى المثالية ، فلا سبيل لتطور الطبيعة ، بل ولا سبيل للنشوء والارتقاء إلا من خلال التزاحم والتنافس على الحياة فلا يبقى إلا الأصلح ولا محل للضعيف وغير الصالح .

فإذا قال دارون إن الصراع بين الأحيـاء هو ناموس الطبيعة وقانون الحياة ، وراح يقيم ألف دليل على ذلك فهو كما قلنا يعكس روح العصر الذى يعيش فيه .

ولذلك فإن دارون لم يكد يؤلف كتبه ، واضعاً نواميس الحياة فى هذا القالب القاسى ، حتى أصبحت إنجيل العلم والمعرفة لا فى علم الحياة ، بل فى شتى فروع العلوم كلها ، فأخذت كل العلوم والمعارف تنسق نفسها على أساس من الفكرة الجديدة ، فكرة التطور الدائم المستمر من خلال الصراع وتنازع البقاء والبقاء للأصلح(١) .

الماركسية :

ونفذت فكرة الداروينية إلى دنيا الاجتماع والاقتصاد ، فإذا كانت الثورة الصناعية لم تعد تؤمن بغير المادة وقوانين المادة ، ولا تعرف للكون إلا تفسيراً مادياً ، وما دام الرأسماليون قد انحدروا بالنفس البشرية إلى أن تكون مجرد آلة عمياء صماء فى دنيا المادة ، وما دامت الحياة لا تقوم إلا على أساس من الصراع بين الأحياء ، فلماذا لا يصاغ ذلك كله فى قانون مادى بحت يحيط بكل شىء ليكون فى مقابل الأديان التى فسرت للانسـان كل شىء عن طريق المعانى والمثاليات .

---

(١) انظر للمؤلف الرد التفصيلى على مذهب داروين فى كتاب « الطاقة الإنسانية » .

فليس فى الـكون سوى المادة ، وهذه المادة تتطور دائماً من خلال ما تحتويه من متناقضات تتصارع فيما بينها إلى أن ينبثق من هذا الصراع حالة جديدة تحمل بدورها فى طياتها نقيضها ، ليبدأ الصراع من جديد بين المتناقضين ... هذا هو سر الطبيعة وسر الحياة ،وما أطلق عليه ماركس اسم « المادية الجدلية » .

المادية التاريخية :

وليفسر التاريخ وكل وقائعه على هدى من هذه النظرية ، فالإنسان كائن حى لا غرض له فى هذه الحياة إلا أن يحيا ، ولا سبيل لحياته إلا أن يأكل ولا سبيل للأكل إلا إذا بذل جهداً لإشباع حاجاته ، هذا الجهد هو « العمل » وتاريخ البشر منذ أقدم العصور هو تاريخ هذا العمل باعتباره وسيلة الإنتاج ، ومذ كان الإنسان إنساناً وجد قسم من الناس يعمل ليأكل ، وقسم يعيش على عمل الآخرين ، فالمجتمع دائماً فى حالة انقسام إلى طبقتين ، الطبقة العاملة والطبقة التى تعيش على كدح الطبقة العـاملة ، وتتغير صورة المجتمع تبعاً لتغير وسائل الإنتاج ولـكن هاتين الطبقتين تظلان دائماً فى الحياة ، فطبقة الأسياد والعبيد فى العصور القديمـة قد أفسحت الطريق لطبقة الإقطاعيين والأتباع فى العصور الوسطى ، حتى إذا جاءت العصور الحديثة برزت الطبقة الرأسمالية وطبقةالعمال ، ولا مناص بحكم المادية التاريخية أن يستمر الصراع بين هاتين الطبقتين حتى تفنى الرأسمالية ليبدأ المجتمع الاشتراكى فالشيوعى ، حيث يزول الصراع بين الطبقات فلا تـكون إلا طبقة واحدة هى طبقة العمال ؟ ؟ ! !

ولما كان المجتمع يسير بقوانين حتمية فلا مناص من قيام ثورة العمال على الرأسماليين ومن الخير أن يعمل العمال على الإسراع بهذه الثورة من خلال طليعتهم الثورية الواعية ، ولا سبيل لإلهاب مشاعر الطبقة العاملة إلا من خلال توعيتهم بناموس الصراع الحتمى ، وإذكاء شعور العـداوة والبغضاء والحقد ضد الطبقة المستغلة التى لا سبيل للخلاص منها إلا بالقوة والعنف[1] .

---

(١) البيان الشيوعى .

صراع وعنف :

وهكذا سيطرت قوانين الصراع وتنازع البقاء وحق القوى فى البقاء ، سواء فى دنيا العلوم ، أو دنيا الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، على كل شىء فى أوربا فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . فأصبح كل مالى أو تاجر أو صانع يسعى لسحق الآخرين طبقاً لناموس الحياة ، وتحولت المنافسة الحرة المجردة من كل قانون أدبى ومن كل اعتبار هى طابع كل شىء ، العمال يتربصون بأصحاب الأعمال ، وأصحاب الأعمال بالعمال حيناً ، وبعضهم البعض حيناً آخر ، والدول يتربص بعضها ببعض ، والجماعات والأفراد كل يتربص بالآخر ، وتحولت الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية إلى مايشبه الحياة فى الغابة ، حيث يتساقط فى كل يوم ، وفى كل ساعة ، بل وفى كل دقيقة الضعفاء من كل لون وطراز ، اقتصادياً أو اجتماعياً أو جسمانياً ليكونوا غذاء للأقوياء .

ولا شك فى أن ذلك قد حدث من قبل على مر التاريخ ، ولكنه كان عندما يحدث هو الاستثناء لا القاعدة ، والانحراف لا الطريق المستقيم ، فقد كان التراث الإنسانى كله من الأديان والحكمة والمعرفة وما جرى عليه العمل ، يهدف نحو غاية واحدة وهى أن يحيا الناس متساندين متعاونين يأخذ قويهم بيد ضعيفهم ، وغنيهم بيد فقيرهم وعالمهم بيد جاهلهم على أساس وحدة المجتمع الإنسانى .

أما فى أوربا فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، فقد نحى هذا التراث جانباً ، وأصبح محلاً للسخرية والازدراء وارتفعت أصوات كصوت نيتشه تقول بأعلى صوت « إن المسيحية بحضها على الرفق بالضعفاء لم تعد صالحة للبقاء » وإن الأرض إرث الشعب القوى . . وإنه من حق الرجل القوى أن يقتل مائة ألف أو أكثر من البشر ليحقق فى نفسه إنسان « السوبرمان » .

وراح كل شعب من الشعوب الأوربية يعتبر نفسه هو شعب الله المختار ، الذى يجب أن يدين له البشر بالطاعة ولا لوم عليه ولا تثريب إذا هو فتك ببقية الشعوب واسترقها . والرجل الأبيض قد خلق لسيادة الرجل الأسمر والأصفر

والأسود معاً ، والجنس الآرى هو أرقى الأجناس وأحقها بالسيادة والبقاء .

وهكذا غشيت أوربا روح مجنونة ، تبدأ وتنتهى عند اعتبار المنافسة المجردة من كل الأخلاقيات والصراع وغلبة القوى على الضعيف ، هى نواميس الحياة التى يجب أن يصاغ كل شىء على أساسها ، وتوضع النظم الاجتماعية والقوانين على هديها .

وكان على هذه الآراء والأفكار أن تؤدى إلى نتائجها المروعة ، فكان أن قام الأوربيون يطحن بعضهم البعض طحناً ، وإذا كانت أوربا لم تنقطع عن الحرب فيما بين قبائلها وشعوبها طوال العصور السابقة ، فقد كانت هذه الحروب حروباً محدودة أقرب ما تكون إلى المبارزات بين الفرسان المتخصصين ، أما بعد التطور الآلى الحديث ... وبعد الثورة الصناعية وعلى هدى هذه المذاهب المادية ، فقد تحولت الحرب إلى شىء مخيف ، شىء باهظ الثمن لم يطف للأوربيين وفلاسفة المادة من بينهم فى خيال .

الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ :

بلغت انجلترا فى مطلع القرن العشرين أوج عظمتها بحيث يمكن وصفها بأنها أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ ، فهى لم تقف عند حدود البحر الأبيض المتوسط كالرومان ، أو عند حدود قارتى آسيا وأفريقيا كما هو شأن الدولة الإسلامية ، ولا هى وقفت عند أوربا كما كان شأن نابليون ، بل تعدت ذلك كله إلى محيطات الكوكب الأرضى ، ووضعت قدماً فى كندافى النصف الشمالى من أمريكا ، وقدماً ثانية فى الهند شبه القارة ، وفى كل ما يجاورها من بلدان ، وقدماً ثالثة فى استراليا ، ورابعة فى أفريقيا ، بحيث بلغت مساحة الأرض التى يرفرف عليها العلم الإنجليزى قرابة ١٣ مليون ميل مربع ، أما عدد السكان الذين تحكمهم انجلترا فيبلغ ٥٠٠ مليون نسمة[١] .

وكانت فرنسا تتلو انجلترا بعدة درجات فى هذا السلطان العريض فتواصت

---

(١) تقويم العالم ص ٤٣٣ .

الدولتان (١٩٠٤) على ألا تتعرض إحداهما للأخرى فى مستعمراتها ، فأعادتا بذلك تاريخ تقسيم العالم بين أسبانيا والبرتغال[١] .

نهضة ألمانيا :

وكرر التاريخ نفسه ، فقد تكونت فى قلب أوربا دولة ألمانية ضخمة تحت زعامة بروسيا عام ١٨٧٠ ، ولم تلبث أن انطلقت تصارع انجلترا بسلاحها الذى ضمن لها الغلبة والفوز على العالمين ، وهو الإنتاج الصناعى الآلى فى البر ومحاولة السيطرة على البحار من خلال أسطول بحرى . وطفرت ألمانيا فى ميدان الإنتاج والصناعة وبالتالى التجارة الدولية طفرات أزعجت انجلترا أشد الإزعاج ، إذ بدأت تنافسها فى أسواق العالم . وسكتت انجلترا وتربصت بالألمان ، حتى إذا شرعوا فى إكمال أسطولهم الذى كان خليقاً بأن يقوض سيادة انجلترا على البحار ، بدأ التحرش والاحتكاك[٢] .

وانتهى الأمر باشتعال نيران الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤ بين ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية من ناحية ، وبين فرنسا وانجلترا وروسيا والصرب من ناحية أخرى ولم تلبث بقية دول أوربا أن انضمت إلى الحرب واحدة بعد أخرى .

واستمرت الحرب الطاحنة أربع سنوات ، واشتركت فيها الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٧ إلى جوار انجلترا وفرنسا ، فكان اشتراكها إيذاناً بنهاية الحرب لصالح الحلفاء ، ولم تلبث ألمانيا أن ألقت السلاح (نوفمبر سنة ١٩١٨) . وكان شكل الحروب قد تغير كما قدمنا ، فبعد أن كانت الحروب قاصرة على الجيوش المتحاربة ، وكان بحسب أى دولة أن تهزم جيش الدولة الثانية فى معركة واحدة لا تستغرق سوى بضع ساعات ، لكى يجرى بعدها التفاوض لعقد

---

(١) كانت فرنسا تسيطر على ما يقرب من خمسة ملايين ميل مربع وعدد من السكان يبلغ ٧٠ مليوناً بخلاف الفرنسيين أنفسهم ٤٠ مليوناً

(٢) كان من أهم معارك الحرب العالمية الأولى ، محاولة إنجلترا تحطيم الأسطول الالمانى فى معركة جتلند البحرية ، التى تعتبر من أعظم معارك التاريخ البحرى .

الصلح . أما هذه المرة فقد تحولت الحرب فى ظل التطور الآلى والقدرة الصناعية الجديدة إلى ويل وتخريب عام شامل لا يقع عبؤه على الجنود فى الميدان فحسب ، بل وعلى العمال فى المصانع وعلى المدنيين الذين كانوا يشقون بآلام الحصار الذى فرضه كل من المتحاربين على الآخر .

ودارت الحرب لأول مرة فى أعماق البحار بعد أن اخترعت الغواصات ، كما اشتعلت فى الهواء بعد اختراع سلاح الطيران ، ولكن السلاح الفتاك الذى فعل الأفاعيل فى هذه الحرب هو المدفعية الثقيلة والغازات السامة .

الحرب فى أرقام :

وقد تصور لنا الأرقام مدى اتساع نطاق هذه الحرب وضحاياها وخسائرها فقد بلغ عدد القوات التى اشتركت فيها ٦٥ مليون نسمة أخرجوا لمدة أربع سنوات من دنيا الإنتاج ، وبلغ عدد الخسائر من هذا العدد ما بين قتيل وجريح ومفقود ٣٧ مليوناً من بينهم ٢١ مليون جريح ومشوه وقرابة تسعة ملايين قتيل(١) .

وباستطاعتنا أن نتصور ما تعنيه هذه الأرقام ، إذا أدركنا أن جميع قتلى الحروب التى عرفتها الإنسانية منذ بدء التاريخ الإنسانى ، أى خلال ستة آلاف سنة بما فيها حروب نابليون لا تصل إلى هذا الرقم الذى مات فى حرب واحدة خلال أربع سنوات . ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى عمت الفوضى شرق أوربا ووسطها لتنتشر الأوبئة بحيث يهلك بالتيفوس وحده عدة ملايين لا يعرف عددها من البشر ... وهكذا لم يسلم بيت واحد فى طول القارة وعرضها من الأذى .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .

شروط ولسون الأربعة عشر :

والعجيب أن هذه الحرب الضروس التى خضبت أرض أوربا بالدماء فى وحشية فاقت كل ما سبق هذه الحرب من حروب ، لم تعد على الأوربيين بأى فائدة ولم يتعلموا منها درساً يفيدهم فى حياتهم ، فقد خرجوا منها وهم أشد ضراوة على العداء والخصومة والحقد والرغبة فى الاستعلاء والسيطرة التى انتهت بهم إلى هذه الكارثة كأشد ما كانوا فى يوم من الأيام .

ولقد ظن عندما اشتركت الولايات المتحدة فى هذه الحرب وأعلن رئيسها ودرو ولسون شروطه الأربعة عشر فى ضرورة احترام حرية البشر ، وحق كل أمة فى تقرير مصيرها ، وحرية الملاحة فى البحار لكل الدول على السواء ، والتسامح مع المغلوب ، وتحريم المعاهدات السرية ، وإزالة الحواجز والفروق فى التجارة الدولية ، وإنشاء عصبة للأمم لتكون سبيلاً لفض المنازعات بين الدول من خلال العدل لحفظ السلام .... الخ ،كان يظن أن أوربا بل البشرية كلها سوف تستقبل عهداً من الاستقرار والسلام فى ظل العدل ، ولكن الأمور لم تلبث أن انتكست كأسوأ ما يكون الانتكاس .

احتلال ممتلكات الأعداء :

وكان أول ما قام به الحلفاء المنتصرون فى فرساى ، أن فرضوا على الألمان تعويضات جسيمة مذهلة من شأنها أن تعجز الشعب الألمانى إلى الأبد ، وقررت فرنسا وانجلترا أن تحتلا البلاد والأراضى التى كان يسيطر عليها الأعداء تحت اسم الانتداب ، فإذا بسوريا ولبنان والعراق وفلسطين تقسم بين الدولتين ، ثم لم يكفهما ذلك فأشركا اليهود فى احتلال فلسطين عن طريق وعد بلفور ، واضعين بذلك الأساس لإنشاء دولة إسرائيل ، واحتلت الدولتان كذلك مستعمرات الألمان فى أفريقيا بينما استولت اليابان على مستعمراتها ومراكزها فى الشرق الأقصى .

ولم تلبث عصبة الأمم التي أنشئت « لصون السيادة والحرية للدول الكبيرة والصغيرة على السواء » ، أن تحولت إلى أداة استعمارية بغيضة مهمتها الأولى ، حماية هاتين الإمبراطوريتين اللتين اقتسمتا الدنيا ، ونعني بهما انجلترا وفرنسا بعد أن ساعد على ذلك انسحاب الولايات المتحدة من الاشتراك في هذه العصبة[1] .

انهيار عصبة الأمم والسلام الدولي :

وإذ تحولت عصبة الأمم إلى بناء أقيم على الرمال ، وإذ ظلت فكرة القوة وقيام الحضارة الإنسانية على أساس القوة المادية الغاشمة هي الفكرة السائدة فلا عجب أن تداعى بناؤها ، وانسحبت منها بعض الدول واحدة بعد أخرى لتمارس حقها في الاعتداء والهجوم على جيرانها ، كما فعلت اليابان التي اعتنقت شريعة الحضارة الأوربية بما في ذلك الغزو والاستعمار ، فهاجمت جارتها العظيمة الصين واحتلت منشوريا ، وأعقبت اليابان إيطاليا التي قام على رأسها موسوليني يبشر بسياسة القوة والغلبة وإعادة المجد الروماني ، فأطلق على البحر الأبيض اسم « بحرنا » إشارة إلى أن هذا البحر كان ملكا للرومان ، وإذ كانت أفريقيا كلها مستعمرة للدول الأوربية وليس فيها سوى دولة واحدة مستقلة وهي الحبشة فقد أقدم على احتلالها ، (١٩٣٥) .

هتلر في ألمانيا :

وقام في ألمانيا المغلوبة رجل آخر على غرار موسوليني وهو هتلر ، يدعو إلى تمزيق معاهدة الصلح وإلى إعادة تسليح ألمانيا والأخذ بالثأر من الحلفاء ، وأعاد إلى الألمان كل الصيحات الكريهة في التفاخر والتعالي بالجنس الآري والدم الجرماني ، وأن الألمان قد خلقوا ليحكموا العالمين .

وعلى ذلك فلم تمض عشرون سنة فقط على هذه الحرب اللعينة حتى اندلعت في سنة ١٩٣٩ نيران الحرب من جديد في أوربا بين خصوم الأمس ، ألمانيا من ناحية وفرنسا وانجلترا من الناحية الثانية .

---

(١) اقرأ الفصل الثامن من هذا الكتاب .

الحرب العالمية الثانية :

رأينا كيف أن القرن التاسع عشر قد سلح الإنسان بقوتى البخار والكهرباء وما ترتب على ذلك من تطور آلى بعيد المدى .

ومنذ وضع الإنسان يده على هاتين القوتين أصبحت قدرته تتزايد بمتوالية هندسية تتضخم فى سرعة مذهلة ... ففى خلال هذه العشرين عاماً التى تخللت الحربين كانت أسلحة القتال قد تطورت بصورة تجعل الحرب العالمية الأولى بالنسبة إلى هذه الحرب الجديدة مجرد تجربة أو مناوشة .

فسلاح الطيران قد تحول إلى سلاح رهيب فتاك وأصبح من المستطاع أن تطير ألف طائرة فوق أرض العدو ومدنه لتدفنها بألفين أو ثلاثة آلاف من أطنان الديناميت فى بضع ساعات ، أما فى البحار فقد تطور سلاح الغواصات فأصبح أشد فتكا وأثراً فى إغراق مئات الألوف وملايينها من الأطنان . أما سلاح الفرسان فلم يعد خيولا يركبها فرسان ، وإنما دبابات جبارة تطحن وتسحق فى طريقها كل شىء .

وكان اللاسلكى والراديو والطيران قد حول العالم كله إلى منطقة واحدة ، تتجاوب أرجاؤها بكل ما يقع فى جزء منها ، ولذلك فسرعان ما تحولت الحرب الأوربية إلى حرب عالمية حقاً ، بمعنى أن دارت المعارك فى كل ركن من أركان العالم ، وفى كل شبر من مياهه وأراضيه .

ولم يكد يمضى العام الأول حتى كانت أوربا كلها مشتركة فيها ومصطلية بنارها ، فقد انضمت إيطاليا إلى ألمانيا ، واحتلت جيوش ألمانيا دول أوربا الشرقية والغربية ، ولم تلبث أن اجتاحت أرض الاتحاد السوفيتى نفسه .

وتصورت اليابان أن فرصتها قد حانت لتثأر من عدوتها القديمة الولايات المتحدة ، ولكى تنفرد بغزو الصين وآسيا كلها ، فضربت ضربتها فى بيرل هاربور

(٧ ديسمبر ١٩٤٢) محطمة الأسطول الأمريكى فى طرفة عين ، ومدخلة بذلك الولايات المتحدة إلى أتون الحرب ، وناجحة بعد ذلك فى احتلال شرق آسيا وجنوبها الشرقى كلها .

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى بكل شرورها وويلاتها جاء عليها وقت كانت تتوقف فيــه فى الشتاء ، أو فى الليل ، وإذا كان استمرارها مع ذلك أربع سنوات قد اعتبر رقماً قياسياً . فإن الحرب العالمية الثانية قد استمرت أكثر من ست سنوات فى البر والبحر والجو لم تهدأ ليلا أو نهاراً ، صيفاً أو شتاء فى أى ركن من أركان العالم بما فى ذلك مياه القطبين .

وإذا كانت الجيوش التى ساهمت فى الحرب العــالمية الأولى قد ناهزت ٦٥ مليوناً فإن جيوش الدول التى اشتركت فى الحرب العالمية الثانية وعددها ٥٧ دولة قد جاوزت أضعاف أضعاف هذا الرقم .

ولقد طحنت عشرات من الملايين طحناً ، تحت عجلات آلة الحرب الجديدة الجهنمية بالقتل والتغريق والتحريق والنسف والتدمير ، بالمدافع والطــائرات والغواصات والألغام والصواريخ ، ولم يعد للقتال ميدان أو خط أو منطقة محدودة ، وإنما العــالم كله ميدانه والشعوب البائسة ضحاياه ، وحسبنا أن نتصور أن قنبلة هيروشيما[1] الذرية قد أبادت مدينة من الوجود فى لحة ، وبلغ عدد ضحاياها من القتلى ١٤٥ ألفاً ، بينما عدد ضحاياها الأكثر الذين تأثروا بالخطر الإشعاعى لايزالون يتساقطون حتى اليوم وبعد مرور عشرين عاماً على إلقاء هذه القنبلة .

وقد قدر عدد من ماتوا من الجنود الرسميين فى الجيوش بـ ١٥ مليوناً ، وليس هذا الرقم إلا كسراً صغــيراً من عدد الملايين الذين جرحوا أو شوهوا أو فقدوا ، وهو كسر أصغر بالنسبة إلى من قتلوا من المدنيين نســاء وأطفالا والذين لم يحصهم العد حتى الآن ، وحسبنا أن نشير على سبيل المثال ، أن قتلى

---

(١) ألقيت على اليابان فى أغسطس سنة ١٩٤٥ وكانت هى السبب المباشر لتسليم اليابان .

الجيش البولندى لا يتجاوزون نصف مليون ، بينما عدد القتلى من المدنيين يربو على ستة ملايين . ومن مات من مدنيي الروس يربون على عشرين مليوناً (١).

نفقات الحرب العالمية الثانية :

ولعله لا يوجد ما يكشف عن مدى الجهد البشرى الضائع فى هذه الحرب ، أكثر من ذكر المبلغ الذى أنفقته الولايات المتحدة وحدها على هذه الحرب ، وهو رقم أعترف أنا نفسى أنى لا أستطيع أن أقرأه ولذلك فأكتفى بأن أنقله وهو ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ دولار (٢) وأرجو ألا أكون مخطئاً إذا قلت إن هذا الرقم يساوى ثلثمائة وخمسين ألف مليون دولار . وباستطاعتنا أن نتصور مقدار ما أنفقته بقية دول العالم بما فيها ألمانيا وروسيا وانجلترا واليابان وإيطاليا ... إلخ ، لا شك أن ذلك يصل بنا إلى رقم يزيد كثيراً على أضعاف هذا القدر ، وقد بقى أن تعرف أن ذلك الجهد البشرى الذى أنفق بهذه الصورة ، قد بذل من أجل قتل الإنسان لأخيه الإنسان وتدمير مظاهر الحضارة والعمران على سطح الأرض .

الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى :

ولقد تمخضت دنيا الصراع والتطور المادى والتكنيكى سواء فى الإنتاج أو التخريب خلال هاتين الحربين ، عن قوتين جديدتين وصلتا فى الإنتاج والتفوق المادى والآلى ، والقدرة على التخريب والتدمير ، ما جعل انجلترا وفرنسا تتحولان إلى قزمين ، بل إن دول أوربا كلها مجتمعة ، أصبحت دون كل من القوتين ، كل على حدة .

ولا شك فى أن القارىء قد عرف أن إحدى هاتين القوتين هى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن القوة الثانية هى قوة الاتحاد السوفييتى . وليس الاتحاد

(١) أعلن أخيراً أن عدد قتلى الحرب العالمية الثانية بلغ فى مجموعه خمسين مليوناً .
(٢) دائرة المعارف البريطانية .

السوفيتي سوى دولة روسيا القيصرية بعد أن تحولت تحت زعامة لينين إلى دولة اشتراكية ، فاستطاعت أن تصد العدوان الألماني النازي على أراضيها عام ١٩٤١ وأن تخرج من الحرب منتصرة أروع انتصار ، لتتطور بعد ذلك ، إلى قوة عسكرية وإنتاجية رهيبة ، وصلت إلى حد منافسة الولايات المتحدة حول الوصول إلى القمر .

وهكذا خرجت الدول التي أشعلت نيران الحربين العالميتين الأولى والثانية متدهورة متضعضعة ، سواء المنهزمة أو المنتصرة على السواء ، بينما علا على السطح ، وأمسك بزمام القيادة الدولتان اللتان هوجمتا ولم يكونا هما البادئتين بالعدوان .

رب ضارة نافعة :

على أنه إذا كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية قد عادتا على شعوب أوربا بالخراب والويلات ، وكبدتهما ما كبدت من آلام وخسائر في الأرواح والأموال ، فقد كانتا من ناحية أخرى هما السبيل لنهضة شعوب آسيا وأفريقيا ، وظفر هذه الشعوب بحريتها واستقلالها وانعتاقها من لعنة الاستعمار ، تمهيداً لانطلاقها في دنيا النمو والتطور والإنتاج والإبداع .

ولكي نستعرض تحرر شعوب آسيا وأفريقيا في النصف الثاني من القرن العشرين ، يجب أن نعود إلى الوراء بعض الشيء لنتحدث عن :

اليابان والصين :

كانت اليابان هي البادئة والسباقة في نهضة آسيا وأفريقيا معاً ، باستثناء مصر[1] ، فكانت أول دولة أسيوية حذقت التكنيك الأوربي الحديث ،

---

(١) تعتبر نهضة مصر في أعقاب الغزو الفرنسي في مستهل القرن التاسع عشر ونجاح الشعب المصري في رد الغزو الإنجليزي عام ١٨٠٧ ، هي أول انتفاضة للشعوب الشرقية من سباتها وتفتح أذهانها إلى أن ميزان القوى قد اختل وأصبحت أوربا تمتلك أسلحة جديدة وعلماً جديداً . وكانت جهود محمد علي في تصنيع مصر على النظام الأوربي الحديث ، وإعادة =

فوقفت على قدم المساواة مع أعظم دول أوربا فى مطلع القرن العشرين ، ولم تلبث أن بالغت فى نهضتها وتقليدها للأوربيين ، فتحولت إلى قوة استعمارية كانجلترا أو فرنسا فبغت على جارتها العظيمة التى كانت دائماً أما لحضارتها ونعنى بها الصين ، فغزتها كما ذكرنا من قبل عام ١٩٣١ ، وبذلك عوقت نهضتها التى كانت قد بدأت على يد الزعيم صان يات صن الذى نجح فى إنهاء حكم الأباطرة الفاسد وأعلن الجمهورية الصينية فى أول يناير عام ١٩١٢ . حتى كان ما كان من أمر الحرب العالمية الثانية واصطدام اليابان بالولايات المتحدة ، وانتهاء ذلك إلى هزيمة اليابان مع ألمانيا وإيطاليا ، فخرجت الصين من هذه الحرب قوة عالمية كبرى ، احتلت أحد المقاعد الخمسة الدائمـة فى مجلس الأمن والمخصصة للدول العظمى وهى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى وإنجلترا وفرنسا والصين . حتى إذا كان عام ١٩٤٩ استطاع ماوتسى تونج زعيم الحزب الشيوعى أن يستولى على الحكم فى الصين ، وأن يبوئها بالفعل مكانها اللائق بين شعوب العالم ، حيث يقف نداً عنيداً للولايات المتحدة فى آسيا فى دنيا الحرب والسياسة ، وفى نفس الوقت يرفض أن يجعل من بلاده تابعاً أو ذيلا للاتحاد السوفييتى ويعتبر الصين المؤلفة من ٧٠٠ مليون نسمة هى صاحبة الحق سواء بماضيها أو حاضرها فى قيادة الجبهة الشيوعية كلها بل وقيادة العالم .

الهند :

وتلت نهضة اليابان والصين نهضة الهند العظيمة تحت زعامة قديسها غاندى ، الذى ابتعث روح اخناتون وبوذا والمسيح وتولستوى ، فى الدعوة إلى المحبة والسلام وكراهية العنف ، واتخذ من هذه الدعوة سلاحاً لتحرير الهند من ربقة الاستعمار الإنجليزى ، فكانت هذه الحركة مثار السخرية فى أرجاء

= تنظيم الجيش على الأساليب العصرية ، وإنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة ، وبناء الأساطيل فى مصر هى أسبق حركات النهوض فى العالم الشرقى كله . ولو لم تقف دول أوربا وعلى رأسها انجلترا فى وجه النهضة المصرية لكان تاريخ مصر والشرق العربى بأسره قد تغير نحو الأحسن والأكمل .

العالمين ، أن يقاوم الحديد والنار ، بالدعوة إلى الحب والتسامح والعصيان المدنى ، ولكن قوة المبادىء الروحية والإيمان العميق بها سرعان ما أثبتت أنها لا تزال صاحبة الكلمة العليا ، فقد انتصرت دعوة عدم العنف ، وجاءت الساعة التى أعلن فيها استقلال الهند عام (١٩٤٧) . وهكذا تحرر أربعمائة مليون من البشر دون أن يشهروا سلاحاً أو يشنوا حرباً من الحقد والكراهية والبغض[١] .

بقية الدول الآسيوية :

وفى أعقاب استقلال الهند جاء استقلال سيلان وبورما وأندونيسيا والهند الصينية والملايو والفلبين وقبل ذلك لبنان وسوريا وبذلك تحررت آسيا كلها ولم يعد فيها شعب واحد مستعمر بدولة أوربية[٢] .

إستقلال أفريقيا :

ثم جاء دور أفريقيا ، ولقد كانت مصر حاملة لواء النهضة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ولكن الاحتلال البريطانى عوق هذه النهضة ، ومع ذلك فلم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها وتنادى بحق تقرير المصير ، حتى هب الشعب المصرى عام ١٩١٩ هبة رجل واحد مطالباً بحقه فى الحرية والاستقلال فى ثورة عارمة أذهلت العالم بقوة مراس الشعب المصرى ، وسرت الروح من مصر إلى كل الحركات الثورية فى العالم ، ابتداء من الهند حتى إيرلندا وتركيا والمراكشيين فى المغرب ، وسوريا والعراق فى المشرق .

وعلى الرغم من أن استقلال مصر قد أعلن رسميا عام ١٩٢٢ ، فقد واصل الشعب كفاحه من أجل التحرر بغير كلل أو ملل[٣] .

---

(١) اقرأ للمؤلف فى تحرير الهند كتاب « أمة تبعث » .

(٢) لا تزال انجلترا تستعمر جزيرة هونج كونج ، ولكن ذلك يتم برضاء الصين التى ترى فى وجود انجلترا فى هذه الجزيرة الصغيرة على أبوابها مصلحة محققة لها .

(٣) يسجد المؤلف لله شكراً ، أن جعله ممن يسهمون فى معركة تحرير مصر والعالم العربى ، حيث ألف مع إخوانه من طليعة الجيل ، حركة مصر الفتاة التى ظلت تشارك فى النضال من أجل الحرية وتوحيد البلاد العربية ، حتى قامت حركة الجيش .

وفى يوليو عام ١٩٥٢ قامت ثورة الجيش المصرى بزعامة جمال عبد الناصر ، فأطاحت بالملكية والرجعية وكل عناصر التخلف ، ونجحت فى إجلاء آخر جندى بريطانى عن أرض الوطن ، فى شهر يونيو عام ١٩٥٦ . ولكن الإنجليز استغلوا فرصة تأميم مصر لقناة السويس فى العام نفسه ، وحاولوا أن يعودوا لاحتلال مصر أشد قوة وبطشاً بمعاونة حلفائهم الفرنسيين وصنائعهم من الإسرائيليين ، وذلك فى محاولة يائسة لإيقاف موجة التحرر التى سرت إلى شعوب أفريقيا ، فوقف الشعب المصرى مرة أخرى فى وجه هذا التحدى ، وانتصرت من جديد قوة الإيمان والاعتزاز بكرامة الإنسان والحق والعدل ، على قوى البغى والحديد والنار . وظهرت على الأفق الدولى لأول مرة وحدة الشعور العالمى فى استنكار البغى والعدوان ، فأصدرت هيئة الأمم بإجماع الآراء قراراً بشجب العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى ، ووجوب انسحاب القوات المعتدية .

وفى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٥٦ انسحبت قوات العدوان ، معلنة بذلك أن البشرية تستقبل عهداً جديداً ، لم تعد فيه القوة السافرة صالحة لحل المشكلات العالمية ، أو تحقيق الأطماع الذاتية .

وباستطاعتنا أن نعتبر هذا اليوم يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ هو بمثابة شهادة الوفاة للامبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية ، إذ أنهما منذ ذلك التاريخ وقد شرعا فى الفصل الأخير من تصفية ممتلكاتهما والدول الباقية تحت حكمهما ، وخاصة بعد أن حاولت فرنسا كمحاولة أخيرة يائسة القضاء على ثورة الجزائر ، فلم تفلح بعد أربع سنوات من حرب دامية ، فاضطرت أن تعترف باستقلال الجزائر .

واليوم ترفرف أعلام ٣٤ دولة أفريقية مستقلة فى ساحة هيئة الأمم فى نيويورك ، كمظهر لبعث القارة المظلمة أو القارة السوداء ، وكمظهر على التطور الحضارى الذى وصل إليه الإنسان .

هيئة الأمم :

وهيئـة الأمم هى المنظمة الدولية التى وضعت الإنسانيـة فيها آمالها ، بعد ما عانته من ويلات فى الحربين العالميتين المـاضيتين ، لتكون أداة لحفظ الأمن والسلام بين دول العالم من خلال إقامة سلطان القانون واحترام حقوق الدول كبيرها وصغيرها على السواء .

وعلى ذلك فقد اجتمع ممثلو خمسين[1] دولة هم الدول المنتصرة فى الحرب فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٤٥ بمدينة سان فرانسسكو وأبرموا ميثاق هيئة الأمم الذى جاء فى ديباجته :

نحن شعوب الأرض وقد آلينا على أنفسنا :

— أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، التى جلبت على الإنسانية خلال جيل واحد أحزاناً يعجز عنها الوصف .

— وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للانسان وبكرامة الفرد ، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية .

— وأن نبين الأحوال التى يمكن فى ظلها تحقيق العــدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولى .

— وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدماً ، وأن نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .

وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا :

— أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش فى سلام وحسن جوار .

— وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدوليين .

---

(١) بلغ عدد أعضاء هيئة الأمم حتى الآن ١١٥ .

— وأن نكفل بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ألا تستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة .

— وأن نستخدم الأداة الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها .

حقوق الإنسان :

ولما كانت هيئة الأمم تمثل رغبة البشر الصادقة فى وضع حد للحرب ، فقد نفذت إلى صميم الداء الذى سبب فى الماضى كل هذه الويلات ، ولا داء إلا إهدار الإنسان لحقوق الإنسان ، واغتصاب نفر من البشر السلطة واصطناع القوة ، لاستبعاد فريق آخر من البشر واستغلاله .

ولقد عملت الأديان وعمل المفكرون والمصلحون على مر التاريخ كما رأينا ، لعلاج هذا الداء ، فكانت هذه القاعدة الذهبية التى صادفتنا فى مختلف الأديان والعقائد الحضارية ، وهى أن يحب الإنسان لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه ، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به .

ولما كانت هذه القاعدة ، أعظم محدد ومنظم لحقوق الإنسان ، فقد اتخذتها هيئة الأمم سبيلا ونبراساً لتأكيد هذه الحقوق وتدعيمها ، وكان أن اجتمعت دول العالم الأعضاء فى هيئة الأمم فى باريس فى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٨ ووقعوا من جديد على ما سمى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وقد ورد فى ديباجة هذا الإعلان ما يلى :

« بما أن الاعتراف بكرامة بنى الإنسان المتأصلة ، وبحقوقهم المتكافئة النامية ، هو أساس الحرية والعدالة والسلام فى العالم ، وبما أنه قد نجم عن إغفال حقوق الإنسان وازدرائها أعمال وحشية أثارت سخط الضمير الإنسانى ، وأعان الناس أن أسمى ما تصبو إليه نفوسهم هو إيجاد عالم يتمتعون فيه بحرية القول والعقيدة ، ويتحررون فيه من الخوف والعوز ، وبما أن حقوق الإنسان بحكم

القانون أمر ضرورى حتى لا يدفعه اليأس إلى الثورة على الظلم والطغيان .

وبما أن توثيق العلاقات الودية بين الشعوب قد أصبح أمراً بالغ الأهمية .

وبما أن شعوب الأمم المتحدة ، وقد أكدت من جديد فى ميثاقها إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقيمتـــه وبحقوق الرجال والنساء المتساوية ، واعتزمت العمل على زيادة التقدم الاجتماعى ورفع مستوى المعيشة فى ظل حرية شاملة .

وبما أن الدول الأعضاء قد أخذت على نفسها عهداً أن تكفل بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية احتراماً عالياً وواقعياً .

وبما أنه من الأمور البالغة الأهميـة أن يفهم الناس جميعاً هذه الحقوق والحريات كى يتيسر الوفاء بهذا العهد وفاء كاملا .

لذلك تعلن الجمعية العامة هذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ليكون مثلا أعلى للجميع تسعى شعوب الأرض وأممها نحو بلوغه ، وعلى هدى هذا الإعلان وبوحى منه ينبغى على كل فرد ، وكل عضو فى المجتمع ، أن يعمل بوسائل التربية والتعليم ، على زيادة احترام هذه الحقوق والحريات ، وأن يستعين بالتدابير التقدمية — القومية والدولية — ليكفل الاعتراف بهذه الحقوق والحريات والمحافظة عليها محافظة فعالة سواء بين شعوب الدول الأعضاء نفسها أو بين شعوب البلاد الواقعة تحت حكمها :

مادة ١ — يولد الناس جميعاً أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق ، وكلهم قد وهب الرشد والضمير ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء ..... إلخ .

وتمضى بعد ذلك بقية مواد هذا الإعلان الدولى لحقوق الإنسان ، والذى يشتمل على كل ما تشتمل عليه دساتير الدول كلها الديموقراطية والاشتراكية على السواء تحت باب حقوق الإنسان[1] .

---

(١) الأستاذ محمد شاهين حمزة ، حقوق الإنسان بين الشرق والغرب .

صفحة جديدة فى حياة الإنسان :

ويعتبر هـــذا الإعلان الدولى لحقوق الإنسان ، صفحة جديدة مشرقة فى تاريخ الإنسانية ، فلأول مرة فى التاريخ تصبح المناداة بهذه الحقوق ، ليست جزءاً خاصاً بتعاليم دين من الأديان ، مهما يبلغ انتشاره فهو دين جماعة من الناس ، ولا هى جزء من شعارات بعض الثورات الإقليمية أو المذهبية ، كالثورة الفرنسية ، والثورة السوفييتية ، وإنما إعلان حقوق الإنسان هو ثمرة إجماع بنى البشر ، على اختلاف مللهم وأجناسهم وألوانهم وأديانهم وعقائدهم ومذاهبهم .

وماذا بعد ؟

والآن وقد فرغنا من إظهار وحدة التاريخ الإنسانى فى تدفقه ، حتى وصلنا به إلى إنشاء هيئة الأمم ، وإعلان وثيقة حقوق الإنســـان ، فهل سيواصل البشر هذا اللون من الحياة المتعادية المتباغية ، حيث تتصـــادم القوى الإنسانية وتتعارض ، ويقسو الإنسان على أخيه الإنسان ، ويسترقه ويستغله فى صور مختلفة ، هل سيظل الحال كما كان حتى الآن ، دول تقوم وأخرى تسقط ، وإمبراطوريات تتألف وأخرى تنحل ، والثورات والفتن والحروب تخضب الأرض بدم الإنسان ؟

أم أن البشر سيدركون قبل فوات الوقت ، أن العلم قد سلحهم بأسلحة الدمار التى لم تعد تدع لهم خياراً ، فهم إما أن يفنوا عن بكرة أبيهم ، إذا ظلوا جماعات متفرقة يطغى بعضها على بعض ، ويهدد بعضها بعضاً ، أو أن يتعلموا كيف يعيشون معاً متعاونين تعاون الأمة الواحدة ، وهذا يجرنا إلى الحديث عن العنصرين الباقيين ، اللذين يؤلفان الأمم والجماعات ، ونعنى بهما وحدة المصير ، ووحدة المصلحة .

الفصل السادس

وحـــــدة المصير

فناء — أم بقاء

الموت كإحدى سنن الحيـاة ـ اضمحلال الجماعات ـ فنـاء الحياة ككل ـ اكتشاف الطـاقة النووية ـ قنبلة هيروشيما ـ أثرها بالنسبة للسكان ـ أثرها بالنسبة للمتلكات القنبلة الإيدروجينية ـ أثر الإشعاع الذرى على الأجيال القادمة ـ المخزون من الأسلحة ـ اقنبلة الـكوبالت أو قنبلة يوم القيامة ـ احتمال وقوع الحرب نتيجة لخطأ ـ الانفجار السكانى ـ مالتوس ونظريته ـ النظرية تسترد كل قوتها .

الموت كإحدى سنن الحياة :

لا أحسب أن هناك حقيقة مقررة بالنسبة للجنس البشرى توحد بين أفراد نوعه ، أكثر من المصير الواحد لبنى الإنسان ، إذ يذهبون جميعاً ، إلى حيث لم يرجع أحد أبداً ليقول لنا ، أين يذهبون ، وما الذى يحدث حيث ينتهون . وليس إلا من خلال التخمين والتخيل والتأمل تارة ، والوحى والإلهام تارة أخرى ، والتفكير العقلى تارة ثالثة ، أن حاول الإنسان أن يصور مصيره بعد موته . فالمؤمنون والمعتقدون بوجود قوة علوية تعلو على الحياة والمادة يقطعون بأن حياة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ليست هى الكلمة الأخيرة فى كتاب حياته ، فوراء هذه الحياة الدنيا ، حياة أخرى أكثر شفافية وتجرداً ، تخضع لمقاييس أخرى مغايرة لمقاييسنا المادية ، وتحكم بمبادىء وقواعد غير مبادئنا وقواعدنا الدنيوية .

أما المفكرون الماديون الذين ينكرون أن يكون فى الوجود شىء سوى المادة المجردة ، ولا يؤمنون بمثاليات أو غيبيات فضلا عن إلهيات ، فيقولون إن ليس للانسان إلا حياة واحدة ، ينتهى بنهايتها ، وهى هذه الحياة المادية التى يحياها ، فهو ابن المادة وإلى المـادة يعود ، وكل حديث عن الروح وعن خلودها بعد الموت ، وعن وجود حيوات أخرى هو ضرب من الخرافة ونسج من أوهام الإنسان .

وليس من برنامجنا ، على الأقل فى هذا الفصل ، أن نخوض فى هـذه القضية وأن نحاول أن نحسم الرأى فيها ، والمهم عنـدنا هو أن المؤمنين والماديين على السواء يجمعون على أن مصير كل إنسان على ظهر الأرض واحد ومقرر ، وهو هذا الموت الظاهرى حيث تتوقف نواميس الحياة المألوفة ، فلا يعود الـكائن الحى يسمع أو يبصر أو يحس أو يشعر أو يتحرك ، فضلا عن أن يفـكر أو يريد ، ويسرع إلى الانحلال ، ثم لا يلبث أن يكون غذاء لهوام الأرض ونباتاتها ، أو يمتزج بترابها . . . مصير واحد لكل حى ، لا يشذ فيه غنى عن فقير ، ولا قوى عن ضعيف ، ولا مشهور عن خامل ، ولا أبيض عن أسـود ولا أوربى عن أفريقى أو أسيوى .

انحلال الجماعات :

وإذا كان الموت هو النهاية الطبيعية لـكل كائن حى ، كما رأينا ، وإذا كان المجتمع ، أى مجتمع ، هو حشـد من الـكائنات الحية ، فإن أى مجتمع لا بد أن ينتهى بنهاية أفراده ، أو انفراط عقدهم وتشتتهم لأى سبب من الأسباب ، ولذلك فإن صفحات التاريخ كما رأينا غاصة بهذه الجماعات التى قامت ثم انتهت ، واندرست وعفى على آثارها ، وإذا كنا نعرف طرفاً من سيرة بعض هذه الجماعات التى خلفت وراءها آثاراً ، فإن جماعات أخرى أكثر عـدداً ، قد ذهبت وانقرضت دون أن تترك وراءها أثراً ، طواها الزمن ، وراحت فى ثناياه ، كأن لم تـكن فى يوم من الأيام .

على أن الإنسانية فى مجموعها ظلت باقيـة على ظهر الأرض ، إذا خبا نورها فى جزء ، توهج فى جزء جديد . وإذا أصابها الذبول والفناء فى منطقة ، ازدادت ازدهاراً فى منطقة أخرى ، كما رأينا فى الفصل السابق .

فناء الحياة ككل :

ومع ذلك فان الوحى والإلهام ، والنظرية التى تقول إن كل شىء له بداية ، فلا بد أن تـكون له نهاية ، تقرر أن لا بد من وقوع حـدث ، يضع للحياة فى مجموعها نهاية واحدة ، وقد أطلق على هذا الحادث فى مختلف العقائد والديانات أسماء متعددة ، كيوم القيامة ، أو يوم الدينونة ، أو يوم الحساب ، وما من عقيدة متطورة إلا وتتضمن الإشارة والحديث عن هـذا اليوم والتحذير منه ، ابتداء من الديانة المصرية القديمة ، حتى اليهودية فى أدوارها المتأخرة ، والمسيحية ، ومختلف العقائد الإنسانية ، ولـكن القرآن الـكريم هو الذى انفرد بتصوير هذه النهاية فأبدع تصويرها كما هو شـأنه ، وربطها باختلال نظم الـكواكب وانفراط عقدها ، فتـكون الـكارثة ، والتى يسميها حيناً الواقعة ، وتارة أخرى الغاشية أو القارعة ، فيقول فى محـكم آياته :

« القارعة ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتـكون الجبال كالعهن المنفوش » .

— إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعـة . إذا رجت الأرض رجاً . وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثا (الواقعة) .

— إنما توعدون لواقع . فاذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . (المرسلات)

— إذا السماء انفطرت . وإذا الـكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . (الانفطار)

— إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت . (الانشقاق)

إلى آخر ما تغص به آيات القرآن الكريم من تصوير لهذه الكارثة .

العلم يؤكد حديث الوحى والإلهام :

وإذا كان هذا حديث الوحى والإلهام والعقيدة ، فقد جاء العلم يؤكد احتمال وقوع هذه الكارثة الكونية كما يصورها القرآن ، فليست الأرض سوى واحدة من هذه الكواكب ، التى ليست فى حقيقتها سوى كرة تدور فى الفضاء حول الشمس ، وليس يبقيها معلقة فى الفضاء ، إلا قوانين الجاذبية وأسرارها ، وبقية قوانين المادة ، وبحسب قوة الجذب الشمسية أن تشتد نتيجة انخفاض سرعة الأرض ، أو حسب سرعة الأرض أن تزداد وتقوى لأى سبب من الأسباب ، لكى يختل هذا النظام ، وتكون نهاية الأرض، وما أكثر ما عرف الفلك من نجوم وكواكب متهاوية ، وما أكثر النجوم التى يراها الراصدون فى السماء ، وقد تألقت فجأة فيدل ذلك على قرب انفجارها وتحولها إلى شهب ونيازك ومواد كونية ، مما يغص به الفضاء .

ولا تقوم الحياة على ظهر الكوكب الأرضى ، إلا ثمرة توافر عديد من العناصر ، ويكفى اختلال النسب فى هذه العناصر لكى تنتهى الحياة من فوق ظهر الأرض ، فلو تبدد الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض لاحترق الإنسان ، ولو قل ما بالهواء من أوكسجين لاختنق ، ولو قلت حرارة الشمس الواصلة إلى الأرض ، لهلك من البرد ، كما حدث فى تاريخ الأرض أكثر من مرة ، عند ما غشيتها العصور الجليدية .

وحسب ، وحسب ، وحسب عشرات من الفروض المحتملة أن تقع ، لكى يكون فى ذلك نهاية الكوكب الأرضى ، أو على الأقل نهاية الحياة على

ظهره[1] .

وهكذا ينتهى بنا العلم دائماً إلى حيث بدأ الإلهام والوحى ، وما يحسه الإنسان بفطرته ، لا يلبث العقل أن يؤيده بأدلته وبراهينه .

فالموت باعتبـــاره المصير المحقق للكائن الحى ، هو حقيقة كائنة ومجمع عليها لأنها مسألة محسوسة ملموسة يشهدها كل إنسان ، وكذلك الشأن بالنسبة لانتهاء حياة الجماعات المحدودة ، يشهد بذلك تاريخ الإنسان عبر القرون والدهور . على أن هاتين الحقيقتين المؤكدتين ، بالإضافة إلى الحقيقة الأخرى المحتملة وهى فناء الأرض ككل ، لم يكن لها أى أثر فى نشاط الإنسان ، وإقباله على العمل فى الدنيا كأنه يعيش أبداً ، ذلك أن هـذه النهاية سواء للانسان كفرد أو الجماعة أو للانسانية ككل ، كانت وستبقى مسألة خارج حظيرة الإرادة الإنسانية ، فهى تتم بقوة خفية لا سلطان للانسان عليها ، فليس يعلم أى إنسان متى يموت ولا كيف أو أين يموت ، فقد أثبتت التجربة ، حتى فى أشد الحروب ضراوة والموت يهطل كما لو كان مطراً ، أن أناساً فى صميم المعركة ولهب الموت ، ينجون ويظلون على قيد الحياة ، وأن أشخاصاً آخرين أبعـد عن دائرة الخطر يموتون ، ويدهم الموت أناساً قابعين فى عقر دورهم ، ويتخلف عن أناس يلعبون بالموت فى كل لحظة .

ولم تكد أخطر حربين عرفتهما البشرية تضعان أوزارهما ، حتى أعيد إصلاح ما تخرب ، وبناء ما تهدم ، وتعويض من مات من البشر ، ودارت عجلة النشاط الإنسانى أكثر قوة فى اتجاه السلام ، وعادت الأرض أكثر ازدهاراً ببنى الإنسان .

---

(١) كان أحد الفروض التى أدخلت فى دائرة الاحتمالات ، وأصابت الإنسانية بالفزع من حين لآخر ، إمكان اصطدام الأرض بأحد المذنبات ، أو مرورها فى نطاق ذيله الغازى ، ثم تبين أن هذا الأثر مبالغ فيه ، وأن الخطر على الأرض لا ينشأ إلا من اصطدامها بنواة النجم المذنب نفسه ، إذ أنها تحترق .

وهكذا حق للانسان حتى الآن أن يهز كتفيه لفكرة الفناء ، فلا الموت الذى هو من نصيب كل فرد ، ولا انقضاء الجماعات ، ولا أعتى الحروب نفسها ، قد نال من نموه وازدهاره وانتشاره وتكاثره .

اكتشاف الطاقة النووية :

على أن الإنسان توصل أخيراً ، إلى ما يزعزع هذا الاعتقاد فى إمكان تغلب البشرية على كل عوامل الفناء ، إذ أصبح إفناء الجنس البشرى ، مسألة حساب وأرقام ، وقدرة فى متناول الإنسان ، فلم تعد مسألة قضاء أو قدر فحسب ، أو غيب مجهول لا نعرف متى أو كيف يجىء ولا لماذا يجىء ، وإنما أمر حتمى متى اقتضته إرادة الإنسان ، بل وحتى رغم إرادته ، إذ يكفى أن يقع فى خطأ أو وهم أو سهو ، بل بحسب الآلات نفسها أن تخطىء ، وما أكثر ما يخطىء الإنسان ويسهو وما أكثر ما تخطىء الآلات ، فتكون الكارثة ، كارثة حرب نووية لا تبقى شيئاً على سطح الأرض .

قنبلة هيروشيما :

وتبدأ قصة الحرب الذرية أو بالأصح النووية ، صباح السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥ والحرب العالمية فى مرحلتها الأخيرة ، بعد أن استسلمت إيطاليا ومن قبلها ألمانيا وترنحت اليابان ، عندما فوجىء سكان مدينة هيروشيما اليابانية ، وقد خرجوا كعادتهم كل صباح لمزاولة أعمالهم ، فإذا شىء ينقض عليهم من السماء ، ثم لم يشعروا بعد ذلك بشىء ، فقد تلاشت أغلبيتهم العظمى وتحولت إلى غازات ورماد ، وسط ذهول الذين بقوا أحياء فى البلاد المجاورة ، ولم يحتج الأمر لغير قنبلة ثانية ، ألقيت بعد ذلك على نجازاكى ، لكى تبادر اليابان للاستسلام ، فقد كانت تجابه بهول لا عهد للانسان به من قبل(١) .

---

(١) استسلمت اليابان فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ .

ولم يكن هذا الهول الذى أصيبت به هيروشيما ونجازاكى ، إلا قنبلة ذرية صغيرة ، صغيرة جداً كما سنرى ، لا تزيد قوتها عن ٢٠ كيلو طن ، أى ما يعادل ٢٠ ألف طن من مادة ت . ن . ت شديدة الانفجار ، وكانت وزارة الحرب الأمريكية ، قد وصفت هذه القنبلة فى تقرير لها وضعته فى اليوم الأول من يوليو سنة ١٩٤٥ ، أى قبل خمسة أسابيع من إلقائها على هيروشيما ، على الوجه التالى :

لقد تم تطوير سلاح ذى قوة تدميرية ضخمة ، تفوق أى كابوس شرير يمكن أن يمر بالخيال أو التصوير البشرى ، إنه السلاح المثالى الذى يمكن لأى دولة تتظاهر بالصداقة ، أن تستخدمه فى شن هجوم مفاجىء على دولة أخرى ، فتدمر جميع مدنها بين عشية وضحاها . وهو ليس وليد عبقرية شيطانية منحرفة ، ولكنه اختراع جاء نتيجة جهد شاق بذله ألوف من الرجال والنساء العاديين الذين يعملون من أجل سلامة بلادهم[1] .

واستخدمت الولايات المتحدة هذا السلاح الجهنمى على مدينة هيروشيما والآن فلندع لأول مراسل صحفى انجليزى دخل الى مدينة هيروشيما بعد الكارثة أن يصف لنا ما رآه من أثر هذه القنبلة بعد انقضاء شهر على إسقاطها :

كان الناس لا يزالون يسيرون فى طريق الموت بعد مرور ثلاثين يوماً من القاء أول قنبلة ذرية فى العالم على هذه المدينة ، التى هزت العالم بطريقة مروعة غامضة ، أناس لم يصبهم الانفجار بجروح ، ولكنهم كانوا يموتون لسبب غير معروف ، يمكن أن أصفه فقط بأنه طاعون ذرى . لم تكن هيروشيما تبدو كمدينة قذفت بالقنابل ، وأنا أحاول أن أستعرض هذه الحقائق دون أى تأثير عاطفى بقدر الإمكان ، على أمل أن يكون فى هذا الوصف تحذير للعالم . إنه يعطيك شعوراً بالفراغ فى أمعائك حينما ترى هذا الدمار والخراب الذى صنعه

(١) فيليب بيكر — سباق التسلح — ص ٩٧ .

الإنسان بنفسه ، إننى أستطيع أن أرى على مسافة ثلاثة أميال سحابة أرجوانية هى كل ما تبقى من القنبلة الذرية .

وقد أخذنى رئيس بوليس هيروشيما إلى المستشفيات حيث كانت عمليات إسعاف ضحايا القنابل ما زالت قائمة على قدم وساق ، فوجدت فى هذه المستشفيات أناساً قاسوا من جروح قاتلة حينما ألقيت القنبلة ، ولـكنهم يموتون الآن من آثار أخرى غير هذه الجروح . كانت صحتهم تتدهور بصورة مروعة لأسباب غير واضحة ، ثم فقدوا الشهية وسقط شعرهم ، وبدأت بقع زرقاء تظهر على أجسادهم ، ثم بدأ النزيف يتدفق من آذانهم ومن أنوفهم وأفواههم .

وأخبرنى الأطباء ، إنهم كانوا يعتقدون فى بداية الأمر ، أنها علامة من علامات الضعف العام . ولذلك فقد قاموا بحقن مرضاهم بفيتامين ا ، ولـكن النتائج كانت مخيفة ، إذ بدأت المنطقة التى تثقب بإبرة الحقن تتحلل ، وفى كل حالة كان مصير الضحية الموت . ومضى المراسل يصف الآثار الأخرى الناتجة عن إلقاء أول قنبلة ذرية فقال :

« كانت هناك رائحة خاصة ، ناتجة عن الغاز السام الذى لا يزال ينبعث من الأرض ويحمل بين طياته إشعاعات ذرية ، وكان كل مواطن يحمل بسببها قناعه على فمه وأنفه فيما عدا الألوف الـكثيرة من السكان الذين اختفوا بسهولة ، فقد كانت الحرارة الذرية عنيفة وهائلة « لدرجة أنها حولتهم فوراً إلى رماد — بل إنه لم يبق منهم حتى الرماد ، لقد تبخروا تماماً من الوجود »[1] .

---

(١) نشرت رسالة اليونسكو العدد ٤٢ الصادرة بالعربية فى ديسمبر سنة ١٩٦٤ صورة سلم خشبى مستند إلى أحد الجدران وكتبت تحت الصورة ما يلى : لم يتبق من هذا الرجل الذى كان ، إلا ظل على جدار ، فى لحظة خاطفة من أغسطس سنة ١٩٤٥ فى هيروشيما امتص جسم الرجل الاشعاعات والحرارة الناشئة من الانفجار الذرى ، فانطبع ظله على جدار المبنى الذى كان يقف إلى جواره ، وقد اختفى الرجل وبقى السلم الخشبى .

ثم مضى يقول :

« ومنذ اللحظة التى حل فيها الدمار بهيروشيما ، طغى شعور بالكراهية بين الناس الذين ظلوا على قيد الحياة » ، ضد الرجل الأبيض ، ولقد بلغت هذه الكراهية حداً مخيفاً ، لا يدانيه سوى الأثر التدميرى الذى خلفته وراءها القنبلة الذرية »(١) .

أما ما حدث بالفعل فى المدينة من جراء إلقاء القنبلة بالأرقام فهذا ما ورد فى تقرير اليابان الرسمى عن النتائج المباشرة وقد جاء فيه :

كان نتيجة إلقاء القنبلة على سكان المدينة البالغ عددهم ٣٠٠ ألف نسمة على الوجه التالى :

أولا : بالنسبة للسكان

١٠٠٫٠٠٠ بين قتلى ومفقودين .

١٠٠٫٠٠٠ جرحى .

٩٨٫٠٠٠ فى حاجة إلى فحوص طبية مستمرة .

٦٫٠٠٠ لا يزالون تحت العلاج .

١٨٥ شخص ماتوا خلال عام ١٩٥٦ — ١٩٥٧ .

ثانياً : بالنسبة للممتلكات

تدمير شامل لجميع الممتلكات العسكرية ، ومنشآت الميناء وجميع المصانع والمكاتب ، والمساكن البالغ عددها ٥٠ ألف مسكن(٢) .

---

(١) سباق التسلح — ص ١٢٦ .

(٢) سباق التسلح — ص ١٢٨ .

القنبلة الهيدروجينية :

هذه النتائج التى تبدو لنا مخيفة ومذهلة من أثر قنبلة واحدة ، قد أصبحت شيئاً من مخلفات الماضى البعيد ، بل أصبحت من عداد الأسلحة التقليدية القديمة كالسيف والرمح والنشاب أو الرصاص ، وذلك بالقياس إلى القنبلة الهيدروجينية الجديدة ، والتى يقولون أحياناً إن قنبلة هيروشيما بالنسبة لها أشبه بلعب الأطفال . ذلك أنه إذا كانت قنبلة هيروشيما ، لم تزد قوة انفجارها عما يعادل ٢٠ ألف طن من مادة ت. ن. ت ، فإن القنبلة الهيدروجينية الشائعة الصنع فى الوقت الحاضر ، تبلغ قوة تدميرها ١٥ ألف ميجا طن ، أى ما يعادل ٧٥٠ ضعفاً لقنبلة هيروشيما . على أن الاتحاد السوفييتى قد صنع وفجر قنابل هيدروجينية تبلغ قوتها ٥٠ ميجاطن أى ما يعادل ٢٥٠٠ مرة قنبلة هيرشيما . بل لقد أذاعت بعض البرقيات الأمريكية فى وقت ما ، أن الاتحاد السوفييتى فجر قنبلة هيدروجينية قدرها ١٠٠ ميجا طن . ولم يعرف بعد بطريقة دقيقة مفصلة الأثر الذى يمكن أن يخلفه اطلاق قنبلة من حجم الخمسين ميجا طن ، ولكن وزارة الداخلية الإنجليزية أصدرت كتاباً تحدد فيه الأثر الذى تحدثه قنبلة واحدة من الحجم المتواضع جداً ، حجم ١٠ ميجا طن وذلك على الوجه التالى :

سوف تؤدى قنبلة هيدروجينية من قوة ١٠ ميجا طن إلى إيجاد إشعاعات حرارية تعادل ٥٠٠ ضعف ما أحدثته قنبلة هيروشيما التى تبلغ ٢٠ كيلو طن ، فإذا فجرت هذه القنبلة على الأرض ، فإنها تسبب حرائق فى منطقة تتراوح بين ٣½ من الأميال وعشرة أميال . أما فى قطر يبلغ سبعة أميال داخل الدائرة ، فلن تكون هناك حرائق لأن كل شىء فيها يكون قد تحطم وانهار . وأصبح خراباً ورماداً إلى درجة لا تسمح باشتعال الحريق فيه ، وفى خارج هذه الدائرة سوف تكون هناك حلقة من النيران يبلغ قطرها عشرين ميلا ، وقد تقع عدة حرائق منفصلة على أبعاد كبيرة .

أما بالنسبة للتفجير الجوى فإن الحلقة الخارجية التى يشملها الحريق الهائل فيتراوح نصف قطرها بين أربعة أميال واثنى عشر ميلا (أى فى دائرة قطرها أربعة وعشرون ميلا) ويبدو من جميع هذه الظروف ، أنه لا يوجد شىء يستطيع أن يمنع التحام هذه الحرائق مع بعضها البعض ، وتكوين حريق شامل وهائل يكتسح المنطقة . ولن يسلم من هذا الانفجار إلا القليل جداً من البشر فى حدود دائرة يزيد قطرها على عشرين ميلا .

وأكثر الناس سعادة بعــد إلقاء قنبلة هيدروجينية ، هم الذين يقعون فى مركز الانفجار ، حيث يتحولون فى غمضة عين إلى رماد وغازات ، إنما الهول الأكبر والعذاب المقيم لهؤلاء الذين لا يموتون بسبب بعدهم عن مركز الانفجار ، فإن موتهم سيكون بطيئاً وإن كان مؤكداً .

وتذكر تقارير وزارة الداخلية البريطانية خطر الأشخاص الذين يتعرضون للموت نتيجة امتصاص النشاط الإشعاعى بعد إلقاء القنبلة على الوجه التالى :

المسافة بالنسبة لمنطقة الانفجار	كمية النشاط الإشعاعى	نسبة الذين سيواجهون الموت
١٩٠ ميلا	٣٠٠ رونتجن	٥ — ١٠ ٪
١٦٠ »	٥٠٠ »	٥٠ ٪
١٤٠ »	٨٠٠ »	١٠٠ ٪

أى أن جميع من يقعون فى دائرة نصف قطرها ١٤٠ ميــلا فى مركز الانفجار يموتون على وجه التحقيق فى خلال أسبوعين ، وهم من هذه الناحية لا يزالون أسعد حظاً ، من الذين يقعون على البعد الذى يتراوح بين ١٩٠ ،

و ١٦٠ ميلا وهم الذين يمتصون مقداراً من الإشعاع يتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ رونتجن ، فإن قدر هؤلاء المحتوم سوف يجرى على الوجه التالى :

الزمن بعد التعرض للاشعاع	إمكانية الحياة لمن امتصوا إشعاعا قدره ما بين ٣٠٠ — ٥٠٠ رونتجن
الأسبوع الأول	يرقان — قىء — إسهال فى الساعات الأولى — سقوط الشعر
الأسبوع الثانى	فقد الشهيـة — الإصابة بضعف عام — حمى — نزيف — ظهور بقع — زرقان على الجلد — تدفق الدم من الأذن
الأسبوع الثالث	تدفق دم من الأنف — إصابة الفم والحلق بالتهاب شديد — الإصابة بالإسهال — الإصابة بالنحافة التامة
الأسبوع الرابع	الموت فى جميع الحالات الخطرة — نسبة الوفاة ٥٠ ٪ بسبب التعرض لـ ٥٤٠ رونتجن

أما الأشخاص الذين تمتص أجسـادهم أشعة مقدارها ٧٠٠ رونتجن فهم أكثر حظاً لأنهم يموتون بقليل من العذاب إذ يصلون الى مرحلة النحافة التامة فى الأسبوع الثانى ثم يريحهم الموت من العذاب[1] .

أثر الإشعاع الذرى على الأجيال القادمة :

وإذا كانت كل الأسلحة التى عرفها الإنسان من قبل ، مهما كان أثرها مدمراً ومخيفاً ، تزول آثارها بعد حدوث نتائجها المباشرة ، فإن القنابل الذرية وبخاصة الهيدروجينية ، يظل أثرها باقياً ومؤثراً على مر الزمن بالنسبة لأجيال لم تولد بعد ، فقد ثبت بالبرهان العلمى القاطع ، أن الإشعاعات العالية تؤثر على

---

(١) سباق التسلح — ص ١٤٧ .

(الجينات) المورثات ، ونعنى بها هذه الكائنات الحية التى تحمل خصائص الإنسان إلى سلالته . وفى ذلك يقول العلامة لينوس باولنج الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء عام ١٩٥٤ وجائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ :

« إن التجارب النووية التى أجريت حتى الآن ووصلت قوتها إلى ٦٠٠ ميجاطن ، ستؤثر بمضى الزمن فى ستة عشر مليوناً من الأطفال ، تأثيراً يصل فى شدته إلى حد أنهم سيعانون نقصاً جسمياً أو عقلياً بالغا ، أو يصيبهم الموت وهم أجنة ، أو فى السنة الأولى لميلادهم ، أو فى سنوات الطفولة الأولى .

وسيصاب عشر هذا العدد أى ١٦٠ ألف طفل فى الجيل الأول ولكن الأضرار ستستمر بنقص ضئيل جداً جيلا بعد جيل وسنة بعد أخرى لآلاف السنين[1] .

المخزون من الأسلحة الذرية :

وما دمنا قد عرفنا خطر قنبلة واحدة من الأسلحة الذرية ، لا يزيد حجمها عن عشرة ميجاطن ، وعرفنا كيف أن أثر أى قنبلة تفجر يتعدى الأجيال الحاضرة إلى المقبلة ، فمن حقنا أن نتساءل عن مقدار ما أصبح العالم يمتلكه من هذه القنابل الذرية ، ونحن نعلم أن الولايات المتحدة تنتج القنابل الذرية فى غير توقف ابتداء من عام ١٩٤٥ حتى اليوم أى خلال عشرين سنة ، ولم يتأخر الاتحاد السوفييتى عن الولايات المتحدة إلا بضع سنوات ، ولم يلبث أن لحقها وراح ينتج القنابل الذرية ، فالهيدروجينية بكميات متضاعفة ، وبأحجام ضخمة جبارة ، ثم لحقت انجلترا بالدولتين ، وتبعتهم فرنسا ، وها هى ذى الصين تلحق الجماعة ، فتفجر قنبلتها الذرية الأولى عام ١٩٦٤ .

وتغص الصحف بعبارات التحدى والتفاخر بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وبلغ الأمر بأحد المسئولين الأمريكان أن يقول ، إن لدى الولايات

---

(١) رسالة اليونسكو — عدد ٤٢ .

المتحدة الأمريكية من القنابل الذرية ما يكفى لتدمير الاتحاد السوفييتى ثلاث مرات ، فرد عليه مسئول سوفييتى متهكما بقوله : إن لدى الاتحاد السوفييتى ما يكفى لتدمير الولايات المتحدة مرة واحدة وهذا يكفى .

على أن العلامة لينوس باولنج الذى أشرنا إليه فيما سبق ، قد حاول أن يقدر المخزون من الأسلحة النووية فى العالم ، طبقاً لكميات اليورانيوم المستعملة ، وطاقة المصانع المنتجة ، فبلغ عدد المخزون فى حسابه ١٦٫٠٠٠ قنبلة ، قوة كل منها عشرون ميجاطن ، حيث تساوى قوة القنبلة الواحدة من ذات العشرين ميجاطن ، تأثير ألف غارة جوية من أعنف غارات الحرب العالمية الثانية ، تظل تكرر يومياً لمدة ١٤ سنة .

ويصور لنا لينوس باولنج النتائج التى تترتب على استخدام ١٠٪ فقط من هذا القدر المخزون فيقول :

فى خلال ستين يوماً من وقوع الحرب النووية ، ونحن نفترض أنها ستشمل أوربا كلها والاتحاد السوفييتى وأمريكا — سيكون قد قتل من الثمانمائة مليون شخص الذين يعيشون فى هذه المناطق ٧١٠ ملايين ، وأصيب ٦٠ مليوناً بإصابات بالغة ، وسيبقى ٣٠ مليوناً من الأحياء مصابين بإصابات بسيطة ، ولكن عليهم أن يجابهوا مشكلات الخراب الكامل فى جميع المدن والعواصم ووسائل النقل والمواصلات والتفكك الكامل فى المجتمع ، وموت جميع الحيوانات والتلوث البالغ بالإشعاع الذرى فى جميع النباتات الصالحة للغذاء ، وسيكون هذا هو نهاية هذا القسم من العالم . أما الأضرار التى تصيب بقية أجزاء العالم ، فلم يستطع أحد أن يقدرها تقديراً يعتمد عليه إلى هذه اللحظة[1] .

فإذا كان هذا هو مدى الدمار الذى يلحق بأوربا وأمريكا والاتحاد السوفييتى فيما لو استخدم ١٠ ٪ فقط من الأسلحة النووية الموجودة حالياً ،

---

(١) رسالة اليونسكو عدد ٤٢ .

فماذا يكون الحال فيما لو استخدم أضعاف هذا القدر ، كما أنه من غير المتصور أن تقوم الحرب النووية لتظل محصورة فى هذا القسم فقط من العالم ، حيث القواعد الذرية موزعة فى أنحاء العالم ، وحيث المصالح مترابطة ومتشابكة لا تسمح ببقاء فريق من البشر خارج النزاع حتى لو شاء هو أن يبقى بعيداً عنه .

قنبلة الكوبالت أو قنبلة يوم القيامة :

كل ذلك ولم نتحدث بعد عن قنبلة الكوبالت التى بنيت بالفعل والتى أصبح يطلق عليها اسم « قنبلة يوم القيامة » والتى شاءت سخرية المقادير أن يكون إنتاجها أرخص تكلفة من القنبلة الهيدروجينية نفسها . وتتألف أجزاء قنبلة الكوبالت الخارجية من الكوبالت بدلا من اليورانيوم ، وهى تنتج إثر تفجيرها إشعاعات تأخذ فى الانتشار ببطء ، ومعنى ذلك أن كل سكان البسيطة سيموتون خلال سنوات قليلة لو فجر عدد كاف من قنابل الكوبالت الرخيصة ، وفى ذلك يقول لينوس باولنج :

« يمكن صنع ما يكفى من قنابل الكوبالت لإفناء كل كائن حى على ظهر الأرض بستة بلايين فقط من الدولارات أى $\frac{1}{20}$ من مجموع ما ينفق على التسلح فى العالم كله سنوياً ، ولا تسأل آنئذ عن الاحتياطات المتخذة لحماية الحياة ، لأنه لن يبقى أى كائن حى أبداً »[1] .

فى حيازة من توجد الأسلحة الذرية ؟

وقد آن الأوان ليتساءل كل إنسان ، أين توجد هذه الأسلحة والقنابل الذرية التى تهدد البشرية بهذا الدمار والفناء والعذاب والويلات ؟ أهى تحت القفل والمفتاح فى مخازن تحت الأرض ، بحيث يمكن للانسانية أن تمضى هانئة مطمئنة ، إذ أننا لا يمكن أن نتصور أن الجنون والحماقة ستصل بهذه الدول

---

(١) رسالة اليونسكو عدد ٤٢ .

الكبرى إلى حد أن تقرر الانتحار ، ولكن هذا الهدوء والطمأنينة سرعان ما تنهار ويحل الفزع ، ويجب أن يحل ، عندما نعرف أن هذه الأسلحة موزعة فى أنحاء العالمين ، على ظهر الأرض وفوق سطح الماء وفى أجواز الفضاء ، وأنها ليست فى الحفظ أو الصون تحت القفل والمفتاح ، وإنما هى فى حيازة أفراد من البشر يقفون على أهبة الاستعداد لإطلاقها بالليل والنهار بمجرد تلقيهم إشارة ، لا تعدو أن تكون بضع نبضات لاسلكية تهتز بها أجهزتهم .

ويعيش هؤلاء الرجال فى القواعد الذرية الثابتة أو المتحركة أو الطائرة فى أرجاء العالم ، وفى أنحاء القارات الست ، وهم فى حالة توتر دائم فى انتظار هذه الإشارة ، والتى لا تكاد تصل أو يخيل إليهم أنها وصلت ، حتى تنطلق مئات الصواريخ المشرعة فوق قواعدها ، أو المحملة فوق الطائرات ، أو الغواصات لتندفع نحو أهدافها المحددة من قبل بسرعة ٢٥ ألف كيلومتر فى الساعة ، أى أنها تقطع المسافة من نيويورك حتى موسكو أو بالعكس فى عشرين دقيقة فقط .

وأياً كان البادىء بالإطلاق ، فسوف يلقى جزاءه من حيث لا يحتسب ، ففى البحر مئات ومئات من الغواصات لا يعرف مكانها ولا عددها ، سوف ترد على الضربة بضربات ، ولم تعد المسألة وقفاً على هذه الغواصات ، بل إن سفن الفضاء التى تدور حول الأرض ستتحول بدورها إلى حاملات خراب ودمار ، لا تحتاج ممن على الأرض، إلا نبضة لاسلكية تصلها ، كألوف النبضات الأخرى التى تتلقاها وتنفذ تعليماتها .

احتمال وقوع الحرب نتيجة الخطأ :

وهذا الذى وصفناه لك ، يظهر لك كيف أن الخطر الذى يهدد البشرية بالفناء ، لم يعد زمامه فى يد رؤساء الدول والحكومات التى لن تستعمله خوفاً من الأخطار المحدقة بها من جراء استعماله ، وإنما هو فى حيازة ألوف بل عشرات الألوف من البشر ، المعرضين لكل ما يتعرض له الإنسان من أخطاء وانحرافات ، وانفجارات عصبية وعقلية ، بل إن هذا النفر من البشر بالذات أصبحوا أكثر

من غيرهم عرضة للاصابة بالانهيار العصبى والجنون ، لشدة ما يعانون من توتر الأعصاب ، وهم لا يفتأون يحدقون فى السماء ، أو بالأحرى فى لوحات الرادار بحثاً خلف نقط سوداء تظهر عليها ، ليكون ذلك معناه بداية الغارة التى يجب أن يردوا عليها بالمثل . وقد حدث مرتين أن وقع بعض هؤلاء الأشخاص فى الخطأ ، الذى لو لم يكتشف فى اللحظة المناسبة ، لما بقيت أنا وأنت حتى الآن على ظهر الأرض ، وإذا كان الخطأ قد وقع فى إحدى هاتين المرتين بسبب قمر صناعى ظهر على شاشة الرادار ، فإن الخطأ الثانى قد وقع بسبب ظهور سرب من الأوز على هذه الشاشة ، ولأدع الآن تقرير هيئة الأمم عن نزع السلاح عام ١٩٦١ يصف لنا هذا اللون الجديد من الخطر :

« إننا نشك فى استمرار وجود العالم بأى شكل من الأشكال ، دون نزع السلاح ، إن شبح الموت يسيطر علينا ، فإن طيران سرب من الأوز البرى فى هدوء عبر اركاتيكا البيضاء (القارة القطبية) ثم يدخل فى نطاق تحذير شاشة رادار أمريكى أو سوفياتى ، تتصوره الشاشة على أنه صواريخ ، فتتأهب حكومة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى للقيام بالضرب النووى المضاد كما تقضى الحالة ، فيبدأ إعصار الحرب النووية ، بينما يطير الأوز فى هدوء إلى الأمام . . . والحق أن الأوز سيكون هو المخلوق الوحيد الذى يظل حياً بعد حرب عالمية »(١) .

ولا يظن قارىء أن هذا الذى ختمت به لجنة نزع السلاح تقريرها فرضاً نسجته من وحى الخيال ، فهى إنما تشير لحادث وقع بالفعل ، فإن محطة الرادار النووية الموجودة فى شمال جرينلند المخصصة للانذار عند اقتراب قاذفات القنابل السوفييتية حدث أن أعطت الإنذار ، وقام الطيارون المدربون على أن يكونوا فى الجو فى ظرف دقيقتين بطائراتهم حاملة القنابل الهيدروجينية ، بالطيران ، ثم اتضح للرادار أن القذيفة التى شوهدت على شاشة الرادار لم تكن إلا سرباً من الأوز . كما ظن فى مرة أخرى ، أن أحد الأقمار الصناعية هو هجوم روسى ،

---

(١) برتراند راسل : هل للانسان مستقبل — ص ٦٩ .

بيد أن تدخل جبل ثلجى قطع الاتصال فمنع دمار الأرض ، وكانت حاملات القاذفات قد بدأت رحلتها إلى الدمار الشامل فى تلك الحوادث .

مصير البشرية أصبح فى يدها :

ومعنى هذا الذى سقناه فيما سبق ، أن مصير الإنسانية الواحد ، يوم فنائها ، أو بالأحرى ما أسماه الإنسان منذ أقدم العصور « يوم القيامة » لم يعد مسألة عقيدة دينية تقوم على الإيمان بالغيب والحدس والإلهام ، وإنما هى مسألة واقع كائن ومقرر ومحسوب ومدروس .

لم تعد المسألة كما قلنا فى بداية الفصل مسألة قضاء وقدر ، لا نعرف متى يجىء ولا كيف يجىء ولا لماذا يجىء ، وإنما أصبحت مسألة إنسانية بحتة تدخل فى حيز قدرته وإرادته . ولما كان كل ما هو فى قدرة الإنسان ، وداخل فى نطاق إرادته ، يجب أن يكون محل بحثه وتساؤله فى الليل والنهار ، أهو يريده حقاً ؟ وهل إذا أراده يكون فى ذلك خير له ومصلحة ؟ أمن الخير للانســان ، أى إنسان ، ومن مصلحته فناء البشرية من فوق ظهر الأرض ؟ أم أن الخير كل الخير هو فى أن يحس بنو الإنســان بالخطر المشــترك الذى أصبح معلقاً على رؤوسهم جميعاً ، ويهددهم بالفناء جميعاً ، فيتحدوا ويتــكاتفوا ويعملوا جنباً إلى جنب على وقف إنتاج القنابل الذرية ، وتدمير ما أنتج منها بطريقة لا تؤذى البشرية ، وتحويل ما ينفق على هــذه الأدوات الجهنمية إلى أدوات السلام . لقد بلغ مقدار ما ينفق على هــذه الآلات ١٤ مليون دولار فى الساعة الواحدة ، ٣٣٦ مليون كل شهر ، أو ١٢٠ ألف مليون دولار كل سنة ، يحتاجها العالم ، لتفادى الخطر الآخر الذى أصبح معلقــاً على رأس البشر والذى يهدده كذلك بالفناء ، وهو وإن لم يكن خطراً عاجلا داهماً كالخطر النووى فهو لا يقل عنه تحققاً وتأكيداً ، وإن كان يزحف فى بطء ، وذلك هو خطر الانفجار السكانى ، حيث يحدث ازدياد الســكان

بطريقة غير معقولة ، نفس الآثار التي يمكن أن يحدثها انفجار ذرى ، مع اختلاف فى مدى الزمن الذى يتحقق فيه ذلك .

الانفجار السكانى :

جاء فى أحد الكتب التى تعرضت لمشكلة الانفجار السكانى العبارة التالية تصويراً لهذه المشكلة : عند ما تستيقظ كل صباح يكون عدد سكان العالم قد زاد حوالى ١٨ ألف نسمة ، عما كانوا عليه عند ما آويت إلى مضجعك فى الليلة السابقة ، وعند ما يحل المساء يكون عددهم قد ارتفع بمقدار ٣٧ ألف نسمة أخرى ، أى أن سكان العالم يتزايدون بنسبة ٥٥ ألف نسمة فى كل يوم ، وعشرين مليوناً فى كل عام ، وليست هذه الزيادة هى معدل المواليد (الذى يبلغ عددهم ٥٠ مليوناً كل عام) بل هى الفرق بين المواليد والوفيات »[1] .

بينما ينقل صاحب كتاب « مشكلة السكان فى العالم » بعض ما يقال بصدد هذه المشكلة على الصورة الآتية : إن الإنسانية تزيد بمعدل ثلاثة أشخاص كل ثانيتين ، أى بمعدل تسعين شخصاً كل دقيقة و ٥٫٤٠٠ شخص كل ساعة و ١٢٩٫٦٠٠ شخص كل يوم و ٤٧٫٣٠٠٫٠٠٠ شخص كل سنة أى ما يزيد على مجموع سكان فرنسا بأجمعها[2] .

وكانت جميع الكتب التى ألفت حتى عام ١٩٦٠ والتى استندت على تقديرات قديمة لهيئة الأمم فى عدد سكان العالم فى المستقبل ، تتحدث كلها عن أن عدد سكان العالم سيصل إلى ثلاثة آلاف مليون فى نهاية القرن العشرين أى بعد ٣٤ سنة من الآن ، وكانوا يستعظمون هذا الرقم ، وليس هناك ما يكشف عن مدى عمق المشكلة من أن الإنسانية بلغت هذا الرقم بالفعل

---

(١) هذه المعدلات قديمة وقد زادت .

(٢) مشكلة السكان فى العالم — الفردسونى — ترجمة دكتور جلال صادق — يلاحظ أنه يذكر عدد المواليد .

تقريباً بغير حاجة للانتظار هـذه الأربع والثلاثين سنة ، فآخر إحصاء لهيئة الأمم يتبين منه أن العالم قد جاوز الثلاثة آلاف مليون عام ١٩٦٢ ، وارتفعت بالتالى تقديرات عدد سكان العالم عام ٢٠٠٠ فأصبحت تتراوح بين ستة آلاف مليون وسبعة آلاف مليون . ولـكى نقدر دلالة هذه الزيادة الضخمة فى عدد السكان أى ثلاثة آلاف مليون فى ثلاثين سنة ، يكفى أن نعود إلى الوراء فى تاريخ البشرية لنعلم أنها قد احتاجت ، ربما ، لمليون سنة قبل أن يصبح عدد البشرية عشرة ملايين فقط ، وقد تـكون احتاجت بعـد ذلك إلى نصف مليون سنة أخرى ليصبح هذا الرقم عند ميـلاد المسيح ٢٠٠ — ٣٠٠ مليون نسمة ، ولم يحتج الأمر بعد ذلك لغير سبعة عشر قرناً لـكى يصبح هذا الرقم على أصح الفروض ٥٠٠ مليون نسمة فى عام ١٦٥٠ . وخلال قرنين فقط أى مائتى سنة تضاعف هذا الرقم فأصبح ألف مليون عام ١٨٥٠ ، ولم يمض بعد ذلك إلا قرن واحد وعشر سنوات حتى تضاعف هذا الرقم مرتين فأصبح عام ١٩٦٠ : ٣٠٠٠ مليون نسمة . ولن يحتاج هذا الرقم الضخم لـكى يتضاعف فيصبح كما قدمنا ستة أو سـبعة آلاف مليون نسمة إلا للجزء البـاقى على ختام القرن .

وبعملية حسابية بسيطة ، يقول الخبراء إن معدل الزيادة لو استمر على هذا المنوال لبضعة قرون قادمة ، فإن عدد البشر سيبلغ حداً لا تعود مساحة الأرض كلها تـكفى إلا لمواضع الأقدام ، إذ سيكون هناك خمسة أو ستة من البشر فى كل متر مربع .

وغنى عن البيان أن الأمور لا يمكن أن تسير على هذه الوتيرة ، فقوانين الطبيعة والحياة تقوم على التوازن والتعادل ، وكل مد يقـابله جزر ، وكل نمو يقابله ذبول ، ولو أننا نظرنا فى تاريخ الإنسان القديم ، لوجدنا ما يقطع بأن الأمور فى الطبيعة لا يمكن أن تسير أبداً فى اتجاه واحد .

فقد ذكر (بلوش) أن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية لو قدروا فى

القرن الرابع عشر قبل ظهور المسيح بـ ٤٥ مليون نسمة ، ولو أن هؤلاء السكان كانوا يتزايدون بالمعدل الحالى أو بنسبة أقل ولتكن مثلا ١ ٪ لكان عدد سكان العالم اليوم ٣٠٠٠ تريليون نسمة أى مايزيد عن ١٢٠ ألف مرة عن عدد سكان العالم الحاليين[1] وهو ما لا يجعل لكل شخصين ونصف من السكان سوى متر واحد مربع ليقفوا عليه .

وغنى عن البيان ، أن عدد سكان العالم لم يصل إلا إلى كسر ضئيل جداً من هذا العدد . فما الذى حال دون الوصول إلى هذه النتيجة ؟ حالت القوانين الطبيعية وقوانين الحياة ، فوقعت أشياء ، بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه ، وما نعرفه هو الأوبئة والمجاعات والجائحات والحروب ، التى كانت تطيح أحياناً بنصف سكان العالم ، والتى كانت تكاد تفنى مجتمعات بأكملها ، وحسب الإنسان على سبيل المثال أن يتصور كيف كان العراق منذ سنوات مضت لا يضم سوى ثلاثة ملايين نسمة ، بينما كان يعج فى العصر الإسلامى إلى ما قبل غزو التتار بعشرات الملايين من السكان ، يقدرها البعض بثلاثين مليوناً ، ويقدرها بعض آخر بأكثر من ذلك . ومصر التى قدر البعض سكانها عند الفتح الإسلامى بعشرين مليون نسمة ، لم يكن عدد سكانها فى مطلع القرن التاسع عشر يزيد على ثلاثة ملايين ، وتشهد آثار المدن فى صحراء ليبيا على أن هذه المنطقة ، التى تبدو اليوم مخيفة لما هى عليه من جدب وقحط وجفاف ، كانت فيما مضى عامرة بالحياة والسكان وإلا لما قامت فى أحشائها هذه المدن .

والسؤال الآن ، هل سيقع فى المستقبل ما وقع فى الماضى فتجتاح الأوبئة والطواعين والكوليرا الأرض اجتياحاً ، أو يغرقها طوفان مائى أو ثلجى ، أو تغمرها موجة من الزلازل والبراكين تخفف من أعبائها .. ؟ ذلك كله جائز ومحتمل . وإذا تصور متصور أن العلم الحديث قد بدأ يوجد مناعة ضد انتشار

---

(١) مشكلة السكان فى العالم ص ٢٢ .

الطواعين والأوبئة ، فإن ذلك لا يعنى بحال عدم ظهور وباء جديد لا تعرفه الإنسانية بعد . وعلى كل حال فإن تحصن الإنسان الحديث ضد الأوبئة مشروط بأن يتناول الإنسان قدراً من الغذاء ويخضع لنوع معين من العلاج ، فإذا كثر النـاس إلى الحد الذى لا يعود ما فى الأرض من غذاء يكفيهم ، ولا يوجد من يعالجهم ، فلا مناص من أن تستشرى الأوبئة والجائحات ، والمجاعة أولاً وأخيراً .. وقد توصل الإنسان كما رأينا إلى ما يغنى عن كل ما عرفت الإنسانية فى التاريخ من أوبئة وطواعين ، وذلك هو القنابل الأيدروجينية ، فهى كفيلة بأن تجعل ما على الأرض هبـاءً منثوراً وتصبح الدنيا كأن لم تـكن بالأمس . وهذا الرأى المتشائم بالنسبة لمستقبل الإنسانية ، هو ما يراه بعض الناس ويؤمنون به .

مالتوس ونظريته :

ولعل مالتوس القسيس الإنجليزى ، كان أول من أرسل صيحة التشاؤم هذه ، ولفت الأنظـار إلى ما أصبح يشتهر باسم « نظرية مالتوس » والتى لا يمكن لأى باحث فى شئون العالم وسكانه إلا أن يرددها ، ويتبين حقيقتها ، ومدى فاعليتها . وتتلخص هـذه النظرية فى أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية أى ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ ، بينما لا تتزايد الموارد الغذائية إلا بمتوالية حسابيـة أى ٢ — ٤ — ٦ — ٨ — ١٠ . ومعنى ذلك أن ما تنتجه الأرض من غذاء ، لا يمكن بحال أن يكفى بنيها الذين يتكاثرون . ومن هنا فإن الأوبئة والمجـاعات والحروب ، تقوم من حين لآخر بعملية الموازنة ، فتمتص الزيادة البشرية أو بالأحرى تفنيها ، ليظل التعادل بين الموارد الغذائية المتاحة ، وعدد سكان البشرية .

دحض نظرية مالتوس :

أرسل مالتوس هذه الصيحة فى كتاب له عام ١٨٠٣ أى فى مطلع القرن

التاسع عشر ، وكانت انجلترا تعانى فى ذلك الوقت أزمة اقتصادية جعلت الفقر سمة بارزة من سمات الحياة الاجتماعية ، وكان مالتوس يتصور طبقاً لنظريته أن حالة انجلترا ستزداد سوءاً ، ولـكن واقع انجلترا بعد ذلك وحتى اليوم يشهد بعكس ذلك على الرغم من تزايد سكان انجلترا أضعاف ما كانت عليه عند ما نادى مالتوس بنظريته ، فانجلترا تتمتع بدرجة من الثراء لم تـكن تحلم بها ، والشعب البريطانى يحصل على كمية من الغذاء يضرب بها المثل حيث يتناول الفرد الانجليزى أربع وجبات فى اليوم الواحد .

ويقول الباحثون فى نظرية مالتوس وملابساتها ، إن مالتوس قد أغفل فى حسابه عند ما قال بنظريته عديداً من العوامل على رأسها :

١ — ما سلحت به الثورة الصناعية الإنســان الإنجليزى من قدرة على استغلال الأرض ، بصورة كان من شأنها أن تضاعف من إنتاج الأرض مرات ومرات .

٢ — قدرة الإنجليز على استجلاب ما تحتاج إليه من أقوات عبر البحار، سواء عن طريق الإتجار أو الاستعمار .

٣ — انخفاض معدل زيادة المواليد بمجرد ارتقاء حياة الإنسان وانتقاله من الريف إلى المدينة ، ومن الإنتاج الزراعى إلى الإنتاج الصناعى ، وهى ظاهرة عامة ومؤكدة تتـكرر كلما وصلت المجتمعات إلى حد معين من التقـدم والرقى .

ومن هنا فقد اعترض كثير من الاقتصـاديين على نظرية مالتوس ، ووصفوها بأنها نظرية متشائمة ، واستدلوا على ذلك بما ترفل فيه أوربا الغربية كلها من ثراء فاحش بعد أن تـكاثر سكانها فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين بصورة غير معقولة .

النظرية تسترد كل قوتها :

على أن النظرية تعود اليوم من جديد ، لتتردد على كل لسان وعلى كل قلم ، وهى أصدق ما تكون بالنسبة للشعوب المتخلفة أو الشعوب النامية ، فحيث لا تنتج هذه الشعوب إلا ما يكفى بصعوبة لسد رمق أبنائها الحاليين ، فإنها تتكاثر بطريقة من شأنها أن تعدم كل آثار المحاولات التى تبذل لتحسين مستوى المعيشة لجماهير السكان . ويزيد فى تفاقم المشكلة ، أن وسائل الوقاية الحديثة واستعمال المطهرات من أمثال الد.د.ت ، والبنسيلين ، وانتشار وسائل التطعيم ضد الجدرى والكوليرا ، قد هبط بنسبة الوفيات ، فلم يبق أمام القادة والمفكرين والزعماء فى البلاد النامية ، إلا أن يدعو هذه الدعوة الجديدة ، دعوة الإقلال من النسل . وهكذا بعد أن كانت كل أمة لا ترى عزها ومجدها ومنعتها إلا فى الإكثار من النسل ، وليس فينا من لا يحفظ دعوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو ينادينا « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وبعد أن كانت الدول المتقدمة تشجع على الإكثار من النسل ، وتقدم الجوائز للأمهات اللواتى ينجبن أكبر عدد ممكن من الأولاد ، وبعد أن كان ممثل الاتحاد السوفييتى يقول أمام لجنة السكان التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ « إننا نعتبر كل اقتراح يقدم لهذه اللجنة بغرض تحديد الزيجات ، أو تحديد عدد الأطفال داخل إطار الزواج ، بأنه همجى بربرى . إن الانفجار السكانى ليس إلا ثمرة النظام الرأسمالى . ومن الممكن مواجهة أى زيادة فى السكان إذا طبق نظام اجتماعى سليم . يجب أن يتمشى الاقتصاد مع عدد السكان لا العكس »[(١)] .

وتطبيقاً لهذه السياسة فى الاتحاد السوفييتى ، لم يكن هم للدولة إلا تشجيع النساء على الإنسال ، فبلغ ما دفع للأمهات عام ١٩٤٧ كمكافآت على إنجابهن

---

(١) مشكلة السكان فى العالم ص ١٥٨ .

عدداً من الأولاد ، ٥ بلايين روبل[١] .

لقد انتهى ذلك كله الآن ، وحلت محله الدعوة إلى تقليل النسل ، ولم تعد مجرد أقوال تقال ، بل إن العقاقير التي تؤدي إلى العقم أصبحت تصنع وتوزع ويروج لها ، ولكن ذلك كله لا يجدي ولا يمكن أن يجدي ، وسط شعوب لم يبق لها من متعة في الحياة إلا العملية الجنسية ، ولا سبيل لوقف هذا الفيضان من التيار البشري حتى يقع الانفجار الذي يودي بالشر .

وفي ذلك يقول جيمس داربورج أحد خبراء هيئة الأمم : لا يمكن أن يوجد عالم بلا حرب ما دام ثلثا الجنس البشري لا يجدون الغذاء الكافي ، منحطين نتيجة الجهل والفقر والمرض ، مصابين بالأمراض والقهر ، بينما يتمتع قلة من البشر بالوفرة . سوف يقاتل الناس إذا لزم الأمر بأيديهم العارية كلما دفعهم إلى ذلك ظلم أو عدوان[٢] .

ولا شك أن السيد جيمس داربورج قد قال هذا القول ، قبل أن تفجر الصين قنبلتها الذرية الأولى ، فإذا علمنا أن عدد سكان الصين سيبلغ ٨٠٠ مليون في العشر سنوات المقبلة ، أدركنا كيف أن الانفجار المقبل لن يكون باليد العارية ، بل باليد المسلحة بالقنبلة الذرية .

أما من سبيل لدفع الكارثة ؟

والسؤال الذي يتردد الآن ، هل البشرية تسير في طريق مسدود ، وأنه تبعاً لنظرية مالتوس التي يؤيدها الواقع ، لامناص من آفات طبيعية ، أو حرب ذرية عالمية ، لإفناء القسم الأكبر من البشر ، ليكون في استطاعة البقية من بني الإنسان أن يحيوا ؟

---

(١) السكان والسياسات الدولية ص ٢٢٦ ترجمة الدكتور خليل حسن خليل .

(٢) إحدى نشرات اليونسكو .

وللرد على هذا السؤال سنخصص الفصل التالى لنبين أن لا سبيل لدفع الخطر المشترك العاجل والآجل الذى بات يهدد البشرية إلا من خلال الإيمان بوحدة المصلحة الإنسانية .

ولقد رأينا فى الفصل الأول ، كيف أن المجتمعات كبيرها وصغيرها تقوم فى الدرجة الأولى ، وتتعاون وتتماسك لدرء المخاطر التى تهددها . وعلى قدر هذه المخاطر يكون التكتل ، فإذا أصبح الخطر عاماً وشاملا ، فقد أصبح من الضرورى أن يكون التكتل عاماً وشاملا ، وليس سوى العالم كله فى وحدة واحدة ، فى ظل حكومة واحدة ، ما ينقذ البشرية من مصيرها المحتوم . ومثل هذه الوحدة الواجبة ، لا تقف عند حد دفع الخطر الذى يهدد البشرية ، بل إنه يحقق لها فوق ذلك ، المصلحة التى يتغياها كل كائن حى ، وهو أن يجد رزقه موفوراً ، ومستقبله مأموناً ، كما سنرى ذلك بالأرقام فى فصلنا التالى « وحدة المصلحة » .

الفصل السابع

وحدة المصلحة

جلب المنافع — الإنسان يبدأ دائماً بداية سليمة — تقسيم العمل — ترابط مصالح الإنسانية فى العصر الحديث — الولايات المتحدة الأمريكية — الاتحاد السوفيتى — إنجلترا — أوربا الغربية وبترول العرب — التفاوت الصارخ بين شعوب العالم — القسمة الجائرة — طرفا المحور أو الولايات المتحدة والهند — الدخل القومى بالنسبة للفرد الواحد — التجربة الهندية — تطور الرأسمالية فى القرنين التاسع عشر والعشرين — تحسين ظروف العمل رما أدت إليه من وفرة الإنتاج — التجربة الأمريكية — مشروع مارشال — السوق الأوربية المشتركة — المنظمة الأوربية للفحم والصلب — دالت الامبراطوريات فازدهرت شعوب الدول الحاكمة — فرنسا وهولندا — الارتقاء بالشعوب المختلفة عملية تجارية — توجيه نفقات التسليح للتنمية — هل فى الأرض ما يكفى لسد حاجة البشر — زيادة الرقعة الزراعية — زراعة الصحراء — استعمال ماء البحر — صحارى الجليد — البحر كمصدر مباشر للغذاء — المعادن من البحر أيضاً — هل فى الأرض ما يكفى من الطاقة — المائة سنة القادمة — الكون الفسيح.

— ١ —

جلب المنافع :

إذا كان دفع المخاطر التى تهدد الإنسانية بالفناء نتيجة حرب نووية ، أو نتيجة انفجار سكانى، من شأنه أن يوحد بين البشر ، فلا يتصورن متصور ،

أن الوحدة بين البشر لا تقوم إلا على أساس من الخوف والرغبة فى درء المخاطر ، فهى فى حقيقتها إنما تقوم فى الدرجة الأولى على جلب المنافع ، أو ما يسمى بلغة العصر الحديث المصلحة الاقتصادية المشتركة .

والحق أن التعاون الإنسانى بوجهيه درء المخاطر ، وجلب المنافع ، هو حقيقة اجتماعية تمليها غريزة البقاء ، وليس يحول دون تحقيقها فى كل الأحوال ، إلا أن الإنسان هو الكائن الوحيد الحى ، الذى يستطيع أحياناً أن ينحرف عن غرائزه ، وأن يعمل على عكس ميوله الطبيعية المستقرة فى أعماق نفسه ، حتى ليبلغ به الأمر فى بعض الأحوال أن يدمر حياته من أساسها بالانتحار ، وهو ما يخالف ويضاد كل غرائز الكائن الحى .

الإنسان يبدأ دائماً بداية سليمة :

ولقد بدأ الإنسان أول ما بدأ على هذا الكون بداية سليمة ، البداية التى تمليها طبيعة الحياة ، وهو تعاون الفرد مع المجموع والمجموع مع الفرد ، للمحافظة على سلامة النوع كله ورفاهيته .

ونحن نرى الطفل يتعلق بأمه ، ويصرخ ويبكى إذا هى غابت عنه ، ذلك أن الطفل يرى فى أمه أنها ينبوع حياته ، ومصدر غذائه ، والأم من ناحيتها لا تقل تعلقاً بطفلها ، لأنها ترى فيه امتداداً لوجودها ، وعوناً لها بعد أن تكبر فى حياتها ، وبقاء لها فى الدنيا بعد فنائها ، وليست هذه العلاقة المتبادلة بين الطفل وأمه إلا تعبيراً عن غريزة البقاء . وبهذه الغريزة نفسها يندفع كل من الذكر والأنثى نحو بعضهما ، ذلك أن استمرار تيار الحياة وقف على هذا اللقاء وهذا الاتحاد .

هذا التلاحم فى الوجود والكيان بالنسبة لأفراد الأسرة الواحدة ، هو فى طبيعته نفس التلاحم بين أفراد الجنس البشرى كله مهما اتسع نطاق الجنس ، وإن لم يبد الأمر للكثيرين بهذا الوضوح والنصاعة .

تقسيم العمل :

وليس تقسيم العمل الذى اهتدى إليه الإنسان الأول منذ عرف نفسه ، إلا آية هذا التلاحم العضوى بين مصالح أفراد النوع ، فقد عاش الإنسان أول ما عاش معتمداً على الصيد ، وعملية الصيد تتألف من عديد من العمليات ، التى تبدأ بالاستطلاع ثم الاستدراج ، ونصب الكمين ثم الانقضاض ، ولو مارس كل إنسان هذه العمليات بمفرده ، فما أكثر ما يلقى من مشقة وعنت ، وما أكثر ما يضيع من جهد قد لا يكلل بالنجاح ، بل قد يتعرض فى بعض الأحوال للهلاك والمعاطب ، أما بعد أن قسم الإنسان عمليات الصيد بين أفراده ، فثمة نفر يتخصصون فى الاستطلاع ، وآخرون للاستدراج ، ونفر لنصب الكمائن ، والبعض للانقضاض ، فقد نجحت عمليات الصيد ، وأصبحت أغزر ثمرة ، وأكثر أماناً ، ومضت قاعدة تقسيم العمل تزداد تفرعاً وتنوعاً ، فأصبح البعض يتخصصون فى العمليات السابقة على الصيد دون أن يشتركوا فى عمليات الصيد نفسها ، فبرع أقوام فى صنع الأسلحة ، وفى شحذها ، وآخرون فى صنع الشباك ، وعمليات ما بعد الصيد ، كالاستفادة على خير وجه بجلود الصيد وبعظامها فى عمل مختلف الأدوات ، وتفوق الإنسان من خلال عمليات تقسيم العمل على بقية الكائنات الحية الأخرى ، فهلكوا وزالوا ، وبقى هو وتكاثر ونما .

وكان يمكن أن تستمر أمور البشر على هذا التعاون والتلاحم ، الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد ، بل كان يجب أن تستمر ، فليست الإنسانية فى مجموعها كما قدمنا فى مطلع هذا الكتاب ، إلا كالجسم الواحد الذى يبدأ من خلية واحدة ، لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين ، والخليتان إلى أربع وثمان فست عشرة إلى مئات وألوف وملايين فبلايين ، وهى تتغاير وتتمايز ، ما بين خلايا قلب ، وخلايا رئة ، وخلايا جلد ، وخلايا مخ ، وخلايا قدم وذراع ، ما بين خلايا مربعة وأخرى مثمنة أو نجمية أو خطية أو مستديرة أو على شكل البسكويت ، أو المكعبات أو العناكب أو على شكل القوس ، أو متفرعة

كالشجرة ، بعضها زجاج شفاف ، وبعضها معتم كالحجر ، بعضها لا لون له ، ونوع منها أحمر وآخر أسود ، ومع ذلك فهى كلها ، كلها على اختلاف وظائفها ومواضعها من الجسم وأشكالها وأحجامها ، ليست سوى أجزاء من هذا الجسم الواحد ، تعمل على المحافظة على بقائه حياً ، فى الوقت الذى يحافظ هو على بقائها حية . وما العائلة الأولى المؤلفة من ذكر وأنثى إلا خلية جسم المجتمع الإنسانى ، وما انفصال الطفل عن أمه إلا بمثابة انقسام الخلية الأولى لتكوين خلية ثانية . وهكذا يمضى انقسام الأسرة إلى عديد من الأسر ، ثم تتحول هذه الأسرة إلى عشيرة فقبيلة فمدينة فأمة ، ومهما امتدت الأمة وتفرعت إلى عديد من الأمم وانساحت عبر الكرة الأرضية كلها ، فهى لا تزال هذا الجسد الحى الواحد المتلاحم المصلحة ، والذى لا حياة له إلا فى حياة الكل ، ولا حياة للكل إلا فى حياة خلاياه .

ولكن الإنسانية القادرة على الانحراف والخروج على غرائزها ، سرعان ما امتلأت بأفراد راحوا يستعلون على الآخرين ويستغلونهم ليعيشوا على حسابهم ، فبدأت الثورات والمخاصمات التى تطورت على مر الزمن فأصبحت حروباً مهلكة ، توشك أن تتطور لتصبح حروباً تبيد النوع بأكمله . وليس هناك ما يوقف ذلك إلا أن يعود البشر إلى نقطة الابتداء ، نقطة تلاحم المصلحة ، والتى أصبحت فى عصرنا الحديث لا تحتاج إلى دليل أو برهان .

شدة الترابط بين مصالح الإنسانية فى العصر الحديث :

والحق أنه إذا كانت الظروف قد هيأت فى بعض فترات التاريخ الماضى للجماعات الإنسانية ، أن تعيش متباعدة فى عزلة عن بعضها ، فقد كان ذلك ممكناً والجماعة تعيش على ما تنتجه من الزراعة ، وعندما كانت الصناعة يدوية تعتمد على المهارات الفردية والمواد الأولية المتاحة فى بيئة الصانع ، فى ذلك الوقت كان من المتصور ، بل وحدث بالفعل أن انعزلت جماعات كثيرة عن العالم

الخارجي ، واستغنت كل جماعة بجهودها الخاصة وإنتاجها لإشباع حاجات أفرادها ، عن الاتصال بالآخرين .

أما اليوم وبعد أن طرأ على العالم ما طرأ من التطور التكنولوجى الذى لا حد له ، وبعد أن طوت أساليب المواصلات الحديثة ، المسافات طياً إن لم تكن ألغتها بحساب الزمن ، وبعد أن تعقدت صناعة الآلات ، فأصبحت تصنع من خليط من المعادن والمواد الأولية التى توجد موزعة على سطح الكرة الأرضية كلها ولا يختص بها جزء من الأجزاء ، بينما أدى الإنتاج الآلى إلى وفرة من المنتجات ، لا يمكن أن يكون لها سوق لتصريفها إلا السوق العالمية فى كمالها ، فقد انتهى ذلك كله إلى شدة التلاحم بين مصلحة البشر ، ولم يعد باستطاعة أى شعب مهما كان عدده وكانت موارده وكانت قدرته ، أن يهيىء لنفسه حياة رغدة إلا بأن يتصل بكل أجزاء العالم ، ويرتبط بها استيراداً وتصديراً ، وحسبنا أن ندرس موقف الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها ، بإجماع الأعداء قبل الأصدقاء ، أكبر قوة منتجة على ظهر الأرض وأرفعها مستوى للمعيشة .

الولايات المتحدة الأمريكية :

أما أن الولايات المتحدة الأمريكية أكبر وحدة منتجة على ظهر الأرض ، فذلك ما تشهد به الأرقام فهى تنتج ٤٠٪ من مجموع الإنتاج العالمى ، سواء بالنسبة للسلع أو الخدمات ، والسوق الأمريكية تكاد تستوعب نصف موارد العالم من المواد الأولية والسلع والخدمات .

فعندما كان العالم ينتج فى سنة ١٩٤٨ طاقة كهربائية تقدر بتسعمائة ألف مليون كيلوات ، كانت الولايات المتحدة تنتج من هذا القدر ٣٣٦ ألف مليون كيلووات . وعندما ارتفع رقم الإنتاج العالمى من الكهرباء عام ١٩٦٢ إلى ٢٫٦٥٥٫٤٠٠ مليون ، كانت الولايات المتحدة تنتج ٩٤٣٫٠٥٣

مليون كيلووات[1] .

وعندما كان عدد التليفونات فى العالم عام ١٩٤٨ يقدر بـ ٦٥٫٨٠٠٫٠٠٠ كان نصيب أمريكا منها ٤٠٫٦٧٠٫٠٠٠ وعندما ارتفع هذا الرقم عام ١٩٥٩ إلى ١٣٣٫٦٠٠٫٠٠٠ تليفون كان نصيب أمريكا منها ٧٦٫٠٣٦٫٤٠٠ .

أما السيارات فقد أنتج العالم سنوياً خلال المدة من ١٩٥٥ — ١٩٦٠ ، ما يبلغ ١٢ مليون سيارة ، أنتجت منها الولايات المتحدة وحدها من ٦٠ إلى ٦٥٪ من هذا القـدر . وليس ذلك إلا رمزاً لبقية فروع الإنتاج والخدمات المتوفرة فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولذلك فلا عجب إذا ظلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى وقت قريب ، تتصور أنها قادرة على الاكتفاء الذاتى والاستغناء عن بقية شعوب العالم ، أو بصفة خاصة عن أوربا ، فلا تتورط فى منازعاتها وتشترك فى حروبها ، وأن تنعم بعزلتها خلف محيطها الهادى من ناحية والأطلسى من الناحية الثانية .

ولـكن الولايات المتحدة جرت إلى الحرب العالمية الأولى جراً كما رأينا ، وكذلك الحرب العالمية الثانية ، وأدرك الأمريكيون أن كل حديث عن العزلة فى العالم الجديد ، هو حديث خرافة . فانقلبت أمريكا من النقيض إلى النقيض ، وراحت تبذل نشاطها بشتى الطرق فى كل شبر من أنحاء العالم ، نشاطاً محموداً فى بعض الأحيان ، ونشاطاً غير محمود العواقب فى أحيان أخرى[2] . وسوف نرى كيف مدت الولايات المتحـدة يد المساعدة والعون لأوربا الغربية لإعادة بناء نفسها بعـد الحرب ، وكيف بدأت تعرض مساعداتها من شتى الأصناف على بقية شعوب الأرض . وهى لا تفعل ذلك على سبيل الإحسان

---

(١) كتاب الإحصاء السنوى لهيئة الأمم .

(٢) كموقفها الآن فى فيتنام حيث تقسو بكل جبروتها على شعب صغير باسل ، مهددة بذلك سلام العالم كله وأمنه .

كما قد يتصور البعض ، وليس على سبيل تدعيم قوتها العسكرية فحسب ، بل لأن مصالحها الاقتصادية المباشرة أصبحت مرتبطة أشد الارتباط بكل جزء من أجزاء العالم ، وليس باستطاعة مصانعها أن تظل منطلقة فى دورانها ، إلا إذا ظل تيار المواد الأولية القادم من أنحاء الأرض ، يتدفق بغير انقطاع . وحسبنا أن نتصور أن الولايات المتحدة التى كانت هى المصدر الأول للبترول فى العالم ، أصبحت تستورد قدراً من البترول ، وإن كان حتى الآن لا يزال تافهاً لا يذكر بالنسبة لإنتاجها ، فسوف يظل يزيد عاماً بعد عام مع استمرار تناقص احتياطى المخزون عندها ، والولايات المتحدةالتى تعتبر أكثر دول العالم صناعة للمطاط واستعمالا له ، تستورد كل المطاط الطبيعى من الخارج ، وهى تستورد ٩٠٪ من حاجاتها من النيكل والكوبالت والكروميت والاسبستس والمانجنيز . وهى تستورد أكثر من ٥٠٪ من احتياجاتها من التنجستن من الخارج ، وأكثر من ثلث ما تحتاجه من النحاس والرصاص والزنك من الخارج أيضاً . وتتزايد حاجة الولايات المتحدة إلى هذه المواد بتزايد صناعاتها وإنتاجها ، فبينما لم تستورد عام ١٩٤٦ إلا بمبلغ أربعة آلاف مليون دولار من المواد الخام والأولية ، فقد تضاعف هذا الرقم ثلاث مرات عام ١٩٥٧ فأصبح ١٢ ألف مليون دولار ، بينما بلغت قيمة الصادرات فى نفس هذا العام ١٥ ألف مليون دولار . ومعنى هذا أن تجارة أمريكا فى سنة واحدة بلغ ٢٧ ألف مليون دولار(١) وعلينا أن نتصور ما الذى يعنيه هذا الرقم فى حياة الأمريكان ، وكيف أن كل هبوط فى معدله ، يعنى البطالة لمئات الألوف ، إن لم يكن للملايين من أفراد الشعب الأمريكى .

وقد اشتغلت مصانع الصلب فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٢ بنصف إمكانياتها فقط ، وما ذلك إلا لعدم وجود السوق التى تستوعب كل إنتاج هذه المصانع من الصلب .

وإذا كان معدن اليورانيوم ، يمثل ذروة ما يحتاجه الإنتاج العسكرى والمدنى ، من مادة أولية ، فإن التفوق الأمريكى فى هذه الناحية ، مرتبط

(١) دائرة المعارف البريطانية .

كل الارتباط بالكونغو الذى يمثل فى العصر الحديث دولة من أشد دول العالم تخلفاً ، ومع ذلك فهو أكبر منتج لعنصر اليورانيوم ، وهذا ما جعل اللجنة الأمريكية التى كلفت بدراسة نظام المعونات الأمريكية لشعوب العالم تقول فى تقريرها :

يمكن القول إن هذه الدولة التى علمتنا كتبنا المدرسية أنها تتمتع باكتفاء ذاتى كلى ، قد أصبحت رهن مشيئة الدول المتخلفة ، كما يطلق عليها ، وذلك فيما يتعلق بثلثى احتياجاتها الصناعية ، أما بالنسبة لاحتياجاتها لمواد جديدة فى ميدان الصناعة مثل الذرة والمواد الإلكترونية ، فإن اعتمادها على هذه الدول سوف يصبح أعظم بكثير[1] .

الاتحاد السوفييتى :

ولننتقل الآن إلى صورة ثانية ، صورة دولة اشتراكية تسعى نحو تحقيق الشيوعية ، وعاشت فى عزلة جبرية عن بقية شعوب العالم لفترة من الزمن ، ونعنى بها الاتحاد السوفييتى . والاتحاد السوفييتى يعتبر أوسع بلاد العالم رقعة وأكثرها بالتالى موارد ، فمساحة الاتحاد السوفييتى تقدر بـ ٢٢٫٤٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع أى أكثر من ١٦٪ من مساحة الأرض المسكونة ، وهذه المساحة تساوى ضعف مساحة الولايات المتحدة مرتين ونصفاً ، وسبعة أمثال مساحة الهند ، وتسعين مرة مساحة بريطانيا . . . ويسكن الاتحاد السوفييتى ٢٢٥ مليون نسمة ، يعملون بالليل والنهار ، ليصبحوا أول دولة منتجة فى العالم فى الصناعة ، والدلائل تشير إلى أنهم يسيرون فى هذا الطريق بالفعل ، فحيث كان الاتحاد السوفييتى لا ينتج سوى ١٢٫٥٪ من إنتاج الولايات المتحدة الصناعى عام ١٩١٣ فقد ارتفع هذا الرقم إلى ٣٠٪ عام ١٩٥٠ ، و ٤٧٪ عام ١٩٥٧ ، ووصل إلى ٦٣٪ من مستوى الإنتاج الأمريكى عام ١٩٦٢[2] .

(١) ريتسى كالدر . عالم جائع . ص ٥ .

(٢) كل شىء عن الاتحاد السوفييتى « نشرة رسمية » .

وليس فى العالم اليوم من لا تهزه انتصارات الاتحاد السوفييتى فى معركة غزو الفضاء والسباق للوصول إلى القمر ، وهو ما ينطق بأن الاتحاد السوفييتى أصبح قوة علمية وإنتاجية كبيرة . وكان المفروض ، وهو بكل هذا الاتساع فى المساحة والوفرة من الموارد ، والقدرة على الإنتاج ، أن يستغنى بنفسه عن بقية شعوب العالم ، ولكن الحقيقة تنطق بالعكس ، فالاتحاد السوفييتى كالولايات المتحدة الأمريكية يزداد اعتماده على العالم الخارجى ، كلما تطور فى صناعته وزاد فى إنتاجه ، وأصبح حريصاً على رفع مستوى أبنائه ، ولذلك فلا عجب إذا كانت الدولة التى أصبحت تغص وتعج بالمصانع الثقيلة ومصانع الآلات يؤلف استيراد الآلات ٣٠٪ من وارداتها ، ولننقل قائمة الواردات السوفيتية نقلا عن دائرة المعارف السوفيتية :

يستورد الاتحاد السوفييتى ، الآلات والماكينات والأدوات ومجموعة كاملة من المعدات اللازمة للصناعات الكيماوية ، والأسمنت والصناعات الخفيفة ، والغذائية ولب الورق وبعض المواد الخام والمطروقات الحديدية ، والأنابيب والمطاط الطبيعى ، والصوف وغيرها . وتستورد هذه المواد من بريطانيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، وفنلندا وفرنسا والسويد والنمسا واليابان وتشيكوسلوفاكيا ، وجمهورية ألمانيا الديموقراطية وغيرها .

ويستورد الاتحاد السوفييتى أيضاً الأحذية والمنسوجات والملابس الجاهزة والأثاث ، والأرز والخضروات والفواكه الطازجة والشاى والليمون ، والبرتقال والموز . . . الخ[1] .

وقصة استيراد الاتحاد السوفييتى القمح من الولايات المتحدة الأمريكية عدوتها اللدود ومنافستها ، أشهر من أن تعرف . ومن هنا فقد ارتفع حجم

---

(١) كل شىء عن الاتحاد السوفييتى ص ١٥٦ .

التجارة الروسية ، من ثلاثة آلاف مليون روبل عام ١٩٥٠ إلى ١٢ ألف مليون روبل عام ١٩٦٢ . ويقدر الاتحاد السوفييتي أن حجم التجارة السوفييتية سوف يتضاعف أربع مرات أخرى عام ١٩٨٠ .

انجلترا :

ولنصل الآن إلى دولة كانت تعتبر حتى الأمس القريب أعظم إمبراطوريات العالم عبر التاريخ ونعني بها انجلترا ، فإذا الحقيقة الصارخة تواجهنا وهي أن صناعات هذه الدولة الضخمة تختنق ، بل إن سكان الجزيرة نفسها يتضورون جوعاً ، إذا لم تظل شرايين الحياة وأوردتها تصلها بكل جزء من أجزاء العالم ، وتنقل منها وإليها مقومات حياة أبنائها ، وحياة صناعاتها ، على صورة أغذية ومواد أولية ، وصناعات تخرج منها . فالجزر البريطانية لا تنتج سوى ٥٠٪ من الأغذية اللازمة لإطعام أهلها ، وهي لا تنتج في نفس الوقت سوى ٥٠٪ من الحديد اللازم لإنتاج مصانعها ، وهي لا تملك البترول المحرك لهذه المصانع . والدولة التي كانت تقدم للدنيا كلها أفخر المنسوجات القطنية ، لا ينمو فيها شجرة قطن واحدة ، والبلد الذي يصنع أفخر الأقمشة الصوفية ، يستورد كل صوفه من الخارج .

وقد كانت انجلترا لهذا السبب دائماً تستورد بأكثر مما تصدر ، وكان سبيلها إلى إعادة التوازن إلى ميزانها الحسابي ، هو ما تحصله من رؤوس أموالها المستغلة في مستعمراتها وما يحصله أسطولها التجاري ، وغير ذلك من المواد غير المنظورة ، وقد بلغ ما صدرته انجلترا عام ١٩٥٥ ما يساوي ٨ آلاف مليون دولار بينما استوردت في نفس السنة بما يساوي عشرة آلاف مليون دولار .

وفي عام ١٩٦٢ استوردت بـ ١٣٦ر١٢ مليون دولار ، بينما لم تصدر إلا بـ ٦١٧ر١٠ مليون دولار[1] .

---

(١) كتاب الإحصاء السنوي لهيئة الأمم .

ولعل ذلك يظهرنا الآن على ارتباط مصلحة انجلترا المباشرة بكل ركن وبكل شبر من أنحاء العالم .

أوربا الغربية وبترول العرب :

ولعل آخر ما نسوقه من هذه الأمثلة على شدة الارتباط بين مصالح الدول هو مدى ما وصل إليه اعتماد أوربا الغربية على بترول العرب ، حيث أصبحت الحياة الإنتاجية فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا وألمانيا الغربية ، وكل سيارة فيها وكل قطار وكل طائرة ، تتعطل كلها عن الحركة إذا لم يظل بترول العرب والخليج العربى يتدفق إليها ، من الكويت والبحرين وقطر والظهران وعبدان والموصل ومن ليبيا ومن الجزائر .

ويظهرك على ذلك أن أوربا الغربية استوردت عام ١٩٦٠ فقط ، ١١٨ مليون طن من بترول العرب ، فى مقابل ٥ر١٥ مليون طن وصلت غرب أوربا من نصف الكرة الغربى[١] . وهكذا تترابط مصالح الشعوب ، وتتداخل وتتلاحم بصورة تتزايد عاماً بعد آخر بل يوماً بعد يوم وساعة بعد أخرى .

فلينظر الإنسان إلى طعامه :

وبحسب كل منا أن ينظر إلى طعامه الذى يأكله ، بل إلى ثيابه التى يرتديها ، وإلى الأجهزة التى يستعملها ويستعين بها فى قضاء حاجاته ، ليرى أنه يستعمل ويستخدم ويستهلك ، ما ساهمت شعوب الدنيا كلها فى إنتاجه ، إن كل ورقة من هذا الشاى الذى لا يستطيع له عداً ، إنما قطفتها يد امرأة أو رجل أو صبى فى سيلان أو فى الهند أو فى الصين ، وكل حبة بن تستعملها فى قهوتك ، قد جمعتها أيد فى البرازيل أو كولومبيا ، أو اليمن أو الحبشة ، وكل فنجان من

---

(١) الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى ص ٢٨٩ .

الكاكاو تشربه أو قطعة من الشيوكولاتة تأكلها ، كل رغيف من الخبز أو قطعة من الجبن ، كل معطف وكل ثوب من أى نوع ، وكل حبة دواء أو حقنة ، وكل كتاب أو ورقة ، كل قطرة مداد ، أو رنة تليفون ، أو برنامج راديو أو تليفزيون وسينما ... كل شىء ... كل شىء ، كل سلعة وكل خدمة ، وكل مادة أولية ، ما كانت لتصل إليك إلا نتيجة التعاون الإنسانى فى مجموعه ، ماهى إلا الحصيلة المشتركة لجهد البشرية وكدحها وعرقها وسهرها ، حتى يكون باستطاعة كل إنسان فيها أن ينعم بما ينعم به .

التفاوت الصارخ بين شعوب العالم :

وعلى الرغم من أن هذا هو مدى ترابط الإنسانية ، ومدى اعتماد كل فرد فيها على جهود بقية أفرادها ، وأن أعظم الدول وأعتاها ، تستمد غناها ورفاهية أبنائها نتيجة جهود بقية شعوب العالم ، فإن الفارق بين مستويات الحياة بين الدول الصناعية المتقدمة ، والدولة الزراعية غير المتطورة ، يصل إلى حد يثير الهلع فى النفوس ويصيبها بالدوار ، الذى لن يلبث أن يحل محله شعور من الغضب والنقمة يهدد سلام العالم .

بحيث تكثر فى الدول الصناعية الأمراض التى يسببها الإفراط فى التغذية بتناول أكثر من حاجة الجسم من الدهنيات والنشويات والسكر ، فإن أكثر من ثلث سكان العالم يعانون من قلة الغذاء الذى يدخلهم دائرة الخطر ، بينما يعيش نصف سكان العالم على مستوى الكفاف[1] .

---

(١) هذا الثلث من سكان العالم الذى لا يجد كفايته من الغذاء ، يعيش فى مائة دولة وهى التى كانت توصف بأنها متخلفة ، ثم أطلق عليها اسم الدول غير المتطورة ، وأصبح يطلق عليها اليوم من باب التلطف اسم الدول النامية . ولهذه الدول عدة صفات مشتركة ، ومقاييس يقاس بها مدى تخلفها ، ولكن المقياس الأشهر الآن فى تحديد هذه الدول ، هو مقدار الدخل القومى للفرد الواحد فى السنة ، ويبلغ متوسطه فى هذه البلاد أقل من مائة دولار ، حيث يبلغ متوسط دخل الفرد فى الدول المتقدمة بضع مئات من الدولارات كما سوف نرى .

لخبراء التغذية يرون أن ما يحتاجه الإنسان الذى يقوم بمجهود شاق من الوحدات الحرارية (كالورى) فى اليوم هو ٤٤٠٠ كالورى ، ومن يقوم بعمل متوسط يجب أن يحصل على ٣٩٠٠ كالورى ، أما الذى يقوم بعمل خفيف فيكفيه ٢٨٠٠ كالورى .

ويرى البعض أن هذه الكميات التى وضعتها هيئة التغذية الدولية فى عام ١٩٥٧ ، مبالغ فيها بعض الشىء ، فحسب الإنسان إذا حصل على ٣٠٠٠ وحدة حرارية (كالورى) أن تحفظ للانسان صحته فى حالة طيبة وتمكنه من أداء عمله . والاتفاق بين سائر خبراء التغذية على أن الهبوط عن ٢٠٠٠ كالورى للانسان فى اليوم يدخله دائرة الخطر ويهبط بإنتاجه إلى أدنى الحدود . فإذا أردت أن تعرف حالة الشعوب فى هذه الدول النامية ومدى حظها من هذه الوحدات الحرارية ، فإنه يروعنا أن متوسط ما يناله الفرد يهبط كثيراً عن ٢٠٠٠ حتى ليصل إلى ١٥٠٠ (كالورى) وهو ما لا يبقى الإنسان حياً على شىء من النشاط إلا بصعوبة . ولعله يهولك بعد ذلك كله ، أن تعرف أن الصين التى تضم أكثر من خمس سكان العالم ، تعتبر نفسها سعيدة وناجحة إذا هيأت للسواد الأعظم من أبنائها هذا القدر الضئيل من الغذاء وهو ٥٠٠ (كالورى)[1] . ومن هنا فإن العالم الذى يموت من التخمة فى أمريكا الشمالية ، يسمع من حين لآخر عن موت هنود المكسيك من البلاجرا ، وانتشار المجاعات فى شمال شرق البرازيل لدى أى موجة من الجفاف ، وفى بوليفيا تعانى الجماهير البائسة من الأمراض العقلية ، ويعانى ملايين فى أرجاء أمريكا اللاتينية من الأنيميا .

المرض والوفاة :

وإذا كان عدد شعوب الدول المتخلفة أو النامية (باستثناء الصين) يبلغ ١٢٥٠ مليون نسمة تعيش فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فإن

(١) ناصر النشاشيبى — عربى فى الصين .

٨٠٠ مليون من هذا العدد ، مصاب بأمراض البلهارسيا أو الملاريا ، أو التراخوما ، أو الأنيميا .

ولعله من المفارقات المفجعة أنه حيث يكثر المرض إلى هذا الحد . فإن الطبيب نادر ، وينعدم فى كثير من الأحيان ، وكذلك بقية وسائل العلاج الأخرى من أدوية ومستشفيات . أما حيث يقل المرض بسبب ازدهار الصحة ، فالأطباء كثيرون وكذلك كل وسائل العلاج والوقاية . ففى أمريكا الشمالية يوجد طبيب لكل ٧٥٠ فرداً من السكان ، وفى أوربا طبيب لكل ألف من السكان ، أما فى بلد مثل غانا فلا يوجد فيها إلا طبيب لكل ١٨ ألف نسمة ، وفى أندونيسيا لا يتوافر الطبيب إلا لكل ٧١٫٠٠٠ نسمة وفى السودان يوجد طبيب لكل ٨٠ ألف نسمة[1] .

والنتيجة الحتمية لسوء التغذية وانتشار الأمراض ، وقلة الأطباء أن أصبح نسبة ما يموت من كل ألف طفل فى الهند والباكستان ٢٠٠ ، أما فى بورما فإن هذا العدد يرتفع إلى ٢٢١ فى كل ألف ، وفى بورنيو يواصل الرقم ارتفاعه فيصبح ٢٣٥ لكل ألف . وذلك فى الوقت الذى لا يموت فيه من كل ألف طفل فى الولايات المتحدة سوى ٢٨ طفلا ، وبينما أصبح الأمل أمام كل طفل يولد فى الولايات المتحدة هو أن يعيش ٧١ سنة فإن هذا الأمل بالنسبة لأى طفل يولد فى الهند أو الباكستان لا يزيد عن ٣٥ سنة .

الأمية :

أما بالنسبة للأمية ، فحيث تبلغ نسبة التعليم فى أكثر من بلد متقدم ١٠٠٪ فإن نسبة المتعلمين فى قارة آسيا كلها وهى التى تضم نصف سكان العالم ، لا تزيد عن ٦٪ من عدد سكانها عام ١٩٥٥ وقد ارتفعت نسبة المتعلمين مؤخراً إلى ٨٫٥٪ وتقدر اليونسكو أن نسبة التعليم عام ١٩٨٠ سترتفع إلى ٢٠٪[2] .

(١) جان لاكوتير ، الدول النامية فى الميزان ترجمة فوزى عبد الحميد ، ص ٤٠ .
(٢) الدول النامية فى الميزان ، ص ٤١ .

إنتاج زراعى ضئيل وأساليب بدائية :

وإذا كان هذا هو مدى صحة شعوب دول العالم النامية ، وهذا مدى حظ سوادهم الأعظم من التعليم ، فلا يجب أن تدهش لانخفاض مستوى حياتهم وعدم قدرتهم على تحصيل القدر الكافى لغذائهم ، ففى أجزاء كثيرة من أفريقيا يعمل عدد مؤلف من شخصين إلى عشرة أشخاص لإنتاج ما يكفى لغذائهم وغذاء شخص آخر فقط ممن لا يشتغلون بإنتاج المواد الغذائية ، وذلك فى الوقت الذى ينتج فيه الفلاح الأمريكى الواحد ما يكفى لإطعام نفسه بوفرة ، وإطعام ٢٣ شخصاً آخرين ، ممن لا ينتجون المواد الغذائية بنفس هذه الوفرة . وتزداد الصورة وضوحاً إذا علمنا أنه لا يعمل فى الزراعة فى الولايات المتحدة سوى ١٢ ./. من السكان البالغ عددهم ١٨٠ مليوناً أى أن الفلاحين الأمريكيين لا يزيدون عن ٢١ر٦ مليون ومع ذلك فهم ينتجون ٢٨ ./. من مجموع إنتاج العالم من المحاصيل الزراعية ، بينما لا ينتج فلاحو الهند الذين يؤلفون ٧٠ ./. من عدد السكان البالغ قدرهم ٤٩٠ مليوناً ، أى أن الفلاحين الهنود يناهزون ٣٤٣ مليون فلاح ، ومع ذلك فهم لا ينتجون سوى ٩ ./. من محصول العالم الزراعى . وما يحققه الهندى فى تسع ساعات من العمل الشاق ليحصل على غذائه ، لا يكلف الأمريكى سوى ثمانى دقائق أى أقل من دقيقة واحدة مقابل كل ساعة عمل .

البسمة هنا تعنى التعاسة هناك :

كل ذلك ونحن لا نزال نتحدث عن هؤلاء الذين ينتجون المواد الغذائية ليأكلوها ، أما الذين يعملون فى الحقول لإنتاج حاصلات زراعية لا تستعمل فى التغذية المباشرة ، وإنما تنتج للتصدير والاستعمال الخارجى ، كالعاملين فى إنتاج البن والشاى والكاكاو والمطاط والقطن ، فهؤلاء قد يصبحون أتعس حالا من السابقين ، عندما يشقون طول العام ويكدحون ثم ينتظرون حكم الدول الصناعية على تقويم ثمن ما أنتجوا ، وبأى سعر سيشترونه ، وقد لا يكفى هذا السعر

لإطعامهم الخبز القفار فى العام التالى . وقد عبرت إحدى نشرات هيئة الأمم ، عن مدى بؤس هـذا النفر من البشر بقولها : إن هبوط أسعار البن فى الولايات المتحدة سنتاً واحداً فى ثمن الرطل ، قد يبعث بسمة الرضا على شفتى ربة البيت الأمريكية ، ولـكن هذا الانخفاض فى ثمن الرطل ، يعنى البؤس والتعاسة والشقاء طوال عام بأكمله لمنتجى البن فى كولومبيا أو البرازيل حيث يمثل البن ٨٥ ./. من مبيعات كولومبيا و ٦٠ ./. من مبيعات البرازيل كما يصدق ذلك بالنسبة لـكاكاو غانا الذى يؤلف ٧٥ ./. من مبيعاتها .

القسمة الجائرة :

وليس هنـاك ما يظهر القسمة الجائرة فى حظوظ البشر أكثر من أرقام الدخل القومى بالنسبة لـكل قارة على حدة أولا ثم بالنسبة لـكل فرد ثانياً .

فحيث لا يؤلف سكان أمريكا الشمالية سوى ٦ر٧ ٪ من سكان العـالم فانهم يحصلون على ٨ر٣٩ ./. من دخل العالم كله .

وحيث يؤلف سكان أمريكا اللاتينية ، نفس عدد سكان أمريكا الشمالية تقريباً أى ٨ر٦ ./. من سكان العالم ، فانهم لا يحصلون على غير ٧ر٤ ./. من الدخل العالمى . وذلك فى الوقت الذى تؤلف فيـه دول الشرق الأقصى ٣ر٥٢ ./. من سكان العالم ومع ذلك فهم لا يحصلون على أكثر من ٣ر١٢ ./. من هذا الدخل العالمى . أما بالنسبة لأفريقيا التى يبلغ سكانها ١ر٧ ./. من سكان العـالم فهم لا يحصلون إلا على ٢ر٢ ./. من الدخل العالمى .

ومعنى ذلك أن شعوب أمريكا الشمالية وأوربا الذين لا يزيد عددهم عن ٢٩ ./. من سكان العـالم يحصلون على أكثر من ثلاثة أرباع دخل الإنسانية أى ٥ر٧٧ ./. .

أما بقيـة شعوب الأرض المؤلفة من آسـيا وأفريقا وأمريكا اللاتينية

والشرق الأدنى التي تضم ٧١ ٪ من سكان العالم فلا تحصل الا على أكثر قليلا من خمس الدخل العالمي أي ٥ر٢٢[1] .

طرفا المحور أو الولايات المتحدة والهند :

وقد اعتاد رجال الاقتصاد والخبراء أن يقارنوا دائماً بين الولايات المتحدة وبين الهند ، باعتبارهما يقفان على طرفي نقيض ، فاذا كانت الولايات المتحدة تعاني مشاكل التخمة في الإنتاج حتى لتعمد لوضع الخطط التي تؤدي إلى الإقلال من إنتاج القمح مثلا ، لكثرة المخزون منه ، فإن الهند تقف في الطرف المقابل حيث تصور النموذج الأمثل للدول المتخلفة أو النامية ، بكل مشاكلها من حيث ضآلة الإنتاج بها ، وتزايد سكانها بنسبة كبيرة ، وقلة الغذاء المتاح لأفرادها ، وذلك في الوقت الذي بدأت تبذل فيه جهوداً جبارة للخروج من لعنة التخلف ، والانطلاق إلى مرحلة التقدم ، فهي صورة لكل الشعوب النامية . فحيث يبلغ انتاج الفحم لكل فرد في أمريكا ٣ر٢ طن ، فان هذا المتوسط بالنسبة للهندي لا يزيد عن ١ر٠ من الطن ، وحيث يخص كل فرد أمريكي من استهلاك الكهرباء ٢٩٠٠ كيلووات ساعة في السنة ، فان متوسط ما يستهلكه الهندي لا يزيد عن ٢١ كيلووات ساعة في السنة .

وحيث تبلغ كمية الصلب المستعملة لكل أمريكي في المتوسط ٩ أطنان ، فان هذه النسبة لا تزيد لكل هندي عن بضعة أرطال .

وحيث توجد في الولايات المتحدة الأمريكية سيارة وجهاز تليفوني واحد لكل ثلاثة أشخاص تقريباً ، فانه لا يوجد في الهند سوى ٨ر٠ من السيارة أي أربعة أخماس سيارة لكل ألف هندي ، ولا يوجد سوى نصف تليفون لكل ألف هندي .

---

(١) أبحاث هيئة الأمم .

ولا محل للمقارنة بعد ذلك عن السلع الأكثر كمالية كالفريجدير والراديو أو التليفزيون وآلات التسجيل والتصوير والمساكن وحمامات السباحة .

ويتلخص الموقف فى الحقيقة التالية وهى أن الشعب الأمريكى الذى يبلغ عدده ١٨٠ مليوناً ينتج ما يعادل مائة مرة ما ينتجه الشعب الهندى البالغ عدد أفراده (٤٣٥) مليوناً .

اتساع الفوارق وتضخمها بين الدول الغنية والفقيرة :

وقد يتصور متصور لكثرة ما أصبحنا نسمع فى الآونة الأخيرة عن مشروعات التنمية فى البلاد غير المتطورة ، وعن الجهود الصادقة التى تبذلها شعوب آسيا وأفريقيا ، بعد أن حصلت على استقلالها ، للقضاء على التخلف الذى أوقعها فيه الاستعمار ، أن صورة العالم فى ١٩٦٤ قد تكون خيراً منها فى عام ١٩٥٠ ، ولكن الإحصاءات والأرقام تثبت مع الأسف الشديد ، أن الصورة قد ازدادت سوءاً ، والهوة بين الطرفين قد زادت اتساعاً ، فالأغنياء والقادرون أصبحوا أكثر غنى وقدرة ، والفقراء المتخلفون قد ازدادوا فقراً وتخلفاً (من الناحية النسبية) .

وحسبنا أن نعلم أن المحاصيل الزراعية ، والمواد الخام التى تنتجها الدول غير المتطورة لم تزد فى ختام المدة من ١٩٥٠ — ١٩٦٠ سوى ١٪ وذلك فى الوقت الذى زاد فيه ثمن السلع المصنوعة التى كان على هذه الدول أن تشتريها من الدول الصناعية بمقدار ١٠٪ . وكان من نتيجة ذلك أن هبط نصيب الدول غير المتطورة من التجارة الدولية فى هذه المدة من ٣٠٪ من تجارة العالم إلى ٢٠٪ من هذه التجارة ، فى الوقت الذى زاد فيه نصيب الدول الصناعية المتقدمة من التجارة الدولية ، فارتفعت من ٦٠٪ إلى ٦٦٪ بالنسبة للبلاد الرأسمالية ومن ٨٪ إلى ١٢٪ بالنسبة للدول الاشتراكية ، من تجارة العالم .

الدخل القومى للفرد :

ولعله ليس هناك مايصور كيف ازداد أهل الغنى غنى فى السنوات الأخيرة ، وأهل الفقر فقراً ، إلا أن نسجل ما طرأ على الدخل القومى بالنسبة للفرد الواحد من تطور . وتدل الإحصاءات ، أن الدول النامية قد زاد الدخل القومى فيها خلال هذه السنوات العشر ، ما لا يزيد عن عشرة دولارات للفرد ، إذ ارتفع المتوسط من ٩٠ دولاراً إلى مائة دولار للفرد ، فى الوقت الذى تضاعف فيه الدخل القومى بالنسبة لبعض البلاد ، وزاد فى بلاد أخرى بمقدار ستمائة وسبعمائة دولار للفرد الواحد كما يرى فى الجدول التالى :

اسم الدولة	عام ١٩٤٩	عام ١٩٥٩	اسم الدولة	عام ١٩٤٩	عام ١٩٥٩
الولايات المتحدة	١٤٥٣ دولارا	٢١٦٤	اليابان	١٠٠	٢٥٠
كندا	٨٧٠ «	١٤٣١	المكسيك	١٢١	٢٣٤
سويسرا	٨٤٩ «	١٢٤٩	البرازيل	١١٢	٢١٨
فرنسا	٤٨٢ «	٨٣٩			
ألمانيا الغربية	٣٢٠ «	٧٢٠	باكستان	٥١	٧٧
إيطاليا	٢٣٥ «	٦٠٤	الهند	٥٧	٦٠

ومرة أخرى نرى الولايات المتحدة والهند فى طرفى محور الغنى والفقر ، فبينما زاد متوسط دخل الأمريكى خلال هذه العشر سنوات ٧٠٠ دولار فإن متوسط دخل الهندى لم يزد سوى ثلاثة دولارات ، أى أنه بعد أن كان دخل الأمريكى يعادل ٢٥ مرة دخل الهندى عام ١٩٤٩ أصبح فى عام ١٩٥٩ يعادل ٣٦ مرة[1] .

(١) لا تزال هذه الظاهرة تزداد حدة عند كتابة هذه السطور عام ١٩٦٦ .

التجربة الهندية :

وأحسب أن الوقت قد حان لنلقى نظرة أوسع على التجربة الهندية ، وعن أسباب إخفاقها عن تحقيق تقدم ملحوظ بالنسبة لأفراد شعبها ، على الرغم من الجهود الصادقة التى تبذل لتحسين الأوضاع فيها ، لأن ذلك سيكشف لنا عن طبيعة المشكلة التى أصبحت تهدد العالم ، ولا حل لها إلا فى التضامن البشرى .

لم تكد الهند تحصل على استقلالها عام ١٩٤٧ ، وتخلص من الآثار المدمرة التى خلفها تقسيم الهند إلى دولتين ، الهند والباكستان ، حتى بدأت تضع الخطط للنهوض بالاقتصاد الهندى ومضاعفة الإنتاج ، وكان عدد سكان الهند آنذاك يزيد قليلاً عن الثلثمائة مليون نسمة . وبدأت خطة الهند الخمسية الأولى عام ١٩٥١ وانتهت عام ١٩٥٦ ، ثم بدأت الخطة الخمسية الثانية عام ١٩٥٦ وانتهت عام ١٩٦١ ، وخلال هـذه العشر سنوات أنشئت مصانع ، وأصلحت أراض ، وزاد الإنتاج فى مختلف المواد الصناعية زيادة محسوسة ، ولكن الإحصاءات كشفت عن أن عدد العمال العاطلين فى المدن وفى المراكز الصناعية والذين كانوا لا يزيدون عن خمسة ملايين عند بدء الخطة الأولى ، قد ارتفع عددهم إلى تسعة ملايين عند نهاية الخطة الثانية عام ١٩٦١ ، والمقدر أن يرتفع هذا الرقم عند نهاية الخطة الخمسية الثالثة ، أى عام ١٩٦٦ ، إلى ١٢ مليون عاطل . أما بالنسبة للزراعة ، فإن عدد الزائدين عن الحاجة يتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ مليون نسمة ، ومعنى ذلك أن عشرات الملايين من العمال ، ستظل بلا عمل ، وبالتالى أشد بؤساً وشقاء من حالهم قبل البدء فى مشروعات التنمية . وتفسير ذلك واضح وميسور ، فعدد سكان الهند الذى وصل عام ١٩٥٦ أى بعد تسع سنوات من الاستقلال إلى ٣٨٧ مليوناً ، قد قفز إلى ٤٣٨ مليوناً عام ١٩٦١ ، أى أن الشعب الهندى زاد فى خمس

سنوات فقط ٥١ مليوناً ، ومن المقدر أن يزيد عدد الهنود ٥٤ مليوناً آخرين في نهاية الخطة الخمسية الثالثة ، فيصبح عدد سكان الهند ٤٩٢ مليون نسمة ، ستزيد في نهاية الخطة الخمسية الرابعة بمقدار ٦٣ مليوناً آخرين ، ثم ٧١ مليوناً في نهاية الخطة التالية ، أي أن سكان الهند عام ١٩٧٦ أي خلال عشر سنوات من الآن سيبلغ ٦٢٦ مليوناً .

وواضح من هذا الاستعراض ، أن الهند مهما بذلت من جهود بالمعدلات الحاضرة في التنمية ، بل وبضعف هذه المعدلات فلن يكون في استطاعتها أن تطعم هذه الأفواه الجديدة فضلا عن أن ترتقي بمستوى السكان القدماء فإن إطعام هذا العدد يعني استصلاح مائة مليون فدان أي بواقع عشرة ملايين فدان في السنة الواحدة وهو ما لا قبل للهند به في ظروفها الحاضرة .

هذا الذي يجري في الهند هو ما يحدث مثله في الصين والتي تزيد بمعدل ٢٠ مليون نسمة في السنة الواحدة ، أي مائة مليون نسمة في كل خمس سنوات ، وهو عين ما يحدث في جميع الدول التي أصبحت توصف بأنها نامية ، والتي يبدو أنها تستحق هذا الوصف من ناحية تكاثر السكان بها ، لا من حيث تزايد الموارد ، فحيث لا يتزايد السكان في أوربا إلا بنسبة ٩و٪ أي أقل من واحد في المائة والاتحاد السوفييتي لا يتزايد إلا بنسبة ٧ر١٪ فإن آسيا (ما عدا اليابان) وأفريقيا تتزايدان بنسبة ٣ر٢٪ ، وهو معدل من شأنه أن يضاعف سكان هذه البلاد فيما يقرب من ٣٠ سنة . وتلك هي المشكلة التي أصبحت تقض مضاجع المفكرين والساسة ورجال الاقتصاد والقادة ، وما أصبح يطلق عليها اسم مشكلة « الانفجار السكاني » على ما فصلناه في الفصل السابق .

— ٢ —

ألا يمكن تفادي الكارثة :

والسؤال الآن ، ألا من سبيل لتفادى هذه الكارثة ، هل البشرية تسير فى طريق مسدود ، وأنه تبعاً لنظرية مالتوس التى يؤيدها الواقع ، لا مناص من آفات طبيعية ، أوحرب عالمية لتستهلك القسم الأكبر من البشر ليستطيع البقية أن يجدوا الغذاء الكافى ؟ والرد على هذا التساؤل هو أن باستطاعة الإنسانية فى مجموعها أن تدحض نظرية مالتوس وأن لا يصبح تزايد السكان مشكلة بالنسبة لها ، بالاستفادة من العوامل التى حالت دون انطباق النظرية على انجلترا ، والتى أدت كثرة السكان فيها إلى زيادة نصيبهم من الثروة ومتع الحياة . وليست هذه العوامل إذا كنت تذكر إلا :

١ ـ الاستفادة من آثار الثورة الصناعية فى زيادة قدرة الانسان على الإنتاج وخاصة بعد أن أضيف إليها الثورة العلمية التى جعلت هذه القدرة لا حد لها .

٢ ـ إعتبار العالم كله وحدة إنتاجية واحدة تعود ثمرتها على كل أفراد النوع الإنسانى .

٣ ـ من شأن الرقى الذى سيصل إليه الانسان فى المجتمعات المتخلفة نتيجة تطبيق العاملين السابقين ، أن يهبط معدل المواليد ، كما حدث بالنسبة لغرب أوربا . والعقبة الآن التى تحول دون ذلك ، هى تصور الكثيرين ، أنه من المستحيل أن يحدث هذا التعاون الإنسانى لمصلحة الجنس البشرى كله ، فمن غير المتصور والعالم على ما هو عليه من انقسام ووطنيات وقوميات ، وشعوب غنية وأخرى فقيرة ، إلا أن يستغل الأغنياء الفقراء ، وأن يحرص القادرون على إبقاء غير القادرين ضعفاء فى حالة عوز واحتياج . وعندنا أن هذا كله حديث قديم عفى عليه الزمان . وضرورات العصر وتجاربه ، قد بدأت تثبت عكس ذلك ،

وأن وحدة المصلحة الإنسانية لا تتحقق فى كالها إلا فى تعاون كل أفرادها ، وما حدث فى داخل المجتمع الواحد من إيمان كل فرد فيه بوجوب تحقق الإشتراكية أوما يسمى بلغة الرأسماليين العدالة الإجتماعية ، قد أصبح واجب الحدوث بالنسبة للمجتمع الإنسانى فى مجموعه .

تطور الرأسمالية فى القرنين التاسع عشر والعشرين :

أما كيف حدث التبدل داخل المجتمعات الرأسمالية ، فما علينا لكى نقف على مداه ، إلا أن نعود إلى مستهل القرن التاسع عشر ، عقب الثورة الصناعية الأولى فى انجلترا ، وهنا نرى صورة مفزعة من التفاوت بين حظوظ أفراد المجتمع الانجليزى ، والتى يمكن أن تقارن بما عليه التفاوت بين حظوظ البشر الآن فى المجتمع الانسانى . كان الفقر يأخذ بخناق السواد الأعظم من الشعب الانجليزى ، وكان الجهل والأمية والأمراض متفشية بين هذه الطبقة الجديدة من سكان المدن ونعنى بهم العمال الذين جاءوا يلتمسون الرزق فى هذه المصانع الجديدة . وكان الرأسماليون يؤمنون أن مصلحتهم المحققة ، ومكاسبهم المضمونة ، لاوسيلة إليها إلا من خلال استغلال ضعف هؤلاء العمال وزيادتهم ضعفاً . وكان يذكى هذه النظرة القاسية ، النظريات المادية الجديدة والإلحادية من الحديث عن تنازع البقاء ، وأن الدنيا هى من نصيب القوى ، ولا حق للضعيف فى الحياة ، وذلك بعد أن ضعف الوازع الدينى فى النفوس ، وخفتت أصوات الدعوة إلى الرحمة المسيحية التى كانت ترطب حياة المجتمع الأوربى فى العصور السابقة . وبدأنا نرى أصحاب الأعمال يستغنون فى كثير من الصناعات عن الرجال بالنساء ، لأن أجورهن أرخص . ثم يستغنون عن الرجال والنساء معاً باستخدام الأطفال والصبيان . وتصور لنا بعض الكتب المؤلفة فى هذا العهد كيف كان الأب يحمل ابنه المريض إلى المصنع لأنه إذا لم يعمل ويقبض أجره ماتت الأسرة كلها من الجوع . وتحدثنا صور أخرى عن الآباء الذين يقفون بجوار أولادهم وهم يعملون أمام الآلة ليقدموا لهم الطعام حيث لا يسمح لهم بأى فترة من الراحة لتناول الطعام .

وكانت النظرية السائدة فى هذه الفترة ، أن هؤلاء العمال ما هم إلا سلعة كأى سلعة أخرى معروضة فى السوق ، لا يحكمها سوى قانون العرض والطلب ، فما دام هناك عمال يرضون بالعمل بأجور تصل إلى حد الكفاف ، فلا لوم ولا تثريب أن لا تزيد الأجور عن حد الكفاف ، بل لو أنه وجد من العمال من يشتغل بأجر يقل عن حد الكفاف ، فهذا يكون أحسن . فاذا قال قائل ولكن شغل العمال بما دون حد الكفاف سينتهى بهم إلى المرض فالموت ، فيقول الاقتصاديون بكل هدوء وثقة ، وفى هذه الحالة فسوف يقل عدد العمال ويكثر الطلب عليهم فترتفع أجورهم ، فيتزايد عددهم من جديد ، ويصبح العرض أكثر من الطلب فتعود أجورهم إلى الهبوط ويعودون إلى الموت فيقل عددهم ، وهكذا دواليك إنها قضية عرض وطلب .

وتطبيقاً لهذه النظريات ، لم يعرف أصحاب الأعمال تحديداً لساعات العمل ، فما بقى هناك عمال يقبلون العمل الساعات المطلوبة ولتكن اثنتى عشرة ساعة أو خمس عشرة ساعة فلا مانع ، كما لم يكونوا يعرفون أى معنى للراحة أو الأجازات أو تقديم أى خدمات للعمال .

وكان من المستحيل أن تمضى الأمور على هـذه الوتيرة ، حيث أصبح العمال فى وضع أسوأ من أى وضع كان عليه الرقيق فى أى يوم من الأيام ، وأصبحوا فى وضع دون وضع أى حيوان على وجه التحقيق ، فبدأ الاضطراب يدب فى المصانع والمجتمع ، وبدأت حركات التوقف عن العمل تقوى وتشتد ، وبدأت عمليات التخريب وتحطيم الآلات وحرق المصانع ، والاعتداء على الأرواح ، تصبح إحدى الظواهر الجديدة فى حياة المجتمع الإنجليزى ، ولجأ الرأسماليون فى بادىء الأمر إلى الحكومة ، فاصطنعت وسائل القمع الشديدة والإرهاب ، ولكن حالة البؤس التى كان يعانيها العمال قد تغلبت على كل إرهاب وقمع .

وكان طبيعياً وقد خرجت الرأسمالية فى حربها ضد العمال واستغلالهم ،

عن دائرة الرحمة المسيحية ، والعقائد الدينية التى دعت دائماً إلى التآخى بين البشر ، وأخذ القادر بيد الضعيف ، والغنى بيد الفقير ، وبدأت تنظر إلى أن العلاقات بين البشر تحكمها قوانين طبيعية مادية ، كأى قوانين أخرى تحكم الزلازل والبراكين والفيضانات والطواعين ، فلا عجب أن جاء رد الفعل عنيفاً وبنفس السلاح الذى حمله أصحاب الأعمال فى وجه العمال ، وهو القوانين الإقتصادية . فقد جاء فيلسوف بتفسير جديد لهذه القوانين الاقتصادية وأنها تعنى الفناء والهلاك لطبقة أصحاب الأعمال وسيادة طبقة العمال ، وأن ذلك سيتم بحتمية مادية تاريخية طبيعية كما تشرق الشمس من المشرق وتغيب فى المغرب ، مع فارق واحد ، وهو أن الإنسان قادر على أن يبذل جهده من أجل تقريب اليوم الذى تتحقق فيه هذه القوانين ، فعلى العمال باعتبارهم الطبقة السائدة التى اختارتها الطبيعة ، لتبيد الطبقة الرأسمالية ، أن يعملوا جاهدين على تقريب نهاية الطبقة الرأسمالية ، بالثورة العامة الشاملة ، ولم يكن هذا الفيلسوف الجديد إلا كارل ماركس . ولكنه لم يقف عند حد التفسير الفلسفى لسير التاريخ والحوادث ، بل إنه دعا بالفعل إلى تأييد الحركة الشيوعية الدولية ، وبدأ يخوض المعارك التى تقرب حكم الطبقة العاملة وزوال حكم الدولة الرأسمالية ، فأصبح بذلك قائداً وزعيماً إلى كونه فيلسوفاً .

تحسين ظروف العمل وما أدى إليه من زيادة الانتاج :

وكان بعض أصحاب الأعمال من ذوى العقول المستنيرة والقلوب الكبيرة من أمثال روبرت أوين ، قد سبقوا دعوة كارل ماركس ، إلى الشعور بوجوب معاملة العمال معاملة انسانية كريمة باعتبارهم الدعامة الأولى للانتاج ، فراح يستخدم أرباح مصنع غزل القطن الذى كان يملكه ويديره فى زيادة أجور العمال ، وإنقاص ساعات العمل ، وتحسين مساكن العمال ورفع مستواهم المادى والمعنوى . وكانت نتيجة ذلك هو تحسين الإنتاج ، وزيادته بعد أن بدأت العطلات تقل ، وإصابات العمل تتناقص ، وحماس العمال للعمل يزيد ويصبح العمال أسلس قياداً .

وبدأت الأنظار تتجه إلى أن العامل ، كلما تحسنت صحته ، وكلما صفت نفسه ، وكلما وجد غذاءه متوفراً ، ومسكنه مريحاً ، واطمأن باله على أولاده ، كلما زاد فى إنتاجه . وبدأت هذه التطورات التى تعرفها دول أوربا الغربية من إنقاص ساعات العمل ، ورفع الأجور والأخذ بنظام الراحات والأجازات والعناية بالعمال اجتماعياً وصحياً ، وتأمينهم على معاشهم حتى فى حالة البطالة .

وتطور الإيمان بهذه المبادىء بعد أن ثبتت بالتجربة والواقع ، إلى أن أخذت طريقها إلى اتفاق دولى بين شعوب العالم ، فقد تضمن ميثاق عصبة الأمم الذى تمخضت عنه الحرب العالمية الأولى ، إلى إنشاء « هيئة العمل الدولية » وليس هناك ما يكشف عن مدى الشعور بوحدة المصلحة الانسانية من مطالعة ديباجة ميثاق هيئة العمل الدولية والذى جاء فيه : « بما أن عصبة الأمم تهدف إلى إقرار السلام العالمى ، وهو ما لا يمكن تشييده إلا على أساس من العدل الاجتماعى ، وبما أنه يوجد من أحوال العمل ما ينطوى على إلحاق الظلم والبؤس والحرمان بعدد كبير من الناس ، مما يولد سخطاً يعرض السلام والوئام العالميين للخطر ، وبما أن هذه الحالة تستدعى تحسين ظروف العمل بصفة عاجلة ، كتنظيم ساعات العمل ، وتحديد حد أقصى للعمل اليومى والأسبوعى ، وتنظيم فرص العمل ، والقضاء على البطالة ، وجعل الأجور ملائمة للمعيشة ، وحماية العمال من المرض ، وحماية الأطفال والأحداث والنساء ، وحماية العمال ضد الإصابات والشيخوخة ، وحماية العمال الذين يشتغلون خارج بلادهم ، والاعتراف بمبدأ حرية تكوين النقابات ، وتنظيم التمرين والتعليم الفنى ، ونحو ذلك من الوسائل . وبما أن عدم اتباع أى أمة لنظام إنسانى للعمل ، يعتبر عقبة فى طريق باقى الأمم لتحسين أحوال العمل داخل بلادها . فان الدول المتعاقدة تقرر مدفوعة بشعور العدالة الإنسانية والرغبة فى تحقيق سلام دائم ما يلى[1] . . . الخ .

(١) الدكتور محمد حلمى مراد . أصول الاقتصاد الجزء الخامس ص ٤٠١ .

التجربة الأمريكية :

وهكذا نرى أن تحقيق العدالة الاجتماعية بالنسبة للعمال فى سائر أنحاء العالم ، قد بدأ يصبح ضماناً للسلام العالمى . على أن الإيمان بأن كل خير يعود على الطبقة العاملة ، يرتد أثره فوراً على أصحاب الأعمال ثراء وقدرة ، لم يأخذ كل قوته إلا من خلال التجربة الأمريكية ، والتى كانت حقلا لمختلف أنواع التجارب الرأسمالية .

ولقد وصلت هذه التجارب ذروتها على يد هنرى فورد صاحب مصانع السيارات المعروف ، حيث فاجأ المجتمع الأمريكى عام ١٩١٤ ، بنظام عجيب . . كان متوسط ما يتقاضاه العامل الأمريكى من أجر فى الأسبوع لا يتجاوز ١١ دولاراً ، فقرر أن الحد الأدنى فى الأجر بالنسبة لعماله سيبدأ من ٥ دولارات فى اليوم الواحد أى ٣٠ دولاراً فى الأسبوع ، وأنه سيشرك العمال فى جزء من الأرباح .

وذهل المجتمع الرأسمالى الأمريكى فى بادىء الأمر ، ولم يتصور إلا أن مصانع فورد سوف تفلس . ولكن النتائج لهذه الثورة فى تحسين أحوال العمال جاءت مذهلة ، يمكن تلخيصها فى هذين الرقمين . فقد بدأت شركة فورد لصناعة السيارات عام ١٩٠٣ برأسمال قدره ١٠٠٫٠٠٠ دولار ، ولكنها فى عام ١٩٢٧ أى بعد ثلاثة عشر عاماً من تطبيقها النظام الجديد وصلت أرباحها فقط إلى ٧٠٠ مليون دولار[1] .

أما كيف تحققت هذه المعجزة ، وما هى فلسفة فورد فى الطفرة بأجور العمال ، فتتجلى فى الحقيقة التالية :

إنه ما بقيت أجور العمال منخفضة فسيظلون أعجز من أن يشتروا سيارة ،

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .

ومعنى ذلك أن تبقى السيارة أداة ترف للأغنياء فقط ، ولما كان الأغنياء بطبيعتهم قليلي العدد ، فسيظل إنتاج السيارات محدوداً وبالتالى مرتفع الثمن . أما لو ارتفعت أجور العمال إلى الحد الذى يمكنهم من شراء سيارة ولو (بالتقسيط) فسيزيد عدد من يقتنون السيارات ، ويزيد بالتالى إنتاج السيارات فتنخفض أثمانها تبعاً لذلك ، ويقدر عدد أكبر من العمال على اقتنائها ، فينخفض ثمنها مرة أخرى وهكذا[1] .

ونجحت التجربة ، وأصبح لكل عامل فى مصانع فورد البالغ عددهم مائة ألف ، سيارة خاصة به ، ومعنى ذلك أن مصانع فورد أصبحت تضمن قبل أن تخرج من دائرة المصنع مائة ألف مستهلك لسياراتها .

واندفع أصحاب الأعمال فى هذا الاتجاه ، تحت ضغط اتحادات العمال من ناحية ، ونجاح التجربة من ناحية أخرى ، وسرعان ما أصبح المجتمع الأمريكى ، يختلف عن بقية مجتمعات الدنيا ، من حيث أنه مجتمع الوفرة والرفاهية ، حيث يملك ، كما ذكرنا من قبل ، كل ثلاثة أشخاص سيارة . ويزول العجب إذا علمنا أن الولايات المتحدة تنتج فى المتوسط خلال العشرين سنة الأخيرة ٤ ملايين سيارة فى العام الواحد[2] ، تستغرق السوق المحلية الجزء الأكبر منها . أى أنه يوجد فى الولايات المتحدة ما لا يقل عن ٧٠ مليون سيارة لو قسمت على عدد أفراد الشعب لخص كل ثلاثة سيارة . وليس ذلك إلا نتيجة سياسة فورد التى بدأ هذه الفكرة التى كانت تبدو غريبة ، وهو رفع أجر العامل إلى حد يمكنه من الحصول على سيارة[3] . والعامل الذى يشترى سيارة قد أصبح يشترى مسكناً ، ويشترى

---

(١) أتيح لى أن أسمع هذا الشرح شخصياً من أحد رجال العلاقات العامة لشركة فورد عند ما زرت مصانعها فى مدينة دوترويت بالولايات المتحدة عام ١٩٤٧ .

(٢) أنتجت الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ ما يزيد على ثمانية ملايين سيارة .

(٣) كان أقل عامل فى مصانع فورد يحصل عند ما زرتها عام ١٩٤٧ على أجر قدره دولار فى الساعة ، وكان متوسط أجر العامل فى مصانع فورد يزيد على ستين دولارا فى الأسبوع ، أما الآن فقد أصبح المتوسط الأسبوعى يقترب من مائة دولار إن لم يزد ، أى ٤٠٠ دولار فى الشهر ، و ٤٨٠٠ دولار فى السنة .

ثلاجة ويشترى راديو وتليفزيوناً ، ومعنى هـذا أن ١٨٠ مليون أمريكى قد أصبحوا جميعاً يستهلـكون منتجات المصانع من هذه السلع ، التى لايقوى على الحصول عليها فى البلاد الأخرى سوى الأغنياء .

مشروع مارشال :

وبدأ الاقتصاد الأمريكى كله يدور حول هذه الفـكرة ، ادفع الـكثير فتحصل على الأكثر . ومجلة الاقتصاد لاتدور أكبر دورة إلا إذا كانت السوق قادرة على استيعاب كل ما ينتج ، وهوما يتوقف على قدرة المنتجين وهم الأكثر عدداً على شراء واستعمال ما ينتجون . وبدأ الأمريكان يتطلعون خارج الحدود لتطبيق نظريتهم على السوق الأوسع وهى السوق العالمية ، بعد أن تضخم الإنتاج فى بلادهم وأصبح يزيد عن حاجتهم الداخلية . ووجدوا فى أوربا الغربية أكبر سوق لمنتجاتهم ، حتى إذا كانت الحرب العالمية الثانية ، دمرت هذه السوق تدميراً ، وأدرك الأمريكان ، أن السوق الأوربية لوظلت بالنسبة لهم فى حالة عجز عن شراء المنتجات الأمريكية ، فسوف يتعطل دوران بعض المصانع الأمريكية ، ويقل إنتاجها ، فما كان من أمريكا إلا أن أعلنت على لسان وزير خارجيتها (مارشال) عام ١٩٤٧ أنها مستعدة لتعاون أوربا على إعادة بناء نفسها ، بأن تقدم لها على سبيل المعونة ١٧ ألف مليون دولار شريطة أن تتعاون دول أوربا فيما بينها . فتلقفت سبع عشرة دولة اوربية هذا الاقتراح ، وهى النمسا وبلجيكا والدانمرك وفرنسا والمانيا واليونان وإيسلندا وإيطاليا والـلكسمبورج وهولندا والبرتغال والسويد وسويسرا وتركيا وانجلترا وإيرلنـــــدا ، وألفت هذه الدول مجتمعة لأول مرة فى تاريخ أوربا ، فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٨ ، ما أطلق عليه اسم « المنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادى » ونجحت المنظمة أعظم نجاح . ونهضت دول أوربا بأسرع مما كان يظن لها ، بحيث أنها لم تحتج لغير ١٢ ألف مليون دولار من المبلغ الذى كان مقرراً أصلا وهو ١٧ ألف مليون . وانطلقت أوربا الغربية كقوة عارمة فى دنيا الإنتاج ، ولايزال انطلاقها مستمراً حتى الآن

بصورة لم يسبقها مثيل . وهكذا شهد التاريخ تجربة اقتصادية جديدة على الصعيد الدولى ، بعد أن شهد التجربة على الصعيد الداخلى ، وهو أن تقدم دولة غنية المال لدول تحتاج مساعدتها ، لإعادة بناء مصانعها التى كان يظن أنها منافسة للدولة الغنية ، فأمريكا التى تملك أعظم صناعة للسيارات فى العالم ، تقدم العون لدول أوربا لإعادة بناء مصانع سياراتها ، وأمريكا التى تملك أعظم مصانع الصلب ، تزود أوربا بالآلات اللازمة لإعادة افتتاح مصانع الصلب ، وتكون نتيجة ذلك كله ، أن يزداد الأمريكان غنى وثروة وتسترد أوربا قوتها وغناها . ولقد رأينا فيما سبق كيف أن دخل الفرد الأمريكى كان فى عام ١٩٤٩ لا يتجاوز ١٤٥٠ دولاراً فأصبح عام ١٩٥٩ يزيد على ٢١٠٠ دولار .

السوق الأوربية المشتركة :

وكان طبيعياً أن تمضى التجربة الناجحة تفتح أفاقاً جديدة ، فالأوربيون الذين وقفوا من جديد على أقدامهم بفضل المنظمة الأوربية للتعاون الإقتصادى، أحسوا ما كانت عليه حياتهم الماضية ، من حماقة وسخافة ، وهم يضيعون أعمارهم ومجهوداتهم ، فى الحروب فيما بينهم ، فاذا توقفت حرب الحديد والنار ، خاضوا فى حروب المنافسة التجارية ، وظنت كل دولة من الدول أن لا حياة لمصانعها ومتاجرها إلا فى إغـلاق مصانع ومتاجر جارتها وعدوتها التقليدية ، ولكن تعاون أمريكا معهم ، وتعاونهم مع بعضهم تعاوناً سطحياً ، قد عاد عليهم جميعاً بأطيب الثمرات ، فكيف بهم إذا حولوا هذا التعاون السطحى إلى تعاون أشد وأوثق .. كيف بهم إذا خلقوا من دول غرب أوربا سوقاً مشتركة واحدة ، تخفض فيما بينهما الحواجز الجمركية والحـدود والسدود إلى أن تلغيها نهائياً ، وتسمح للنشاط الانسانى أن يتدفق فى هـذا الجزء من العالم ، حراً طليقاً من القوميات والجنسيات والمشاحنات والمعاكسات ؟

المنظمة الأوربية للفحم والصلب :

وكان أن اتفقت ست دول من دول أوربا الغربية وهى فرنسا وألمانيا الغربيـة وإيطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ، على تأليف « المنظمة الأوربية للفحم والصلب » وتم التوقيع على هذه المعاهدة عام ١٩٥١ ، وقد انتقل بموجبها إنتاج وتوزيع الصلب والفحم من سلطان كل دولة من هـذه الدول الست ، إلى هذه الهيئة العليا المستقلة التى اتفقوا على إنشائها . وبهذه الطريقة ضمنوا إقرار السـلام فيما بينهم من ناحيـة ، إذ أنه لا يمكن لأى دولة بدون السيطرة على إنتاج الصلب أن تشن حرباً على جيرانها ، وضمنوا من ناحيـة أخرى تقدم هذه الدول الست إقتصادياً ، عن طريق سهولة الحصول على حاجاتها من الصلب والفحم بثمن معتدل .

وكان أن نجحت الخطة نجاحاً غير متصور ، إذ تضاعف الإنتاج فى هـذه الدول الست ، فرأوا أن يخطوا خطوة جـديدة فى الطريق ، فاتفقوا على إبرام معاهدة جـديدة جرى التوقيع عليها فى ٢٥ مارس سـنة ١٩٥٧ ، والتى أنشئت بموجبها السوق الأوربية المشتركة التى تضم سكان هذه الدول الست البالغ عددهم ١٧٠ مليون نسمة . وتم الاتفاق على تخفيض الحواجز الجمركية بين هذه البلاد تدريجياً إلى أن تزول نهائياً ، كما التزموا بأن تصبح لهم تعريفة جمركية واحدة إزاء العالم الخارجى . ولم يكد العمل بموجب هـذه الاتفاقية الجديدة يبدأ حتى ارتفعت نسبة الزيادة فى الانتاج الصناعى ، فبعد أن كانت ٧ ٪ عام ١٩٥٩ أصبحت ١٢ ٪ عام ١٩٦٠ ويتوقع الخبراء أن الإنتاج الـكلى سيصل إلى مستوى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٥[١] .

وكان من أثر هـذه السلسلة المتوالية من التعاون الاقتصادى والذى بدأ بمشروع مارشال ، ثم بمنظمة الفحم والصلب وأخيراً بالسوق الأوربية المشتركة ،

---

(١) السوق الأوربية المشتركة ترجمة أحمد كمال عاشور ص ١١ .

أن زاد الإنتاج فى هذه الدول الست خلال عشر سنوات وهى المدة من ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ ، بمقدار ٩٠ ٪ على حين لم يزد الانتاج الصناعى الأمريكى فى المدة نفسها سوى ٣٩ ٪ وفى بريطانيا ٢٩ ٪ وتعتبر منطقة السوق الأوربية المشتركة اليوم هى أكبر مناطق العالم استيراداً ، بينما زاد إنتاج السوق المشتركة من الصلب والسيارات والسلع المصنوعة أكثر من إنتاج روسيا فى قول البعض (١) . والمقرر أن إنتاج السوق عام ١٩٧٥ سيكون ضعف إنتاجها عام ١٩٦٠ وتصل بذلك إلى مستوى الإنتاج الأمريكى كما سبق القول . ومن يزر اليوم شوارع روما وباريس وبرلين ير أنوار النيون وهى تعلن عن السيارات المصنوعة فى بلاد السوق الأخرى . ولم يؤد ذلك كما كان يتصور خطأ إلى إغلاق المصانع المحلية أو التقليل من إنتاجها ، بل أدى إلى مضاعفة إنتاج السيارات من مختلف الأصناف . وفى إيطاليا وحدها التى كانت تحظر استيراد السيارات الأجنبية ، بيع ٢٠٠ ألف سيارة أجنبية من إنتاج ٥٠ مصنعاً مختلفة من مصانع دول السوق المشتركة ، ومع ذلك فقد زاد إنتاج إيطاليا نفسها من السيارات ، وذلك أن ارتفاع المستوى وازدهار التجارة ، بعد تخفيض الحواجز الجمركية والعقبات التى كانت تقف دون حرية انتقال الأشخاص والأموال ، قد مكن عدداً أكبر من السكان على شراء السيارات ، وباقى منتجات المصانع التى كانت من قبل وقفاً على القادرين . ومن هنا بدأت الدورة الاقتصادية السليمة كما هو الشأن فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولعل أعظم مقياس يقاس به نجاح السوق الأوربية المشتركة ، هو أن نصيب دول السوق من تجارة العالم قد تضاعف ، فى الوقت الذى لم تزد فيه التجارة العالمية فى مجموعها سوى ٥٠ ٪ .

ومن الحق أن نتساءل ، وماذا كان تأثير هذا الازدهار الاقتصادى لدول السوق بالنسبة للاقتصاد الأمريكى ، ويرد على هذا السؤال الحقيقة التالية ، وهى أن صادرات الولايات المتحدة الأمريكية لدول السوق قبل إنشائها كانت لا تزيد

---

(١) السوق الأوربية المشتركة ص ١١ .

عن ثلاثة آلاف مليون دولار أما بعد إنشاء السوق ، فقد ارتفعت الصادرات إلى ٥ آلاف مليون دولار [١] . وهكذا ازدادت القاعدة تأصلا وتعمقاً ، إن الرخاء كلما شمل فريقاً من البشر ، امتد أثر ذلك بزيادة الرخاء فى أرجاء العالمين والعكس بالعكس .

لقد زالت الإمبراطوريات فازدهرت شعوب الدول الحاكمة :

على أن التجربة الأروع من ذلك كله ، والتى أثبتها الواقع الذى يجرى حولنا ، هى التحقق الآن نهائياً ، من أنه ليس هناك ما هو أضر من استعباد الإنسان لأخيه الانسان أو استغلاله وإبقائه رهن الفقر والجهل والمرض والخوف . فعند ما كانت الأمبراطورية الانجليزية تؤلف أعظم إمبراطورية عرفهاالتاريخ ، حيث كانت تمتد عبر قارات الدنيا الست ومحيطاتها الخمسة ، وتتحكم فيما يقرب من ربع سكان العالم [٢] وتستغل مواردهم وجهودهم لحسابها ، وتبقيهم فى الجهل والضعف والمسغبة ، فى ذلك الوقت بالذات كان نصف سكان الجزر البريطانية يعيشون فى جهد ومشقة ، ولا يجدون ما يكفى لتأمين احتياجاتهم الضرورية ، بل لقد كان من المتعذر فى بعض المناطق التى تضم عمال المناجم فى ساوث ويلز تفادى سوء التغذية [٣] . ولم يكن باستطاعة سوى أبناء الطبقة الارستقراطية إدخال أبنائهم إلى الجامعات وخاصة بعض هذه الجامعات (أكسفورد وكمبردج) وكان أطفال الطبقة العاملة فى انجلترا ينشأون فى ظل الشظف والحرمان . وعندما أعلنت الحرب العالمية الثانية ، كان عدد العمال العاطلين فى انجلترا يزيد على أربعة ملايين عاطل . وشهدنا تفكك أوصال الإمبراطورية الانجليزية ، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥ ابتداء بالهند والباكستان ، ثم بورما وسيلان والملايو فى آسيا ، وآخيراً مستعمراتها فى افريقيا فى هذه الأعوام

---

(١) مجلة المختار (ريدرز ديجيست) عدد أغسطس ١٩٦٤ .

(٢) بلغ تعداد الشعوب المحكومة بانجلترا عام ١٩٤٥ : ٥٥٦,٢٨١,٧٦٧ نسمة .

(٣) عالم جائع ص ٨ .

الأخيرة(١) فماذا كانت نتيجة تفكك أوصال الإمبراطورية البريطانية ، وماذا كانت نتيجة تفكك أوصال الإمبراطورية الفرنسية والهولندية والبلجيكية والإيطالية ، هل افتقرت هذه البلاد ؟ هل جاع فريق من أبنائها ، هل انخفض مستوى شعوبها ؟ ترد علينا الأرقام بأن عكس ذلك هو الذى حدث ، فلم تكد هذه الدول تتخفف من إمبراطورياتها ، ولم تكد المستعمرات والشعوب تتحرر ، حتى شرعت تعمل للنهوض بنفسها ، وتعمر وتبنى ، ولا سبيل أمامها لتحقيق ذلك إلا بأن تحصل على الآلات والخبرة والأدوات والمهمات من دول الأمس الحاكمة ، فإذا النتيجة عجباً من أعجب من العجب ، فانجلترا التى كانت تستورد فى عام ١٩٣٨ المواد الأولوية والغذائية بمبلغ ٤٢٥٩ مليون دولار وتصدر آلات ومهمات وسلعاً بـ ٢٤١٤مليون دولار ، تصدر عام١٩٦٢من الآلات والمنتجات الأخرى الصناعية ، ما قيمته ١٠٦١٧ مليون دولار وتستورد بما قيمته ١٢١٣٦ مليون دولار . ومعنى ذلك أن وارداتها قد زادت بنسبة تقل قليلا عن ثلاث مرات ، فى الوقت الذى زادت فيه صادراتها أكثر من أربع مرات . وبينما كان دخل انجلترا القومى عام ١٩٥٣ يقدر بـ ١٣٦٠٩ ملايين جنيه إذا بهذا الرقم يكاد يتضاعف خلال عشر سنوات إذ بلغ عام ١٩٦٢ : ٢٢٦٣١ مليون جنيه(٢) ، ولعل صورة العلاقات بعد عشر سنوات من استقلال الهند يغنى عن كل بيان آخر ، فحيث استوردت من الهند عام ١٩٤٧ بما قيمته ٩٤مليون جنيه وصدرت لها ما قيمته ٩٢ مليون جنيه(٣) ، أى أنها استوردت من الهند بأكثر مما صدرت ، فقد انعكس الحال عام ١٩٥٧ إذ صدرت انجلترا للهند ما قيمته ١٧٦ مليون جنيه ولم تستورد منها إلا بما قيمته ١٥٧ مليون جنيه فقط أى ١٩ مليون جنيه لصالح إنجلترا .

(١) لا يزال للاستعمار البريطانى جيوب محدودة ، فى طريقها للتحرر بدورها .

(٢) إحصاءات هيئة الأمم .

(٣) التقويم الانجليزى لعام ١٩٤٩ ص ٦٦٧ .

وفرنسا :

وليس ذلك إلا صورة ما حدث فى فرنسا ، فبينما كان مجموع الدخل القومى فى فرنسا عام ١٩٥٣ وهى لا تزال متشبثة بمستعمراتها فى آسيا وأفريقيا لا يزيد عن ١٥١ ألف مليون فرنك فرنسى جديد ، إذ بهذا الرقم يرتفع عام ١٩٦٢ فيصبح ٣٥٣ر٥ ألف مليون فرنك فرنسى جديد ، وذلك بعد أن خسرت فرنسا كل مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا .

وهولندا :

أما بالنسبة لهولندا فباستطاعتنا تلمس مدى الازدهار الذى لم تتمتع به فى أى يوم من حياتها بعد أن استقلت عنها أندونيسيا التى كانت تعتبر جنة الله فى الأرض لهولندا ، من الأرقام التالية :

كانت واردات هولندا عام ١٩٣٨ (وهى إمبراطورية) لا تزيد عن ٣ آلاف مليون جلدار ، أما صادراتها فكانت ثلث هذا المبلغ أى ألف مليون جلدار ، أما فى عام ١٩٦١ فقد ارتفعت صادرات هولندا إلى ١٦ ألف مليون جلدار ، أى ستة عشر ضعفاً لما كان عليه الحال فى عهد الإمبراطورية ، أما بالنسبة للواردات فقد ارتفعت إلى ١٨ ألف مليون جلدار وهو ما يساوى ستة أضعاف واردات الإمبراطورية . وارتفع الدخل القومى لهولندا فى ست سنوات فقط خلال المدة (١٩٥٣ — ١٩٥٩) بمقدار ٤٥٪ . وتعانى هولندا اليوم أزمة فى الأيدى العاملة حيث كان بها عام ١٩٦٣ وظائف شاغرة لا تجد من يشغلها تقدر بـ ٨٤ ألف وظيفة ، فلم يكن بها سوى ٢٧٠٠ عامل متعطل . وقد كان لهذه الحالة أثر فى تخفيض إنتاج هولندا هذه السنة[1] .

---

(١) الاهرام الاقتصادى عدد خاص بهولندا — يونيو ١٩٦٤ .

وهكذا دلت التجربة والواقع العملى ، أن الاستعمار كان نقمة على شعوب الدول الحاكمة كما كان نقمة على شعوب الدول المحكومة ، وأن تحرر المستعمرات وشعوبها واندفاعها فى تطوير اقتصادها للخروج من لعنة التخلف التى فرضها عليها الاستعمار ، قد عاد على شعوب الأمس بأطيب الثمرات . وهكذا لم تعد مسألة وحدة المصلحة الإنسانية التى نقول بها ، مسألة فروض وتصورات ، بل واقع مقرر ، وأصبح الشعار الذى يتردد الآن فى كل مكان ، أن الجار الغنى هو عميل مربح بأكثر من الجار الفقير ، والجار الشبعان أكثر مدعاة للأمن والطمأنينة من الجار الجائع ، وهى بديهية وقاعدة إنسانية دعت إليها وحضت عليها كل الأديان ، ولكنها كانت قد غابت عن البشرية الغارقة فى خضم الاقتصاديات المادية وقوانين العرض والطلب والمنافسة الضارية ، والبقاء للأصلح ، ولا حق للضعفاء فى الحياة .

الارتقاء بالشعوب المتخلفة عملية تجارية :

أما اليوم فقد انتهت النظريات المادية البحتة إلى أن تدرك بالحساب والأرقام ، أن عملية النهوض بسائر أفراد الجنس البشرى هى عملية تجارية مربحة ، تعود بالخير على شعوب الدول المعطية بقدر ما تعود على شعوب الدول الآخذة .

فقد قدرت هيئة الأمم فى المشروعات التى وضعتها للتنمية الاقتصادية فى الدول المتخلفة خلال السنوات العشر (١٩٦٠ — ١٩٧٠) أن هذه الدول لو استطاعت بمساعدة الدول الصناعية الغنية ، أن تزيد فى دخلها السنوى خلال هذه الفترة بمقدار ٢٥ ٪ فقط لكان معنى ذلك زيادة فى طلب السلع والبضائع تقدر بـ ٣٥٠ ألف مليون دولار ، وهى ضعف مبلغ التجارة الدولية المقدر لهذه الدول خلال العشر سنوات الجارية . وهذه الزيادة تعنى بالنسبة للولايات المتحدة عام ١٩٧٠ ، مع افتراض احتفاظها بنصيبها الحالى فى التجارة الدولية ، زيادة

سنوية تقدر بنحو ٨٫٥ ألف مليون دولار ، فإذا علمنا أن فى الولايات المتحدة ١٫٧٥ مليون وظيفة تعتمد على صادرات الولايات المتحدة إلى مناطق العالم المتخلف ، فإن معنى زيادة تجارتها مع هذه المناطق بالقدر السابق ، هو زيادة الموظفين اللازمين لهذه العملية إلى ٢٫٧٥ مليون وظيفة ، ومعنى ذلك إنشاء مليون وظيفة جديدة لمليون فرد أمريكى .

وعكس ذلك هو الذى سيحدث ، فيما لو ضعفت قدرة الشعوب المتخلفة على الإنتاج وبالتالى على شراء السلع والبضائع ، وفى ذلك يقول أحد خبراء الإنجليز .

لو أن كل عامل بريطانى ساهم بعشرين دقيقة من وقته يومياً ، وكذلك إذا ساهم بمثل هذه الفترة جميع العمال فى البلاد المتقدمة ، فإننا نستطيع إنقاذ بقية العالم من براثن الفقر .

وأستطيع أن أعد العامل بشىء واحد فقط ، وهو أننا إذا لم نفعل ، فسوف ينهار مستوى المعيشة فى بريطانيا[1] .

وإذا كان هذا الخبير الإنجليزى قد قدر الجهد اللازم لإنقاذ العالم من براثن الفقر والتخلف بعشرين دقيقة عمل زيادة فى ساعات عمل العمال فى البلاد المتقدمة ، فإن هيئة الأمم قد قومت هذه المساعدة بالمال وأنها لا تزيد عن ¾ إلى ¼ من واحد فى المائة من الدخل القومى للشعوب المتقدمة ، وتقول إحدى نشرات هيئة الأمم :

فإذا لم تستطع الدول الصناعية أن توفر ¾ سنت من كل دولار من دخلها القومى ، تسهم به فى تطوير اقتصاد العالم ، فإن ذلك لا يكون آية على إفلاس الإنسان فحسب ، بل وإخفاق إرادته .

وهيئة الأمم إذ تطالب بهذا القدر التافه وهو ¾ واحد فى المائة من الدخل

---

(١) عالم جائع ص ٤ .

القومى للدول المتقدمة ، فهى تبنى ذلك على أن ما تحتاجه الدول النامية لتطوير اقتصادها بما يعادل ٥ ٪ زيادة فى دخلها القومى سنوياً ، هو مبلغ يقرب من ٥ آلاف مليون دولار ، علاوة على المصادر العادية الأخرى .

والرأى أن زيادة الدخل القومى فى الشعوب المتخلفة بمقدار ٥ ٪ سنوياً ، إنما يكفى لإبعاد شبح الفقر عنها خلال عشرين سنة ، ولكنها لكى تصل إلى مستوى أوربا الحالى من خلال هذا المعدل ، فهى فى حاجة إلى ثمانين سنة . أما لكى تصل إلى مستوى الولايات المتحدة الحاضر ، فهى فى حاجة إلى ٤٠ سنة أخرى .

وغنى عن البيان أن الكارثة التى يريد العالم أن يتفاداها ونعنى بها وقوع الحرب النووية ، أو الانفجار السكانى ، لن تنتظر كل هذا الوقت الطويل ، فالبشرية فى سباق مع الزمن ، وما لم تعمل شعوب الأرض مجتمعة لإزالة لعنة التخلف عن سكان العالم فوراً ، فإن الكارثة آتية لا ريب فيها .

توجيه نفقات التسلح للتنمية :

والحق أنه لم يعد هناك اختيار لدى الدول الصناعية التى تنفق الآن سنوياً ما يزيد على ١٢٠ ألف مليون دولار على التسلح ، وإعداد أدوات الدمار التى ستفتك بالبشرية فتكا ، إلا أن تشرع وفوراً ، فى وقف هذا السباق فى التسلح ، ثم تخفيضه بتحويل جزء من الاعتمادات المخصصة له سنوياً لتطوير اقتصاد البلاد النامية . على أن يتزايد هذا الجزء سنوياً إلى أن يشمل المائة والعشرين ألف مليون كلها .

والحق أن الإنسان ليكاد يختنق من الغيظ والكمد وهو يطالع بيانات لجنة نزع السلاح بهيئة الأمم ، وهى تقول لنا « إن تكاليف قاذفة قنابل نموذجية واحدة كاملة المعدات ، تكفى لتوفير :

« راتب عام كامل لـ ٢٥٠ ألف مدرس .

« إنشاء ٣٠ كلية علوم فى كل منها ١٠٠٠ طالب .

« إنشاء ٧٥ مستشفى كاملة المعدات فى كل منها مائة سرير .

« ثمن خمسين ألف جرار أو ١٥ ألف ماكينة حصاد » .

أما تكاليف الغواصة الذرية الواحدة فتبلغ ضعف تكاليف هـذه الطائرة وتصل إلى ١٦٠ مليون دولار أى ما يمكن خمسين مدينة من إنشاء مستشفى حديثة بها ، تكلف كل منها ثلاثة ملايين دولار .

ولعلك تدرك معى أياً كانت جنسيتك وأياً كانت هويتك ، أياً كان القرن الذى تعيش فيه ، مقدار الحماقة التى تردت فيها الإنسانية ، وهى تسخر الجزء الأكبر من الجهد البشرى ، فى حفر القبر الذى تتوارى فيـه ، ونسج الكفن الذى ستدفن فيه ، بدلا من أن تنفق هـذه الأموال والجهود ، على ما يعود عليها بالنفع والمباهج والسعادة .

والإجماع منعقد اليوم على أن أحد معوقات نزع السلاح نزعاً شاملا وفورياً ، هو الخوف من الهزة التى تحدث فى الشعوب الصناعية من جراء ذلك ، لأن عشرات الملايين من أبنائها يعيشون الآن تحت السلاح أو عاملين على إنتاج السلاح ، ولا يحذقون عملا سوى استعمال السلاح أو إنتاجه .

والإجماع منعقد كذلك ، على أن السبيل الوحيد لمواجهة هذه المشكلة ، هو أن توجه هذه القوى البشرية ، والقوى الصناعية ، التى تعمل اليوم على إنتاج وسائل الخراب ، إلى العمل فى ميدان النهوض بالدول المتخلفة ومدها بما تحتاج اليه من خبراء ، وآلات وسلع وخدمات ، وبذلك يجد هذا الجيش العرمرم من العسكريين ميداناً للعمل كما تحول المصانع الحربية ، إلى مصانع تنتج من أجل السلام .

وهكذا نرى تشابك المصلحة الانسانية وتلاحمها من أى زاوية نظرنا اليها ، وعن أى طريق حاولنا أن نعالج موضوعها ، فالسلام والازدهار أصبحا وقفاً على النهوض بالدول المتخلفة .

٣

هل فى الأرض ما يكفى لسد حاجة كل بنيها ؟

وقد حان الآن أن نتساءل ، ولـكن هل إذا استجابت الانسانية إلى هذه الدعوة إلى التعاون الانسانى ، ووقف القادرون إلى جوار غير القادرين للنهوض بهم والارتفاع بهم إلى مستواهم ، فهل تتسع موارد الـكرة الأرضية لمثل هذه النهضة ، وهل ستجد عشرات الألوف من ملايين البشر الذين سيتوالدون خلال المائة سنة القادمة ، ما يكفيهم من الغذاء ، وما يكفيهم من مساكن وأدوات ومهمات أصبحت لازمة الآن للانسان المتحضر ؟ والرد على هذا السؤال هو بالإيجاب ، وأن الأمر كما سترى ، لم يصبح مسألة أمنيات أو تفاؤل ساذج ، وإنما مسألة حساب وأرقام وتخطيط .

أولا — بالنسبة للمنتجات الزراعية :

تبلغ مساحة الـكوكب الأرضى ، على ما ذكرنا من قبل ١٩٦٫٨٣٦٫٠٠٠ ميل مربع وهو ما يعـادل ٥٠٩٫٦١٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع أو ما يقرب من ١٢٦ ألف مليون فدان . وتشغل اليابسة ثلث هذا القدر أو ربعه ، أما القسم الأكبر من مساحة الـكرة الأرضية ، فهو الذى تتألف منه البحار والمحيطات . ولنبدأ الآن باستعراض هذا القسم من الأرض ونعنى به اليابسة والذى يقدر بـ ٥٧٫١٦٨٫٠٠٠ ميل مربع أو بحساب الفدادين ما يبلغ ٣٦ ألف مليون فدان . وهو ما يجعل نصيب كل فرد من سكان الدنيا فى الوقت الحاضر ١٢ فداناً . على أن الإنسان فى الوقت الحاضر لا ينتفع بهذا القدر الضخم من اليابسة ، إذ يجب أن يخرج منها الجبال والصحارى وغابات خط الاستواء ، ومناطق الجليد سواء فى الشمال والجنوب ، وهذه الأجزاء تؤلف ٩٠ ٪ من مساحة اليابسة ، بحيث يمكن القول إن البشر يعيشون فى الوقت الحاضر على ما تغله ١٠ ٪ فقط من مساحة اليابسة ، وهى الأرض الزراعية والتى تقدر بـ ٣٫٦ ألف مليون فدان . مما يجعل نصيب الفرد من ارض فى الوقت الحاضر لا يزيد عن ١٫٢ فدان .

زراعة بدائية :

وهـذا القدر من الأرض الزراعية الذى يبدو بهذه الضآلة ، لا يستثمر الجزء الأكبر منه على الوجـه الأكمل ، فلا يكاد يحصل منه إلا على أقل من القليل . ولعل الهند مرة أخرى تصور لنا مدى تخلف الانسان فى زراعة الأرض وما يستخلصه منها ، فالتربة الهندية تعتبر أغنى تربة فى العالم ، حيث تبلغ دائماً بضعة أقدام تحت سطح الأرض ، بل إنها فى بعض المواقع تصل إلى ٣٠٠ قـدم تحت سطح الأرض . ومع ذلك فالهنود لايزرعون من هذه الأرض المثالية سوى ٢٨٠ مليون فدان فقط (بواقع ثلثى فدان تقريباً لكل فرد) وهو ما يساوى ٣٠٪ فقط من أرض الهنـد الصالحة للزراعة ، وتترك باقى الأرض الهندية بوراً وهملاً بغير زراعة . حتى إذا جئنا إلى هذا القسم المحدود الذى يزرع ، نجد أن فقر الفلاحين الهنود وضعفهم يحولان دون الحصول على ما يمكن أن تجود به الأرض . وقـد أجريت تجارب بسيطة لاستخدام وسائل أجود بالنسبة لعملية الحرث فقط ، فاذا الفدان الذى كان لا يزيد إنتاجه عن ٤٥٠ رطلا ، قد أنتج ١٢٠٠ رطل أى ما يقرب من ثلاثة أضعاف (١) .

والرأى متفق اليوم ، على أن باستطاعة الانسانيـــة أن تضاعف الإنتاج الزراعى الحالى بضع مرات ، بمجرد استخدام الوسائل العلمية فى الزراعة ، فحيث متوسط الإنتاج العالمى من قصب السكر هو طن ونصف للفدان ، فان فـدان القصب فى جاوا يغل ستة أطنان ، وبينما المتوسط العالمى لإنتاج الفدان الواحـد من القمح لا يزيد عن ٧٠٠ رطل فان هذا المتوسط فى انجلترا يبلغ ٢٠٠٠ رطل ، وهناك بعض الفلاحين الانجليز الذين يحصلون على ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ رطل من الفدان الواحد (٢) .

---

(١) فليعم الرخاء ص ١٣٤ .

(٢) فليعم الرخاء ص ٣٢٧ .

وكذلك الحال بالنسبة لإنتاج الذرة فى الولايات المتحـدة حيث أصبح الفدان يغل أرقاما خرافية بالنسبة لما يغـله الفدان فى غير الولايات المتحدة من الذرة . فبينما كان الفدان لا ينتج حتى عام ١٩٣٩ من ٢٠ — ٣٠ بوشل فقـد وصل فى عام ١٩٤٨ إلى ٤٣ بوشل فى الفدان . وفى حزام الذرة حيث تنمو الذرة بغزارة فى أكثر من ولاية أمريكية كان إنتاج ٥٠ بوشل من الفدان يعتبر غـلة جيدة ، فقد أصبح إنتاج ٩٠ — ١٠٠ بوشل فى الفـدان إنتاجاً عاديا ووصل الحد ببعض الأفدنة أن أنتجت ٢٢٤ بوشل ، ومعنى ذلك أن الفدان الذى كان ينتج يوما ما ٢٠ بوشل من الذرة ، قد أصبح ينتج خمسة وعشرين ضعفاً (١) .

فلو أن كل زارعى القمح فى العالم ، وكل زارعى الذرة ، وكل زارعى قصب السكر ، استخدموا خـير الوسائل لزراعة هـذه الحاصلات وغيرها ، لتضاعف الناتج من هذه الحاصلات إلى الحد الذى يكفى ضعف سكان البشر الحاليين على الأقل .

زيادة الرقعة الزراعية :

والخبراء يقررون أنه يمكن رفع نسبة الأرض المزروعة حالياً من ١٠ ٪ من مساحة اليابسة إلى ١٣ ٪ بمجرد احسان استخدام موارد المياه المتاحة فى الوقت الحاضر ، أما بعد إنشاء مشروعات الرى الكبيرة من أمثال السد العالى ، فان رقعة الأرض الزراعية بالنسبة لمسطح اليابسة يمكن أن ترتفع لتصبح ٢٠ ٪ بدلا من ١٠ ٪ أى تصبح حوالى سبعة آلاف مليون فدان . فاذا كان إحسان زراعة الأرض الحالية يضاعف الإنتاج أكثر من مرة ، فان القيام ببعض المشروعات المعروفة والمدروسة ، يضاعف الإنتاج بضع مرات أخرى .

---

(١) U.S.A. : *Its Geography and Growth*, p. 51.

زراعة الصحراء :

على أن جهد الانسان الأول والأكبر فى مقبل الأعوام ، عندما تتضافر جهود البشر للتعمير والإصلاح ، يجب أن يتجه أول ما يتجه نحو زراعة الصحارى التى تؤلف وحدها ثلث مساحة اليابسة أى ١٢ ألف مليون فدان ، وهو مايزيد على ثلاثة أضعاف الأرض المزروعة حالياً . والأراضى الصحراوية تملأ قارات الدنيا الست ماعدا أوربا ، وتعتبر الصحراء الكبرى التى تقع فى أفريقيا والتى يختص بها العالم العربى تقريباً ، هى النموذج الكامل والمثل الأعلى للصحارى كلها . والصحراء الكبرى تبلغ فى مساحتها ، مساحة الولايات المتحدة الأمريكية . وتضم قارة أفريقيا صحراء أخرى واسعة جنوب غرب القارة وهى صحراء كلاهارى .

وتشغل الصحارى فى أمريكا الشمالية أغلب الولايات الواقعة فى الجنوب الغربى من الولايات المتحدة الأمريكية ، أما فى أمريكا الجنوبية ، فالصحراء تمتد فى منطقة مستطيلة على ساحل المحيط الهادى من أكوادور إلى شيلى مارة ببيرو وبوليفيا ، ثم تعبر جبال الأنديز فى شكل مثلثى يمتد نحو الجنوب الشرقى إلى المحيط الأطلسى . أما فى استراليا فالصحراء تشغل أكثر من نصف مساحتها . وفى آسيا تستغرق الصحارى أغلب بقاع الشرق الأوسط ، وتبلغ مساحة شبه جزيرة العرب الصحراوية وحدها ، كل أراضى الولايات المتحدة الواقعة شرق المسيسيبى . وتستغرق الصحارى كذلك جانباً كبيراً من جمهوريات آسيا الوسطى الداخلة فى الاتحاد السوفيتى ، وتمتد إلى باكستان والتبت وسكيانج ، حتى تصل إلى صحراء جوبى الفسيحة الأرجاء .

هذه المساحات الشاسعة من الأراضى ، هى التى تتحدى اليوم إرادة الانسان وقدرته على استصلاحها وتحويلها من أراض مجدبة مقفرة ، إلى جنات وارفة

الظلال ، كثيرة الثمرات . ولقد قيل فى وقت من الأوقات ، الكثير عن أسباب جدب الصحراء ، وعن استحالة زرعها لعديد من الأسباب ، ولكن ذلك كله قد أصبح اليوم حديث خرافة ، فليس يحول دون زراعة الصحارى سوى ندرة الماء أو انعدامه ، فلو توفرت المياه فان زراعة الصحراء تصبح أمراً ميسوراً . يقطع بذلك أن كثيراً من الصحارى التى تبدو اليوم موحشة ، كانت تزرع بالفعل فى القديم زراعة ناجحة ، وقليلون هم من يتصورون أن ليبيا كانت تعتبر مخزن الامبراطورية الرومانية من الغلال . وتغص الصحراء الغربية فى مصر وليبيا بعشرات ومئات من هذه الآبار الرومانية التى كانت يوماً ما تروى عشرات الألوف من الأفدنة وصحراء النقب التى تؤلف الجزء الجنوبى من فلسطين تحمل من الآثار ما يدل على أنها كانت عامرة فيما مضى بالحياة . وقد دلت التجارب الأمريكية الزراعية الناجحة فى صحراء كاليفورنيا ، وفى صحراء استراليا ، وفى صحراء الجزائر وفى الصحراء الغربية (مديرية التحرير) ، وفى صحارى الاتحاد السوفييتى [1] على أن زراعة الصحراء هى مسألة جلب المياه إليها ، فحيث جلبت المياه أمكن الحصول على زراعة ناجحة .

توفير المياه للصحارى :

وتوفير المياه للصحارى لم يعد بدوره أمراً معجزاً ، فاستنباط الماء من الجو أو من باطن الأرض أصبح ممكناً ، والمسألة تتوقف فى كثير من الأحيان على اختيار النباتات المعينة التى لا تحتاج إلا إلى أقل من قليل الماء ، فقد اكتشف أن بعض النباتات يكفيها الندى الذى يغمر وجه الصحارى كل يوم عند الفجر ، وأن الصعوبة تنشأ فى أن الشمس لا تكاد تشرق حتى يجف هذا الندى ، فلو أمكن بوسيلة ما الاحتفاظ بهذا القدر الضئيل من الماء ، لأمكن لأنواع معينة من النباتات أن تنمو .

---

(١) أمكن زرع مليونى فدان فى الاتحاد السوفييتى فى صحراء كراكورم .

أما بالنسبة للمياه الجوفية ، فقد أصبح من المقرر علمياً أنه يوجد تحت سطح الأرض من المـاء العذب أكثر مما يوجد فوق ظهرها ، وأنه باستطاعة الانسان أن يعثر على المـاء فى أى منطقة يشاء ، وكل الفارق هو مدى العمق الذى يتوصل بعده إلى الماء ، فمسألة استنباط الماء من أعماق الصحراء ، أصبحت مسألة اقتصادية بحتة فليس يؤخر استعمالها على نطاق واسع إلا أن الماء المستخرج من أغوار الأرض السحيقة قد يكلف أكثر من ثمن حاصلات الأرض . فإذا اشتدت حاجة الإنسان إلى حاصلات الأرض بأى ثمن ، فسيشرع فى استثمار الصحارى .

استعمال ماء البحر :

على أن الآمال كلها معقودة اليوم ، على استعمال مياه البحر بعد تحويلها إلى مياه عذبة وذلك لرى الصحارى . وتحويل مياه البحر إلى مياه عذبة ، عملية أصبحت تمارس على أوسع نطاق لتوفير مياه الشرب وحاجات الصناعة ، وليس يؤخر استعمالها لزراعة الصحارى إلا ما أشرنا إليه من قبل من كثرة التكاليف نسبياً ، ولما كانت الصحارى تقع بالأكثر فى البلاد النامية أى غير المتطورة ، فليس بقدرة هذه البلاد أن تنفق على زراعة الصحراء النفقات المطلوبة ، أما يوم أن يزول هذا الحاجز بين الدول القادرة وغير القادرة فلن تلبث الصحراء أن تتحول كلها إلى مزارع غناء تفيض بالخيرات التى تكفى لإطعام أضعاف عدد سكان الأرض فى الوقت الحاضر .

صحارى الجليد أو التندورا :

وإذا كانت الصحارى المقفرة تؤلف ثلث مساحة اليابسة ، فإن نوعاً آخر من صحارى الجليد وهو التندورا يؤلف بدوره $\frac{1}{5}$ مساحة الأرض أى ما يقرب من سبعة آلاف مليون فدان أخرى . وهم يحددون نهاية هذا القسم من أراضى العالم فى الشمال والجنوب ، بالخط الذى يؤلف الصفر متوسط درجة الحرارة

السنوية فيه . وهذا الخط يسير متعرجاً ، فيقترب من القطب أكثر ما يكون الاقتراب حيناً ، عندما توجد تيارات المحيط الدافئة ، ويبتعد عن القطب أكثر ما يكون الابتعاد عند غياب هذه التيارات .

وكما كان يظن أن الصحراء تستحيل زراعتها ، وثبت بطلان ذلك ، فكذلك الأمر بالنسبة لهذا القدر الضخم من الأراضى . ويعتبر الاتحادالسوفييتى هو صاحب الفضل فى إثبات هذا البطلان . وقد كان حرياً به أن يفعل ذلك ، فإن ٤٧٪ من مساحة الاتحاد السوفييتى تقع شمال هذا الخط الذى يبلغ متوسط حرارته على مر العام صفراً .

ومنذ وقت مبكر (أى عام ١٩٤٣) استطاع الاتحاد السوفييتى أن يزرع مليون فدان فى هذه المناطق الباردة ، وأن يحصد منها لا القمح والشعير والشيلم والشوفان فحسب ، بل والكريز والتفاح والكمثرى والخضروات والبطاطس ، وذلك بعد أن استنبط أنواعاً خاصة تنمو ممتدة على الأرض ، بدلا من نموها أفقياً .

غابات المناطق الاستوائية :

ويأتى فى الترتيب من حيث المساحة ، الأراضى التى تغطيها الغابات الاستوائية ، والتى حولتها كثرة المياه وهطول الأمطار وضخامة النباتات وتشابكها ، إلى مرتع خصب للحشرات والهوام والميكروبات فلم يعد يسكنها سوى النزر اليسير من بنى الإنسان . وإذا كانت الصحراء الكبرى هى المثل الأعلى للصحارى ، فإن المثل الأعلى للغابات الاستوائية يتحقق فى منطقة نهر الأمازون ، التى تبلغ مساحتها ½ ٢ مليون ميل مربع ، ومع ذلك فلا يعيش فيها سوى قلة من بنى البشر ، فى الوقت الذى يمكن لو أحسن استغلالها أن تمد عشرات الملايين إن لم يكن مئاتها بالأغذية .

وليس يحول دون ذلك حتى الآن سوى ضعف إمكانيات الدول التسع التى تعيش فى هذه المنطقة .

الأراضى المغمورة بمياه البحر :

بقى هناك نوع جديد من الأراضى التى يمكن أن تضم إلى الأراضى المزروعة ، وهى تلك الأراضى التى تؤلف حافات القارات والمغمورة بالماء ، وإذا كان الاتحاد السوفييتى هو صاحب الفضل كما قدمنا فى زراعة أراضى التندورا ، فإن هولندا هى صاحبة الفضل فى تعليم الإنسان كيف يستخلص من البحر أرضاً تمكن أن تحول إلى أرض من أجود الأراضى الزراعية ، وقد لا يعلم الكثيرون أن حوالى ٤٥٪ من أراضى هولندا الزراعية قد استنقذت كلها من البحر ، عن طريق إقامة السدود تلو السدود داخل البحر والعمل بعد ذلك على صرف المياه وغسل الأملاح من التربة حتى نجح أهلها فى إضافة ٥٧٠ ألف هكتار إلى أراضيهم الزراعية وهو ما يقرب من مليون ونصف فدان ، تنتج كلها مختلف الحاصلات التى اشتهرت بها هولندا .

ويجرى العمل الآن فى إكمال أضخم هذه المشروعات طراً وهو مشروع « زويدرزى » وقد تم القسم الأكبر منه ، وعندما يتم نهائياً فسيضيف إلى الأرض الزراعية ما يقرب من ٥٥٠ ألف فدان .

وقد يدهشك أن تعلم أن متوسط تكاليف الفدان بعد استخلاصه من البحر وتحويله إلى أرض زراعية منتجة ، لا يكلف أكثر من ٢٠٠ دولار[1] .

وهذا الذى بدأته هولندا ، هو ما يمكن تكراره فى كل مكان تكون فيه الأراضى المغمورة بالبحر قريبة من سطح الماء .

بل إن هناك مشروعات معدة ومدروسة لتجفيف أجزاء من شاطىء البحر الأبيض المتوسط من شأنها خلق مساحة جديدة من الأرض تقدر بنحو ٢٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، فضلا عن إمكان إقامة محطات لتوليد الكهرباء ذات

---

(١) فليعم الرخاء ص ١١٢ .

قدرة غير محدودة ، فى عدد من الأماكن ، موزعة أحسن توزيع فى جميع أنحاء المنطقة[1] .

وكذلك الحال بالنسبة للبحر الأحمر الذى وضعت له مشروعات من شأنها أن تجعل المياه تنحسر عن ١٢ ٪ من مساحة البحر الحالية .

البحر كمصدر مباشر للغذاء :

على أن المياه يمكن أن تكون هى المصدر الرئيسى المباشر لكل ما يحتاجه الإنسان من مواد أولية وأسمدة وغذاء لنفسه ومواشيه .

وتزويد البحر للانسان بالغذاء على صورة أسماك مسألة معروفة ومشهورة ، وقد لا يعلم الكثيرون أن البشر يحصلون على ٣٦ مليون طن من الأسماك من البحار سنوياً ، وهذا القدر يمكن أن يزاد أضعافاً مضاعفة ، فيما لو زرع البحر بأنواع معينة من الفطريات التى تتغذى بها الأسماك الصغيرة ، التى هى بدورها غذاء للأسماك الكبيرة ، وهو ما بدأ يحدث بالفعل فى البلاد التى تعيش على صيد الأسماك[2] .

على أن البحث امتد إلى ما وراء ذلك ، وهو الاستفادة بطريقة مباشرة من هذه الطحالب التى تنمو فى مياه البحار والمحيطات بكميات لا حد لها . وقد استخدم الانسان منذ أقدم العصور هذه الطحالب فى عديد من الأغراض ، كتسميد الأراضى ، أو صناعة الورق ، أو علف للمواشى ، ولكن الأبحاث بدأت تتجه حديثاً لتحويل أنواع من هذه الطحالب الى غذاء صالح للانسان ،

---

(١) أحلام المهندسين تأليف وبلى لى — ترجمة الدكتور محمد أحمد سليم والمهندس أحمد على فرج ص ١٤٧ .

(٢) تقوم وزارة الزراعة الأمريكية بوضع خطط يستخدمها كثير من الزراع لتطوير وتنمية مقادير من السمك فى البرك والبحيرات . وقد أنتجت هذه الخطط ٣٠٠ رطل من الفدان سنوياً وهو ما يكفى لغذاء أسرة (السياسات السكانية ص ٧١) .

بأن يحتوى على قدر من البروتينات والدهنيات التى هى قوام كل غذاء إنسانى .

ولقد أمكن استنباط مادة حية من مياه البحر يطلق عليها اسم الكوريللا Chorella وهى تصلح أن تكون غذاء صالحاً للانسان والحيوان ، بحيث لا يقل الزيت المستخرج منها عن الزيت المستخرج من فول الصويا .

وليس هناك ما يحول دون تعميم هذه التجارب فى أنحاء العالم للاستفادة منها ، إلا قلة الحاجة اليها ووفرة المواد الغذائية العادية فى البلاد التى تقوم بهذه الأبحاث .

والمعادن من البحر أيضاً :

وإذا كان البحر يمكن أن يكون مصدراً لا ينفد لتغذية الإنسان ، فهو قبل ذلك مصدر لا حد له لكل المواد الأولية اللازمة لصناعات الإنسان ، ذلك أن المياه التى تتألف منها المحيطات ، ليست فى حقيقتها الا تجمع مياه الأنهار عبر ملايين وملايين السنين ، ومن المعروف أن مياه الأنهار وهى تنطلق من المرتفعات إلى المنخفضات أو وهى تنطلق فوق سطح الأرض لا تفتأ تجرف فى تيارها هذا السطح وما تحت السطح ، ثم تنتهى بذلك كله لتصبه فى البحار والمحيطات . ومن هنا كانت مياه المحيطات تغص بكل ما تتكون منه القشرة الأرضية من معادن فى حالة ذوبان خلال الماء . وهذه حقيقة مسلم بها ، وليس يحول دون استخلاص الإنسان لهذه المعادن حتى الآن ، إلا أن استخلاصها مباشرة من القشرة الأرضية أرخص تكلفة وأيسر منالا . فالذهب على سبيل المثال يوجد فى ماء البحر ، ولكن الذهب المستخلص من مياه البحر تزيد نفقاته على خمسة أضعاف الذهب المستخلص من الأرض .

أما بالنسبة للمعادن الأخرى التى توجد بكثرة فى الماء كالمغنسيوم مثلاً ، حيث يوجد فى كل اثنتى عشرة قدماً مكعبة رطل من المغنسيوم ، فقد أنشئت بالفعل المصانع لاستخلاص المغنسيوم بهذه الوسيلة فى إنجلترا والولايات المتحدة .

وقد حسبت بعض المعادن التى يحتوى عليها ميل مكعب من الماء فوجد أنها تبلغ ٢٨٣٫٠٠٠ طن من البرومين و ١٫٠٠٠٫٠٠٠ طن من المغنسيوم و ٨٠٠٠ طن من الألمنيوم ، إلى مقادير أخرى من مختلف المعادن بنسب أقل .

والرأى الآن على أن مشروعات استغلال مياه البحر فى المستقبل ، ستقوم على عديد من المنافع والأغراض إذ تستعمل لتوليد الكهرباء المحركة ، وفى الوقت ذاته تحول المياه من ملحة إلى عذبة ، وتستخلص المواد الأولية المختلفة التى تتألف منها هذه الأملاح [1] .

عالم الوفرة :

وهكذا تترامى الآفاق أمام الإنسان من حيث موارده الغذائية وحاجته إلى المعادن ، ففى سطح اليابسة الغناء ، وإذا لم تكف اليابسة ففى البحر ما يسد كل احتياج مهما تضاعف سكان العالم عما هم عليه مرات ومرات .

هل فى الأرض ما يكفى من الطاقة :

غير أن استخلاص المعادن اللازمة للانسان سواء فى البر أو البحر ، واستنبات أرض الصحراء والتندورا وغابات خط الاستواء ، كل ذلك فى حاجة إلى طاقة محركة جبارة تكاد تصل إلى مائة ضعف ما يستعمله الإنسان فى الوقت الحاضر من طاقة ، فهل فى الأرض ما يكفى لتوليد الطاقة اللازمة ؟

والإنسانية تستولد فى الوقت الحاضر الطاقة الكبرى للانتاج من الفحم والغازات الطبيعية والبترول والكهرباء التى تنتجها مساقط المياه ، وما يستهلكه العالم من هذه الطاقات محسوب ومقدر بدقة على الوجه التالى سنوياً :

بليونان أى ألفا مليون طن مترى من الفحم .

---

(١) فليعم الرخاء ص ١٧٠ .

٥ بليون برميل زيت وهو ما يساوى ٢ر١ بليون طن مترى من الفحم .

½ بليون طن مترى من الفحم عن طريق استعمال الغاز الطبيعى .

أى أن الإنسانية تحصل على طاقة قدرها ٧ر٣ بليون طن فحم ، ويقدر الخبراء أن فى الأرض من الفحم ما يكفى لتموين العالم بالمعدل الحالى لمدة ٧٠٠ سنة ، وبضعف المعدل الحالى إلى ٣٥٠ سنة ، وأكثر من ثلاثة أضعاف المعدل الحالى أكثر من مائة سنة .

أما بالنسبة للبترول فإن موارده فى العالم لم تستكشف كلها بعد كما نعلم ، وفى كل يوم تمسح مناطق جديدة من العالم ، ويستخلص البترول حيث كان يظن أن لا بترول . ويقدر المخزون فى باطن الأرض والذى عرفت كميته بالفعل بـ ١٢٥٠ بليون برميل ، فإذا أضيف إلى هذا القدر الغاز الطبيعى ، وغاز زيت الأصداف والقواقع ، فإن هذا الرقم يتضاعف فيصبح ٢٥٠٠ بليون برميل . ومعدل استهلاك العالم من البترول فى الوقت الحاضر هو ٥ بلايين برميل ، فلو تصورنا تضاعف هذا الرقم ثلاث مرات أو أربعا كأن يصبح ٢٠ بليون برميل ، فإن المخزون الحالى يكفى حاجة الإنسانية إلى أكثر من مائة سنة ، ولو تصورنا تضاعف هذا الرقم مرة أخرى ، فإن مخزون البترول والغاز الطبيعى وزيت الأصداف والقواقع ، يظل كافياً لمدة خمسين سنة على الأقل .

أما من حيث الطاقة الكهربائية التى يمكن توليدها من مساقط المياه ، فهذه لم يشرع فى استغلالها بعد إلا فى أوربا وأمريكا الشمالية ، أما بقية قارات العالم فلا يزال هذا المصدر من مصادر الطاقة بكرا تقريباً ، وحسبنا أن نتصور أنه يوجد من هذه الطاقة فى إفريقيا وحدها ما يعادل قوة ١٩٠ر٠٠٠ر٠٠٠ حصان وهذا القدر يساوى ثلاثة أمثال القوة الكهربائية المولدة فى أوربا فى الوقت الحاضر من مساقط المياه ، وأربعة أمثال قوة أمريكا الشمالية ، ومع ذلك فلا يستخدم من هذا القدر حتى الآن سوى ١ ٪ أما باقى الكمية وقدرها ٩٩ ٪ فهى فى انتظار تعاون البشرية لاستغلالها .

الطاقة الذرية والطاقة الشمسية :

وإذا كانت مصادر الإنسان من الطاقة التقليدية كما نرى متاحة ومتوفرة ، لعشرات السنين القادمة مهما تضاعف الاستهلاك وتزايد ، فإن الطاقات الجديدة التى بدأ الإنسان يضع يده عليها ، تفتح أمام الانسان احتمالات بغير حدود أو سدود :

وتعتبر الطاقة الذرية الآن ، هى المصدر الجديد الذى انفتح للانسان ، والذى يمكن أن يستعيض به عن الطاقة المنتجة بالطرق التقليدية من فحم وبترول ، وقد بدأت البشرية تشهد سفناً وغواصات تسير بالفعل بالطاقة الذرية ، بل إن مدناً بأكملها أصبحت تضاء بالفعل بكهرباء ولدتها الطاقة الذرية فى انجلترا والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ، وليس ذلك إلا البداية لطريق طويل بغير نهاية . وإذا كان توليد الطاقة للأغراض السلمية لايزال حتى الآن يستخدم الانشطار النووى لمعدن اليورانيوم ، فإن التجارب تدور حول إمكان تسخير الطاقة النووية التى يولدها التحام الذرات ، فى الأغراض السلمية . ولو أمكن التوصل إلى ذلك ، لانفتح أمام الإنسان معين لا ينضب من الطاقة ، إذ يصبح الكون كله أمامه لتوليد الطاقة من التحام بعض ذراته .

ومع ذلك فهناك من يقول ، إن طاقة المستقبل هى الطاقة الشمسية ، فاستخدام أشعة الشمس بطريقة مباشرة لتحقيق شتى الأغراض ، سيكون هو وقود المستقبل ، فيقول لنا أحد المهتمين بهذه الطاقة : إن استخدام الاشعاع الشمسى لتوليد الحرارة والبخار أصبح من الأمور الممكنة بالفعل ، وهو أقل تعقيداً وأكثر أماناً من استخدام القوة الذرية وهذا فضلا عن أنه مورد لا ينفد بعكس معدن اليورانيوم الذى لا توجد منه سوى مقادير محدودة[١] .

---

(١) فلبعم الرخاء ص ٥٦ .

المائة سنة القادمة :

ومسألة قدرة الأرض ، على حفظ بنيها ومدهم بما يحتاجون من غذاء ومواد أولية مهما تكاثر عددهم خلال المائة سنة القادمة ، قد دخلت فى دائرة التخطيط العلمى ، حيث توفر ثلاثة من كبار الاساتذة فى معهد كاليفورنيا للعلوم التطبيقية ، أحدهم متخصص فى كيمياء الأرض ، والثانى متخصص فى الكيمياء الحيوية للنبات ، والثالث متخصص فى تنشئة العلماء ومقدرتهم العلمية ، وهم على التعاقب العلامة هاريسون براون ، وجيمس بونر ، وجون وير . وقد بدأ هؤلاء العلماء الثلاثة مباحثهم ، بعقد اجتماعات لكبار الموظفين فى ثلاثين مؤسسة من المؤسسات الصناعية الأمريكية الكبرى ، وذلك بقصد استكشاف مستقبل الموارد الطبيعية للأرض ، وقد خرجوا من أبحاثهم العلمية ، بكتابهم المشهور « المائة سنة القادمة » والذى قدروا فيه حاجات الإنسانية بالأرقام من المواد الأولية والطاقة اللازمة للوصول بالبشر الحاليين إلى مستوى التصنيع الأمريكى الذى رأينا فيما مضى مداه الكبير ، ووجدوا أن ذلك يتطلب :

١٨ بليون طن من الحديد
٣٠٠ مليون طن من النحاس
٣٠٠ « « « الرصاص
٢٠٠ « « « الزنك
٣٠ « « « الصفيح

طاقة محركة تعادل ما ينتجه ١٦ بليون طن فحم سنويا[1] .

وبالرغم من أن مثل هذه الطفرة ، ونعنى بها وصول العالم كله إلى مستوى

---

(١) لاحظ ما ذكرناه فى ص (٣٨٢) من أن العالم يستهلك فى الوقت الحاضر ٣,٧ بليون طن من الفحم سنوياً فقط .

الحياة الأمريكية غير معقول ، وهى إنما تساق على سبيل الفرض ، فقد قدر الخبراء أن هذه المقادير كلها متوفرة فى يسر وسهولة ، وحسبنا أن ننقل ما يقوله الاتحاد السوفييتى من أنه يوجد فى حقل واحد من حقول الحديد الخام فى كورسك ٤٠ ألف مليون طن من الخام الذى تبلغ نسبة الحديد فيه ما بين ٥٥ — ٨٠ ٪ وذلك بالإضافة إلى ١٠ آلاف مليون طن أخرى من الكوارتز الحديدى الذى تبلغ نسبة الحديد فيه ٤٠ ٪ ويعلق الاتحاد السوفييتى على هذه الحقيقة بقوله : وهذا يعنى أن لدى الاتحاد السوفيتى ما يكفى لتغذية جميع مصانع الصلب والحديد فى العالم لمدة خمسة عشر ألف سنة[1] .

الكون الفسيح :

ولن يكون بحثنا فى مستقبل البشرية ، والفرص المتاحة لها ومدى إمكانياتها كاملا ، إلا إذا أضفنا إلى كل ما سبق أن الثورة العلمية التى يعيش فيها الإنسان اليوم ، قد فتحت أمامه آفاق الكون الرحيب ، بحيث إذا ضاقت به الأرض انفتحت أمامه كواكب السماء .

والانطلاق إلى الفضاء الكونى وغزو الفضاء ، والتنقل بين الكواكب ، لم يعد مسألة خيال ، أو مشروعات صعبة التحقيق ، بل لقد أصبحت واقعاً نقترب منه سنة بعد أخرى إن لم يكن يوما بعد يوم . وقد حدد الأمريكان للوصول إلى القمر عام ١٩٧٠ أما الروس فقد يصلون إلى القمر قبل ذلك . ولا يكاد الإنسان يصل إلى القمر حتى يتخذ منه نقطة الوثوب إلى بقية كواكب المجموعة الشمسية ، وإذا كان قد احتاج إلى عشرين سنة منذ بدأ يسعى للوصول إلى القمر حتى يصل إليه ، فلن يكون الأمر فى حاجة إلى هذا القدر من السنين للوصول إلى المريخ أو الزهرة ، إذ أن مركبة الفضاء وملابس الفضاء وأجهزة الفضاء ستكون قد استكملت كلها وأصبحت تحقق المطلوب منها . ولا حد

(١) كل شىء عن الاتحاد السوفييتى ص ٩ .

للاحتمالات التى يفتحها أمام الإنسان وصوله إلى الكواكب الأخرى ، ولذا فلا نرى محلا للافاضة فى هذا الحديث حتى لا نخرج عن سياق بحثنا ، وحسبنا من هذه الإشارة إلى مستقبل الإنسان فى الفضاء الكونى ، أن طريق الإنسانية ليس مسدوداً أمامها ، بحيث نستطيع أن ننظر إلى المستقبل فى ثقة واطمئنان ، فى غير رعب من تزايد السكان إلى حد الانفجار ، شريطة أن يتعاون بنو الإنسان جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم ولغاتهم ، على إيقاف الحرب أولا ونزع السلاح ثانياً ، وتحويل المبالغ والجهود الجبارة التى تضيع هباء فى هذا السبيل ، إلى الإنشاء والتعمير واستخراج كنوز الأرض ، لا لصالح شعب واحد أو جماعة من الناس ، ولكن لصالح الإنسانية مجتمعة فالمصلحة واحدة ، والمصلحة فى التضامن الإنسانى محققة ، وعلى البشر أن يعيشو معاً على أساس الكل من أجل الواحد ، والواحد من أجل الكل ، أو لن يكون أمامهم سوى الفناء ... الفناء العام الشامل .

وليس وراء ذلك اتحاد فى المصير ، وفى المصلحة ، وهو الأمر الذى أجمع الكل على أنه الأساس الأول والأخير لقيام الأمة الواحدة والمجتمع الواحد .

ولا سبيل لتكون الأمة الواحدة ، إلا من خلال حكومة واحدة فهى وحدها القادرة على إقامة سلطان القانون وإجراء العدل ، وبذلك يستقر الأمن ويسود السلام . والحكومة هى القادرة على تنسيق جهود الأفراد ، بما يعود على المجموع بأكبر فائدة .

ومن هنا يجب أن يتجه عزم بنى الإنسان لإقامة هذه الحكومة العالمية .

وإلى الفصل القادم لنظهر لك أن التحدث عن الحكومة العالمية لم يعد ضرباً من ضروب الخيال ، وإنما هو واقع نعيش فيه .

الفصل الثامن

أمة واحدة ـ حكومة واحدة

من التنظيم الدولى إلى الحكومة العالمية

أمة واحدة — الحكومة العالمية عبر التاريخ — الإمبراطورية الرومانية المقدسة — الدولة الإسلامية العالمية — إمبراطوريات العصر الحديث — من الحكومة الواحدة إلى التنظيم الدولى — جروسيوس والقانون الدولى ـ معاهدة وستفاليا — مؤتمر فينا — دعوة أصحاب الفكر — مؤتمرا لاهاى عامى ١٨٩٩ — ١٩٠٧ — نظام التوفيق والتحكيم — الحرب العالمية الأولى ميثاق عصبة الأمم — عصبة الأمم فى الميزان — عيب فى الشكل — عيب فى النصوص — عيب فى الروح — انتصار الفكرة العالمية — محكمة العدل الدولية — هيئة العمل الدولية — الحرب العالمية القانونية — خطر الحرب الذرية — ميثاق هيئة الأمم — الجمعية العمومية — مجلس الأمن — المجلس الاقتصادى والاجتماعى — مجلس الوصاية الدولى — محكمة العدل الدولية — ميثاق هيئة الأمم فى الميزان — القضاء على الاستعمار — المنظمات الاجتماعية والاقتصادية الفشل فى نزع السلاح — الحكومة العالمية هى الحل — دستورها — أغراضها .

— ١ —

أمة واحدة :

انتهينا حتى الآن من إثبات وحدة الإنسانية طبقاً لمختلف التعريفات الاصطلاحية ، التى تحدد عناصر الأمة الواحدة ، والتى كان بعضها يضيق حتى يلخص هذه العناصر ويحصرها فى اللغة ، ويتسع بعضها فلا يرضى بغير وحدة اللغة والجنس والتاريخ والأرض والمصلحة الاقتصادية والمصير ، لتحديد مفهوم الأمة .

وقد رأينا كيف أن هـذه العناصر كلها ، تتحقق بكمالها فى الإنسانية مجتمعة ، فهى وحدها ، فى مجموعها ، تنحدر من أصل واحد مشترك ، وهى تقوم على هذا الـكوكب الأرضى الذى يؤلف وحدة جغرافية وفلـكية متجانسة ، وهى وحدها التى يقوم لها تاريخ واحد متكامل ، وقد أصبح لها مصير مشترك واحد ، وتربطها إلى بعضها مصلحة اقتصادية واحدة . ومتى كان الأمر كذلك ، فلم يبق مناص من أن تقوم على هذه الجماعة الإنسانية الواحدة ، التى تؤلف فى حقيقتها أمة واحدة ، هيئة سياسية واحدة ، وأداة تنظيمية واحدة ، لتنسق الجهود بين مختلف جماعاتها ، وتحول دون وقوع الاصطدام بين سائر أجزائها ، وتقر الأمن والسلام بين ربوعها ، محققة بذلك أكبر قدر من جلب المنـافع لـكل فرد من أفرادها ، ودرء المخاطر التى أصبحت تهددها بالفناء .

الحكومة العالمية عبر التاريخ :

ويخطىء الـكثيرون إذا تصوروا ، أن الحديث عن الحـكومة العالمية ضرب من الخيال والوهم الذى لا يمكن أن يتحقق ، أو أنها نوع من الأمانى التى لا تزال بعيدة عن التحقيق ، فالحـكومة العالمية قد وجدت بالفعل دائماً وعلى مر العصور ، وغياب هذه الحـكومة على المدى الطويل هو الاستثناء لا القاعدة . وهذا الاستثناء لم يأخذ صورته الواضحة الحادة ، إلا فى القرن التاسع عشر ، ومستهل القرن العشرين كما مر بنا . فتاريخ الإنسان على ظهر هذا الـكوكب ، يمتد كما يقول علماء الحياة والجيولوجيا إلى مليون سنة سابقة ، ومعنى ذلك أن الحياة الإنسانية على هذا الـكوكب قد انقضى منها ٩٩٪ كان الإنسان يؤلف خلالها نوعا واحداً فى مواجهة بقية الأنواع ، فلم يكن يعرف لنفسه بحكم ظروفه وعدده ، سوى زعامة وقيادة واحدة .

ولم تعرف البشرية كما رأينا ، إلا فى عصر متأخر جداً (٢٥٠٠ ق . م) الوحدات الإنسانية المتمايزة ، والتى بدأنا نطلق عليها اسم الدول . وعندما تألفت الدولة المصرية الأولى ، كانت تعتبر حكومة عالمية ، فقد كان العالم المعروف

وقتئذ فى نظر هؤلاء الذين قاموا بعمليات التوحيـد ، يتألف من هذه الدول والإمارات والولايات المنتشرة على طول مجرى النيل ، وكان توحيد هذه الجماعات السياسية المتفرقة فى وحدة واحدة ذات علم واحد ، ويقودها حاكم واحد ، كان يعنى توحيد الإنسانية المعروفة فى ذلك الزمان . وكذلك كان الاعتقاد السائد فى شعوب ما بين النهرين ، فعندما توحدت ، كان يعنى ذلك فى اعتقاد سكان هذه المنطقة أن العالم قد توحد .

ولما أن اكتشف المصريون من ناحية ، والأشوريون والبابليون من الناحية الأخرى ، أن ثمة أناساً وشعوباً وممالك خارج حدودهما ، سعت كلتا القوتين لمد سلطانها وقيادتها لهذه المناطق المجاورة ، إيماناً من القائمين على رأس هذه الدول ، بحتمية الحكومة الواحدة ، للانسانية مجتمعة . وعلى هذا الأساس ، قامت الإمبراطوريات الأولى فى التاريخ ، إمبراطورية مصر ، وإمبراطورية أشور ، وإمبراطورية الفرس ، وإمبراطورية الصين ، وإمبراطورية الهند ، بفكرة وحدة الإدارة للعالم المعروف .

وكلما ازدادت معارف الإنســان ، بتطور العمران ، كلما اتسعت رقعة الإمبراطوريات المتأخرة ، فجمعت إمبراطورية الاسكندر بين الغرب والشرق . وضمت الإمبراطورية الرومانية تحت لوائها ، حوض البحر الأبيض المتوسط الذى كان يؤلف الجزء الأكبر من الإنسانية فى ذلك التاريخ . والإجماع منعقد على اعتبار الإمبراطورية الرومانية ، حكومة عالمية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، فقد استطاعت أن تفرض على حوض البحر الأبيض المتوسط سلاماً عالمياً دام قرنين من الزمان ، وهى هذه الفترة التى تبدأ بحكم أغسطس قيصر ، وقد أطلق عليها اسم « السلام الرومانى » .

وقد كان لهذه الدولة العالمية الرومانية لغتان رسميتان هما اللاتينية والإغريقية . أما سر نجاح الرومان فى الاحتفاظ بالسلام فى هذه الدولة الواسـعة أطول مدة ممكنة ، فيرجع إلى النظام الإدارى المحكم ، الذى يعتمد على حكم قانونى دقيق

من ناحية ، وشبكة من المواصلات الجيدة ، التى امتدت كالشرايين عبر هذه الإمبراطورية من ناحية أخرى .

الامبراطورية الرومانية المقدسة :

وعندما سقطت الإمبراطورية الرومانية ، وانفرط عقدها وتمزقت أجزاؤها تحت أقدام القبائل المتبربرة ، وغرقت أوربا نتيجة ذلك فى المنازعات القبلية والحروب الدائمة بين هذه الوحدات المتعادية المتباغضة ، فإن فكرة المجتمع الإنسانى الواحد ، والحكومة العالمية لم تبرح خيال الأوربيين . ولما أن عجز الملوك والأمراء والفرسان عن خلق جو من التفاهم والتعاون الإنسانى ، اضطلعت الكنيسة بهذا الدور ، فنادت بوحدة العالم المسيحى وجعلت من البابا زعيما روحياً وسيداً يعلو سلطانه فوق سلطان الملوك والأمراء والفرسان ، ونودى بالبابا « سيداً أعظم Pontifix Maximus » بل إن الإمبراطورية الرومانية القديمة بعثت من جديد تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عندما توج البابا ليو شرلمان إمبراطوراً على العالم المسيحى عام ٨٠٠ ميلادية .

الدولة الإسلامية العالمية :

وفى مواجهة الدولة المسيحية الواحدة فى أوربا ، التى لم تدم إلا قليلا من الناحية السياسية ، كانت تقوم الدولة الإسلامية التى شملت الجزء الأكبر من شعوب آسيا وشمال أفريقيا ، حيث انصهرت الأجناس والقوميات فى ظل هذه الدولة الواحدة . وكانت آخر صورة لهذه الدولة العالمية تتمثل فى الإمبراطورية العثمانية التى حكمت أمماً إسلامية فى الشرق وأخرى مسيحية فى الغرب ، تقف كلها على قدم المساواة ، متمتعة بجنسية واحدة ورعوية دولة واحدة، وحقوق واحدة .

إمبراطوريات العصر الحديث :

وقد رأينا عند استعراض تاريخ العالم الحديث ، كيف قسم البابا ، باعتباره الحاكم الأعلى فى هذه الأرض ، العالم إلى قسمين بين أسبانيا والبرتغال ، فكانت

كل من الدولتين تعتبر نفسها دولة عالمية ، إلى أن ورثتهما معاً الإمبراطورية الإنجليزية ، التى أصبحت بالفعل أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ . واعتبرت لمدة قرن من الزمان على الأقل سيدة البحار بالفعل ومنظمتها وصاحبة القول الفصل فى ربوعها . ولقد انفرطت هذه الإمبراطوريات العالمية كلها سواء فى القديم أو الحديث ، عندما فقدت المبرر الأساسى لإمكان استمرارها ، بحيث يشعر أفراد الجماعات المختلفة ، أن السلطة المركزية لا تحكم بما فيه خيرهم ، بجلب أكبر قدر من المنافع لهم ، ودرء صنوف المخاطر عنهم ، فإن الأساس المعنوى لقيام أى اجتماع بشرى ينهار كما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة .

حقيقة واقعة :

فالحديث عن الحكومات العالمية وشبه العالمية ، ليس إذن خرافة ، ولا خيالا صعب التحقيق ، فقد وجدت صور من هذه الحكومات على مر العصور ، وإذا كان بعضها قد قام على مجرد العسف والاستغلال والاستعلاء ، فقد قامت صور أخرى ناجحة على العدل والإخاء والمساواة بين البشر ، كما هو الشأن فى الدولة الإسلامية وخاصة فى عصورها الأولى .

ولم ينقطع المفكرون وأعلام البشر منذ أقدم العصور عن الدعوة لهذه الحكومة العالمية ، شارحين أسباب نجاحها وإخفاقها على السواء .

العدول عن فكرة الحكومة الواحدة إلى التنظيم الدولى :

وكانت نهضة أوربا الحديثة ، والتنافس بين دولها ومختلف وحداتها السياسية ، سبباً للانصراف عن فكرة الحكومة العالمية الواحدة ، حيث انتشرت فكرة القومية واعتزاز كل دولة بكيانها ، ومحاولتها التفوق والاستعلاء على جيرانها ، فكانت سلسلة الحروب الوحشية القاسية التى غرقت فيها أوربا خلال القرن السادس عشر[1] . وارتفعت من جديد الأصوات الداعية إلى

(١) يعتبر كتاب « الأمير » لميكافللى الذى ظهر عام ١٥١٣ والذى نادى فيه بمبدئه الشهير أن « لا محل للأخذ بقواعد الأخلاق فى أمور السياسة وعلاقات الدول » إنجيل هذه الفترة من حياة أوربا .

ضرورة الرجوع إلى فكرة الحكومة العالمية وكان دانتى على رأس المنادين بها .

ويعتبر سبيللى وزير هنرى الرابع فى أوائل القرن السابع عشر ، أول من وضع نظاماً مفصلا بالمعنى الحديث للحكومة العالمية ، إذ دعا إلى إنشاء جمهورية مسيحية عظمى تتألف من خمس عشرة دولة مسيحية ، على أن يدير شئون هذه الجمهورية مجلس أعلى مكون من ٦٠ مندوباً ، ويقوم إلى جوار هذا المجلس ، مجالس أخرى يختص كل واحد منها بإدارة أحد مظاهر النشاط الإنسانى فى داخل الدولة .

ولكن الصراع الدينى بين الكاثوليك والبروتستانت ، والذى كان مستعراً فى أوربا على أشده ، وروح التنافس والتحاسد بين دول أوربا على المستعمرات عبر البحار ، والذى كان يتطور من سيىء إلى أسوأ ، جعل مثل هذا الاقتراح بالحكومة الواحدة يموت ، وبدأت تحل محله دعوات إلى إيجاد نوع من التنظيم بين الدول لإقرار السلام ، ولوضع حد للمنازعات والحروب الدموية ، أو على الأقل انتهاج بعض القواعد الإنسانية فى حالة وقوعها .

جروسيوس والقانون الدولى :

ويعتبر جروسيوس أول فقيه أوربى حاول أن ينظم العلاقات الدولية ، وينادى بوجوب إخضاعها لمجموعة من المبادىء المستقاة من القانون الطبيعى ، والقانون الرومانى وذلك فى كتابه الذى نشره عام ١٦٢٥ De Jure Belli ac Pacis .

معاهدة وستفاليا :

ويمكن اعتبار معاهدة وستفاليا التى أبرمت عام ١٦٤٨ نقطة البدء فى اقتناع دول أوربا بوجوب قيام تنظيم دولى يحكم العلاقات بين الدول ، فلأول مرة فى تاريخ أوربا الحديث ، قام تنظيم أطلق عليه اسم « العائلة الدولية » أو « الجماعة الدولية » حيث يشعر كل مشترك فيها بوحدة المصلحة ، التى تربط بين سائر الدول وتفرض عليهم التزام بعض المبادىء والقواعد ، ليعود ذلك بالنفع على الجميع .

وأول هذه المبادىء التى انبثقت من معـاهدة وستفـاليا ، هى فـكرة المساواة بين الدول الأوربية كلها ، الجمهورى منها والملـكى ، الـكاثوليكى والبروتستانتى ، الـكبير والصغير . فوضعت بذلك ختاما للتعصب الدينى الذى أغرق أوربا فى طوفان من الدم . وفتحت معاهدة وستفاليا لأول مرة فى أوربا طريق التسامح الدينى (١) .

وتعتبر معاهدة وستفاليا هى خالقة فـكرة المحافظة على السلام الدولى من خلال حفظ التوازن بين الدول ، بمعنى أنه إذا حاولت دولة ما مدفوعة بروح التسلط على غيرها من الدول وإخضاعها لها ، أن تنمو وتتسع على حساب ذلك الغير ، فإن بقية الدول تتعاون على منعها من تحقيق غرضها بالتـكتل ضدها وإرغامها على العدول عن خطتها ، حتى لا يختل التوازن الدولى ، فيؤدى إلى إشعال نيران الحرب . على أن التجربة قد أثبتت أن كل الحروب التى اشتعلت بعد معاهدة وستفاليا ، كانت بسبب هذا المبدأ . . مبدأ حفظ التوازن الدولى الذى اتخذ ذريعة ومبرراً لـكل حرب تشن .

وعلى ذلك فلم تشف معاهدة وستفاليا أوربا من آفة الحروب . . . التى استمرت فى عنف وضراوة منذ إبرامها حتى قيام الثورة الفرنسية وحروب نابليون .

وكان يعيب معاهدة وستفاليا فى الدرجة الأولى ، أنها كانت فـكرة أوربية مسيحية ، وعلى ذلك فلم تستطع أن ترق إلى مستوى المسيحية العالمية ، فضلا عن التسوية بين الدول المسيحية وغير المسيحية .

ومع ذلك فإن معاهدة وستفاليا لم تكن بغير فوائد ، فإلى جوار بث فـكرة التسامح الدينى كان لها فضل إنشاء نظام السفارات الدائمة بين الدول ، بدلا من نظام السفارات المؤقتة الذى كان متبعاً حتى ذلك الوقت ، حيث كان السفراء ينتدبون للقيام بمهمات محددة يعودون بعدها إلى بلادهم ، بينما أدى نظام السفارات الدائمة إلى إحكام الروابط بين الدول ، وازدياد التفاهم والتعاون فيما بينها ، من خلال التشاور المستمر .

---

(١) كان التسامح الدينى هو أساس الدولة الإسلامية عبر العصور كما رأينا .

مؤتمر فينا :

وصلت ذروة الحروب التى غرقت فيها أوربا عقب معاهدة وستفاليا أيام نابليون ، حيث بدأت الحروب تأخذ طابعاً جديداً يختلف عن الحروب القديمة ، وهو صفة الشمول والعمومية ، مما جعل الشعوب تئن منها وتتوق إلى السلام ، فعاد التفكير فى ضرورة وضع نظام دولى جديد لإقرار الأمن والنظام .

وانتهز الملوك والرؤساء فرصة اجتماعهم فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ لإعادة تنظيم أوربا فألفوا فيما بينهم ما أطلق عليه اسم الحلف المقدس . وقد أبرم فى بادىء الأمر بين روسيا وبروسيا والنمسا ، ولم تلبث دول أوربا كلها أن انضمت إليه (باستثناء انجلترا) وكان الهدف من هذا الحلف هو المحافظة على قرارات مؤتمر فينا ، وأن تكون الروح المسيحية والأخلاق هى الرائد فى كل ما يفعلون .

واتفقت الأطراف المعنية فى الحلف المقدس على الاجتماع بصفة دورية لاستعراض شئون العالم ، ومناقشة الاجراءات التى يجب أن تتخذ لتحقيق طمأنينة ورفاهية الشعوب وحفظ السلام فى أوربا . وانعقدت بالفعل بعض الاجتماعات ، ولكنها لم تلبث أن توقفت ، وخابت الآمال الكبيرة التى علقت على المؤتمر ، وفشلت فكرة التنظيم الدولى لصيانة الأمن والسلام القائم على العدل والمساواة .

ويرجع فشل مؤتمر فينا إلى تأجج الروح الوطنية والقومية ، التى بدأت تهب قوية عنيفة على أوربا فى هذه الفترة كأثر مباشر للثورة الصناعية وازدهار الرأسمالية ، فقد كانت كل دولة من الدول العظمى ترفض أن تضع على سيادتها أى قيد يحد من نشاطها الاستعمارى والاستغلالى بأى وجه من الوجوه .

ومن ناحية أخرى فقد عملت الحكومات المشتركة فى الحلف المقدس على المحافظة على الحالة الراهنة فى أوربا ، بكل ما كانت تغص به من مظالم وشذوذ اجتماعى ، وذلك بحجة الدفاع عن أصحاب الحقوق الشرعيين . ولم يكن مؤتمر فينا أوسع أفقاً من مؤتمر وستفاليا ، فقد ظل مقتصراً على مجموعة الدول

الأوربية المسيحية ، ولم يسمح للدولة العثمانية أن تشترك فى المؤتمر باعتبارها دولة إسلامية ، بزعم أن الأسرة الدولية هى وحدها المؤلفة من الدول المسيحية .

على أنه كما لم تخل معاهدة وستفاليا من بعض الفوائد ، فكذلك كان الشأن بالنسبة لمؤتمر فينا ، فقد وضع مبدأ حرية الملاحة فى الأنهار الدولية ، ووضع الترتيبات النهائية التى لا تزال مطبقة حتى الآن فى كيفية تبادل التمثيل السياسى الدائم ، كما كان مؤتمر فينا صاحب الفضل فى وضع أول اتفاقية دولية لتحريم الرق .

اشتداد دعوة أصحاب الفكر :

على أن رجال السياسة إذا كانوا قد أخفقوا فى تدعيم الفكرة الدولية ، فإن رجال الفكر كالعهد بهم جددوا الدعوة أشد قوة ، إلى ضرورة إنشاء حكومةأوربية واحدة . فارتفعت أصوات كل من أوجستين بيرى، وسان سيمون، تدعو إلى إقامة نظام إئتلافى بين الشعوب الأوربية وتكوين برلمان مشترك ، وحكومة لها سلطة عامة يكون من أهم أهدافها تنفيذ المشروعات الكبرى ذات الفوائد العامة بقصد إعادة تنظيم المجتمع الأوربى .

ونادى فيكتور هوجو شاعر فرنسا الأكبر فى مؤتمر السلام الذى عقد عام ١٨٤٩ بضرورة تكوين جامعة الولايات الأوربية المتحدة(١) .

مؤتمر لاهاى عامى ١٨٩٩ ، ١٩٠٧

على أن شعوب أوربا فى هذه الفترة من تاريخ العالم كانت مأخوذة ومستغرقة فى هذا الانقلاب الخطير الذى طرأ على شئون العالم من جراء التطور الصناعى الحديث الذى ترتب على اكتشاف قوتى البخار والكهرباء كطاقة محركة ، وإمكان إنتاج الصلب بكميات ضخمة ، مما انتهى إلى ملء البحار بهذه السفن البخارية الجبارة التجارية والحربية معاً ، والتى أصبحت تجوب البحار

---

(١) بيير جيربيه ، المنظمات الدولية ، ترجمة فوزى عبد الحميد ص ١٨ .

ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء غير مستندة إلى الرياح . وقطارات السكك الحديدية التى راحت تنهب الأرض عبر الدول والقارات جاعلة منها سوقا واحدة لهذه المنتجات التى بدأت المصانع الجبارة فى إنتاجها . ووجدت دول أوربا نفسها مدججة بالسلاح الحديث من البوارج والمدافع الثقيلة ، فغرقت كلها فى بحر من التنافس والصراع الاقتصادى حول الأسواق والمستعمرات . فأحس كل إنسان بأن أوربا تندفع نحو كارثة ستعود على شعوبها بالمحن والويلات . ومن هنا ارتفعت الأصوات من جديد ، بضرورة التنظيم الدولى لإنقاذ السلام . وكان قيصر روسيا هو قائد أوربا فى هذا السبيل ، فدعا دول العالم الأوربية والأمريكية والأسيوية على السواء ، لعقد مؤتمر دولى « للبحث عن الوسائل المؤدية إلى السلام ، ووضع الترتيبات اللازمة لنزع السلاح » .

واستجاب للدعوة إلى المؤتمر ٢٦ دولة ، كان بعضها لأول مرة من غير دول أوربا ، ومن غير الدول المسيحية . كما ظهرت الدول الأمريكية لأول مرة على مسرح الحياة الدولية ، وانعقد المؤتمر بهولندا فى مدينة لاهاى عام ١٨٩٩ حيث وضع المؤتمرون بضع قواعد .

— لحسم المنازعات بين الدول بالطرق الودية .

— لجعل الحرب عند وقوعها أكثر إنسانية ، وذلك بتحسين معاملة الجرحى والأسرى ، وإنشاء مؤسسة الصليب الأحمر التى تأخذ هذه المهمة على عاتقها .

وقد اكتفى المؤتمرون بتقرير هذه المبادىء الكلية ، وقرروا الدعوة إلى مؤتمر آخر يعقد فى عام ١٩٠٧ ليضع الوسائل والخطط التفصيلية لتحقيق الأهداف السابقة .

واجتمع المؤتمر المقترح فى لاهاى عام ١٩٠٧ بالفعل ، وارتفع عدد الدول التى اشتركت فيه إلى ٤٤ دولة . وقد نجح المؤتمرون فى توقيع ثلاث عشرة اتفاقية دولية فى مختلف الشئون ، ولكن المؤتمر فشل فى تحقيق الهدف الأساسى

من اجتماعه ، وهو التوصل لإبرام اتفاق حول نزع السلاح ، أو تخفيضه على الأقل.

وكان مؤتمر ١٨٩٩ قد انتهى إلى تصريح قال فيه :

إن المؤتمر يعتبر إنقاص ما ينفق على التسليح أمراً مرغوباً فيه أشد الرغبة لخير الإنسانية المادى والأدبى ، فجاء المؤتمر الجديد ليؤكد هذا التصريح ويسجل فى أسف أن الدول قد زادت فى تسلحها عما كانت عليه إبان انعقاد المؤتمر الأول ، وأنه من المرغوب فيه أن تعود الدول إلى بحث الموضوع مرة أخرى(١).

نظام التوفيق والتحكيم :

على أنه كان من المستحيل أن ينعقد هذان المؤتمران العالميان دون كسب للفكرة العالمية والدولية ، فقد تم الاتفاق فيهما على إيجاد منظمة قانونية تعمل على فض المنازعات الدولية ، من خلال إنشاء محكمة خاصة لشئون التوفيق والتحكيم ، جعلت مدينة لاهاى مقراً لها .

وقد طالبت بعض الدول أن يكون نظام التحكيم المقترح إجبارياً ، وأن تلتزم كل دولة بوجوب الالتجاء إلى التحكيم فى المنازعات ذات الصبغة القانونية ، ولكن هذا الطلب لم يوافق عليه ، وإنما تم الاتفاق على أن تقرر الدول المتعاقدة ، أن التحكيم هو أعدل وأنجع وسيلة لفض المنازعات ذات الصبغة القانونية التى لم تفض بالوسائل الدبلوماسية .

وعلى ذلك فقد أنشئت محكمة التحكيم الدولية ، ولكنها لم تكن محكمة بالمعنى المألوف ، إذ لم تكن مؤلفة من عدد محدود من القضاة الدائمين الذين يباشرون سلطتهم بصفة دائمة لفض المنازعات التى تعرض عليهم ، وإنما كان القضاة يختارون فى كل نزاع على حدة بمعرفة الطرفين المتنازعين ، وذلك من كشف بأسماء القضاة المرشحين موجود فى قلم كتاب المحكمة .

---

(١) سامى جنينة ، القانون الدولى ص ٤٦٣ .

وكانت الدولتان المتنازعتان ، إذا لم تتفقا على اختيار القضاة المطلوبين للتحكيم ، رجعتا إلى النظام المنصوص عليه فى قانون المحكمة للتوصل بطرق أخرى لتأليف هيئة المحكمة[1] .

الحرب العالمية الأولى :

على أن مثل هذه التدبيرات كانت أعجز عن أن توقف اندفاع أوربا نحو الكارثة ، فاندلعت نيران الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤ على ما بيناه فى الفصل الخامس ، ويعنينا فى هذا المقام ، أن المخاطر التى تعرضت لها الإنسانية فى هذه الحرب ، جعلت الدعوة إلى ضرورة إنشاء منظمة عالمية تضع حداً لتكرار هذه الكوارث يعود إلى الظهور أشد قوة من أى وقت فى التاريخ .

وكان التعاون بين الحلفاء إبان الحرب ، أكبر حافز لإقامة هذا النظام العالمى ، فقد ألفت إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ورومانيا واليونان عديداً من اللجان المشتركة ، التى تولت باسم الحلفاء جميعاً شئون التجارة والصناعة ، فنظمت الوسائل الجماعية للحصول على المواد الأولية اللازمة للجميع ثم توزيعها على كل بقدر حاجته وقدرته على الإنتاج ، كما نظمت وسائل توزيع الأسلحة والذخائر وبقية الحاجات اللازمة لتدعيم المجهود الحربى والإبقاء على حياة المواطنين ، كما تألفت بالدرجة الأولى لجان تشرف على عمليات النقل المشترك عبر البحار . وقد عاد هذا التعاون بأطيب الثمرات على المشتركين فيه ، مما جعل كل إنسان يتساءل ، لماذا لا يستمر هذا التعاون أيام السلام لتحقيق الفوائد ذاتها .

ومن ناحية أخرى ، فإن المصائب والويلات التى كانت تنصب على كلا الجانبين المتحاربين جعلتهما يناديان بوجوب إنهاء الحرب ، ووضع حد لتكرار تردى الإنسانية فى هذه الكارثة .

---

(١) سامى جنينة ، القانون الدولى ص ٥٨٣ .

وتوفر المفكرون والسياسيون على دراسة الأسباب التي أدت إلى تردى دول أوربا فى هذه الهاوية ، فاستقر الرأى على تلخيص الأسباب التى تؤدى إلى الحروب فى ثلاثة :

١ — التسابق بين الدول على التسلح والإكثار منه ، إلى الحد الذى يحرض على استعماله .

٢ — الخوف الدائم من وقوع الدولة فريسة لاعتداء مفاجىء من دولة أخرى .

٣ — إبرام المعاهدات السرية بين الدول ضد بعضها .

وعلى ذلك بدأت الأفكار تتجه نحو وجوب إنشاء منظمة دولية تكون مهمتها الأولى إزالة هذه الآفات التى تؤدى إلى إشعال الحروب ، وذلك عن طريق :

١ — وقف التسابق بين الدول على التسلح ثم تخفيض السلاح بالتدريج ثم نزعه نهائياً .

٢ — حظر إبرام المعاهدات السرية بين الدول واشتراط العلنية لشرعية أى معاهدة .

٣ — إقامة نظام أمن جماعى يكفل السلامة لكل الدول فى ظل القانون .

وإذ تلخصت آمال البشر فى قيام مثل هذه المنظمة فقد جعلتها أمريكا على رأس الأهداف التى تخوض الحرب من أجل تحقيقها ، وكان أول شرط من شروط ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأربع عشرة « ضرورة إنشاء هيئة دولية تصون السيادة والحرية لجميع الدول الكبيرة والصغيرة على السواء » .

ولم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها ، حتى كانت معاهدة الصلح التى أبرمت بين الدول المتحاربة ، تتضمن ميثاق عصبة الأمم .

ميثاق عصبة الأمم :

« إن الأطراف السامية المتعاقدة بقصد تنمية التعاون بين الأمم وتحقيق السلام والأمن ، رأت أن تقبل بعض الالتزامات التى تقضى بعدم الالتجاء إلى الحرب ، وأن تعمل على إقامة علاقات صريحة بين الدول أساسها العدل والشرف ، وأن تنفذ تنفيذاً دقيقاً قواعد القانون الدولى ، وأن تجعلها القاعدة الحقيقية للصلة بين الحكومات ، وأن تحافظ على العدالة وتحترم بنزاهة جميع الالتزامات المترتبة على المعاهدات فى علاقات الشعوب المنضمة بعضها لبعض (١) .

بهذه العبارات يستهل ميثاق عصبة الأمم ، ثم يروح بعد ذلك ينظم بناءها ، ويرسى القواعد التى تعمل بموجبها .

وقد تألفت عصبة الأمم من هيئات ثلاث :

١ — الجمعية العمومية .

٢ — مجلس العصبة .

٣ — السكرتارية .

فأما الجمعية العمومية فقد تألفت من الأعضاء الموقعين على معاهدة فرساي ، مع ترك الباب مفتوحاً لانضمام كل الدول المستقلة ذات السيادة ، أو المستعمرات التى تحكم نفسها بنفسها شريطة أن يوافق على انضمامها ثلثا أعضاء الجمعية العمومية .

وتنظر الجمعية العمومية فى كل يوم ما يلزم لاستتباب السلم الدولى ، بما فى ذلك فض المشاكل والمنازعات الدولية واتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك ، كما يدخل فى اختصاصها النظر فى أى حالة حرب تقوم فى العالم ، وكذلك التهديد بقيام حرب .

---

(١) محمود متولى ، الأمم المتحدة والسلام العالمى ص ١٦ .

أما مجلس العصبة فكان يتألف من الدول الخمس العظمى التى قامت باسم العصبة وهى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ، وإيطاليا واليابان . وكان لهذه الدول الخمس مقاعد دائمة فى المجلس ، على أن يضم اليها أربعة أعضاء غير دائمين يختارون بالتناوب من بين بقية الدول الأعضاء وذلك بواسطة الجمعية العمومية .

أما السكرتير العــام فهو موظف كبير إدارى تختاره الجمعية العمومية ، ليكون المنظم لاجتماعات الجمعية العمومية ومجلس العصبة ، يعاونه فى ذلك عدد من الموظفين الإداريين والفنيين .

وقد اختيرت دولة سويسرا باعتبارها دولة محايدة ، لتكون مقراً لعصبة الأمم ، وبدأت العصبة اجتماعاتها لأول مرة فى مدينة جنيف عام ١٩٢٠ .

وقد حاولت عصبة الأمم أن تقوم بدور نشيط وفعال فى سياسة العالم ، وأخذت انجلترا على نفسها مهمة قيادة العصبة لتحقيق أغراضها ، ولكن عصبة الأمم انتهت بالإخفاق التام ، الذى أدى إلى حلها بعد قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . ويمكن تقسيم حياة عصبة الأمم القصيرة إلى ثلاثة أدوار :

الدور الأول :

ويبدأ هذا الدور منذ إنشاء العصبة عام ١٩٢٠ وينتهى بحلول عام ١٩٣٠ . وفى هذه السنوات العشر نجحت العصبة فى حل كثير من المنازعات عن طريق التوفيق والتحكيم ، ففضت نزاعاً بين السويد وفنلندا عام ١٩٢٠ ، ونزاعاً ثانياً بين يوجوسلافيا وألبانيــا ، كما حالت دون وقوع الحرب بسبب جزيرة كورفو بين إيطاليا واليونان ، وحرب أخرى بين اليونان وبلغاريا عام ١٩٢٥ .

الدور الثانى :

أما الدور الثانى فيبدأ بعجز عصبة الأمم عن إيقاف عدوان اليابان على

الصين بهجومها على منشوريا عام ١٩٣٠ ، وقد أعقب هذا العدوان انسحاب اليابان من عصبة الأمم لتكون يدها مطلقة ، فكان ذلك بمثابة انهيار أحد أركان عصبة الأمم ، روحياً ومادياً . وقد ظن فيما بعد أن انضمام الاتحاد السوفييتى وألمانيا إلى العصبة ، من شأنه أن يعيد إليها الحيوية والهيبة المفقودة ؛ ولكن هذا الظن لم يتحقق ؛ فقد مضت اليابان فى عدوانها ، وتطورت الحرب مع الصين دون أن تحرك العصبة ساكناً ، فذهب ذلك بما بقى من هيبة المنظمة ، وبدأ الدور الثالث من حياتها الذى انتهى بانحلالها .

دور الانحلال :

ويبدأ هذا الدور بعدوان إيطاليا على الحبشة التى كانت عضواً فى عصبة الأمم ، ثم الشروع فى غزوها عام ١٩٣٥ ، وحاولت انجلترا وفرنسا فى بادىء الأمر أن تقفا فى وجه الغزو الإيطالى ، ووقفت بقية الدول وراءهما صفاً واحداً ، حتى وصل الأمر إلى إصدار قرار بمقاطعة إيطاليا اقتصادياً . وأوشكت النفوس أن تمتلىء تفاؤلا بإمكان ردع دولة قوية عن العدوان على دولة صغيرة ، ولكن إجراءات المقاطعة الاقتصادية لم تكد تتطور نحو الطريق الفعال ، وذلك بحظر تصدير البترول إلى إيطاليا ، حتى أعلن موسولينى ديكتاتور إيطاليا فى ذلك الوقت ، أن حظر البترول عن إيطاليا يعنى الحرب . وسرعان ما تراجعت انجلترا وفرنسا ، وصرفتا عزم عصبة الأمم عن فرض حظر البترول . وفى هذه الأثناء كان موسولينى قد نجح فى احتلال الحبشة ، فكانت انجلترا وفرنسا فى مقدمة الدول التى اعترفت باحتلال إيطاليا للحبشة . وكانت هذه ضربة قاتلة لحكم القانون والعلاقات الدولية ، فتشجع هتلر ديكتاتور ألمانيا فأسرع بضم النمسا إلى ألمانيا عنوة واقتداراً ، ثم انسحب من عصبة الأمم كما فعلت اليابان من قبل ، ليكون حر التصرف فى العدوان على من يشاء ، واقتطع أراضى من تشيكوسلوفاكيا (السوديت) كما ضم الجزء الباقى ، ثم اعتدى على بولندا ، وانتهى ذلك كله

باشتعال نيران الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر عام ١٩٣٩ . فتوقفت عصبة الأمم عن الاجتماع طوال سنوات الحرب وإن ظلت قائمة من الناحية الاسمية ، إلى أن أعلن حلها نهائياً فى ١٩ أبريل سنة ١٩٤٦ ، وأيلولة ممتلكاتها واختصاصاتها ، ورسالتها إلى هيئة الأمم .

عصبة الأمم فى الميزان :

والحق أن كل حديث عن التنظيم الدولى ، أو الحكومة العالمية يجب أن يبدأ من دراسة تجربة عصبة الأمم ، لمعرفة أسباب إخفاقها ، إذ هى أول تجربة عالمية حديثة فذة فى التاريخ ، فلم يحدث أن اجتمعت أكثر شعوب العالم وأممه على اختلاف ألوانها وأديانهـا ، وأجناسها وتباعد قاراتها ، كما حدث فى عصبة الأمم . ولقد أريق مداد كثير ، وسودت صفحات كثيرة ، وألفت آلوف الكتب حول عصبة الأمم ونشاطها والأسباب التى أدت إلى انهيارها والإجماع منعقد على أن هذه الأسباب يمكن أن ترد إلى ثلاثة عيوب رئيسية :

١ — عيب فى الشكل .

٢ — عيب فى النصوص .

٣ — عيب فى الروح .

عيب التشكيل :

فأما العيب فى التشكيل فقد لحق بعصبة الأمم منذ الساعة الأولى لقيامها إذ أدت المنازعات الحزبية فى الولايات المتحدة إلى وجود تيار قوى فى مجلس الشيوخ الأمريكى دعا إلى عدم التصديق على معاهدة فرسايل ، الذى كان ميثاق عصبة الأمم يؤلف جزءاً منها ، وذلك إيثاراً لفكرة العزلة الأمريكية والابتعاد بنفسها عن مشاكل أوربا . وعلى ذلك فقد امتنعت الولايات المتحدة

الأمريكية عن إبرام معاهدة فرسايل ، وبالتالى الاشتراك فى عصبة الأمم ، وظل مقعدها الدائم شاغراً طوال قيام هذه المنظمة .

وغياب دولة قوية كالولايات المتحدة عن أى منظمة عالمية من شأنه ، أن يفقد هذه المنظمة كل فاعلية ، ويقوض الأساس العالمى الذى تقوم عليه . وقد كان غياب دولة كالولايات المتحدة عن العصبة ، هو الذى شجع اليابان على العدوان على الصين . وسكوت العصبة على العدوان اليابانى ، هو الذى شجع إيطاليا ومن بعدها ألمانيا على العدوان والانسحاب من عصبة الأمم . فغياب الولايات المتحدة وهى قوة عظمى ، أدى إلى نقصان فاعلية المنظمة منذ اللحظة الأولى .

عيب النصوص :

أما عيب نصوص ميثاق عصبة الأمم فقد كان يتجلى فى أن قرارات عصبة الأمم لا تعدو أن تكون مجرد توصيات ، لا توجد سلطة معينة مسئولة عن تنفيذها . وحتى هذه التوصيات كان لا بد لصدورها من إجماع كل الدول الأعضاء ، وهو شرط تعجيزى ، فلن تعدم الدولة المعتدية أو التى تعتزم الاعتداء ، أن تجد دولة تناصرها ، سواء فى مجلس العصبة أو الجمعية العمومية لكى يستحيل صدور قرار ضدها من أى نوع كان . والالتزام الوحيد الذى كان يفرضه الميثاق على الأعضاء إذا ما نشب نزاع بين اثنين أو أكثر ، أن يعرض النزاع على التحكيم أو القضاء أو مجلس العصبة ، فإذا رفض المتنازعان هذه الحلول الثلاثة ابتداء ، أو قبلا أحد هذه الحلول فى بادىء الأمر؛ ثم رفض أحدهما أو كلاهما نتيجة التحكيم أو القضاء أو قرار مجلس العصبة ، وقرر أحدهما أن يلتجىء إلى الحرب ، فقد أصبح لزاماً عليه بمقتضى الميثاق أن لا يبدأ الأعمال الحربية ، إلا بعد ثلاثة أشهر من انتهاء التحكيم ، أو قرار مجلس العصبة ، وأن يسبق بدء العمليات الحربية إعلان صريح ببدئها .

وهـذه النصوص كما ترى لا تحظر الحرب ، بل تنظمها ، وهى لا تزجر الدول وتشجب العدوان ، بل إنهـا تعترف بحقها فى رفض قرارات العصبة ، أو قرارات التحكيم .

والحـالة الوحيدة التى خول فيهـا للجمعية العمومية ومجلس العصبة حق التدخل لفرض السلام ؛ هو حالة ما لو قام النزاع بين دولتين عضوين فى العصبة أو إحداهما عضو والثانية ليست عضواً بالعصبة ، ثم ارتضيتا التحكيم فى نزاع معين ، وبعد صدور قرار التحكيم ارتضته إحدى الدولتين ورفضته الأخرى ، ففى هذه الحالة نص ميثاق العصبة على عدة جزاءات يمكن توقيعها على الدولة .

وأول هذه الجزاءات هى الطرد من العصبة ، وثانيهـا المقاطعة الاقتصادية وثالثها إمكان توقيع جزاءات عسكرية وحربية .

ولا تعدو النصوص الخاصة بهذه الحالة مجرد حبر على ورق ، لم يرد بها غير إثبات الحق من الناحية الشكلية ، دون أن يكون من المستطاع ممارسته من الناحية الفعلية . فشرط الإجماع الذى سبقت الإشارة إليه ، لا يمكن أن يتحقق عملا ، وحتى لو أمكن التوصل إلى هذا الإجماع فليست قرارات العصبة كما قدمنا سـوى توصيات ، فبالنسبة للجزاءات أو العقوبات العسكرية مثلا ، فـكل ماينص عليه الميثاق « هو أن يشير المجلس على الدول الأعضاء بما تشترك به كل دولة من مهمات عسكرية برية كانت أو بحرية أو جوية ، لإمكان تـكوين القوات المسلحة اللازمة لوقف العدوان ، وحمل الدولة المعتدية على التزام القانون » وترك لـكل دولة أن تقرر ما إذا كانت تلبى طلب مجلس العصبة أو ترفضه . أى أن الدول الأعضاء لم تكن ملتزمة بتنفيذ مايشير به المجلس ، ولذلك لم تفكر العصبة طوال مدة حياتها فى الالتجاء إلى هذه النصوص .

أما بالنسبة للجزاءات الاقتصادية ، فقدكانت هى الناحية الوحيدة التى حاول الميثاق أن يحكم نصوصها ، وأن يدعم فاعليتها ، فنص على أنه فى حالة حصول

الإخلال الذى يترتب عليه توقيع الجزاء الاقتصادى ، فإن الدول الأعضاء تتعهد :

١ — بأن تقطع كل علاقة تجارية أو مالية مع الدول التى أخلت بالميثاق .

٢ — أن تحرم كل اتصال بين رعاياها ورعايا هذه الدولة .

٣ — أن تمنع كل اتصال مالى أو تجارى أو شخصى مع الدولة المعتدية أو رعاياها .

عيب فى الروح :

على أنه لا العيب فى التشكيل ؛ ولا العيب فى النصوص ، هو الذى قضى على عصبة الأمم وجعلها بغير فاعلية ، بقدر ما كان العيب فى الروح هو الذى أهدر الثقة بها منذ اليوم الأول لقيامها ، وظل ينخر فيها إلى أن عجل بنهايتها . وذلك العيب هو جشع الدول الكبرى ، ومجافاة تصرفاتها لروح الميثاق ، وروح كل عدل وإنصاف ، فحيث ينادى ميثاق العصبة بحق تقرير المصير لكل الأمم والشعوب ، فقد أنكرت الدول الكبرى هذا الحق على شعوب آسيا وأفريقيا ، وأقدمت انجلترا على احتلال العراق وفلسطين على خلاف مشيئة أهلها ، واقتطعت من فلسطين وسوريا جزءاً أطلقت عليه الأردن ، ونصبت عليه أميراً يخضع لسلطانها، ووعدت اليهود بوطن قومى فى فلسطين كخطوة أولى نحو إنشاء دولة لهم تقوم على حساب العرب . وفى الوقت الذى قامت فيه مصر بثورتها عام ١٩١٩ لتقرير مصيرها ، قاومتها انجلترا بالحديد والنار ، وحصلت من الدول باعتراف رسمى بالحماية على مصر . ولجأت فرنسا من ناحيتها إلى احتلال سوريا ولبنان بالإضافة إلى ما كانت تحتله من شمال إفريقيا . وتقاسمت دول أوربا واليابان مستعمرات ألمانيا السابقة فى آسيا وإفريقيا ، وهكذا تحولت عصبة الأمم منذ اليوم الأول لإنشائها ، إلى أداة استعمارية بغيضة لحساب الدول الكبرى وخاصة انجلترا وفرنسا ؛ وهكذا أعلنت عصبة الأمم إفلاسها منذ اليوم الأول ، وكشفت عن إخفاقها فى تحقيق ما علقه عليها البشر فى أرجاء العالم من آمال .

ولا عجب بعد ذلك ، إذا فشلت عصبة الأمم فى تحقيق المهمة الأساسية لوجودها ، وهى نزع السلاح لإمكان سيادة حكم القانون ، وحبطت كل الجهود التى بذلت فى هذا الصدد ، وأعلن رسمياً فشل مؤتمر نزع السلاح نهائياً عام ١٩٣٣ وانطلقت دول أوربا وعلى رأسها ألمانيا ، فى سباق نحو التسلح ، وظل هذا التسابق يقوى ويشتد حتى وقعت كارثة الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

لم تكن عصبة الأمم بغير فوائد :

ولا ينبغى أن يدهش أى إنسان لفشل عصبة الأمم ، فقد تألفت أثر حرب ضروس استمرت أربع سنوات ؛ تخضبت فيها أرض أوربا بالدماء بصورة تتضاءل إلى جوارها كل حروب التاريخ الماضية ، وانتهكت فيها كل الحرمات ، واستخدمت أشد الوسائل وحشية وقسوة ، فأشعل ذلك فى النفوس أحقاداً دفينة ، وعمق العداوات والرغبة فى الأخذ بالثأر ، وضاعف ذلك كله جشع الدول المنتصرة وأنانيتها ، ولهفتها على الاستزادة من المستعمرات والممتلكات وحكم الشعوب المستضعفة واستغلالها ، على خلاف العهود والمواثيق ، فكان من غير المعقول ، أن تتحول هذه العواطف والاتجاهات السوداء المظلمة فى يوم وليلة إلى وضاءة الصباح ونور الحق . وكان على أوربا أن تتلقى مزيداً من الدروس والتجارب ... تتلقاها من خلال الويلات والمحن والكوارث .

ومن هنا فقد فشلت عصبة الأمم ، وكان حقيقاً بها أن تفشل ، على أنها لم تكن بغير فوائد على الإطلاق ، وإذا كانت معاهدة وستفاليا ، ومن بعدها مؤتمرات فينا ولاهاى قد وضعت لبنات فى بناء الفكرة العالمية ، فإن عصبة الأمم قد أرست الأساس الوطيد لهذا البناء الذى لا بد وأن يقوم فى يوم قريب .

انتصار الفكرة العالمية :

ولعل أعظم ما حققته عصبة الأمم ، هو تدعيم فكرة العالمية وتأصيلها نهائياً . فلم تعد « العائلة الدولية » قاصرة على دول أوربا ، أو على العالم المسيحى ، وإنما

هى دول العالم كله المسيحى منها والبوذى الإسلامى والوثنى ، وقد جاء الوقت الذى بلغ فيه أعضاء عصبة الأمم ٦٤ دولة تمثل قارات الدنيا الست ، استطاعوا أن يجتمعوا وأن يتناقشوا ويتداولوا على اختلاف لغاتهم ومشاربهم ، وبحثوا مشاكل العالم ، واقترحوا لها الحلول . وهكذا أرست عصبة الأمم القواعد التى تجرى بها المناقشات والطريقة التى تؤخذ بها الأصوات ، وأظهرت التجربة ، أن باستطاعة الدول فى بعض الأحيان أن تتصادم فيما بينها بالقول والعبارة والرغبات ، ثم تعود للالتقاء على صفاء بغير حاجة إلى إراقة الدماء وإزهاق الأرواح .

محكمة العدل الدولية :

على أن نجاح عصبة الأمم لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد حققت نجاحاً إيجابياً فى تدعيم الفكرة العالمية ، وضرورة إقامة العلاقات الدولية على أساس من احترام القانون ، وذلك بإنشاء محكمة العدل الدولية ، ولقد ذكرنا من قبل أن معاهدتى لاهاى قد نجحتا لأول مرة فى التاريخ فى وضع نظام عالمى للتوفيق والتحكيم بانشاء محكمة التحكيم الدولية فى لاهاى . ولكن هذه المحكمة كما قدمنا لم يكن لها قضاة دائمون ، كما لم يكن التحكيم إجبارياً ، وبقى أمره متروكا لأصحاب الشأن ، أما ميثاق عصبة الأمم فقد نص فى المادة ١٤ على أن « يقوم المجلس بعمل مشروع لمحكمة عدل دائمة ، وأن يعرض هذا المشروع على الأعضاء ، وعلى أن يدخل فى اختصاص هذه المحكمة نظر المنازعات الدولية التى يعرضها عليها الخصوم ، وعلى أن تعطى المحكمة آراء استشارية فى كل مسألة أو نزاع يعرضه عليها المجلس أو الجمعية العمومية » .

وقد وضع بالفعل مشروع هذه المحكمة وتم التصديق عليه بالإجماع فى ١٣ ديسمبر ١٩٢٠ ، كما تم وضع لائحة لهذه المحكمة . وهكذا لم تعد المحكمة مجرد هيئة تحكيم تعمل على التوفيق بين المتنازعين ويختار قضاتها فى كل نزاع على حدة ، بل أصبحت محكمة قضائية مشكلة من قضاة دائمين ، تصدر أحكاماً

تستند فيها إلى نصوص القانون الدولى ، وتكون ملزمة للطرفين . وحقا بقى الالتجاء إلى المحكمة حقاً اختيارياً للأطراف المتنازعة ، ولكن فكرة المحكمة الدولية التى تصدر أحكاماً قضائية تستند إلى قانون دولى وتلزم المتقاضين ، تعتبر خطوة هامة فى الطريق نحو الحكومة العالمية . ولقد زالت عصبة الأمم من الوجود ، ولكن محكمة العدل الدولية بقيت ، وازدادت قوة كما سترى ، لأنها تقوم على أساس سليم .

هيئة العمل الدولية :

أما ثانى المنظمات التى أوجدتها عصبة الأمم ولا تزال قائمة حتى اليوم ، بعد أن اشتد عودها وتأصلت جذورها ، وامتدت فروعها ، فهى هيئة العمل الدولية التى أنشئت بموجب معاهدة فرساي لتتبع عصبة الأمم ، وأريد بها العمل على إقرار السلام العالمى من خلال تحقيق العدالة الاجتماعية بين الطبقات العاملة ، وذلك عن طريق عقد المعاهدات بين الدول لتحسين ظروف العمل ورفع مستوى معيشة العمال ، وذلك بتحديد ساعات العمل وإنقاصها إلى الحد الذى يمكن العامل من الراحة وأداء واجباته الأخرى ، كإنسان له حقوق وأسرة . وتحديد حد أدنى للأجور يهيىء للعمال فرصة للحياة المعقولة ، وتأمين العمال فى حالات المرض والعجز والشيخوخة والبطالة ، وحقهم فى الراحة الأسبوعية والسنوية ، وتأليف الاتحادات ، ومساواة العمال الأجانب بالوطنيين ... الخ .

وقد بلغت المعاهدات التى أبرمت حتى الآن لتنظيم هذه الشئون أكثر من ١٠٤ معاهدة .

ولم تقف هيئة العمل الدولية عند حد إبرام المعاهدات بل بدأ نشاطها يتسع بطريقة إيجابية ، لرعاية العمال صحياً واجتماعياً وفنياً ، فى سائر أنحاء الدنيا وذلك بإنشاء المعاهد التدريبية والمؤسسات العلاجية والثقافية .

منظمات اجتماعية واقتصادية :

وإلى جوار هيئة العمل الدولية التى كانت أهم مؤسسة اجتماعية أنشأتها عصبة الأمم ، فقد مدت العصبة نشاطها إلى مختلف الميادين ، فأنشأت المنظمات الدولية لمحاربة المخدرات ، وإلغاء الرقيق وحماية الأطفال والنساء والصحة العالمية ، وتنظيم المواصلات والنقل العالمى .

وعلى الرغم من أن جهد عصبة الأمم كان فى هذه الناحية ضيقاً ومحدوداً بسبب ضآلة ميزانيتها(١) ، فقد وضعت البذور التى أورقت وأزهرت فى ظل هيئة الأمم .

عودة الحديث عن الحكومة العالمية :

وأياً كان ما حققته عصبة الأمم قليلا أو كثيراً ، تافهاً أو جليلا ، فإن الذى لا شك فيه أن اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية كان بمثابة حكم على التجربة كلها بالفشل . على أن الحرب العالمية الثانية لم تكد تعلن ، حتى بادر المفكرون والقادة من بنى الإنسان إلى دراسة أسباب الإخفاق الذى منيت به عصبة الأمم . ومنذ اللحظة الأولى اقتنع الكافة بأن عصبة الأمم لو كانت مساحة بالسلطة التى تمكنها من فرض إرادتها ، لما اجترأت اليابان على المضى فى عدوانها على منشوريا ، وإيطاليا فى عدوانها على الحبشة ، وألمانيا فى سلسلة اعتداءاتها المتكررة على النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، ولذلك فإن نقطة البدء فى أى تنظيم دولى ؛ يجب أن يقوم على فكرة الحكومة العالمية التى تعلو سيادتها على سيادة باقى الدول ؛ والتى يكون لها وحدها حق الاحتفاظ بقوة مسلحة لإقرار الأمن والنظام فى ربوع العالم .

---

(١) لم تتجاوز ميزانية عصبة الأمم فى أى سنة من سنى حياتها مبلغ ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار (دائرة المعارف البريطانية) .

قارن ذلك بميزانية هيئة الأمم التى تتجاوز مع منظماتها الدولية ألوف الملايين من الدولارات .

وبدأت الدعوة للحكومة العالمية تقوى وتشتد مع اكتواء الشعوب بنيران الحرب ، وتضاءل الإيمان بفكرة الدولة القومية ، وحق كل دولة فى سيادة مطلقة لا تحدها سوى مشيئتها وإرادتها الخاصة ، واعتبرت هذه الفكرة فكرة عتيقة بالية ، وهى التى أدت إلى وقوع العالم فى كارثة الحرب العالمية الثانية ، ولما يمض على الحرب العالمية الأولى عشرون سنة .

وبدأت الدعوات تترى منذ المراحل الأولى للحرب ، إلى الاتحاد بين الدول على شتى الصور والأشكال .

وكان تشرشل هو البادىء بدعوة فرنسا إلى الاتحاد مع انجلترا فى دولة واحدة ، ليشد من عزمها ويقويها على الاستمرار فى الحرب . وقد جاء هذا العرض من ناحية تشرشل مفاجأة قوية لكل دعاة القومية الوطنية ، وهدماً لكل للفاهيم التى صاغوها حول عناصر القومية ، فلو أن فرنسا وانجلترا المختلفتين فى كل شىء ، لغة وتاريخاً ومصلحة ، أمكن أن تتحدا فى دولة واحدة ، فان تأليف الدولة العالمية الواحدة يصبح أهون وأيسر .

ولم يفلح عرض تشرشل الذى جاء متأخراً ، فى وقت كانت فرنسا فيه تتداعى تحت أقدام الغزو الألمانى ، وقد انهارت معنوية أبنائها إلى درجة لم تعرفها فى كل تاريخ حياتها . على أن هتلر زعيم ألمانيا ، تلقف الفكرة ، فلم يكد يفرغ من احتلال فرنسا ، حتى راح يعرض عليها مشروعاً أكثر جاذبية وهو وحدة أوربية شاملة تقوم على أساس التعاون الألمانى الفرنسى .

وعندما أبرمت الولايات المتحدة الأمريكية مع انجلترا ميثاق الأطلنطى ، كان يدور فى رأس زعماء الدولتين البحث عن وسيلة لتكوين اتحاد فيدرالى من الدول التى ستوقع الميثاق ، على أن تكون الحرية الديمقراطية هى الأساس لهذا الاتحاد. ووضعت الخطوط الأساسية لهذا الاتحاد المرتقب على أساس الرعوية الواحدة ، والقوة العسكرية المشتركة ، وزوال الحواجز الجمركية بين الوحدات السياسية المشتركة فى الاتحاد ، واتخاذ عملة واحدة .

وكان الرأى أن نجاح مثل هذا التحالف سيكون من شأنه أن يجذب إليه الدول الأخرى[1] .

خطر الحرب الذرية :

ولم تكد الولايات المتحدة الأمريكية تفجر قنبلة هيروشيما الذرية ، وأدرك الجميع عاقبة اختراع هذا السلاح الجهنمى الخطير ، حتى امتلأت قلوب البشر بالذعر والهلع ، قلوب الأصدقاء والحلفاء ، قبل الأعداء ، وبدأت الدعوات تترى بضرورة وضع هذا السلاح تحت سلطة حكومة عالمية ، وليس تحت سلطان دولة قومية واحدة تسخره لأغراضها لإرهاب باقى البشر .

وسرت فكرة الحكومة العالمية فى أمريكا وانجلترا ، وغرب أوربا بصفة عامة . ولم تعد الفكرة وقفاً على الفلاسفة والمفكرين والقادة ، بل تعدتهم إلى الجماهير العريضة[2] .

فتألفت الجمعيات والهيئات التى تدعو إليها ، وكان عدد كبير من أعضاء مجالس النواب فى مقدمة الداعين إلى هذه الحكومة ، كما انعقدت مؤتمرات من أساتذة القانون فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ووضعت جامعة شيكاغو مشروع دستور مفصل للحكومة العالمية ليكون أساساً للبحث والمناقشة .

— ٢ —

ميثاق هيئة الأمم :

ولكن الحرب لم تكد تضع أوزارها ، ويزول الخطر الذى يوحد بين

---

(١) « دائرة المعارف البريطانية » .

(٢) بلغ عدد أعضاء جمعية « الحكومة العالمية الفيدرالية » التى تألفت فى لوكسمبورج عام ١٩٤٦ أكثر من ٦٧ ألف عضو بعد ثلاثة أعوام من إنشائها (دائرة المعارف البريطانية) .

أفكار البشر ، حتى طفت على السطح غرائز الأنانية وإرادة التسلط عند الدول الكبرى ، فاستبعدت فكرة الحكومة العالمية التى تعلو سيادتها بقية الدول ، ورؤى الأخذ بفكرة المنظمة الدولية التى تحتفظ فيها كل دولة بسيادتها الكاملة المطلقة ، على أن تسلح هذه الدولة بما كان ينقص منظمة عصبة الأمم ، فتكون لها قدرة حقيقية على حفظ السلام وردع العدوان ، وذلك عن طريق إصلاح ما كان يشوب ميثاق عصبة الأمم من عيوب .

فإذا كانت عصبة الأمم قد حرمت من عضوية الولايات المتحدة الأمريكية ، فان هيئة الأمم الجديدة ستقوم على أرض الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، ليكون الشعب الأمريكى لا حكومته فقط ، أكبر نصير ودعامة لهذه المنظمة العالمية الجديدة .

وإذا كانت عصبة الأمم فى جوهرها قد ظلت مؤسسة أوربية فى الدرجة الأولى ، فإن طابع هيئة الأمم سيكون عالمياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، وذلك عن طريق توزيع المقاعد الخمسة الدائمة على القارات . فإذا كانت إنجلترا وفرنسا يقعان فى أوربا ، فان الولايات المتحدة الأمريكية تمثل العالم الجديد ، والصين تمثل قارة آسيا ، والاتحاد السوفييتى يمثل قارتى أوربا وآسيا معاً ، على أن تكون هذه الدول الخمس مسئولة بالتضامن عن حفظ السلام العالمى وصيانته .

وإذا كان شرط الإجماع لإمكان صدور قرار من عصبة الأمم ، قد عاق نشاطها ، فقد اكتفى فى الميثاق الجديد بوجوب توفر الأغلبية .

وإذا كانت عصبة الأمم لم تكن تملك قوة لتنفيذ قراراتها ، فقد خول مجلس الأمن الجديد ، كل الصلاحيات اللازمة لإقرار السلام ، بما فى ذلك إعداد قوة مسلحة تكون تحت تصرفه حيث نصت المادة ٤٧ بإنشاء هيئة أركان حرب دائمة تحت تصرف مجلس الأمن تكون مهمتها وضع الخطط اللازمة لاستخدام القوة المسلحة فى الأحوال التى تستدعى ذلك .

وعلى هذه الأسس الجديدة تم التوقيع على ميثاق هيئة الأمم فى ٢٦ يونيو

سنة ١٩٤٥ بمدينة سان فرانسسكو ، وسط تفاؤل الإنسانية باستقبال عهد جديد ، تزول منه الحروب نهائياً باعتبارها كبرى الجرائم التى يمكن أن يرتكبها الإنسان .

وقد عبر ميثاق هيئة الأمم فى ديباجته عن هذا الأمل فى عبارات قوية مدوية :

نحن شعوب الأمم المتحدة

وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، التى جلبت على الإنسانية مرتين خلال جيل واحد ، أحزاناً يعجز عنها الوصف . وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للانسان وبكرامة الفرد وقدره ، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية .

وأن نبين الأحوال التى يمكن فى ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولى .

وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدماً ، وأن نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح . وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا :

أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معاً فى سلام وحسن جوار .

وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى ، وأن نكفل بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ، ألا تستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة وأن تستخدم الأداة الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعاً » .

وتمضى بعد ذلك مواد الميثاق البالغ عددها ١١١ مادة ، تفصل هذا الذى أجملته ديباجة الميثاق .

تشكيلات الأمم المتحدة :

وعلى خلاف عصبة الأمم ، التى لم تكن تتألف إلا من ثلاث هيئات

أساسية ، فإن هيئة الأمم قد أصبحت تتألف من ست هيئات رئيسية :

١ — الجمعية العامة .

٢ — مجلس الأمن .

٣ — المجلس الاقتصادى الاجتماعى .

٤ — مجلس الوصاية .

٥ — محكمة العدل الدولية .

٦ — الأمانة العامة (أى السكرتارية) .

الجمعية العمومية :

فأما الجمعية العمومية فتتألف من جميع الدول التى اشتركت فى تأسيس هيئة الأمم وعددها ٥٢ دولة ، بالإضافة إلى كل دولة أخرى محبة للسلام ، وترغب فى الانضمام للجمعية على أن يكون لكل دولة كبرت أوصغرت صوت واحد ، وأن تتعهد بقبول الالتزامات التى يفرضها عليها الميثاق .

وللجمعية العمومية أن تناقش أية مسألة أو أمر يدخل فى نطاق الميثاق وبصفة خاصة كل ما يتعلق بحفظ السلام والأمن الدوليين ، وإنماء التعاون الدولى فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية والثقافية ، وتقدم توصياتها بصدد هذه المسائل إلى مجلس الأمن أو إلى الدول صاحبة الشأن ، أو لكليهما معاً .

وتصدر الجمعية قراراتها فى المسائل الهامة بأغلبية ثلثى الأعضاء الحاضرين المشتركين فى التصويت ، أما بالنسبة لمسائل الاجراءات فتكفى أغلبية الأعضاء الحاضرين لإقرارها .

مجلس الأمن :

أما مجلس الأمن فقد حددت اختصاصاته المادة ٢٤ من الميثاق بقولها :

« رغبة فى أن يكون العمل الذى تقوم به « الأمم المتحدة » سريعاً فعالا ، فإن أعضاء هذه الهيئة يعهدون إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية فى حفظ السلام والأمن الدوليين ، ويوافقون على أن هذا المجلس يعمل نيابة عنهم فى قيامه بواجباته التى تفرضها عليه هذه التبعات » .

ويتألف مجلس الأمن من أحد عشر عضواً ، خمسة منهم يحتلون مقاعدهم بصفة دائمة وهم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى وانجلترا وفرنسا والصين ، أما الستة الباقون فيختارون بمعرفة الجمعية العمومية كل سنتين (١) ، ومجلس الأمن مفوض عن الجمعية العمومية لاتخاذ أى أجراء يراه ضروريا لإقرار الأمن والسلام ، فهو بمثابة القوة التنفيذية للهيئة ، وهو يستخدم الوسائل السلمية لحل المنازعات الدولية ، كالوساطة والتحكيم وعرض النزاع على محكمة العدل الدولية ، إذا كان النزاع قانونياً ، فإذا أخفقت هذه الوسائل الودية ، وأبت إحدى الدول إلا أن تمضى فى أعمالها العدوانية ، فللمجلس أن يتخذ ما يراه من التدابير لإيقاف العدوان ، مبتدئاً بتكليف الدول الأعضاء أن تقطع علاقتها السياسية معها ، ثم مقاطعتها اقتصادياً ، فإذا لم تف هذه التدابير بالغرض فلمجلس الأمن أن يستخدم من القوات البرية والبحرية والجوية ما يراه لازماً لإعادة السلام .

وقد تعهد جميع أعضاء هيئة الأمم أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن ، ما يطلبه منهم من قوات مسلحة ، أو مساعدات مختلفة ، أو تسهيلات ضرورية لصيانة الأمن والنظام .

المجلس الاقتصادى والاجتماعى :

ويتألف المجلس الاقتصادى والاجتماعى من ثمانية عشر عضواً من الأمم

---

(١) زيد هذا العدد بموجب تعديل أخير لميثاق الهيئة .

المتحدة تنتخبهم الجمعية العمومية كل ثلاث سنوات ، ويضطلع هذا المجلس بتحقيق الأغراض التالية :

١ — تحقيق مستوى أعلى للمعيشة ، وتوفير أسباب الاستخدام المتصل بكل فرد ، والنهوض بعوامل التطور والتقدم الاقتصادى والاجتماعى .

٢ — تيسير الحلول للمشاكل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والصحية وما يتصل بها ، وتعزيز التعاون الدولى فى أمور الثقافة والتعليم .

٣ — أن يشيع فى العالم احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء ، ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا .

هذا وقد عهد إلى هذا المجلس بإنشاء ما يسمى بالوكالات المتخصصة والإشراف على القائم منها ، وذلك لتحقيق الأغراض التى يسعى لتحقيقها .

مجلس الوصاية الدولى :

ويتألف من الأعضاء الذين يتولون إدارة أقاليم مشمولة بالوصاية ، على أن تنتخب الجمعية العمومية عدداً مساوياً ، ممن لا يديرون أقاليم مشمولة بالوصاية وذلك بقصد :

١ — توطيد السلم والأمن الدولى .

٢ — العمل على ترقية أهالى الأقاليم المشمولة بالوصاية فى أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم واطراد تقدمها نحو الحكم الذاتى أو الاستقلال حسبما يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه ، ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التى تعرب عنها بملء حريتها .

٣ — التشجيع على احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين .

٣ — كفالة المساواة فى المعاملة فى الأمور الاجتماعية والاقتصادية والتجارية لجميع أعضاء (الأمم المتحدة) وأهاليها .

وقد أريد بهذا النظام إشراف هيئة الأمم على شئون المستعمرات والشعوب والجماعات التى تحكمها الدول الكبرى أو تعتبرها من الممتلكات ، وذلك بقصد تحريرها وتقريب يوم استقلالها بشئونها .

محكمة العدل الدولية :

وإذا كان إنشاء محكمة العدل الدولية هو من أنجح الأعمال التى قامت بها عصبة الأمم ، فقد ظل الالتجاء إلى هذه المحكمة اختيارياً ، فجاء ميثاق هيئة الأمم يحتم فى المادة (٩٣) على جميع الدول أن يكونوا طرفا فى النظام الأساسى لمحكمة العدل الدولية ، وأن ينزلوا على أحكامها فى أى قضية يكونون طرفاً فيها ، فإذا حدث أن امتنع أحد الطرفين عن تنفيذ حكم المحكمة ، فإن للطرف الآخر أن يلتجىء إلى مجلس الأمن طالباً منه اتخاذ ما يراه لازماً من الإجراءات لتنفيذ الحكم (م ٩٤) .

ومعنى هذا أن محكمة العدل الدولية قد أصبحت محكمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة فى الاصطلاح القضائى ، وقد أصبح لأحكامها القوة التنفيذية .

كما جعل من اختصاص محكمة العدل الدولية أن تقدم كل ما يطلبه منها مجلس الأمن أو الجمعية العمومية من فتاوى قانونية .

الأمين العام :

والأمين العام هو الموظف الإدارى الأكبر فى الهيئة ، وتعينه الجمعية العمومية بناء على توصية مجلس الأمن (م ٩٧) وتقوم وظيفته على حضور كل اجتماعات الجمعية العمومية ومجلس توصية مجلس الأمن ، والمجلس الاقتصادى

الاجتماعى ، ومجلس الوصاية . ويكون من واجبه أن ينبه مجلس الأمن إلى أى مسألة يرى أنها قد تهدد السلام ، كما يقدم للجمعية العامة تقريراً سنوياً بأعمال الهيئة يوضح به ما أنجز من مهام وما لم ينجز ، والمنازعات التى لم تفض والمشاكل التى تعترض سير العمل فى الهيئة ، والاقتراحات المرغوب فيها لزيادة وتنمية التعاون الدولى . ويعاون الأمين العام فى الاضطلاع بمسئوليته حشد من الموظفين الذين يتعهدون بالولاء للهيئة . ويحظر على الأعضاء أن يؤثروا عليهم عند اضطلاعهم بمسئولياتهم .

ميثاق هيئة الأمم فى الميزان :

إن هذا العرض السريع لميثاق هيئة الأمم يكشف لنا عن الشوط الكبير الذى قطعته البشرية خلال هذه الخمس والعشرين سنة التى تخللت وضع ميثاق عصبة الأمم وهذا الميثاق ؛ فالجمعية العمومية لم تعد مجرد ندوة لتبادل الخطب والمهاترات وإصدار النصائح والتوصيات ، بل إنها تطورت بموجب نصوص الميثاق ، وما أصدرته من قرارات لتوسيع سلطانها ، فأصبحت بمثابة برلمان حقيقى يصدر تعلياته إلى مجلس الأمن والأمين العام[1] وإلى الأعضاء مباشرة .

كما أصبح مجلس الأمن يملك بدوره السلطة التنفيذية التى تمكن من وضع أى قرار تتخذه هيئة الأمم ، موضع التنفيذ . كما أصبحت محكمة العدل الدولية مستكملة للقوة اللازمة لتنفيذ أحكامها .

---

(١) يعتبر أخطر قرار اتخذته الجمعية العمومية ليزيد من سلطانها ، هو القرار الصادر فى دور الانعقاد الخامس بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٠ والذى إشتهر باسم « الاتحاد من أجل السلام » وينص على أنه « إذا أخفق مجلس الأمن بسبب عدم توافر الإجماع بين أعضائه الدائمين فى القيام بمسئولياته الأساسية الخاصة بحفظ الأمن الدولى فى الحالات التى يبدو فيها تهديد للسلم أو إخلال به ، أو عمل عدوانى ، فإن الجمعية العمومية تبحث الموضوع فوراً ، لإصدار التوصيات اللازمة للأعضاء لاتخاذ التدابير الجماعية المناسبة ، بما فى ذلك استخدام القوات المسلحة عند اللزوم للمحافظة على السلم وإعادته إلى نصابه » محمود متولى — الأمم المتحدة والسلام العالمى — ص ٥٠ .

هيئة الأمم فى مهب الريح :

ومع ذلك ، فقد كشف تطبيق الميثاق خلال العشرين سنة الماضية ، عن أن علة العلل التى حالت وستظل تحول دون تحقق آمال البشر فى عالم يسوده السلام فى ظل العدل والقانون ، ترجع إلى أنانية الدول الكبرى واستعلائها بما تملك من أسلحة ، ورفضها وضع أى قيد على حريتها فى التصرف ، بدعوى أن فى ذلك مساساً بسيادتها من شأنه أن يعرض بقاءها للخطر . ولذلك فإن هيئة الأمم لا تزال بعد عشرين سنة من إنشائها ، تقف فى مهب الريح ، مهددة بخطر الزوال والانحلال بمجرد انسحاب إحدى الدول الكبرى منها وإعلانها عدم التقيد بقراراتها .

أين نجحت هيئة الأمم وأين أخفقت :

فإذا تركنا المستقبل جانباً ونظرنا إلى ماضى هيئة الأمم لنقوّم أعمالها ، ما نجحت فيه وما أخفقت ، قابلنا على الفور نجاح هيئة الأمم فى التقدم خطوات نحو إرساء فكرة الحكومة العالمية ، فقد استطاعت لأول مرة فى التاريخ أن تنشىء بوليساً دولياً ليضطلع ببعض المهام اللازمة لحفظ السلام باسم العائلة الدولية كلها ، كما استطاعت أن تؤلف جيشاً دولياً أكثر من مرة ليحارب تحت علم الأمم المتحدة .

واستطاعت أن تحل بعض المشاكل الدولية بنجاح رائع [1] وأخفقت

---

(١) من القضايا التى نجحت هيئة الأمم فى حلها بنجاح ، حمل الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٦ على الجلاء عن إيران ، وتمكين إندونيسيا من الحصول على استقلالها الكامل نهائياً عام ١٩٤٩ . ووصلت إلى قمة نجاحها خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ عندما أصدرت سلسلة من القرارات التى شجبت فيها العدوان الانجليزى الفرنسى الإسرائيلى ، وظلت تواصل ضغطها حتى تم الجلاء بالفعل .

في بعضها إخفاقاً مشيناً[1] ، بينما لا تزال تواجه في هذه الأيام عديداً من المشكلات التي لم تجد لها حلا والتي تهددها بأشد الأخطار ، وعلى رأسها عدم قبول الصين في عضوية الهيئة ، وهذه الحرب الفيتنامية ، التي تنذر بالتطور إلى حرب عالمية .

القضاء على الاستعمار :

على أن هناك نجاحاً سيظل مقترناً في التاريخ الإنساني ، بميثاق هيئة الأمم ونشاطها ، وذلك هو تصفية الاستعمار في ظلها وطبقاً لنصوص ميثاقها . وحقاً إن تداعي الاستعمار يعود في الدرجة الأولى ، إلى تطور الظروف الاقتصادية ، ونزول الدول الاستعمارية عن الصدارة الدولية ، ولكن الذي لا شك فيه، أن وجود هيئة الأمم قد عجل بتحرير الدول المستعمرة ورسم لذلك طريقا مهيئاً ومعداً . وسيظل قرار الجمعية العمومية ، الصادر في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٠ درة في تاريخ هذه المنظمة حيث ينص على أنه :

« ١ — يجب اتخاذ الخطوات العاجلة لنقل جميع السلطات والسيادة إلى شعوب البلاد المستعمرة ، بدون أي شرط أو تحفظ ، تحقيقاً لإرادتهم الحرة ومشيئتهم التي أعربوا عنها بدون تمييز بين الأجناس أو اللون أو المعتقدات » .

ولم تقتصر الجمعية العمومية على إصدار هذا القرار ، بل أعقبته بتأليف لجنة دولية لتتابع تنفيذه .

وسوف يسجل التاريخ أنه في السنوات الست أو السبع التي تلت عام ١٩٥٧ ، حصلت ٣٢ مستعمرة أسيوية وأفريقية على استقلالها وانضمت إلى عضوية هيئة الأمم على قدم المساواة مع بقية الدول . وكان من نتيجة استقلال

---

(١) من القضايا التي أخفقت هيئة الأمم في حلها أو التي لا تزال قائمة بغير حل ، مأساة فلسطين وتقسيمها ، واستمرار تشرد مليون لاجيء من سكانها العرب . ومشكلة كشمير بين الهند وباكستان ، ومشكلة الكونغو ، وجنوب أفريقيا . . . الخ .

هذا العدد الضخم من المستعمرات ، أن ارتفع عدد الدول الأعضاء من ٥٢ دولة عام ١٩٤٥ إلى ١١٦ دولة عام ١٩٦٥ وأغلبية هذه الزيادة فى أعضاء الجمعية من دول قارتى آسيا وأفريقيا .

جهود هيئة الأمم فى الميادين الاجتماعية والثقافية :

ولم يكن ميدان مكافحة الاستعمار فى الحقل السياسى ، هو الميدان الوحيد الذى أحرزت فيه هيئة الأمم نجاحاً محققاً ، فمن الإنصاف أن يسجل لها كذلك نجاحها فى ميدان التعاون الاجتماعى والاقتصادى بين الشعوب وخاصة النامية منها . فقد أنشأت هيئة الأمم ما أطلق عليه اسم الوكالات العالمية المتخصصة ، والتى أصبح نشاطها يشمل كل ميادين النشاط الإنسانى ، ابتداء من تنظيم عمليات النقد والصرافة ، بتحديد نسب ثابتة بين مختلف العملات الدولية ، ومساعدة أى دولة من الدول الأعضاء يصاب ميزان مدفوعاتها بعجز ، إذ يبادر صندوق النقد الدولى Fund بإقراض هذه الدولة ما تحتاجه من عملات أجنبية لسد ما تعانيه من عجز(١) ، حتى عمليات الإنشاء والتعمير والتنمية ، وإنشاء المشروعات العمرانية الضخمة فى البلاد التى تحتاجها ، كمد السكك الحديدية ، وتعبيد الطرق وإنشاء السدود الجبارة ، وخزانات المياه للتحكم فى مياه الأنهار وتوليد الكهرباء ، وإصلاح الملايين من الأراضى الزراعية ، وغير ذلك من المشروعات العامة(٢) . كما أنشأت المنظمات لتنسيق التعاون الدولى فى ميادين المواصلات بأنواعها

---

(١) يبلغ رأس مال صندوق النقد الدولى (Fund) ٢٦ ألف مليون دولار .

(٢) المنظمات الدولية التى تقوم بعمليات الإنشاء والتعمير تحت إشراف هيئة الأمم هى :
— البنك الدولى للانشاء والتعمير World Bank .
— منظمة المساعدة الدولية للتنمية IDA
— منظمة التمويل الدولى IFC

وقد بلغ مجموع ما أقرضته هذه المؤسسات المختلفة حتى عام ١٩٦٤ مبلغ ستة آلاف مليون دولار .

والطيران واللاسلكي والبحرية والأرصاد الجوية والسياحة[1] .

وفي ميدان الصحة العامة ، أنشأت هيئة الأمم الوكالات التي تخصص كل منها في أحد الأمراض المتوطنة في أقطار العالم المختلفة ، والتي جندت إحداها إبان حملتها لمحاربة الملاريا ، جيشاً من ١٩٠٫٠٠٠ طبيب ومهندس وباحث ومساعد ، فاستطاعت أن تنجح نجاحا منقطع النظير في استئصال شأفة هذا المرض الخطير في بعض المناطق ، كما حاصرت المرض وضيقت عليه الخناق في مناطق أخرى ، حتى هبط عدد المرضى بالملاريا من ٣٥٠ مليوناً عام ١٩٥٥ إلى ١٤٠ مليوناً عام ١٩٦٤ وتعتبر هذه الحملة ضد الملاريا ، أول جهد شهدته البشرية من نوعه على هذا النطاق الواسع .

ولم تقف حملة مقاومة الأمراض على الملاريا ، بل شملت الحرب ضد السل كذلك ، حتى بلغ عدد من حصنتهم المنظمة الصحية ضد مرض السل أكثر من ١٥٠ مليون شخص . وذلك كله بالإضافة إلى تموين عشرات الملايين من الأطفال في أرجاء العالم ، باللبن والأطعمة والملابس والرعاية الطبية ، وقد كان الأثر المباشر لهذه الجهود التي بذلتها هيئة الأمم هذا التزايد الكبير في عدد

---

(١) المنظمات الدولية التي تقوم على هذه المناشط هي :

— منظمة الطيران المدني الدولية ICAO

— اتحاد البريد العالمي UPU

— الاتحاد الدولي للمواصلات ITU

وهي المنظمة التي تختص بوضع القواعد والأنظمة الدولية للراديو والتلغراف والتليفون وتسعى في الدرجة الأولى لإنقاص تكاليف هذه الخدمات .

— منظمة الأرصاد الجوية WMO

وهي التي تقوم بتحسين وتوحيد وسائل الرصد الجوي ، وتنسق بين مختلف مراصد العالم ، لصالح الطيران والزراعة .

— المنظمة البحرية الدولية IMCO

وتعمل على تيسير الملاحة الدولية وإزالة كل ما يعترضها من عقبات وصعوبات سياسية أو إدارية أو فنية .

السكان نتيجة تحسن الصحة العامة وتناقص الوفيات مما تحدثنا عنه فى الفصل السابق[١] .

أما منظمة اليونسكو UNESCO التى تخصصت فى الشئون العلميـة والثقافية ، فقد أخذت على عاتقها مكافحة الأمية فى العالم ، ووضعت برنامجاً مفصلا ، ورأت قبل أن تشرع فى تطبيقه على أوسع نطاق ، أن تقوم بسلسلة من التجارب لاختيار أنجع الطرق والوسائل للقضاء على الأمية وتحرير البشرية منها . وذلك كله علاوة على إنشـاء مئات المعاهد التدريبية ومعامل الأبحاث لمعاونة الشعوب النامية على حل مشاكلها ، وتعليم عمالها وفلاحيها وسائل جديدة لمضاعفة الإنتاج[٢] .

ولقد تحدثنا فى الفصل السابق عن جهود وخطط هيئة الأمم لمضاعفة الدخل القومى فى البلاد النامية ، وما رصدته لهذا الغرض من ميزانيات تقدر بألوف الملايين من الدولارات ، وما تضعه من خطط لتنمية التجارة الدولية ، وتبذل الجهود فى الوقت الحاضر لإنشاء منظمة دولية لتصون حقوق كافة الأمم

---

(١) المنظمات الدولية التى تشرف على تحسين الصحة العامة ورعاية الأطفال وتوفير الأغذية هى :

منظمة الصحة العالمية WHO وتهدف إلى تحسين مستوى الصحة العالمية .

— منظمة الأغذية والزراعة FAO

وتهدف الى رفع مستوى التغذية وتحسين مستوى المعيشة ، عن طريق تحسين وسائل إنتاج ، وتوزيع الأطعمة والأغذية ، وقد قامت بشن ما أطلقت عليه اسم « حملة التحرر من الجوع » والتى تبرعت لها شركات السماد بما قيمته مائة مليون دولار من الأسمدة لمعاونة الفلاحين على زيادة إنتاج أرضهم .

(٢) المنظمات العلمية والفنية التى تهدف إلى خدمة البشرية هى :

— منظمة التربية والعلم والثقافة UNESCO

— منظمة العمل الدولية ILO

— الوكالة الدولية للطاقات الذرية (IAEA) وتهدف إلى تطوير الأبحاث الخاصة باستخدام الذرة فى الأغراض السلمية .

فى التبادل التجارى ، فلا تفتات الدول الصناعية الكبرى ، على الدول الزراعية التى تنتج المواد الأولية ، وذلك بتقرير أثمان مجزية لهذه المواد الأولية[1] .

ولقد كان من أثر جهود هيئة الأمم فى هذا السبيل أن حفزت الدول الكبرى كما رأينا فى الفصل السابق على مد يد المعونة لسائر شعوب العالم فيما أصبح يطلق عليه اسم « برنامج المساعدة الخارجية » حيث تخصص كل دولة جزءاً من دخلها القومى لمساعدة بقية الشعوب .

الوجه الآخر من الصورة أو الفشل فى نزع السلاح :

على أننا إذا كنا قد أفضنا فى عرض هذه الصورة المشرقة لما تقوم به هيئة الأمم ، سواء فى ميدان مكافحة الاستعمار أو الشئون الاقتصادية والاجتماعية فليس ذلك إلا تمشياً منا مع روح التفاؤل التى تملأ جوانحنا ، ولكى ندلل على إمكان نجاح العمل الجماعى لصالح الأسرة الإنسانية فى مجموعها ، ولكن أمانة البحث وتقويم الأمر الواقع يحتم علينا أن نعرض الوجه الآخر لهذه الصورة ، والذى جعلنا نقرر فى مطلع هذا البحث أن هيئة الأمم لا تزال فى مهب الريح ، فمن الحقائق أن الحروب الإقليمية لم تنقطع خلال العشرين سنة التى عاشتها هيئة الأمم حتى الآن ، بل لقد كانت هى نفسها طرفا فى حروب لم تستطع أن تصل بها إلى نهاية ناجحة ، كالحرب الكورية التى لا تزال حتى الآن تقسم كوريا إلى دولتين ، وذلك إلى جوار عشرات من المشاكل التى تتحدى هيئة الأمم ، والتى لا تملك هيئة الأمم إلا أن تؤجل بحثها أو مناقشتها عاماً بعد آخر ، عجزاً منها عن مواجهتها وإيجاد حل لها .

---

(١) سوف يطلق على المنظمة عند إنشائها اسم « ITO » ويمهد لها فى الوقت الحاضر اتفاقية الجات (GATT) الخاصة بالرسوم والتعريفات الجمركية .

الفشل فى نزع السلاح :

على أن فشل هيئة الأمم لا يتجلى فى أمر ، كما يتجلى فى عجزها عن حل مشكلة نزع السلاح ، التى تتفاقم يوماً بعد يوم منذرة بأشد الأخطار . إنه لا خلاف على أن مشكلة نزع السلاح هى عقدة العقد ، وهى الخطر الأكبر المعلق على رقبة العالم ، وقد رأينا أن عصبة الأمم عندما فشلت فى حل هذه المشكلة نهائياً عام ١٩٣٣ كان ذلك إيذاناً بقرب نهايتها ، ولم تمض ست سنوات حتى كانت نيران الحرب تندلع من جديد . والخوف الآن هو أن تتكرر هذه المأساة ، بعد أن طالت اجتماعات نزع السلاح عاماً بعد آخر ، بل وهى تتعثر وتزداد تعقيداً على مر الأيام ، وكلما ومض بصيص من نور النجاح ، لا يلبث أن يخبو ليعود الموقف أشد قتاماً مما بدأ .

لقد كان فى تقدير واضعى ميثاق هيئة الأمم ، أن يكون إيقاف الاستزادة من الأسلحة ، تمهيداً لتخفيضها ثم نزعها فى نهاية الأمر ، هو المهمة الأولى التى ستواجه المنظمة العالمية ، ولذلك فقد نصوا فى المادة ٢٦ من الميثاق على أنه :

« رغبة فى إقامة السلم والأمن الدوليين وتوطيدهما بأقل تحويل لموارد العالم الإنسانية والاقتصادية إلى ناحية التسليح ، يكون مجلس الأمن مسئولاً بمساعدة لجنة أركان الحرب المشار إليها فى المادة ٤٧ ، عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح » .

وتحدثت المادة ٤٧ المشار إليها بأن « مهمة لجنة أركان الحرب هى تنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع » .

ولكن حتى عام ١٩٥٢ أى بعد انقضاء سبع سنوات على قيام هيئة الأمم ، لم يكن مجلس الأمن قد خطا أى خطوة فى هذا السبيل ، ولذلك فقد تصدت

الجمعية العمومية لهذه القضية ، وشكلت لجنة لنزع السلاح فى يناير عام ١٩٥٢ « لتنظر فى موضوع الأسلحة الذرية ، والأسلحة التقليدية وتضع مقترحات يتضمنها مشروع معاهدة لتنظيم وتحديد وعمل تخفيض متوازن فى جميع القوات المسلحة ، وأسلحتها واستبعاد الأسلحة الخطيرة للتدمير الشامل ، ولوضع رقابة دولية فعالة على الطاقات الذرية ، لضمان تنفيذ حظر الأسلحة الذرية ولاستخدام الطاقة الذرية فى أغراض السلم فقط »(١) .

وقد انقضى الآن على صدور هذا القرار أربعة عشر عاماً ، دون أن يتحقق هذا الأمل ، ولسنا نريد أن نسهب فى ذكر الأدوار التى اجتازتها الجهود التى بذلت للتوصل إلى اتفاق دولى ، فذلك يخرجنا عن موضوعنا وحسبنا أن نسجل ، أن علة العلل فى فشل الجهود التى بذلت فى هذا السبيل حتى الآن ، هى فقدان الثقة بين الدول الكبرى ، وتمسك كل منها بحقها الكامل فى صنع أسلحتها بلا قيد أو شرط . ولقد وصل الأمر بين الدول الكبرى إلى حد أنه إذا تقدمت إحداها باقتراح رفضته الثانية على الفور . وإذا عاد أحد الأطراف فقبل ما سبق له أن رفضه ، سحب الطرف الآخر عرضه . فقد حدث أن تقدمت الدول الغربية (الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا) بمبادىء ستة طالبوا بوجوب اتخاذها أساساً لعقد أى اتفاق لنزع السلاح ، أما هذه المبادىء فهى :

أولا — ليس الغرض من نزع السلاح تنظيم الحرب ، بل الحيلولة دون وقوعها ، وذلك بجعل الحرب غير مستطاعة من الناحية العملية ، كما هى محظورة دستورياً بموجب أحكام الميثاق ، كوسيلة لتسوية الخلافات بين الأمم .

---

(١) فيليب بيكر — سباق التسلح — ص ٢٦ .

ثانياً — تحقيقاً لهذا الغرض ، يجب أن تتعاون جميع دول العالم على إيجاد عالم مفتوح وغير مسلح أساساً :

(ا) تكون فيه القوات المسلحة ، والأسلحة مخفضة إلى حد وبصورة لا تجعل أية دولة فى حالة من الاستعداد المسلح لتشن حرباً .

(ب) ولا تجد فيه أية دولة نفسها فى مركز يسمح لها بعمل استعدادات لحرب دون أن تقف الدولة الأخرى على هذه الاستعدادات ، قبل قيام الدولة المعتزمة الاعتداء بشن حرب بوقت كبير .

ثالثاً — توصلا لتحقيق هذا الهدف والإبقاء عليه يجب توقيع اتفاقات دولية ، تقوم بمقتضاها جميع الدول بتخفيض قواتها المسلحة وتقييد أسلحتها فى الأنواع وبالكميات الضرورية للأمن الداخلى ، وللوفاء بالتزامات الدول فى المحافظة على السلام والأمن طبقاً لميثاق الأمم المتحدة .

رابعاً — يجب أن تضمن هذه الاتفاقات عن طريق وضع برنامج شامل ومنسق :

أولا — تحقيق تخفيض مطرد للقوات المسلحة والأسلحة المسموح بها إلى مستويات دنيا ثابتة تقل بدرجة كبيرة عن المستويات الحالية ، على أن تكون متوازنة فى خلال إجراء التخفيض ، وتمنع أى اختلال للقوى يؤلف خطراً على السلم .

ثانياً — استبعاد جميع الأجهزة المعدة للدمار الشامل .

خامساً — يجب أن توفر هذه الاتفاقات الدولية ضمانات لتنفيذ جميع نواحى برنامج نزع السلاح وبخاصة أن يكون استبعاد الأسلحة الذرية مرتباً على تنظيم جدى لمراقبة دولية على مصادر الطاقة الذرية لضمان عدم استعمال هذه الطاقة فى غير أغراض السلم .

سادساً — يجب أن تحقق هـذه الاتفاقات الدولية نظاماً جدياً لرقابة دائمة للكشف عن كافة القوات المسلحة ، والأسلحة ومراجعتها بما فى ذلك الأسلحة الذرية ، وذلك لتحقيق قيـام عالم مفتوح يكون نزع السلاح فيه تاماً وجدياً .

وشفعت الدول الغربية هذه المبادىء باقتراح مفصل لعدد القوات التى تحتفظ بهـا كل من الدول الخمس العظمى من الرجال فى الجيش والبحرية والطيران والشرطة المسلحة والتشكيلات شبه العسكرية ، وقد حددت هذه القوات ما بين مليون رجل ومليـون ونصف لـكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والصين ، وما بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ ألف رجل لـكل من فرنسا وانجلترا ، وعلى أن تحدد نسبة القوات المسلحة للدول الأخرى بما لا يزيد عن ١٪ من عدد السكان[١] .

وقد ظل الاتحاد السوفييتى ، يرفض الأخذ بهذه المبادىء الستة وخاصة ما تعلق منها بمـا أسمى « حق التفتيش » حتى كان عام ١٩٥٥ فإذا بالاتحاد السوفييتى يقبل هذه المبادىء تحت ضغط الرأى العام العالمى ، فما كان من الدول الغربية إلا أن أعلنت سحبها لهذه المبادىء وعدم تمسكها بها وعدم ارتباطها بأى قول قالته فى هذا الصدد[٢] .

وفوجىء العالم بهذا الانقلاب ، واندفعت الدول من جديد فى السباق، وخاصة فى إنتاج القنابل الذرية ، والتى لم يعد إنتاجها وقفاً على الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى أو انجلترا ، بل اشـتركت فرنسا أولا ثم الصين أخيراً فى عملية الإنتاج . والرأى الآن على أنه لن تمضى عشر سنوات من الآن ،

---

(١) فيليب بيكر ، سباق التسلح ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

حتى يتجاوز عدد الدول القادرة على إنتاج القنبلة الذرية عشر دول ، وخاصة بعد أن بدأت تكاليف إنتاجها تقل . ولسنا نعود هنا إلى مناقشة مصير العالم عندما تستعمل هذه القنابل ، فقد شرحنا ذلك بما فيه الكفاية فى الفصل السادس فليرجع إليه القارىء .

والمهم أن هيئة الأمم بعد عشرين سنة من إنشائها لا تزال عاجزة عن وقف سباق التسلح كسابقتها عصبة الأمم(١) ، وما زال الالتجاء إلى قوة السلاح هو وسيلة الدول العظمى لفرض مشيئتها ، كما هو الشأن بالنسبة لهذه الحرب العدوانية التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية فى فيتنام ، والتى تهدد فضلا عن إفناء شعب كريم ، باحتدام نار عالمية جديدة .

الحكومة العالمية هى الحل :

ويتزايد كل يوم عدد الذين يقولون إنه لن يكون باستطاعة أى منظمة دولية تحتفظ فيها كل دولة بسيادتها المطلقة ، التوصل إلى اتفاق من أى نوع كان على نزع السلاح ، إذ سيظل فقدان الثقة حائلا يحول دون هذا الاتفاق، ولذلك فقد حانت الساعة ، لكى تتخلى الدول عن مبدأ السيادة المطلق ، لكى يكون من المستطاع حل هذه المشكلة .

إن المجتمع الإنسانى فى أبسط صوره وأشكاله لا يمكن أن يقوم إلا على أساس نزول كل عضو من أعضائه عن جزء من حريته فى التصرف ، ويستحيل عقلا قيام مجتمع إنسانى ، يتصرف فيه كل إنسان كما يحب ويختار غير متقيد بحقوق الآخرين .

---

(١) الخطوة الوحيدة التى حققتها هيئة الأمم ، هى الاتفاق بين الاتحاد السوفيتى وانجلترا والولايات المتحدة على حظر التجارب الذرية فى الهواء والماء . وقد ضربت فرنسا والصين عرض الحائط بهذا الاتفاق فأجرت كل منهما تجاربها النووية .

وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الجماعات والدول ، فما دام الإجماع قد بات منعقـداً على أن البشرية فى خطر ، وما دام الجميع أصبحوا راغبين فى إيجاد حل لهذه المشكلة ، فليس أمامهم سوى النزول عن هذا الحق المطلق فى السيادة ، لسلطة عالية عليا تعلو جميع الدول ، يكون لهـا وحدها حق الاحتفاظ بقوة مسلحة ، تقوم بعمل البوليس الدولى لإقرار السلام بين مختلف دول العالم وشعوبه ، وفض كل ما ينشأ من منازعات بالطريق القانونى ، أى عن طريق طرحها على محكمة العدل الدولية ، وعلى أن تنفذ السـلطة المركزية ما تقضى به المحـكمة بالقوة الجبرية إذا لزم الأمر .

— ٣ —

الخطوات التى تؤدى إلى قيام الحكومة العالمية :

ويرى الكثيرون ونحن منهم أن قيام الحكومة العالمية لايحتاج إلى جهد كبير أو مشقة ، ولن يحتاج إلى إجراءات ثورية ، أو تطورات حادة وعنيفة فما على قادة الدول إلا أن يتخذوا من ميثاق هيئة الأمم الحالى نقطة الأساس والمنطلق ، وإدخال بعض التعديلات على ميثاقها لسد الثغرات التى كشفت عنها التجربة والتطبيق .

كل الدول فى الهيئة :

فأولاً وقبل كل شىء ، يجب ألا تبقى أى دولة كبرت أو صغرت خارج الهيئة ، لأن أى مجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على انطواء كل أفراده تحت سلطان واحد ، وكما لاينبغى بقاء دولة خارج الهيئة ، فكذلك لايجوز لدولة أن تنسحب من الهيئة ، لأن انسحابها يعنى إعلانها التمرد على العائلة الدولية والقانون الدولى ، ولا يمكن لمجتمع أن يسمح بالخروج والتمرد عليه(١) . وعندما تصبح شعوب الأرض كلها ممثلة فى هيئة الأمم فإن ذلك سيوطد أركانها ، ويزيد من أهميتها ، ويضاعف من سلطانها .

إلغاء حق الفيتو :

وثمة تعديل آخر يجب أن يتناول النص ، وهو إلغاء حق الفيتو المقرر للدول الخمس الكبرى ، فقد نصت المادة ٢٨ من الميثاق على أن « قرارات مجلس الأمن

---

(١) لا يزال خارج هيئة الأمم فى الوقت الحاضر ، دول عظمى كالصين الشعبية وألمانيا الغربية ، وسويسرا وإسبانيا . كما أن إندونيسيا كانت قد انسحبت منها ثم عادت ، وتهدد دول أخرى بالانسحاب بل ويطالب بعض أعضاء الهيئة بطرد دول كالبرتغال وجنوب أفريقيا .

تصدر فى المسائل الإجرائية بموافقة سبعة من أعضائه ، وتصدر قراراته فى المسائل الأخرى كافة ، بموافقة سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » .

ومعنى ذلك أنه فيما عدا مسائل الإجراءات ، فإن موافقة الدول الخمس الكبرى صاحبة المقاعد الدائمة وهى « الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وانجلترا ، وفرنسا والصين » ضرورية فى كل الأحوال ، لإمكان صدور قرار من مجلس الأمن .

أى أنه بحسب أى دولة من هذه الدول الخمس أن يعترض على أى قرار كى يصبح غير قانونى ولا يعمل به ، وهذا الحق هو ما أطلق عليه إسم « حق الفيتو — أى الاعتراض » وقد أدى استخدام هذا الحق إلى تجريد مجلس الأمن من كل سلطة وفاعلية . وقد حان الوقت لتعديل هذا النص بما يلغى هذا الحق جملة ، أو على الأقل يعرض ما يقع عليه الخلاف على الجمعية العمومية ، فإذا أصدرت قرارها أصبح ملزماً لمجلس الأمن .

وإذا كنا نسلم بحق الدول الكبرى بأن يكون لها صوت مؤثر فى تسيير دفة شئون العالم ، باعتبارها أكثر سكاناً ، وإنتاجاً ، وبالتالى مسئولية ، فإن ذلك لا يكون من خلال تزويدها بحق الفيتو الذى يجعل منها سلطة تعلو سلطة العائلة الدولية مجتمعة ، وإنما يكون بإجراء تعديل آخر فى الميثاق يزيد من نصيبها فى تسيير شئون العالم بحسب عدد سكانها وقدرتها .

إلغاء مبدأ التساوى فى التصويت :

تنص المادة الثامنة عشرة على أنه « يكون لكل عضو فى الأمم المتحدة صوت واحد فى الجمعية العمومية » وهذا المبدأ هو تطبيق لحق سيادة كل دولة صغرت أو كبرت ، ونحن إذا كنا نطالب بإلغاء حق الفيتو من الدول الكبرى

الحيلولة بينها وبين التحكم فى شئون العالم ، فمن باب أولى يجب أن نطالب بإلغاء هذا النص ، لنحول دون تحكم الدول الصغرى فى الدول الكبرى . إنه ليس من الديمقراطية فى شىء وغير مستساغ عقلاً ، أن يكون من حق بضع مئات من الألوف ، نفس الحق فى تسيير شئون العالم الذى لسبعمائة مليون من البشر ، ومن غير المعقول والمقبول ؛ أن يكون لأفريقيا التى لا يتجاوز عدد سكانها ٢٥٠ مليوناً ٣٤ صوتاً فى الجمعية العمومية ، بينما لا يملك ما يقرب من نصف سكان العالم المحتشدين فى الهند (٤٥٠ مليون) والصين (٧٠٠ مليون) والاتحاد السوفيتى (٢٢٦٫٠٠٠٫٠٠٠) والولايات المتحدة الأمريكية (١٨٣٫٠٠٠٫٠٠٠) سوى أربعة أصوات . إن هذا وضع شاذ ، وكل شذوذ لا يمكن إلا أن يؤدى إلى فساد. وإذا كانت الدول العظمى التى وضعت الميثاق قد قبلت هذا المبدأ ، فليس ذلك إلا لأن الجمعية العمومية كانت مجردة من كل نفوذ ، إذ كان سلطانها لا يزيد عن إصدار التوصيات ، وكان كل النفوذ فى مجلس الأمن حيث تتمتع هذه الدول بحق الفيتو الذى أشرنا إليه . وكانت الدول العظمى من ناحية أخرى واثقة من قدرتها على توجيه الدول الصغرى حسب ما يتفق ومصالح الدول الكبرى ، فأما وقد شبت الدول الصغرى التى تزايد عددها عن الطوق ، ولم يعد قيادها سلساً كما كان من قبل ، وبعد أن يتحقق إلغاء حق الفيتو ، فلا يعود هناك مناص من جعل التصويت على أساس من عدد السكان ، كأن يكون لكل خمسة ملايين نسمة صوت ، كما هو الشأن فى انتخابات مجالس النواب فى أى دولة وكما تقضى القواعد الديمقراطية .

دستور الحكومة العالمية ثمرة التطور :

هذان هما التعديلان الأساسيان ، اللذان يضفيان ، فى نظرنا ، على هيئة الأمم وميثاقها (بعد أن تضم إليها كل شعوب العالم) حيوية وانطلاقاً نحو وضع الدستور العالمى الذى تستند إليه حكومة عالمية يكون من أول واجباتها نزع السلاح . ذلك أن هيئة الأمم ستتحول ، إذا أمكن الاتفاق على هذه التعديلات

إلى برلمان فعلى للجنس البشرى كله ، ومن خلال المعاناة والتجربة ، وتحت ضغط الظروف والحاجات المتجددة ، سوف يتألف هذا الدستور العالمى مادة مادة ، وفقرة فقرة ، وكلمة كلمة . فمن غير المعقول أن يضع هذا الدستور العالمى فرد أو جماعة من الناس ، فى عام أو جيل ، بل إنه سيتكون على مر الأجيال طبقاً لحاجات البشر المتغيرة المتجددة . ولذلك فلم نشأ أن نضع أى مبادىء أو قواعد محددة لهذه الحكومة العالمية المقترحة ، التزاماً منا بالواقعية ، وإيماناً منا أن العمل والمعاناة هما وحدهما الطريق لوضع مثل هذا الدستور .

أغراض الحكومة العالمية :

على أننا إذا كنا نرى أنه من الأحجى أن يترك للزمن والتجربة ، وإرادة الشعوب من خلال هيئة الأمم صياغة هذا الدستور العالمى الذى يرسم الخطوات اللازمة لقيام مثل هذه الحكومة العالمية ، ويحدد ما لها من السلطات ، بالنسبة لسلطات الحكومات المحلية ، ومدى استقلال كل جماعة خاصة بشئونها الداخلية ، فإن ذلك لا يمنع أن نثبت هنا الأغراض والأهداف التى يجب أن تسعى لتحقيقها هذه الحكومة العالمية يوم أن تتألف ، ذلك أن هذه الأغراض أصبحت محددة ومشهورة ، بعد أن أجمع البشر على المناداة بها والتلهف على تحقيقها ، وتتلخص هذه الأهداف فيما يلى :

أولا — إبعاد خطر قيام حرب عالية مدمرة بين البشر يكون فيها نهاية الحضارة الإنسانية وإعادة الإنسان إلى حياة الكهوف والأدغال ، وذلك بنزع كل أنواع السلاح نزعاً تاماً كاملا شاملا ، سواء كان ذرياً أو غير ذرى ، وتدمير هذه الأسلحة من الوجود ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة التى تحول دون إمكان صنعها من جديد ، مع توجيه الطاقة الذرية إلى الأغراض السلمية ، وخدمة الإنسانية .

ثانياً — إقرار الأمن والسلام بصفة دائمة من خلال إعلاء سلطان القانون

وسيادته ، وحل جميع المنازعات والخلافات والمشاكل ، سواء ما كان منها قديماً من رواسب الماضى ، أومتجدداً نتيجة الظروف المتغيرة ، عن طريق محكمة العدل الدولية حيث تصدر قضاءها على هدى من أحكام القانون الدولى والعرف وقواعد العدل المجرد .

ثالثاً — العمل بالتدريج على توحيد الاقتصاد العالمى ، بإزالة الحواجز الجمركية وكافة القيود والسدود التى تعترض وتعوق انتقال البشر والسلع والخدمات من مكان إلى مكان ، مع توحيد العملة النقدية ، لتسهيل التبادل بين البشر .

رابعاً — وضع الخطط اللازمة لمواجهة مشكلة الإنفجار السكانى ، وذلك بالعمل فى الدرجة الأولى على النهوض بالشعوب المتخلفة بمدها بالآلات والخبرات والأموال اللازمة لتلحق بالشعوب المتقدمة فى أقصر مدة ممكنة ، مع ضمان حد أدنى لأفراد هذه الشعوب فى مرحلة الإنتقال ، من الحياة الإنسانية الكريمة ، سواء بتوفير المواد الغذائية اللازمة ، أو رعاية الصحة العامة ، وتهيئة قدر معقول من التعليم لكل فرد وإتاحة الفرصة له للتطور بذاته وإمكانياته .

خامساً — المحافظة على حقوق الإنسان،أى إنسان ،على ظهر البسيطة ، والحيلولة دون عدوان أى سلطة على حقه فى الحياة والكرامة ، وحرية الانتقال والتفكير والاعتقاد والتعبير عن رأيه ، وإرادته فى الحياة ، فى غير عنف أو دعوة إليه أو إضرار ومساس بحقوق الآخرين . وتحريم القبض عليه أو اعتقاله ، إلا لأسباب محددة فى القانون ، وعلى أن يتاح له دائماً حق الدفاع عن نفسه ومعتقداته وآرائه أمام محكمة قانونية علنية .

سادساً — التوعية الدائمة المستمرة ، من خلال الكتب المدرسية وجميع وسائل الإعلام ، على شجب جميع وسائل العنف والتعصب فى المعاملات بين البشر ، وذلك بتدعيم الإيمان بوحدة الجنس البشرى ووحدة مصلحته ، وأن

هذه الفروق بين بنى الإنسان سواء كانت مادية أو معنوية ، فى اللون والشكل ، أو فى الأفكار والمعتقدات ، أو المصالح والرغبات ، إنما قد قصدت إليها الطبيعة قصداً ، لتنمية الحياة الإنسانية وإثرائها ، والدفع بها دوماً إلى الأمام ، نحو التطور والارتقاء .

سابعاً — العمل الدائم لتحقيق الكمال الإنسانى ، بتوسيع آفاق المعرفة والقدرة الإنسانية أبداً ، وارتياد الكواكب الأخرى ، والانطلاق فى الفضاء الكونى ، بحثاً خلف أسرار الوجود والحياة ، وكل ما يقرب الإنسان من مثله الأعلى وهدفه المنشود[1] .

(١) فصلنا فى ختام كتابنا « الطاقة الإنسانية » حقيقة مثل الإنسانية الأعلى وهدفها النهائى المنشود ، فليرجع اليه من يريد التفصيل .

خاتمة

إنهم يرونه بعيداً

ونراه قريباً

وبعد فنحن على علم وإدراك بكل ما يمكن أن يوجه إلى كتابنا هذا من اعتراضات ، ولسنا نشك لحظة أن فريقاً ممن تابعونا فى رحلتنا الطويلة عبر صحائف هذا الكتاب ، سيظل يخالجهم الشك فى واقعية هذا الذى نقول به وندعو إليه ، وإلا فكيف يمكن أن تحل المشاكل المعقدة التى يغص بها العالم اليوم ، كيف يمكن تصفية هذه التركة المثقلة التى انتهت إلينا عبر الأجيال من المظالم القديمة والحقوق المغتصبة ، وما أورثتنا إياه الحروب السابقة والثورات . وحتى لو تصورنا إمكان تصفية تركة الماضى ، فكيف سيكون من المستطاع التوفيق بين المذاهب الإقتصادية المختلفة المتعادية ، ونحن نرى النظام الرأسمالى أو ما يوصف بأنه الإقتصاد الحر ، يقف على طرفى نقيض من الاقتصاد المخطط أو الإشتراكى ، بل إن اتباع النظام الواحد ، يختلفون فيما بينهم كما يحدث الآن بين الإتحاد السوفييتى والصين ، فكيف يتصور التوفيق بين ذلك كله .

ونبادر فنطمئن هؤلاء المتشككين والمعترضين ، إلى أنه بالرغم من شدة تفاؤلنا فى سبيل مستقبل البشرية البعيد ، فنحن لا ندعى ولا يمكن أن يوجد إنسان واحد يدعى ، أن الحكومة العالمية ستقوم فى يوم وليلة ، وأنها بمجرد أن توجد فستتحول إلى عصا سحرية أو قوة غيبية ، تحول البشر بطريقة تلقائية ، إلى إخوة متحابين على سرر متقابلين ، وقد نزع من قلوبهم الغل والحسد والحقد والتنافس والرغبة فى الاستعلاء ، إننا لا نقول بذلك ولا ندعيه ، ولسنا

نزعم أن الحكومة العالمية مرادفة لفكرة الجنة على الأرض . إن ذلك لا يخطر لنا على بال ، ذلك أن أرقى المجتمعات فى الوقت الحاضر بالرغم من أنها حققت وحدتها منذ زمن طويل ، وحققت لنفسها قدراً كبيراً من الحضارة والأمن والاستقرار فى ظل حكومة مركزية واحده ، ومع ذلك فلا تزال تغص بالجرائم وشتى صنوف المعاملات القائمة على الضغط والإكراه والاستغلال ، ولا تزال السجون غاصة بالمجرمين ، والقتلة ، والمحاكم غاصة بالقضايا المعقدة البشعة . ولذلك فمن غير المعقول أن نتصور ، أنه بمجرد قيام الحكومة العالميـــة ، فسوف تتغير طبيعة الإنسان ، وتزول كل صنوف المنازعات والخلافات والاصطدامات ، لا لسنا نتصور شيئاً من ذلك ، وإنما ستبقى المصالح الجزئية والفردية المتعارضة المتلاطمة ، وستبقى المنازعات والخصومات والمشاكل ، وستزداد المنافسات والمناورات ومحاولات الاستعلاء والاستغلال ، ولكن هذه العوامل والعناصر ، ستجد وسيلة للتعبير عن نفسها ، غير أسلوب الحرب الشاملة وسفك الدماء ، سوف تجد سبيلا للتعبير عن نفسها ، كما هو الشأن فى داخل المجتمع الواحد ، من خلال الصراع الحزبى والحملات الصحفية ، والمشاكل القضائية ، والإضرابات السلمية ، بل وبعض الثورات المحلية والتمرد وأعمال العنف ، ولكن المهم فى ذلك كله ، أن الحرب الذرية أو الكيمائية التى تهدد البشرية بالفناء لن تقوم ، وستخف دائماً السلطة المركزية والرأى العام الإنسانى ، لعلاج هذه الانحرافات وحصرها فى أضيق نطاق لتحول دون اتساعها كما يحدث داخل المجتمع الواحد .

حتمية التطور :

والرأى عندنا ، أن الحكومة العالمية ، بعد أن تحول العالم إلى قرية ، وتلاحمت المصالح الإنسانية وارتبط مصير البشر ، بعد أن أصبح بقدرة الإنسان ، أى إنسان ، أن يسمع صوته لكل إنسان على ظهر الأرض ، وأن يرى ويسمع ما يحدث ساعة حدوثه ، وأن ينتقل من مكان إلى آخر فى بضع ساعات . . .

وربما فى بضع دقائق . . . لم تعد الحكومة العالمية مجرد أمنية ولا هى دعوة خيالية ، أو مثالية وإنما أصبحت ضرورة حتمية تفرضها نواميس الطبيعة على الانسان فرضاً ، فهى آتية لا ريب فيها . وكل الذى يستطيعه البشر ، أن يقربوا بوعيهم وجهادهم ساعة قيامها ، ويتفادوا بذلك وقوع الكارثة ، أو أن يؤخروا ، نتيجة إنعدام وعيهم ، مجىء الحكومة العالمية إلى أن تقع الكارثة ، فلن يكون للانسانية المتبقية بعد حرب ذرية ، إلا أن تجتمع من جديد فى ظل سلطة واحدة ، لتبدأ الحياة الإنسانية من جديد . ونحن ممن لا يستبعدون تأخر قيام الحكومة العالمية ووقوع حرب ذرية تهلك الحرث والنسل قبل ذلك ، بل إننا ممن يؤمنون بأن هذه الحرب آتية لا ريب فيها ، اذا ظل أفراد من بنى البشر يؤمنون بمنطق القوة والصراع الأبدى بين الأحياء ، ويبشرون به .

الحرب آتية لا ريب فيها ، ما بقى فى الكون أناس يتعصبون لجنسهم أو لقوميتهم أو عقيدتهم الدينية أو الإقتصادية ، ويؤمنون بحقهم فى فرض آرائهم على الآخرين بالقوة .

الحرب آتية لا ريب فيها ، مابقى فى الكون أشخاص لا يرون مجدهم يتحقق إلا فى الاستعلاء على الآخرين ، ويسوقون أممهم وشعوبهم ، نحو سلب ما فى يد الآخرين ، أو استغلالهم أو فرض سلطانهم عليهم .

الحرب آتية لا ريب فيها ، إذا ظلت هذا الآراء يروج لها ، ويدعى لها ، وتبذل الجهود للاعلاء من شأنها . ونحن فى الفصل السادس من هذا الكتاب ، ونحن نتحدث عن وحدة المصير لم نستبعد فكرة قيام الحرب الشاملة المدمرة العاتية التى تجعل كل ما على الأرض قاعاً صفصفاً . .

شجب العنف والقوة المادية :

ولكننا نؤمن فى ذات الوقت بقدرة الإنسان وطاقته ، وأنه يستطيع أن

يحدد قدره وينفذ مشيئته . نحن نؤمن باستطاعة الإنسان متى أراد ، أن يحول دون وقوع الحرب الشاملة الكاملة ، بإيجاد الحكومة العالمية ، وما عليه إلا أن يقرر شجب القوة والعنف فى شتى صورهما وأشكالهما وإعلاء سيادة القانون ، لكى يتحقق له مايريد .

ما على الإنسان إلا أن يؤمن بأن العنف لا يولد إلا عنفاً ، وأن الجريمة لا تولد إلا جريمة ، وأن الحرب لا تولد إلا حرباً ، لكى لا يبقى على ظهر الأرض جريمة أو عنف أو حرب . وإذا كان هناك من يعجبون كيف لم تستطع أرقى المجتمعات حتى الآن أن تقضى على جريمة القتل بين ربوعها ، فنحن لا نرى فى ذلك أى مدعاة للعجب ، مادامت القوانين والشرائع كلها لا تزال تعاقب جريمة القتل بالقتل ، لأن معنى ذلك ، أنه بدلا من إزهاق روح بشرية واحدة فقد أزهقت روحان . وإذا جاز لإنسان فرد أن يفقد رشده وقواه العقلية ، ويقدم فى ساعة جنون أو غضب أو شذوذ على قتل أخيه الإنسان ، فإن الجماعة العاقلة الواعية ، يجب أن تنأى بنفسها عن مثل هذا الانحراف وهذا الشذوذ وهذا العدوان . إن النفس البشرية يجب أن تقدس وتصان ، وليس هناك ما يفقدها هذه القداسة إلا هذا الحديث عن القتل المشروع فى مواجهة القتل غير المشروع ، فما دام إزهاق الروح يمكن أن يكون مشروعاً ، فإن كل قاتل يحاول أن ينتحل لنفسه الأعذار لجعل جريمته مشروعة ، فلو أردنا أن نقلل جريمة القتل ، فيجب أن نستنكر قتل النفس البشرية فى كل صورها وأشكالها لأى سبب من الأسباب . . . فإذا حدث أن قتل إنسان آخر ، فإن هذا الإنسان يكون مريضاً أو منحرفاً ومجنوناً ، فهو يوضع فى مصحة أو دار عزل ، أما قتله فهو تأكيد لفكرة القتل ، وتكرار لنفس الفعل المعاقب عليه .

وما أروع القرآن الكريم عندما يصور لنا هذا الرأى بكل جلاله على لسان هابيل لأخيه قابيل « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين — إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك » .

فهابيل يؤثر أن يكون مقتولا بدلا من أن يكون قاتلا ، إيماناً منه بأن إزهاق النفس البشرية هو كبرى الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الإنسان .

الحرب شر دائماً :

وكذلك الحروب ، لن يقضى عليها إلا إذا اعتبرت شراً كلها ، أياً كانت الأسباب والدوافع عليها ، فليست الحرب إلا عملية قتل جماعية ، وإذا كان قتل إنسان واحد جريمة وشراً ، فإن هذا الشر لا يتحول إلى خير من أى نوع كان لمجرد أن القتلى أصبحوا يعدون بالمئات والألوف . . .

إن كل ما تفعله الشرائع والأديان ، كل ما تفعله القوانين التى وضعها الإنسان فى كل زمان ومكان ؛ كل ماتحض عليه قواعد الأخلاق والتربية ، كل مادعا إليه الأنبياء والقديسون والمصلحون والزعماء والقادة ، هو أن يقولوا للناس « لا تسرقوا . . . لا تعتدوا . . . لا تضربوا . . . لا تكذبوا . . . لا تخدعوا . . . لا تغشوا . . . لا تقتلوا . . . »

فإذا قامت الحرب ، أى حرب ، فإن كل مشترك فيها لايمكن إلا أن يكذب ويسرق وينهب ويغش ويخدع ويؤذى ويقتل ويحرق ويدمر ، ومحال أن يؤدى ارتكاب هذه الأعمال الشريرة إلى غرض نبيل ، أو أن يحقق خيراً لبنى الإنسان من أى نوع كان .

والحق أنه ليس هناك ماهو أدعى للأسف والإشفاق ، من هذا القول المدعى من أن الغاية تبرر الواسطة . إن الواسطة لا يمكن إلا أن تكون جزءاً من الغاية ، لأنها الطريق الموصل إليها فهى جزء لا يتجزأ منها ولا يمكن لواسطة شريرة أن تؤدى إلى هدف خير .

وما دمنا متفقين على أن الحرب هدم لكل مقومات الإنسان المادية

والمعنوية ، وإهدار لكل ما تواصى عليه البشر من قيم إنسانية ، فقد وجب علينا أن لا نفرق بين حرب وحرب ، فنصف بعضها بأنها مشروع ، والبعض الآخر بأنه غير مشروع ... الحرب دائماغير مشروعة ... إنها عنف وشر ، والعنف والشر لا يمكن أن يكونا مشروعين أبداً .

ولقد دعا غاندى بمثل هذه الدعوة عندما كانت الهند مستعبدة بملايينها للانجليز الذين كانوا يحكمونها بقوة الحديد والنار ، فسخر الساخرون من غاندى ... سخروا من دعوته إلى عدم العنف ، ومحاربة العدو بالحب ، وكان الإنجليز فى مقدمة الساخرين فسلطوا على أتباعه نيران المدافع وأغلال السجون ، ولكن ذلك لم يزد غاندى إلا إيماناً بدعوته ... وكانت النتيجة أن تحرر مئات الملايين من ربقة الاستعمار ، بغير حاجة إلى سفك دماء ، ولما جن جنون الهنود والمسلمين عشية الاستقلال وتقسيم الهند إلى هند وباكستان ، فراح يذبح بعضهم بعضاً حتى أزهقت أرواح الملايين ... ذهب غاندى وحيداً أعزل بين هذه المجازر وأبى أن يصحبه إنسان يحمل سلاحاً ، وكان أن اغتيل غاندى ومات بالفعل ، ولكن دماء القديس أطفأت الفتنة ، وتوقفت المذابح وسفك الدماء ...

ومن قبل غاندى ، جاء المسيح بمثل هذه الدعوة ، فزجر من أراد أن يرفع يده دفاعاً عنه ، واليوم يقوم فى العالم مئات الملايين من المسيحيين يشهدون أن الحمل الوديع كانت له الغلبة على الرومان بكل جبروتها وقسوتها وسلطانها ...

ومن قبل المسيحية دعت البوذية إلى مثل هذه الدعوة فحرمت القتل والحروب . والآيات المكية من القرآن الكريم وهى الخاصة بالعقيدة الإسلامية وتوضيح أركانها وأهدافها كلها تنحو هذا المنحنى وتدعو إلى كراهية العنف والشدة حتى لو كانت فى القول « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم — وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ويجعل القرآن هدف البعثة المحمدية سيادة الرحمة بين البشر « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ويصل الرسول إلى ذروة الكمال الإنسانى فى دفع الأذى عن البشر عندما يصف المسلم بقوله :

« المسلم من سلم الناس من يده ومن لسانه » .

الحب لا الكره :

والحق أننا عندما نشجب كل أنواع العنف المادى والمعنوى ، عندما ندعو للتسامح بدلا من التعصب ، والصفح بدلا من الانتقام ، والحب بدلا من الكره ، فنحن لا ندعو دعوة خيالية كما يتصور الكثيرون ، أو ندعو دعوة تضاد نواميس الحياة ، بل على العكس من ذلك ، كل دعوة للحب هى دعوة لناموس الحياة الأعلى .

إن الحب فى العلاقات بين البشر ، يقابل الجاذبية بين أجزاء المادة ، وقوة الجاذبية هى التى تبقى الأرض دائرة فى فلكها حول الشمس ، وتبقى القمر دائراً فى فلكه حول الأرض ، وتبقى الكائنات مرتبطة بالأرض ، والمجموعة الشمسية كلها ، بل والنظام الكونى كله لا يبقيه على هذا التماسك والترابط إلا قانون الجاذبية ، ولو قدر لهذا القانون أن يضطرب أو يختل ، إذن لانفرط النظام الكونى كله ولكانت النهاية أو القيامة .

فقانون الجاذبية هو قانون الطبيعة الأعلى ، وكذلك الحب بالنسبة للانسان ، هو قانون الحياة الأعلى ، فليس يبقى على المجتمع الإنسانى إلا حب الأم لطفلها ، وحب الذكر لأنثاه ، وحب الآباء لأولادهم وحب الأصدقاء لأصدقائهم ، ومن هذه العاطفة ، تتألف المجتمعات وتنمو وتزدهر ، فلولا الحب إذن ما كانت الحياة ولا ازدهرت . ويكون كل ما يضاد الحب هو ضد للحياة ، ولا شبهة فى أن الحقد والبغض والتعصب والانتقام والرغبة فى الإيذاء والقتل والحرب لا يمكن

أن تنبعث من عاطفة الحب ، فهى لا يمكن إلا أن تكون منبثقة من كل ما يضاد الحب فهى بالتالى ضد للحياة فالذين يدعون بنى البشر للحب والسلام ، الذين يدعونهم للاقلاع عن كل عنف وكل عدوان وكل كراهية ، فإنما يدعون للأخذ بأسباب الحياة ، والذين يدعون إلى غير ذلك فإنما يدعون إلى الموت والفناء .

ولما كانت الحياة أعلى من غير الحياة ، والوجود أسمى من اللاوجود ، فالدعوة إلى الحب هى الأقوى، والأعلى والمنتصرة فى خاتمة المطاف ، لأنها سبيل الحياة والوجود .

كيف يصاغ الحب كقاعدة للعلاقات الدولية :

ونحن عندما ندعو لبناء المجتمع الإنسانى والعلاقات بين الدول على الحب ، فإنما نصوغ هذا الحب قاعدة قانونية وأساساً لتنظيم العلاقات ، وهذه القاعدة قديمة قدم الإنسان ، صاغها فى كل عقائده وكل قوانينه ووصفها بأنها القاعدة الذهبية ، وهى أن يعامل الإنسان الناس بما يحب أن يعاملوه به ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وتلك هى القاعدة التى يمكن أن يتخذها أى إنسان وكل جماعة لتكون منهاجاً لتصرفه ونبراساً يضىء الطريق أمامه . فما على كل إنسان وعلى كل جماعة وكل دولة ترنو إلى السلام وتهفو إلى إبعاد شبح الحروب ، وإلى القضاء على ما يشكو منه الإنسان ، إلا أن تلتزم هذه القاعدة فى سلوكها فيكون النجاح ويكون تحقق الآمال ، ليس فقط بالنسبة لإقرار الأمن والسلام ، بل وما وراء ذلك من تحقيق لكل ما يصبو إليه الإنسان من نجاح وكمال ومثل أعلى .

دعاء

وإذا كنت قد اعتدت أن أسجد لله شكراً كل صباح ومساء ، أن أبقانى حياً حتى اليوم ، وأن أنجانى من كل ضيق وغم عرض لى فى حياتى ، إذا كنت أسبح آناء الليل وأطراف النهار بحمد الله الذى لا يزال يمتعنى بنعمة السمع والبصر والعقل والوجدان وحب الخير .

وإذا كان الله قد وفقنى لإتمام هذا الكتاب وجعلنى فيه من دعاة التوحيد لا التمزيق ، والحب لا الكره ، والتسامح لا التعصب ، والسلام لا الحرب . فهل ترانى أثقل عليك أيها القارىء الكريم الذى صحبتنى فى هذه الرحلة الطويلة ، إذا طلبت منك أن تمضى معى فى تلاوة هذا الدعاء وأن تشترك معى فى صلاة ، أياً كانت هويتك أو عقيدتك ، أياً كان لونك أو جنسك أو مكانك أو زمانك ، أياً كان رأيك أو فكرك وحكمك على هذا الكتاب ، أن تتجه معى بروحك وتشرئب بفكرك نحو السبب الأول ، نحو سبب الأسباب ، الأول الذى به كنا وكانت سائر الأشياء ، والآخر الذى إليه المنتهى وتفنى فيه سائر الكائنات ، نحو هذا الظاهر الذى نراه فى نفوسنا وعقولنا وأرواحنا والكون المحيط بنا ، فى السماء والأرض ، فى الشمس والقمر ، فى الأفلاك والنجوم ، فى الليل والنهار ، فى الحياة والموت . نحو هذا الباطن الذى هو أخفى من الخفاء ، الذى لا نستطيع أن نراه أو نلمسه أو نسمعه أو نقيسه ونحسبه ، بل لا نستطيع أن ندركه ونعيه بعقولنا ، فقد احتجب عن العقول بمثل ما احتجب عن الأبصار .

تعال أيها القارىء الكريم نشترك معاً فى الصلاة لهذه القوة الخالقة المبدعة ، أياً كان تصورنا لها ، أياً كان الاسم الذى نطلقه عليها ، فلنصل لها بالروح كلها ، ولتكن صلاتنا مجرد الشوق إلى معرفتها ، وإحساسنا بالعجز عن أن ندرك سرها ، ولنتوجه إليها بالدعاء ، أن تنقى قلوبنا من كل غل وحسد

وحقد وغرور وكبرياء ، وأن تطهر عقولنا من كل تعصب وهوس وجمود واستعلاء ، وأن تقدرنا على أن نغفر لمن يسيئون لنا ، وأن نبارك من يلعننا ، وأن نحسن لمبغضينا ، وأن تكون دعوانا إذا اشتد بنا الأذى ، رب اغفر لقومنا فإنهم لا يعلمون .

وليست هذه دعوة صوفية ولا هى دعوة سلبية ، وإنما هى دعوة للقوة أعظم القوة ... دعوة للحب والحياة والوجود ... دعوة لاحتضان الكون كله فى رفق وحنان وحب واقرأوا إن شئتم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

تم الكتاب بعون الله

بعض مراجع الكتاب

مرتبة حسب ورودها فى الفصول

— الإنسان فى العالم الحديث — جوليان هكسلى ترجمة حسن خطاب .

— القانون الدولى العام — سامى جنينة .

— ماهى القومية — ساطع الحصرى .

— الصراع بين البورجوازية والإقطاع — الدكتور محمد فؤاد شكرى .

— هذه قوميتنا — عبد الرحمن البزاز .

— الكيان العربى — عبد العزيز الدسوقى .

— فجر العرب — عبد العزيز الدسوقى .

— الأمة العربية — عبد العزيز الدسوقى .

— مع الله فى السماء — الدكتور أحمد زكى .

— الفلك العام — هربرت سبنسر جونس ترجمة عبد الحميد سماحة والدكتور حلمى عبد الرحمن .

— العالم من حولنا — إديث راسكن — ترجمة الدكتور أحمد ابو العباس .

— تاريخ الأرض — جورج جامبو — تعريب محمد ابو شلباية .

— النظرة العلمية — برتراند راسل — ترجمة عثمان نوية .

— الحياة ونشأتها — أنور عبد العليم .

— حضارة مصر القديمة وآثارها — الدكتور عبد العزيز صالح .

— فى موكب الشمس — الدكتور أحمد بدوى .

— ماوتسى تونج — حياته وعصره — روى ماك جريجور — ترجمة حسين الحوت .

— المجتمع — تأليف رام ما كيفى — ترجمة الدكتور أحمد عيسى .
— تاريخ انجلترا — الدكتور نظير حسان سعداوى .
— محاضرات فى اللهجات — الدكتور أنيس فريحة .
— اللغة والمجتمع — الدكتور على عبد الواحد وافى .
— اللغة العربية كائن حى — جورجى زيدان .
— الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية — جورجى زيدان .
— الإتقان — للسيوطى .
— الخصائص — أبو الفتح عثمان بن جنى .
— قصة الجنس البشرى — هندريك فان لون ترجمة ابراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى .
— تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة } بريستيد — ترجمة حسن كمال
— تاريخ مصر
— خطر اليهودية العالمية — عبدالله التل .
— سيرة النبى لأبى محمد عبد الملك بن هشام .
— نور الله — محمد صبيح .
— القرآن الكريم — محمد صبيح .
— الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى } الدكتور نظير سعداوى
— جيش مصر أيام صلاح الدين
— صلة الإسلام بالمسيحية — أمين الخولى .
— مهذب رحلة بن بطوطة . أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى .
— تراث العرب العلمى — قدرى حافظ طوقان .

— جيفرسون — الرئيس الفيلسوف — برنارد مايو — ترجمة محمد عبد المعز نصر .

— حقوق الانسان — محمد شاهين حمزه .

— سباق التسلح — فيليب بيكر — ترجمة حمدى حافظ .

— هل للانسان مستقبل — برتراند راسل — ترجمة عابد الرباط .

— مشكلة السكان فى العالم — الفرد سوفى . ترجمة دكتور جلال صادق .

— السكان والسياسات الدولية — إشراف فيليب هوسر — ترجمة الدكتور خليل حسن خليل .

— عالم جائع — ريتشى كالدر — ترجمة عصمت عبد الحميد .

— كل شىء عن الاتحاد السوفييتى — وكالة نوفستى للأنباء .

— الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى — الدكتور محمد صبحى عبد الحكيم .

— عربى فى الصين — ناصر النشاشيبى .

— الدول النامية فى الميزان — جان لاكوتير — ترجمة فوزى عبد الحميد .

— فليعم الرخاء — روبرت بريتن — ترجمة حسن كامل سليم .

— السوق الأوربية المشتركة — ستيوارت دى لاماهويتر — ترجمة أحمد كمال عاشور .

— عالم بلافاقة — بول . ج . هوفمان ترجمة يسرى سلطان .

— العالم فى ثورة — سيدنى لنس .

— المنظمات الدولية — بيير جيربيه ترجمه فوزى عبد الحميد .

— الأمم المتحدة والسلام العالمى — محمود متولى .

— أحلام المهندسين — ويلى لى — ترجمة الدكتور محمد أحمد سليم والمهندس أحمد على فرج .

— عالم بلا حرب — ج . د . برنال — ترجمه زكريا عراقى .

— تحدى السوق الأوربية المشتركة — ى . و . كنزنجر — ترجمة دانيال عبد الله .

— المائة سنة القادمة — هاريسون برادز وآخرين — ترجمة الدكتور صلاح نامق .

— مع الإنسان فى الحرب والسلام — فتحى رضوان .

— الانسان ذلك المجهول — الكسيس كاريل — ترجمة شفيق أسعد فريد .

— وحدة المعرفة الدكتور محمد كامل حسين .

— معالم الفكر العربى المعاصر — أنور الجندى .

— فى البدء كان الكلمة } خالد محمد خالد
— هكذا تحدث القرآن } خالد محمد خالد
— بين يدى عمر } خالد محمد خالد

— قضية الألوهية — عبد الكريم الخطيب

— تاريخ الإسلام فى الهند } عبد المنعم النمر
— كفاح المسلمين فى تحرير الهند } عبد المنعم النمر

مراجع للمؤلف

— الطاقة الانسانية .

— تاريخ الانسانية .

— علاقات العمل .

— أمة تبعث .

— من وحى الجنوب .

— الإيمان والإسلام .

مصادر ومراجع عامة

— القرآن الكريم .

— العهد القديم .

— العهد الجديد .

— التاج الجامع للأصول — الشيخ منصور على ناصف .

— الصحاح للجوهرى .

— المصباح المنير — المقرى الفيومى

— المعجم الوسيط — (المجمع اللغوى)

— دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدى .

— أصول الاقتصاد (خمسة أجزاء) للدكتور محمد حلمى مراد .

— قصة الحضارة — عشرون جزءاً — ول دورانت — ترجمة محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود .

— موسوعة تاريخ العالم — وليم لانجر — أشرف على ترجمتها الدكتور محمد مصطفى زيادة .

— تاريخ الأمم والملوك ، لابن جرير الطبرى .

دوريات

— رسالة اليونسكو .

— مجلة المختار — ريدرز دايجست .

— الأهرام الاقتصادى .

— قافلة الزيت .

— Encyclopedia of the Social Sciences
— Encyclopedia Britannica.
— Encyclopedia Americana.
— A Short History of the World. H.G. Wells.
— The Great Religions of tha Modern World. Edward J. Jurji.
— Living Biographies of Religious Leaders. Henry Thomas and Dana Lee Thomas.
— The Discovery of India. Jowaharlal Nehru.
— A History of Europe — A. Grant.
— Man on His Nature — Sir Sharles Sherrington.
— The World Almanac.
— Demographic Yearbook.
— Annual Report. World Health Organization.
— Manifesto of the Communist Party. Karl Marx and F. Engles.
— The Prince. Machiavelli.
— History of the Communist Party of the Soviet Union. Bolsheviks.
— International Co-operation and World Peace. Dr. Mohamed Kamel Hussein.
— Five-Year Perspective. U.N.
— Hunger and Social Policy. U.N.
— Population and Food Supply. U.N.
— Agriculture in the World Economy. U.N.
— Landmarks in International Co-operation. U.N.
— World Peace and the United Nations. U.N.
— Development Through Food. U.N.
— Aspects of Economic Development. U.N.
— Toward Better International Understanding. B.O. Education. C.N.Y.
— U.S.A. its Geography and Growth.
— Life Magazine.
— Geographic Magazine.

فهرس

هل الوحدة ضد الطبيعة

الفصل الأول

ما هى الأمة وما هى عناصر تكوينها

الفصل الثانى

أمنا الأرض أو الوحدة الجغرافية

الفصل الثالث

وحدة الجنس البشرى

الفصل الرابع

وحدة اللغة الإنسانية

الفصل الخامس

وحدة التاريخ الإنساني

صفحة

صفحة

الفصل السادس

وحدة المصير فناء أم بقاء

الفصل السابع

وحدة المصلحة

الفصل الثامن

أمة واحده — حكومة واحده

من التنظيم الدولى إلى الحكومة العالمية

خاتمة

إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً

فهرس الأعلام والمدن

(ا)

(ت)

(ن)

(هـ)

كتب للمؤلف

كتب سياسية :

١ — إيمانى (طبعتان) ... ... نفدتا

٢ — الأرض الطيبة ... ... نفد

٣ — الاشتراكية التى ندعو إليها ... ... نفد

٤ — قصة مصر (بالأنجليزية طبع نيويورك) ... ... نفد

٥ — رسالة إلى هتلر بالانجليزية والعربية (طبع نيويورك) ... ... نفد

كتب اجتماعية وعلمية :

٦ — الزواج والمرأة — بحث فى حقوق المرأة السياسية والاجتماعية فى الإسلام ... ... نفد

٧ — رسالة فى الحرب ... ... نفد

٨ — نحو المجد — بحث فى العلم والاقتصاد ... ... نفد

* ٩ — الطاقة الإنسانية . قال عنه العقاد إنه أعظم ما طالع فى سنواته الأخيرة من كتب عربية أو أفرنجية

* ١٠ — فى الإيمان والإسلام

* ١١ — تاريخ الإنسانية

* ١٢ — الحج ، أسراره ومناسكه

* ١٣ — الأمة الإنسانية .

كتب رحلات :

١٤ — مشاهداتى فى جزيرة العرب ... ... نفد

١٥ — يقظة العملاق ـ رحلة فى آسيا ... ... نفد

١٦ — أمة تبعث ـ رحلة فى الهند .. .. نفد

* ١٧ — من وحى الجنوب (رحلة فى جنوب السودان) .

كتب قانونية :

١٨ — حكومة الوفد ـ مرافعة ... ... نفد
١٩ — قضية مقتل النقراشى (مرافعة) ... ... نفد
٢٠ — مرافعة أحمد حسين فى قضية التحريض على حرق القاهرة نفد
٢١ — علاقات العمل وهيئات التحكيم ... ... نفد
٢٢ — مجموعة تشريعات العمل ... ... نفد
٢٣ — قضية التحريض على حريق القاهرة ـ وثائق وأحكام ومقالات

مذكرات :

٢٤ — وراء القضبان ٢٥ — فى ظلال المشنقة .

مسرحيات :

٢٦ — من الحياة ـ مسرحيتان من ذات الفصل الواحد .
٢٧ — نور يسطع فى الظلام (مترجمة عن تولستوى) .

القصة الطويلة :

* ٢٨ — أزهار (قصة مصر فى الثلاثينيات)
* ٢٩ — الدكتور خالد (قصة مصر خلال الحرب العالمية الثانية)

تحت الطبع :

٣٠ — واحترقت القاهرة (قصة مصر من الحرب حتى قيام الثورة)

تحت التأليف :

موسوعة تاريخ مصر — للمؤلف — أحمد عزت — أنور الجندى

تطلب الكتب الموضوع أمامها هذه العلامة (*) من دار القلم — ١٨ شارع سوق التوفيقية ـ القاهرة .

مكتبة الأنجلو ـ ١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقاً) القاهرة
دار الثقافة العامة ـ ٨ شارع البستان القاهرة .

شكر

أما وقد أديت فى آخر الكتاب واجبَ الشكر لله تعالى أن وفقنى لإتمامه ، فقد بقى أن أشكر من كانوا الواسطة فى تحقيق نعمته علىّ من إخوانى وأصدقائى ، الذين لولا معاونتهم القيمة المادية والأدبية لما خرج هذا الكتاب إلى النور . ولولا الخوف من إغفال بعض الجديرين بتسجيل أسمائهم ، لكتبت عشرات الأسماء الحقيقة بشكرى العميق وعرفانى بالجميل . فأرجو أن يعتبر كل منهم هذه الإشارة خاصة به ، وأن يأذنوا لى أن أنوه بصفة خاصة بالأستاذ عبد العزيز الدسوقى الذى صاحب تأليف الكتاب منذ اليوم الأول ، وساهم فيه بالمراجع التى زودنى بها ، والمناقشات والمناقضات التى انتفعت بها ، حتى لقد رفعت من الكتاب فصولاً بأكملها ، وعدلت من أسلوبه ومنهاجه ، كما تفضل بعد ذلك ، فراجع أصول الكتاب وأعدها للطبع .

كما أشكر الابن الحبيب الأستاذ محمود مهدى لإشرافه على تصحيح الكتاب بعد الطبع .

وأعتقد أنه من حق المطبعة العالمية ابتداء من صاحبها ، صديقى الأستاذ أحمد غزى ، حتى آخر عامل بها ، أن أقدم لها شكراً خاصاً على ما بذلته من عناية لإخراج الكتاب فى صورته الراهنة .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يديم علىّ نعمة الصداقة والحب اللذين أعيش بهما وفيهما ومن أجلهما ، إنه سميع مجيب الدعوات ؟

٣٦ شارع الروضة : ١٨/١٠/١٩٦٦ ا . ح .